قضايا المرأة والفكر والسياسة

دكتورة نوال السعداوى

2002

مكتبة مدبولى

قضايا المرأة والفكر والسياسة

الناشر

مكتبة مدبولى

العنوان: ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ - **فاكس:** ٥٨٧٢٨٥٤

الكتاب : قضايا المرأة والفكر والسياسة

الكاتب : د/ نوال السعداوى

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٤٩٥٣

الترقيم الدولى : 6 - 325 - 208 - 977

الطبعة الأولى : ٢٠٠٢

تصميم الغلاف : محمد لطفى

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧&١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

المحتويات



١٢ مقالاً

الإبداع والتمرد فى حياة المرأة المصرية

١ - مقدمة :

أكتب هذه الورقة للمؤتمر الذى يُعقد بالقاهرة من ٢٣ - ٢٤ أكتوبر ١٩٩٩ تحت عنوان « مائة عام على تحرير المرأة » أكتبها هنا فى بيتى فى ولاية فلوريدا ، إصبع صغير من الأرض محدود فى جوف المحيط الأطلنطى وبحر المكسيك شمال جزيرة كوبا ، تبعد عن الوطن عشرين ألف ميل ، واليوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر ١٩٩٩ ، إجازة فى الجامعة وكل المدارس والمحلات مغلقة ، وآلاف الناس تركوا بيوتهم هربًا من العاصفة المسماة « هوريكين فلويد » القادمة من المحيط بقوة لم تحدث منذ ثلاثين عامًا تهدد بتحطيم البيوت والأشجار ، لم أعرف إلى أين أذهب ، بقيت فى البيت وحدى أتابع أخبار الهوريكين على شاشة التليفزيون وعيناى تتابعان حركة الرياح خارج النافذة تضرب الأشجار ، تخيلت أن الشجرة الضخمة المجاورة للنافذة سوف تسقط على البيت تهدمه وأموت تحت الأطلال .

بدت الكوارث السياسية والاجتماعية فى الوطن أقل خطرًا من الكوارث الطبيعية في أمريكا الشمالية . عجز العلم والتكنولوچيا الحديثة عن التصدى للهوريكين أو التورنيدو وغيرها من العواصف القادمة من المحيط الأطلنطى . المذيعون والمذيعات فى القناة رقم ٢ المحلية يذيعون لحظة بلحظة اقتراب الهوريكين من شاطئ فلوريدا ، يبدو الرعب على وجوههم ، صور السيارات المتزاحمة على الطريق تحمل الرجال والنساء والأطفال بعيدًا عن الشاطئ ، يسمونه بالإنجليزية « بالم بيتش » إنه الشاطئ الذى أسكن فيه ، شاطئ بديع تظلله أشجار النخيل ، كان هادئًا منذ أيام قليلة ، مشيت حافية فوق الرمال وسبحت فى المياه الدافئة تحت أشعة الشمس ، وسمعت إلى جوارى صوتًا يقول « أتكون الجنة أجمل من هذا ؟ » .

أطرد من رأسى فكرة الموت بالهوريكين فى ولاية فلوريدا ، أفكر فى الورقة التى أكتبها لمؤتمر المرأة فى القاهرة ، إذا كان الموت يقترب لحظة بعد لحظة فلماذا أسرع بكتابة الورقة بعنوان التمرد والإبداع فى حياة المرأة المصرية ؟

لكن فكرة الموت تطرد الأفكار الأخرى من رأسى ، لا أكاد أذكر إلا أننى جئت إلى هنا منذ عشرين يومًا فقط ، غادرت القاهرة فجر يوم ١٤ أغسطس ١٩٩٩ حلقت فى الجو أربعة وعشرين ساعة داخل ثلاث طائرات ، هبطت الأولى فى فرانكفورت ، والثانية هبطت فى شيكاغو ، والطائرة الثالثة حملتنى جنوبًا إلى مطار ميامى ، ثم حملتنى السيارة السوداء الطويلة الليموزين إلى بيتى على شاطئ النخيل ، تشبه السيارة التى يركبها رؤساء الدول ، من الداخل الصالون الأنيق . بار صغير من البللور تطل منه زجاجات وكئوس صحون صغيرة بها أنواع من المكسرات والبندق واللوز والفستق وأشياء أخرى لا أعرفها . موسيقى حالمة تنبعث من سقف السيارة . أتمدد فوق الأريكة الناعمة الوثيرة . أذنىَّ مسدودتان بفعل الضغط الجوى داخل الطائرة النفاثة . السائقة امرأة أنيقة تبدو كأنها أستاذة بالجامعة ، قالت لى : « ويلكام (يعنى اهلاً) بروفوسير إل ساداوى » .

انتهيت إلى صوت المذيع فى التليفزيون يقول : إذا ضربت العاصفة نوافذكم الزجاجية ابتعدوا بسرعة وادخلوا الحمام . أعدوا من الآن البطاطين داخل البانيو حتى لا يصيبكم الزجاج المكسور بأذى ، ربما تخلع العاصفة سقف البيت ، حينئذ اخرجوا من البيت ، اتركوا باب البيت مفتوحًا ، احملوا معكم زجاجات ماء وطعام وبطاطين ، ربما تتقطع الكهرباء عن المدينة عدة أيام بعد العاصفة ولابد أن يكون معكم طعام وماء وأدوية للمرضى أو العجائز ، خذوا أيضًا لعب الأطفال ليلعبوا بها .

ضحكت وقلت : لعب أطفال ؟ تذكرت طفولتى وطفولة الناس فى قريتى التى خلت من لعب الأطفال ، لكننا كنا نركب الحمير ونجد متعة كبيرة فى القفز على ظهر الحمارة ، نضرب بطن الحمارة بأقدامنا فتنطلق بنا تسابق الريح على شاطئ النيل . بدت طفولتى أجمل طفولة فى العالم . لابد أن موتى أيضًا سيكون أجمل موت فى العالم . سأموت على شاطئ النخيل . أجمل شاطىء فى العالم . يضعوننى فى صندوق منقوش عليه الاسم واللقب العظيم « بروفسير إل ساداوى !! » . لم يعد اللقب يبهرنى

ولا الاسم ولا أى شىء ، لا أرغب إلا فى شىء واحد : أن أعود طفلة فى السابعة من العمر . تجرى فى الحقول الخضراء الواسعة وراء الفراشات الملونة . الطفولة هى عمرى الذهبى . هى النهر الذى تتدفق منه كل أفكارى . هى منبع الإلهام والإبداع فى حياتى كلها حتى هذه اللحظة التى سوف تضرب فيها الهوريكين سقف البيت وأموت تحت الشجرة وفى يدى لعبتى .

بين أصابعى فى تلك اللحظة كان القلم ، يتحرك فوق الورقة بأشكال غريبة ورسوم أطفال ، أشجار نخيل ساقطة على الأرض ، البيوت بلا سقوف ولا نوافذ ولا جدران ، الأطفال يلعبون خارج البيوت ، تذكرت أننى كرهت البيوت فى طفولتى ، والجدران الأربعة والسقف و كنت أحلم بأن الجدران سقطت والسقف انخلع وخرجت لألعب مع الأطفال . كنت أبكى داخل الجدران أطل من بين قضبان النافذة على الأطفال وهم يلعبون ومنهم أخى .

لماذا يخرج أخى ليلعب خارج البيت مع الأطفال وأنا أبقى مع أمى لأطبخ وأنظف المرحاض ؟! وبدا هذا السؤال مناسبًا لأبدأ به ورقتى عن التمرد والإبداع فى حياة المرأة المصرية .

• • •

٢ - الأسئلة الطفولية :

فى طفولتى دارت فى رأسى أسئلة طبيعية ترد لكل الأطفال الذكور والإناث . كنا نتطلع إلى السماء فى الليل يبهرنا ضوء النجوم ، ونسأل بالفطرة والطبيعة : مين خلق النجوم دى كلها ؟ ويأتى الجواب : ربنا خلق النجوم . ويأتى السؤال الطفولى طبيعيًا بعد ذلك . « ومين خلق ربنا ؟ » . لكن هذا السؤال يبدو للأهل كأنما هو غير وارد . أو المفروض الا يرد ، ولابد من سد الطريق على عقل الطفل أو الطفلة حتي لا يسأل مزيدًا من الأسئلة قد تمس المحرمات .

تحت اسم المحرمات يتوقف عقل الأطفال عن طرح الأسئلة الطبيعية ، وإن كان الطفل أنثى فإن المحرمات تكون مضاعفة ، لأن القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية التى تحكم الذكور ليست هى القيم التى تحكم الإناث . بسبب هذه الازدواجية يتوقف

عقل البنت عن التفكير فى أشياء قد يفكر فيها أخوها الولد . قد يحلم الولد أن يكون طيارًا يحارب الأعداء لكن أحلام البنت تختلف . قد تحلم البنت بالزواج وولادة الأطفال دون أن تشعر بإثم اللذة الجنسية .

يرتبط الإبداع فى حياة الإنسان بالحلم الطفولى : ماذا أريد أن أكون فى حياتى ؟! السؤال الأول الذى يُبنى عليه الحلم . قالت إحدى البنات لأبيها وهى فى السابعة من العمر : « عاوزة أكون طيارة أضرب الإنجليز بالقنابل من الجو » كان الأب يحكى لأطفاله عن الأعداء الإنجليز وكيف ضربونا بالقنابل من الجو . وكان من الطبيعى لفتاة طبيعية أن تحلم بركوب الطائرة وضرب الإنجليز كما ضربونا . كان أبوها يقول الضارب يُضرب ، والقاتل يُقتل والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم .

وقالت طفلة أخرى فى السابعة من عمرها لأمها : « عاوزة أكون كاتبة زى بابا » كان الأب كاتبًا يمسك القلم ويكتب أشياء تثير خيال الطفلة ، لكن الأم كانت فى المطبخ معظم الوقت تقشر البصل والثوم ولم تكن الطفلة البنت تحلم أن تكون مثل أمها .

وماذا تفعل البنت بأحلامها الطفولية غير المقبولة من أمها وأبيها أو المجتمع من حولها ؟! ولماذا يحلم أخوها بأن يكون كاتبًا مثل أبيه وعليها هى أن تحلم أن تكون مثل أمها ؟! ويأتى الرد الشائع الذى تصمت بعده البنات : لأنك بنت وهو ولد . وإن سألت البنت سؤالاً آخر يقولون : ربنا قال كده ! ما أن تسمع البنت كلمة « ربنا » حتى تصمت تمامًا . ويكف عقلها عن التفكير فى الأمر . إن ما يقوله الله هو الحق ، والله لا يُسأل عن شىء . وتكف الطفلة تمامًا عن الأسئلة وترضى بالمصير الذى أراده الله لها .

ومَنْ هى الطفلة التى يمكن أن تتمرد على إرداة الله وتختار لنفسها مصيرًا آخر ؟! يحتاج الأمر إلى شجاعة وثقة بالنفس حتى تتحدى إرادة الله وتحلم بمصير آخر غير مصير البنات مثيلاتها ، يحتاج الحلم إلى خيال وأمل وإصرار على تحقيق الحلم ، لكن الإنسان لا يمكن أن يتخيل شيئًا لا يعرفه ، وإن لم تعرف الطفلة أن لها عقلاً مثل أخيها الولد وأنها يمكن أن تكون كاتبة مثله أو مثل أبيها فإنها سوف تعجز عن الحلم بما لا تعرف . فكيف تعرف الطفلة أن لها عقلاً مثل أخيها الولد ؟!

إن هذه المعرفة تولد مع الإنسان أو الإنسانة . يدرك بالفطرة أنه إنسان مثل الآخرين ، أو إنها إنسانة قادرة على التفكير مثلهم . حين ذهبت إلى المدرسة وأنا طفلة ادركت أننى أفهم مثل أخى وزملائه الأولاد بل أتفوق عليهم . لماذا لا أحلم إذن بأن أكون أستاذة أو كاتبة أو دكتورة أو طيارة أو فنانة فى السينما أو المسرح أو أى شىء آخر أحبه .

تحتاج الطفلة فى أول حياتها إلى مَنْ يساندها فى حلمها فى البيت أو فى المدرسة أو أى مكان آخر . كالنبت الأخضر الصغير يحتاج إلى سند يحميه من الرياح التى يمكن أن تقضى عليه . إن حرمت الطفلة هذا السند ، إن لم تجد أحدًا يشجعها ، فسوف يموت الحلم وتنشأ كما يريدون لها أن تكون .

لكن الحلم لا يموت تمامًا طالما هى تعيش . إنها تدفنه فى جزء عميق من عقلها ، كالصندوق المغلق تخفى فيه أحلام الطفولة والأسئلة الطفولية ، تدفن فيه الوعى الطفولى الذى ولدت به، الوعى الفطرى الذى يشكل الأنا الحقيقية وماذا تريد أن تكون. ربما يظل الصندوق مغلقًا طوال حياتها . تتزوج وتنجب وتعيش وتموت دون أن تفتح الصندوق . قد تتسرب من الصندوق أشياء أثناء نومها تراها فى الأحلام ثم تنساها حين تصحو وتصحو معها الأنا الاجتماعية المصنوعة غير الطبيعية .

هذه الأنا الاجتماعية المزيفة أصبحت تحمل فى العلم والطب النفسى لقبًا رفيعًا هو « الأنا العليا » أو الأنا الواعية ، أو (الوعى) ، وأصبحت الأنا الحقيقية حبيسة الصندوق المغلق هى الأنا الدنيا أو الأنا غير الواعية أو (اللاوعى) .

انقلبت الأوضاع فى العلم والطب النفسى . وأصبحت الأنا المزيفة هى الأنا العليا الواعية ، والأنا الحقيقية هى الأنا الدنيا غير الواعية . وتسعى وسائل التربية والتعليم (منذ نشوء العبودية) إلى تثبيت هذا الوضع المقلوب وفرضه على النساء والعبيد ، باعتباره الوضع الطبيعى أو القانون الإلهى .

أقدم العبيد والأجراء على ثورات امتدت فى التاريخ البشرى حتى يومنا هذا . إلا أن ثورة النساء لم تحدث بعد فى أى بلد من بلاد العالم . إن الثورة تبدأ بالتمرد ، وقد أصبح التمرد صفة ذكورية قد تنطوى ميزات الرجل ذى الرجولة الصحية على

القوة والشجاعة والإقدام والتمرد والثورة . قد يصبح الرجل المتمرد أو الثائر بطلاً شعبيًا يحترمه الناس . لكن المرأة الثائرة المتمردة تبدو للناس شاذة غير طبيعية أو ناقصة الأنوثة .

وهذه إشكالية لا يفطن إليها الرجال الثوار أو الأحزاب السياسية التقدمية التي تحارب الظلم أو العبودية أو الاستعمار القديم أو الجديد ، وكذلك أطباء النفس ونقاد الأدب .

٣ - تحطيم الأنا العليا المزيفة :

ترتبط صفات الأنوثة منذ نشوء العبودية بالخضوع والطاعة والاستسلام للمصير الأنثوى الذى فرضه الله والمجتمع . منذ الولادة تدرك الطفلة بالوعى الطبيعى الفطرى أنها لا تقبل الخضوع ولن تستسلم للظلم . منذ الطفولة الأولى تدرك البنت القيود التى تفرض عليها ، وهى تقاومها على نحو طبيعى تلقائى ، إنها تتمرد على القيود بالوعى الذى ولدت به ، ولكن هذا التمرد سرعان ما يتوقف حين يختفى الوعى الطبيعى تحت طبقات الوعى المزيف مع نمو الأنا العليا الاجتماعية المزيفة ، المضلِّلة بالقيم الأنثوية السائدة ، والقيم الأخلاقية التى يؤمن بها المجتمع . تتحول الطفلة إلى زوجة خاضعة يحكمها قانون الطاعة ، وإلى أم مثالية مضحية من أجل أطفالها وأسرتها تملأ الرفوف فى بيتها بالمساحيق والكتب التى تشيد بالأنوثة الكاملة ، والأمومة العظيمة ، تردد ما تقوله أمها والنساء من حولها ، قد تفوز بجائزة الأم المثالية ، أو الطبيبة المثالية ، أو الأديبة المثالية ، وكلها جوائز تؤكد بها أنوثتها وأمومتها وقدرتها علي الخضوع للقيم التى يحترمها الناس فى المجتمع .

فى الحلم قد تتضخم الأنا الاجتماعية المزيفة وتصبح عملاقًا كبيرًا يشبه الصنم الضخم أو الإله المعبود تحمله فوق رأسها كالتاج ، يتحول في الحلم إلى حيوان مفترس أو ثعبان يهبط من رأسها ويلتف حول عنقها . تصحو من الحلم مذعورة ثم تنام وفى الصباح تنسي الحلم ، إن لم تَنْسَهُ وحكته لأحد أطباء النفس يفسر لها الحلم على الطريقة الفرويدية الحديثة ، هذا الثعبان هو اللاوعى أو الأنا الدنيا أو « الإد » غير الواعى حيث تكمن غريزة الحياة أو شهوات الجنس ، ينصحها الطبيب النفسى أن ترقى

بنفسها إلى القيم العليا أو الأنا العليا لتكون امرأة مثالية محترمة من الجميع ولا يتهمها أحد بالتمرد أو عدم التكيف مع المجتمع . وتقول لها جدتها : هذا الثعبان فى الحلم هو عدوك فاقتليه قبل أن يقتلك . وتنسى الفتاة أحلامها وكلام جدتها لأنها تخاف من الثعبان ولا تعرف كيف تقتله .

النسيان هو المقبرة الذى يُدفن فيه الإبداع أو الوعى الحقيقى الطفولى الذى اصبح يحمل اسمًا علميًا لا يدل عليه وهو « اللاوعى » ، والذى أصبح يشتمل على غريزة الحياة ومعها غريزة الجنس والشهوات وكل ما يبعث على الخزى والعار فى حياة المرأة المثالية ذات الأنا العليا المتضخمة .

هذا التناقض هو أساس الفكر العبودى السائد فى العالم حتى اليوم . إن غريزة الحياة التى هى أقدس شىء فى الحياة تحافظ على حياة الإنسان هى نفسها شهوة الجنس أحط شىء فى نظر الناس خاصة بالنسبة للمرأة . هذا التناقض نفسه موجود فى العلم والطب النفسى . إن أقدس شىء فى الحياة (غريزة الحياة أو شهوة الجنس) يكمن فى اللاوعى أو ما يسمونه اللاوعى ، أو الأنا الأدنى ، أو الشيطان محطم الإنسان ، والحقيقة أن الأنا الأعلى هى التى تقتل فى الإنسان أقدس ما لديه وهو حياته وعقله وإبداعه الفطرى الطبيعى .

وأصبح على الإنسان (امرأة أو رجل) ، أن يحطم هذه الأنا الأعلى المزيفة من أجل أن يكون مبدعًا . أصبح على المرأة المبدعة أن تحطم هذا الصنم المزيف المصنوع اجتماعيًا منذ الطفولة حتى الموت .

إنها عملية صعبة ، قد تبدو مستحيلة فى حياة النساء ، لهذا تعيش وتموت أغلب النساء دون أن يُسْهِمْن فى الأعمال الإبداعية ، ويتساءل نقاد الأدب : « لماذا يزيد عدد الأدباء المبدعين عن عدد النساء ؟! لماذا يزيد عدد العباقرة من الرجال عن عدد النساء ؟! » لا يدرسون التاريخ منذ نشوء العبودية ، لا يعرفون شيئًا عن القيم الطبقية الأبوية السائدة حتى اليوم ، لا يعرفون شيئًا خارج تخصصهم (النقد الأدبى) ويردون على أنفسهم قائلين : « العبقرية صفة ذكورية » .

إن أفلتت امرأة من القيود وحطمت الأنا الأعلى المزيفة ومعها القيم الطبقية الأبوية السائدة وأبدعت شيئًا فى مجال العلم أو الأدب فإنهم لا يفهموه ، يبدو لهم إبداعها نوعًا من الخروج عن القيم ، يحكمون عليه حكمًا أخلاقيًا أو سياسيًا دون أن يفهموه . وكم تُدفن الأعمال الإبداعية للنساء لهذا السبب . يتم تجاهلها باعتبارها غير أخلاقية أو غير وطنية أو غير مؤمنة بالدين ، وقد يشخصها أطباء النفس بأنها غير معقولة أو غير عاقلة ومكانها الصحيح هو المستشفى النفسى .

٤ - عملية الكبت « المكبوت منذ الطفولة » :

يسعى الوعى أو الأنا العليا الاجتماعية المزيفة (خاصة فى حياة النساء) أن تجعل نفسها غير واعية بشهوة الحياة أو غريزة الجنس أو غيرها من الرغبات القوية فى حياة الإنسان . بمعنى آخر تصبح الأنا العليا غير واعية بالقوة الإنسانية المبدعة فى أعماقنا التى تحافظ على حياتنا . تصبح الأنا العليا غير واعية بالنهر المتدفق فى أعماقنا منذ الطفولة ، ويمكن لهذه الأنا العليا أن تؤلف العديد من الكتب والمقالات التى يهلّل لها النقاد وتحظى بالجوائز ، إلا أنها تظل أعمالاً خالية من الإبداع لا تمس وجدان الناس ، أو لا تصل إلى النهر المتدفق داخل الإنسان المكبوت منذ الطفولة .

إن هذا النهر الطفولى المبدع موجود لدى كل إنسان امرأة أو رجل . إنه منبع الإبداع يتدفق مع صحوة الذاكرة . إنه ليس صفة يحظى بها فقط العباقرة . إنه ليس إلهامًا يسقط علينا من السماء . إنه موجود داخل صدورنا وعقولنا منذ وُلدنا من بطون أمهاتنا . إنه حقيقة لا يعرفها العلماء والأطباء الذين يطلقون عليه اسم اللاوعى ، أو الأنا الأدنى .

إنه حقيقة لا يعترف بها أصحاب وصاحبات الأنا العليا المتضخمة اجتماعيًا ، أو الناجحة سياسيًا واقتصاديًا ، وثقافيًا ، لأنها تتعارض مع إحساسهم بالتميز أو العبقرية .

عملية الكبت تحدث فى حياة جميع الأطفال ذكورًا وإناثًا . لكنها تحدث بدرجة أشد فى حياة البنات . فالبنت تشعر بالعار وإن كانت ضحية اعتداء أو اغتصاب . البنت تشعر بالإثم وإن كانت طفلة لا تعرف ما هو الإثم . تحاول البنت التكفير عن ذنوبها

بمزيد من الطاعة والصلاة والخضوع . منذ السابعة من عمرى وأنا أركع وأصلى وأطلب من الله أن يغفر لى ذنوبى ، ثم بدأت أدرك أننى بريئة ولم أقترف ذنبًا . كنت أتصور أن ما يحدث فى أعماقى جريمة وما يدور فى رأسى من افكار وما يظهر على جسدى كلها آثام تستوجب دخول النار . ثم تحررت من الإثم حين سمعت أمى تقول : « مافيش نار ولا حاجة » لقد فتحت هذه العبارة الصغيرة الطريق أمامى . تحررت من الخوف من نار الآخرة وبدأت أفكر فى حياتى التى أعيشها فى الدنيا .

ما درجنا على تسميته اللاوعي هو الوعى الأعلى ، منبع الإبداع . ما درجنا على تسميتها الغرائز الدنيا هى غريزة الحياة العليا ، هى نهر الوعى الغزير الذى نسد عليه الطريق تحت الضغوط الاجتماعية . تبدأ عملية الإبداع بالكف عن عملية الكبت ، بإزالة الأحجار التى سددنا بها مجرى النهر .

الإبداع هو اكتشاف هذا النهر وفتح الطريق أمامه ، نحن لا نخلق هذا النهر ، إنه موجود فى أعماقنا منذ الطفولة .

الإبداع ليس إلا اكتشاف ما هو موجود ، وإعادة اكتشافه فى ضوء جديد . الإبداع هو العودة إلى المعرفة الفطرية التى عرفناها فى الطفولة .

ادركت مؤخرًا وبعد أن تجاوزت الستين من عمرى أننى لم أكتب شيئًا لم يكن كامنًا فى صدرى منذ الطفولة . همست بهذه الحقيقة فى أذن أحد الشعراء فى جنوب أفريقيًا فصاح قائلاً : « كنت أظن أننى الوحيد الذى أشعر بهذا » .

يحتاج الأمر إلى شجاعة لطرح السؤال الطفولي الأول من نوع : من خلق ربنا ؟ . هذا السؤال الطفولى المكبوت هو الذى قاد إلى أعظم الاكتشافات فى عالمنا الحديث ومنها الكمبيوتر والإلكترون والكويكر وعلم الكون الجديد . منذ أدركنا أن الأرض كروية وليست مسطحة وأنها تدور حول الشمس وليس العكس ، وأن الكون لم يخلق فى ستة أيام بل فى ملايين السنين ، وأن المرأة لها عقل وذكاء مثل الرجل ، وبالتالى لا يحق له أن يسيطر عليها أو يحبسها فى البيت لتطبخ له ، أو يفرض عليها الحجاب والعزلة بعيدًا عن الحياة العامة .

إلا أن المؤسسات السياسية والدينية فى المجتمع تقاوم هذه الأفكار المتدفقة من المخزون الطفولى القديم ، وإلا انهار النظام الطبقى الأبوى ، وتحررت الأغلبية الساحقة من البشر من قمع الطبقة الحاكمة أو الأقلية التى تملك النفوذ والمال . وكيف يمكن للأقلية أن تسيطر على الأغلبية الساحقة وتسرق قوتهم وعرقهم ؟! كيف يمكن للرجال أن يسيطروا على النساء ويسرقوا منهن الشرف بالإضافة إلى العرق والجهد ؟! كيف يمكن أن تستغل الحكومات شعوبها ، وكيف يمكن أن يسيطر منطق القوة المسلحة على الحق فى السياسات الدولية والمحلية ؟! كيف يتحقق ذلك دون تخويف الأغلبية الساحقة من النساء والرجال بالقوة المقدسة فى السماء والقادرة على البطش بالمتمردين والمتمردات الذين يرفعون راية العصيان ضد إرادة الله والوطن والملك .

فى طفولتنا فى المدارس كنا ننشد كل صباح فى الطابور قبل الدخول إلى الفصول : الله . الوطن . الملك . ننطق الثلاثة فى نفس واحد . كأنما الثلاثة شىء واحد ، ومَنْ يعص أحدهم فقد عصى الآخر ، أو مَنْ يهتف بسقوط أحدهم فقد هتف بسقوط الآخر .

بعد سقوط الملك عام ١٩٥٢ ، خطر لى السؤال الطفولى : أيسقط معه الاثنان الآخران ؟ وظل السؤال مكبوتًا في المخزون الواعى العميق المسمى باللاوعى حتى بلغت الخمسين عامًا ودخلت السجن حيث أدركت أن الملك لم يسقط . فقط تغير اسمه .

٥ - الإبداع والشيطان :

مع تصاعد القوى السياسية الدينية فى بلادنا منذ السبعينات من القرن العشرين اشتدت القيود على النساء والفقراء . لقد زاد الفقراء فقرًا ، وحُرمت الأغلبية الساحقة من الضرورات المادية ، ولابد من قمعهم بالوسائل الروحانية ومزيد من المواعظ الدينية . انتشرت ظاهرة التدين بين الرجال وظاهرة الحجاب بين النساء . اشتدت عمليات التخويف من عذاب القبر والحرق في نار جهنم الحمراء ، وتعليق المرأة من شعرها يوم القيامة إن خالفت الله أو الأب أو الزوج . تختلف القيم التى تحكم الذكور عنها عند الإناث . يهتف الذكور : الله . الوطن . الملك ، لكن الإناث يهتفن : الله الأب الزوج .

فى ندوة بإحدى كليات جامعة القاهرة عام ١٩٩٢ وقفت إحدى الأستاذات الكبيرات تعارض ما قلته عن العلاقة بين التمرد والإبداع ، كانت تلف رأسها بحجاب سميك وهتفت بغضب : طاعة الزوج من طاعة الله ! ثم أضافت أن ما أقوله ينتمى إلى الشيطان .

وتساءلت : لماذا ارتبط الإبداع بالشيطان ؟ لماذا نقول مثلاً شيطان الفن أو شيطان الشعر ؟ ولماذا نشعر بلذة حين نقرأ قصيدة من الشعر ؟ أو حين نسمع قطعة موسيقية ؟ أو نرى لوحة فنية ؟ أو نقرأ رواية ؟ أو نشهد رقصة بديعة ؟

إن ارتباط الشيطان بهذه اللذة الفنية لا يمنعنا من الإحساس بها . وبالمثل إن ارتباط الشيطان باللذة الجنسية لا يمنعنا من الإحساس بها . فهل توجد علاقة بين لذة الإبداع ولذة الجنس ؟!

حاول العلم أو الطب النفسى حل هذه الإشكالية أو هذا التناقض ، بالنظرية القائلة إن منبع هذه اللذة هو اللاوعى ، أو الأنا الأدنى ، حيث تكمن الشهوات الشيطانية والغرائز (منها غريزة الحياة) ، ولابد أن منبع الإبداع هو هذا اللاوعى ، ومن هنا ترابط الإبداع بالشيطان .

كيف إذن نشجع أطفالنا من الذكور والإناث على الإبداع وهو يرتبط بالشيطان ؟! كيف نصور لهم أن لذة الجنس آثمة وفاسدة مع أنها هى غريزة الحياة الواعية القادرة على حمايتنا ؟

لولا غريزة الحياة القوية المبدعة لاندثرت الحياة من فوق الأرض . لولا الإبداع الإنسانى المستمر ضد الموت والقيود والقمع لاندثرت الحياة فوق الأرض . لهذا يبدو الرجل المبدع متمردًا ثائرًا ضد كل القيود التي يمكن أن تضعف وعيه وإبداعه ، ومنها القيود الجنسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية . وقد يغفر المجتمع للرجال المبدعين لأنهم رجال ، ولأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه ، أما النساء أو الفقراء من الرجال المبدعين فإن المجتمع لا يغفر لهم شيئًا ، بل إن حسناتهم قد تنقلب إلى سيئات ، ويحظى بالجوائز قلة من الرجال يحملون لقب عباقرة ، يضربون مثلاً شائعًا للإبداع بأنه الفوضى وعدم المسئولية والتعددية الجنسية . وكم اشتهر هذا الشاعر

الكبير بأنه زير نساء ، أو اشتهر هذا الأديب الكبير بأنه يشرب الخمر أو مدمن على الفساد ولا يحافظ على مواعيده أو وعوده ولا يكاد يفيق من غيبوبة الإبداع أو اللاوعى .

إلا أن هذه الغيبوبة وهذه الفوضى أو اللامسئولية لا تحدث له مع أصحاب النفوذ والسلطة . إذ سرعان ما يفيق هذا العبقرى الكبير ويصل قبل موعده المحدد مع الوزير أو الرئيس . نحن نعيش هذه الازدواجية فى القيم كل يوم دون أن ندركها ، لكنها تمر علينا ، نتقبلها صاغرين لأنها القيم السائدة ، قد يعتبرها بعض المفكرين الكبار جزءًا من هويتنا الوطنية الأصيلة يجب الحفاظ عليها كما نحافظ على ختان الإناث وفرض الحجاب عليهن حفاظًا على الفضيلة والعفة والأخلاق .

حقيقة الأمر أن الإبداع لا يعنى الفوضى واللامسئولية والعربدة فى حانات الليل أو الانتقال من امرأة إلى امرأة أو من رجل إلى رجل . إن صفة « الدون جوانية » نقيض الإبداع فى الرجال والنساء . إن هذا الأديب الكبير الدون جوان لم يعرف لذة الجنس ولا لذة الإبداع ، وبالتالى فهو دائم البحث عنهما دون جدوى . كالمعدة المريضة لا يزيدها الماء إلا ظمأ . قد تظهر لنا صورة هذا الأديب (أو الأديبة) فى الصحف كل يوم أو كل أسبوع . قد يكتب الآلاف من المقالات والمئات من الكتب . قد يمارس الجنس مع نساء العالم . قد يحظى بالجوائز الكبرى والصغرى . إلا أنه يظل دائمًا كالمعدة المريضة لا يزيده الماء إلا عطشًا .

إن انتشار هذه الصورة عن الشخص المبدع لا تعنى أنها الحقيقة . إن انتشار القيم المزدوجة فى بلادنا لا تعنى أنها القيم الإنسانية الصحية . لأن الازدواجية فى حد ذاتها مناقضة للأخلاق . إنها تعنى الكذب ، وتعنى الظلم ، والسبب فى انتشارها آلاف السنين واستمرارها حتى اليوم (ومنذ نشوء العبودية) ليس لأنها صحيحة وعادلة، بل لأنها تُفرض بالحديد والنار على الأغلبية الساحقة . بقوة البطش السياسى والدينى معًا . وقد يكون هذا البطش خفيًا مستترًا وراء كلمات جميلة من نوع الطاعة والفضيلة والإيمان والمثالية والوطنية والشرف والأخلاق والأمومة والأنوثة .. إلخ .

٦ - لذة الإبداع :

ترتبط قوة الإبداع باللذة الكبيرة المصاحبة لعملية الإبداع ذاتها بصرف النظر عن العواقب أو النتائج . وهى تشبه قوة غريزة الحياة . بل إنها هى قوة غريزة الحياة ذاتها . إنها الوعى الأعلى الإنسانى الذى تم تجهيله وتأثيمه وتسميته اللاوعى .

هذه اللذة يحسها الأطفال فى بداية الطفولة الأولى حين يلعبون ، ينتفض كيانهم بلذة طاغية تشمل الجسد والعقل والروح فى كيان واحد كلى لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . هذه اللذة تفوق اللذة الجنسية ولذة الأكل ولذة النوم ، ويعرف المبدعون والمبدعات هذه اللذة ، التى تجعل الواحدة أو الواحد منهم ينسى الأكل والنوم والجنس ويستغرق فى الكتابة أو الرسم أو أى عمل آخر .

هذه اللذة الطاغية تتضاءل إلى جوارها ملذات الدنيا والآخرة . هذه اللذة الطاغية قادرة على تحويل أى خسارة إلى مكسب ، وأى يأس إلى أمل ، وأى ضعف إلى قوة .

هذه اللذة تصاحب العمل الإبداعى وتنتهى بانتهائه ، وهى التى تجعل المبدعة أو المبدع يبدأ ويعمل من جديد ، لا يتوقف عن الإبداع حتى الموت . يتلاشى الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة واحدة هى لحظة الإبداع ، هى اللحظة الحاضرة الممدودة إلى الأبد ، هنا والآن .

«أنا أكتب رواية» تنطقها الكاتبة الأديبة بلذة أكبر من أن تقول « أنا كتبت رواية » . إن الفعل فى الحاضر هو اللذة وهو الإبداع وليس هو الفعل الماضى .

ألهذا السبب يبدو كل عمل إبداعى ناقصًا لا يكتمل أبدًا . إن العمل الإبداعى ما هو إلا إشارة إلى عمل إبداعى آخر أكثر إبداعًا .

إذا ركزنا على العملية الإبداعية ذاتها أثناء حدوثها هنا والآن فإنها تبدو موحية أكثر ، تصبح مغامرة ممتعة فى المجهول وليست إنتاجًا من الأعمال أو الكتب أو اللوحات، التى تبدو ناقصة عقيمة .

إن لذة الإبداع مثل لذة الحياة تبلغ ذروتها هنا والآن .

نوال السعداوى

بوكا راتون / فلوريدا / ١٩٩٩/٩/١٣

الكحل والجنس وقهر النساء.. على خشبة المسرح(*)

جاءتنى دعوة لمشاهدة مسرحية جديدة تعرض فى مسرح الطليعة . كنت قد شاهدت للمخرج ذاته مسرحية منذ أكثر من عشر سنوات ، حاول فيها التجديد من خلال منهج المسرح الصوتى المتعدد الصور والمستويات ، محاولة فنية معروفة باسم « المسرح البولوفونى » تنبع من تعدد الأصوات والإيقاعات الجسدية والصوتية فى التعبير عن أعماق الإنسان أو الإنسانة .

اسم المخرج انتصار عبد الفتاح . واسم المسرحية مخدة الكحل . قال لى فى الدعوة : إن المسرحية رحلة داخل عالم المرأة العميق بآلامها وأحلامها ، والمسرحية زمنها ساعة واحدة فقط ، وأنا أحب هذا الإيجاز فى التعبير الفنى أو البلاغة فى توصيل الفكرة دون حشو وإطناب .

كانت الرحلة من بيتى إلى مسرح الطليعة بميدان العتبة مؤلمة ، لم أشهد ميدان العتبة الخضراء منذ أكثر من عشر سنوات ، لا أذكر أن رائحة المراحيض العامة كانت تفوح بهذا الشكل ، كان هناك رصيف أمشى عليه حول حديقة الأزبكية ، أصبح الرصيف أكوامًا من الطوب والحجارة وبرك الماء أو المجارى مع الزحام الشديد كأنه يوم الحشر ، مواقف أتوبيسات وميكروباصات وعربات أجرة .

معظم الحوائط فى العتبة الخضراء ملزوق عليها إعلانات شوبيس وصور ممثلات نصف عاريات فى أيديهن مسدسات ، وجوه النجوم أو ما يطلق عليهم نجوم ، بعضهن سمينات ممتلئات باللحم والشحم ، وأنا أمشى أتعثر فى أطفال شحاذين راقدين على الأسفلت ، وطفلة بلا ساقين تزحف فوق قطعة خشب لها عجلات ، وامرأة عجوز تحتضن طفلاً ضريرًا ، وبياعين البخور والمصاحف والمسابح وأحجبة وكتب الجان وتسخير الشياطين لإعادة الرجل إلى زوجته المهجورة ، وشابات واقفات فى الطابور يشترين هذه الكتب ، ورؤوسهن ملفوفة بالأحجبة ، عيونهن مرسومة بالكحل يطرقعن باللبان والضحك .

(*) روزاليوسف - ١٨/١/١٩٩٩ - (٣٦٨٤) (٦٣)

قال لى المخرج : أن المسرحية ستبدأ فى العاشرة مساء بالضبط ، ويُغلق الباب بعد ذلك فلا يدخل أحد ، وصلت المسرح أنا وزوجى (الدكتور شريف حتاتة) الساعة التاسعة والنصف .. تركنا السيارة فى مكان آمن بجوار بنك مصر ، ثم سرنا على الأقدام هذه الرحلة إلى المسرح ، شاهدنا فيها ما يمكن الكتابة عنه عدة مقالات أو مسرحيات ، حرصنا على الذهاب قبل الموعد لنضمن عدم التأخير ، وبحثنا عن مكان نستريح فيه قبل أن يفتح المسرح أبوابه ، عثرنا على ما يسمى « كافتيريا » بالقرب من مسرح الطليعة ، شربت فيها فنجان شاى مع قطعة من البسكويت ، أصابتنى بالتسمم الغذائى لعدة أيام وليال ، لابد أنه البسكويت ذاته المستورد الذى وزع على المدارس فأصاب المئات من التلاميذ والتلميذات بالتسمم الشهير .

لم تبدأ المسرحية إلا الساعة الحادية عشرة تأخرت « النجمة » عن الحضور فى موعدها ، أصبح المخرج غاضبًا وهو يشكوها إلى مدير المسرح ، واعتذر لنا ، وقلنا الكلمة الشهيرة فى القاموس المصرى « معلهش » وانتظرنا فى مكتب أمين شلبى مدير المسرح ، الذى قدم لى قدحًا ساخنًا من الينسون خفف قليلاً من الآلام المعوية إثر قطعة البسكويت .

ثم بدأ العرض بوصول النجمة متأخرة ساعة كاملة عن الموعد ، باختصار انتظرنا ساعة ونصف الساعة لنشهد مسرحية زمنها ساعة واحدة ، إلا أن الغضب تلاشى مع بدء العرض .. ربما تلاشت أيضًا بعض الآلام الجسمية الناتجة عن التسمم العضوى والنفسى خلال الرحلة إلى المسرح ، استرخى جسمى فى المقعد تمامًا وأنا أتابع هذا العرض المسرحى البديع . ساعة واحدة من الفن المقطر ، خلاصة مركزة من العطاء الفنى ، خاصة الأداء الحركى الراقص الرفيع المستوى للفنانة « يسار عنتر » وهى النجمة التى تأخرت ، وقد غفرت لها هذا التأخير حتى آخر قطرة ، كانت ترقص بكل خلية من عقلها وجسمها وروحها ، التحمت الثلاثة ، روحها وجسمها وعقلها ، فى كيان واحد ، يتحرك بمرونة السائل الشفاف داخل إناء ليس له جدران ، فإذا بالرقص مثل الفكرة الفلسفية الجسدية تصيب الجسد باللذة بمثل ما تصيب العقل .

والفنانة القديرة سميرة عبد العزيز كانت تروى الحكاية وهى تدير ماكينة الخياطة ، لهجتها صعيدية حميمة ، ملامحها مصرية صميمة ، صوتها دافىء قوى حنون يدخل القلب ، ليس مثل تلك الأصوات المعدنية لبعض النجوم المشاهير أو الفنانات النجمات اللائى تطاردنا أصواتهن وصورهن ليل نهار .لقد استطاع المخرج انتصار عبد الفتاح أن يوظف عدداً من الطاقات الفنية ، رقصاً وغناء وموسيقى وإيقاعاً متعدد الأصوات فى تقديم عرض فنى جميل ، استطاع أن يجمع فريقاً من الفنانين والفنانات ، ويصور من خلال حركتهم وأصواتهم القهر الواقع على البنات والنساء .

هنا تظهر براعة المخرج فى تحريك هذا العدد الكبير من الفنانين والفنانات بطريقة مبدعة سهلة وممتنعة ، مثل قصيدة شعرية تترابط أجزاؤها فى انسجام كامل كأنما هى عبارة واحدة أو لحظة مكثفة بإيجاز وبلاغة ، تهز الوجدان ، وتقدم من خلال رؤية صوتية موسيقية تشكيلية لآلام المرأة فى بلادنا .

إلا أن نهاية المسرحية جاءت مفجعة ، بعد كل هذا الصراع الذى شهدناه للخروج من القهر وكسر القيود وتمزيق الخباء ، والدوس بالقدمين على طشت الغسيل ، والصمود القوى فى وجه الشهوة أو الجنس أو الخضوع للرجل ، وهذا الصوت القوى الدافىء لأحمد حجازى ، مع دقات التخت ، القانون والناى والرقص ، وضربات مخرطة الملوخية ، ودوران ماكينة الخياطة ، والثورة النسائية الجماعية ضد الخنوع والإذلال ، ضد التفرغ للتزين والتكحل وإشباع شهوات الرجل ، بعد كل هذه الثورة ضد الألم والظلم تعود المرأة إلى ما كانت عليه ، تعود وتقبل كل ما ثارت ضده ، بما فى ذلك مخدة الكحل والناموسية والجنس والولادة .

يمكن القول أن المسرحية نجحت من الناحية الفنية ، لكنها فشلت من الناحية الفكرية .. عجزت المسرحية عن الخروج من آلام المرأة إلى أحلامها وطموحاتها الجديدة فى الحياة .

بعد هذا العرض الشيق وبعد هذا الصراع النسائى الجماعى للتحرر من بؤرة القهر ، وهى الكحل والجنس وجسد الرجل والولادة والخياطة ، بعد كل هذا تعود المرأة إلى سجنها بكامل إرادتها ، تعود إلى الكحل والولادة وإدارة ماكينة الخياطة كأنما هذا هو مصيرها المحتوم ولا أمل فى التغيير .

ربما تعبر المسرحية عن هزيمة النساء فى صراعهن الطويل المرير ضد القهر الطبقى الذكورى عبر آلاف السنين ، ربما هى تعبر عن الواقع فى حالات كثيرة ، حين يحدث النكوص والارتداد إلى الخلف بدلاً من التقدم إلى الأمام .

ربما لهذا السبب خرجت من المسرحية بقلب ثقيل ، وعادت إلى الآلام الجسمية منذ أكلت قطعة البسكويت المسممة ، أحسست ثقل الواقع والهزيمة ، خرجت صامتة على غير عادتى حين أشهد عملاً فنيًا جميلاً . وسألنى زوجى : ما رأيك فى المسرحية؟ قلت : كان يمكن أن تكون عملاً عظيمًا لولا تخلف الفكرة التى قامت عليها .

فالفن العظيم يحتاج دائمًا إلى فكر عظيم يتجاوز آلام الواقع إلى آمال وطموحات أكبر .

• • •

أسئلة الإبداع المعلقة(*)

هل يكتب المبدعون ما يجول فى أذهانهم أم يُنصتون لآراء الآخرين ويضعونها فى اعتبارهم ؟ ولماذا يفرق النحاتون والرسامون فى المعاملة بين الموديل الأنثى والموديل الذكر ؟ وهل يخشى الناس الإبداع لأنه يخلخل لهم قناعات ثابتة وموروثة ؟

فى معارض الفنانين الرواد ممن يطلق عليهم العباقرة كان يصدمنى دائمًا ذلك العدد الهائل من اللوحات لنساء عاريات كنت أسأل نفسى دائمًا : لماذا يكون جسد المرأة العارى هو الموديل لهؤلاء الفنانين الرجال ؟!

كنت أحرص على رؤية معارض الفنانات من النساء ، ولم يكن لى (مهما حاولت) أن أعثر على لوحة واحدة لرجل عارٍ ! وأسأل نفسى : لماذا تعطى الفنانة للرجل (الموديل) الحرية فى أن يبقى بملابسه ، على حين يفرض الفنان الرجل على الموديل أن تكون عارية ؟!

• • •

أحيانًا يأتينى بالبريد إنتاج شابات أو شباب يكتبون الشعر أو القصة أو يرسمون اللوحات أو يؤلفون الموسيقى أو الأغانى ، وغير ذلك من ألوان الإبداع المتعددة ، وقد التقى بهم وأسمع منهم حكايات تذكرنى بنفسى حين كنت فى مثل عمرهم ، فتاة صغيرة قادمة من الريف لا تملك سوى كشكول أزرق وقلم رصاص ، وحلم كبير أكبر من الهرم الأكبر ، يتلخص فى جملة واحدة بسيطة : « أن أعبر عن نفسى بالكلمات المكتوبة أو المنطوقة أو الرسم أو بالموسيقى ، أو أى شيئ آخر موجود فى هذا الوجود » .

إذا عدت بذاكرتى إلى الوراء أكثر من أربعين عامًا حين كنت فى العشرين من العمر ، كيف كانت الطرق مسدودة ، كيف كان أغلب الناس من حولى يقولون لى : لا يمكن أبدًا أن تكتبى ما يجول فى دماغك ! اقرئى ما كتبه العباقرة والرواد واكتبى مثلهم ! لا يمكن أن تكتبى الأدب إذا لم تدرسى الأدب ! حين يعرفون أننى أدرس الطب وليس الأدب يصيحون : مش معقول ! إيش جاب ده لده ؟!

(*) الأهالى ١٩٩٨/١٢/٩

لو سمعت كلام الناس من حولى لما أقدمت على الكتابة ، فما بال أن أكتب ما يجول فى دماغى ؟ لولا الثقة التى أعطتها لى أمى وأبى منذ الطفولة لفقدت الثقة تمامًا فى ذلك الشىء الذى أسميه دماغى ، ربما توقف دماغى عن العمل واعتمدت فى حياتى على دماغ الآخرين ، ممن يسمونهم العباقرة أو الرواد أو كبار المفكرين .

فى أعماقى كنت أقول لنفسى : « هل هؤلاء العباقرة لهم دماغ أعظم من دماغى ؟! ألم تلدهم أم مثل أمى ؟ » إنها عبارة كنت أسمعها من أمى . ومن جدتى لأبى الريفية ، سمعتها ذات يوم وأنا فى الخامسة من عمرى تقول لابنها : « ويعنى هو الملك أحسن منك فى إيه يا ابنى ، مش والداه بطن زى بطنى دى ؟! وتخبط جدتى بيدها الكبيرة المشققة على بطنها الضامر وتضحك بصوتها المنطلق ، تؤكد بصوتها وحركتها القوية أن بطنها مثل بطن المرأة التى ولدت الملك !

كنت فى الخامسة من العمر ، وانحضرت فى ذهنى فكرة أن بطون كل النساء واحدة ، وأن أبى مثل الملك ، ولد من بطن من هذه البطون ، ويمكن لأبى أن يكون الملك أو أفضل من الملك كما تقول جدتى ، المهم هو الإرادة والإصرار والجهد !

فى العاشرة من عمرى حين سمعت الناس من حولى يقولون إننى بنت ولا يمكن أن افعل ما يفعله أخى لأنه ولد ، كنت أثور عليهم وأقول لهم عبارة جدتى : ويعنى هو الولد أحسن منى فى إيه ، مش والداه بطن أمى زى ما ولدتنى ؟!

أصبحت هذه العبارة فى دماغى ، أدافع بها عن حقى فى الحياة والإبداع ، وكل شىء مثل أخى وأكثر ، إذا كنت أكثر منه إرادة وتصميمًا وجهدًا ، المسألة إذن هى الإرادة والتصميم والجهد وليس أى شىء آخر .

عادت إلىَّ هذه الذكريات وأنا أجلس مع عدد من الشابات والشباب المبدعين الذين يسمعون من الناس كل يوم ما يثبط همتهم ، ويقتل حماسهم ، ويفقدهم الثقة فى أنفسهم ، هذه العبارات التقليدية التى تعود الناس فى بلادنا أن يقولوها للشباب أو الشابات :

- قصائد شعر إيه يا ابنى خليك فى الكيميا والعلوم !
- يعنى إيه ترسمى يا بنت ؟ اطلعى دكتورة فى الطب تكسبى فلوس !

- يعنى إيه تكتب من دماغك يا ابنى؟ لازم تقرأ اللى كتبوه غيرك اللى أحسن منك؟

- فاكر نفسك عبقرى ؟! كان غيرك أشطر !

• • •

دار الحديث بينى وبين هؤلاء الشباب والشابات ، قالوا لى : لا أحد يساعدنا ، والجميع يضعون أمامنا العراقيل ، قلت لهم هذا طبيعى ، فالإبداع فى حد ذاته شىء جديد يفزع منه الناس لأنه يختلف عن القديم الذى ورثوه عن الأسلاف .

أحد هؤلاء الشباب اسمه « هانى طنطاوى » طالب بكلية الصيدلة لكنه يكتب الشعر ، يقول له الناس من حوله ما علاقة الصيدلة بالشعر ؟ ويرد عليهم هانى بأبيات من الشعر فيقول : لأنى أحب الشعر ، وشىء فى صدرى يتفجر ، هو حياة كالماء ، فى حيوية هو يتحرك ، وفى قوته كالداء ، ترى هل يكون حبًا حقًا ، أم هو سراب فى الهواء ؟

جاءنى شعر « هانى طنطاوى » بالبريد ، قصائد تتفجر كالنافورات ، أحاسيس مكبوتة من الحب والحنين والرغبة فى التعبير عما يجول فى قلبه ودماغه . لا أحد يريد أن ينشر كلماته الساخنة الخارجة لتوها من القلب الموجوع ، قلت له : اكتب واكتب واسكب نفسك على الورق ولا يهمك ما يقوله الناس لك ، أنت تريد أن تكون شاعرًا وهم يريدون لك أن تكون أجزجى أو صيدلى ، لكن إرادتك أقوى من إرادتهم ، فالمهم هو الإرادة والتصميم والجهد وليس أى شىء آخر ، ويمكنك أن تكون صيدليًا وشاعرًا فى الوقت ذاته .

وفتاة شابة من الريف الفقير اسمها « ناهد العاصمى » ، تدرس العلوم السياسية ، لكنها تحب الأدب والقصة ، أرسلت إلى بعض قصصها القصيرة ، سألتنى هل يمكننى الجمع بين الأدب والسياسة ؟ قلت لها : إن الفاصل بين الأدب والسياسة غير موجود مثل الفاصل بين الطب والأدب ، مثل الفاصل بين العلم والفن ، إن أردت التعبير عن نفسك بصدق فسوف تكتشفين أن كل هذه الفواصل مزيفة ومصنوعة .

وشابة من القاهرة اسمها « أمل محمود » ، درست الفن التشكيلى ، أرسلت إلىَّ صورًا لبعض لوحاتها ، تريد أن تنزع الأقنعة عن الوجوه . إحدى لوحاتها تقول : لا نعرف أنفسنا ونخشى النظر فى المرآة ، لأننا قد نجد صورًا مشوهة تعكس صراعات عالم قبيح ، أو قد لا نجد صورة على الإطلاق ، لتكن هذه اللوحة دعوة لمحاربة مسوخ المستقبل « أنفسنا » دعوة لمواجهة عالم قبيح ، دعوة لمعرفة الحقيقة ، دعونا ننظر فى المرآة بلا أقنعة » .

هذه ليست إلا نماذج قليلة لما يأتينى فى البريد من إبداعات الشابات والشباب ، إبداعات تشق طريقها بصعوبة فى عالم قبيح لا يفهم إلا لغة المال أو الربح ، وفى مجال الفن لا يفهم إلا « العُرى » باسم الحداثة أو ما بعد الحداثة ، أو « التغطية » باسم الأصالة أو القيم الأصيلة .

• • •

بين هذين الاتجاهين يتمزق الشباب والشابات ، خاصة فى مجال الفن التشكيلى . سألت أحد الفنانين المعروفين من رواد الحداثة أو ما بعد الحداثة : لماذا لا ترسم إلا المرأة العارية أو المرأة المحجبة ، ألا توجد امرأة ليست عارية وليست محجبة ؟! ابتسم وشرد طويلاً ثم قال : مش عارف ليه !

معظم هؤلاء الرجال الفنانين يرون المرأة موديلاً صامتًا وعاريًا . الصمت والعرى هما اللوحة الغالبة عند هؤلاء الرسامين ، أو المرأة المتوارية وراء حجاب ، المختزلة إلى خطوط تجريدية دينية ، ترمز إلى الملاك الطاهر ، السيدة مريم العذراء ، أو واحدة من نساء النبى المقدسات ، أو تكون العكس تمامًا المرأة الشيطان حواء الآثمة العارية .

لم أجد نفسى ولا أمى ولا جدتى فى أية لوحة من لوحات هؤلاء الفنانين الرجال العباقرة الرواد ! لم أجد بنات البلد الشغالات فى البيوت والحقول والمصانع والمدارس والمستشفيات ، وجدت نساء عاريات جالسات فى وضع ساكن صامت أمام الفنان الرجل .

أنا لست ضد التعرية من أجل الكشف فى الطب أو العلم والفن . لكن فى هذه اللوحات لماذا لا يحدث العرى إلا للموديل الأنثى الشابة ؟! لم أشهد لوحة واحدة لرجل عارٍ ! لم أشهد لوحة واحدة لعجوز عار أو عارية .

لماذا يدور هذا الفن دائمًا حول جسد الأنثى الشابة الموديل الأثيرية عند معظم الفنانين ؟!

ألا يمكن للمرأة المرتدية ملابسها أن تشغل خيال هؤلاء الفنانين من الرجال ؟

وهل الرجل العارى هو الموديل عند النساء الرسامات الفنانات ؟

نحن هنا أمام مشكلة تاريخية منذ نشوء العبودية ، حين انفصل جسد المرأة عن روحها ، وأصبحت المرأة مجرد الجسد ، يُعرى أو يُغطى حسب الحاجة . إن الرجل لا يُعرى فى الفن ولا يُغطى بالحجاب ، لأنه لا يعتبر نفسه مجرد جسد .

إن المرأة الفنانة لا تفرض على الرجل الموديل أن يتعرى من ملابسه ، كما يفرض الفنان الرجل على الموديل الأنثى أن تتعرى . ترسم المرأة الرجل فى أدواره المختلفة فى الحياة وهو يزرع وهو يحارب وهو يتكلم .. إلخ .

تنظر المرأة الفنانة إلى الرجل كإنسان متعدد الأدوار فى الحياة . أما الرجل الفنان فهو ينظر إلى المرأة داخل دور واحد محدود بحدود الجسد العارى أو الجنس .

هذا عن الرواد وعباقرة الماضى ، أما اليوم فإن الشباب يثورون على هذه النظرة التقليدية فى الفن . بدأت عين الرجل أو الشاب الفنان الجديد تنجذب إلى نساء غير عاريات وغير محجبات ، إلى نساء يشتغلن ، أيديهن وعقولهن ويكافحن فى الحياة مثل الرجل .

لم تعد الموديل المثالية هى ذات الأنامل الناعمة الرقيقة العاطلة عن العمل ، بل الأصابع القوية التى تمسك القلم كما تمسك المشرط وتفتح البطن المريض ، أو التى تمسك الفأس وتزرع لنا ما نأكل ، تشبه يد جدتى الفلاحة الكبيرة المشققة ، تخبط بها على بطنها وتقول : كلنا خرجنا من البطن دى !

● ● ●

رواية السيرة الذاتية

١ - البـدايات :

منذ علمتنى أمى الحروف عرفت تكوين كلمة ذات معنى هو اسمى ، بدأت أكتبها كل يوم ، أربع حروف متشابكة « نوال » ، أحببت شكل الاسم ومعناه النوال أو العطاء ، ارتبط بى . أصبح جزءًا منى ، عرفت اسم أمى « زينب » كتبته إلى جوار اسمى فوق كراستى الصغيرة ، أحببت شكل الاسمين معًا ومعناهما كما أحببت نفسى وأمى . أكبر حب فى حياتى منذ ولدت كان لنفسى ولأمى ، بعد ذلك يأتى الآخرون ، منهم أبى ، شطب على اسم أمى ، وضع اسمه إلى جوار اسمى ، ثم وضع اسم أبيه « السعداوى » ، رجل مات قبل أن أولد .

ودار فى عقلى السؤال : لماذا يشطب أبى اسم أمى ؟ ولدتنى . أرضعتنى . علمتنى الكتابة . ترعانى كل يوم ؟! يضع مكانه اسم رجل غريب لم أره فى حياتى . مات قبل أن أولد ؟ كرهت اسم الرجل « السعداوى » يلغى اسم أمى من الوجود ، سألت أبى عن السبب فقال لى : إنها إرادة الله .

كلمة « الله » سمعتها لأول مرة فى حياتى من أبى ، عرفت أنه يسكن السماء هو المسئول عن شطب اسم أمى ، لم يكن لى أن أحب من يشطب أمى واسمها زينب ، أحبها باسمها ، جسمها ، شكلها ، أصابعها الحانية الدافئة تداعب وجهى كشعاع الشمس ، صوتها ينادينى فى الصبح ، كل يوم جديد تعلمنى كلمات جديدة .

كان لى أخ أكبر منى بعام واحد ، كان بليدًا فى المدرسة وفى البيت ، لا يفعل شيئًا إلا اللعب والصراخ والنوم والأكل ، لا يرتب سريره ولا يغسل صحنه ، أنا أصغر منه . مع ذلك أرتب له سريره وأغسل صحنه، أتفوق عليه فى واجبات المدرسة وأعمال البيت.

أبى كان يحبه أكثر منى ، يدلله ويشترى له طيارة بزنبلك ، وبسكليتة . فى العيد يعطيه ضعف ما آخذ من قروش أو ملاليم ، حين أسأل أبى لماذا . يقول : الله قال فى كتابه الكريم « البنت نصف الولد » .

أصبح الله هو المسئول عن التفرقة بينى وبين أخى دون وجه حق ، كما أصبح المسئول عن شطب اسم أمى دون وجه حق أيضًا . قال أبى إن الله هو الحق ، لم أفهم هذه العبارة فكتبت رسالة إلى الله أسأله ، كانت أول رسالة أكتبها فى حياتى كالآتى : يا ربى إذا كنت أنت الحق فلماذا تفرق بينى وبين أخى ولماذا تفرق بين أبى وأمى ؟ .

قالت أمى : إن الله لا يقرأ ولا يكتب ، كنت أظن أنه كتب القرآن ، أبى يسميه كتاب الله ، لم أرسل إلى الله رسالة أخرى ، أصبحت أوجه الرسائل إلى أبى ، كنت أدرك الصلة بينه وبين الله . كانت رسائلى إلى أبى لا تصل إليه أحرقها قبل أن أرسلها ، كما حرقت رسالتى الأولى إلى الله . بدأت أدرك أن الله يملك نارًا حمراء تحرق جلود الناس ، تتجدد الجلود بعد الحرق لتحرق مرة أخرى ، يستمر الحرق إلى ما لا نهاية . عرفت أن مصيرى النار لأنى أسأل الله ، المفروض أن الله لا يسأل عن شىء ، فهو يفعل ما يشاء دون أن يحق لمخلوق أن يوجه إليه سؤال .

قال أبى إن الله هو الخالق الكامل ، جميع أعماله كاملة ، خلق أجسادنا على أحسن تقويم ، وجاءت الداية بالموس فى ليلة مظلمة وأنا فى السادسة من العمر ، قطعت عضوًا من جسدى قالت : أنه أمر الله ، لم أستطع أن أسأل الله كيف يأمر بقطع عضو خلقه فى أجسادنا ، سألت أبى فقال أن عملية الختان سنة عن رسول الله وليست فرضًا لأنها لم ترد فى كتاب الله ، ولم أعرف ما الفرق بين السنة والفرض ، ورقدت فى الفراش أنزف بعد انصراف الداية صاحبة الموس ، نزفت أكثر من أسبوعين ، الألم كالنار التى تحرق بعد الموت ، شفيت بعد ثلاثة أسابيع ، نسيت الحادث ربع قرن من الزمان ، حتى تخرجت فى كلية الطب واشتغلت طبيبة فى الريف ، بدأت أرى الدايات بأمواسهن الملوثة تقطع فى أجساد البنات الأطفال ، ينزف الجرح حتى الموت أو ينز الدم والصديد ، يترك فى جسد كل طفلة عاهة مستديمة .

لم نتعلم فى كلية الطب شيئًا عن الختان . لم تكن أعضاء المرأة الجنسية ضمن المقرر ، فقط الأعضاء التناسلية والمجارى البولية ، أما تلك الأعضاء التى تتعلق باللذة الجنسية أو الرذيلة فهى غير موجودة فى كتب الطب الإنجليزية أو العربية .

فى طفولتى المبكرة لم أعرف ما هى الرذيلة ، قال أبى : إن الشيطان مسئول عنها واسمه إبليس ، أصبحت أراه فى الحلم على شكل رجل يهمس فى أذنى باللذة المحرمة، التى تحولت إلى ألم يرتبط على نحو ما بالعضو المبتور بالموس فى جسدى . كنت أرى الله أيضًا فى أحلامى على شكل رجل يحذرنى من إبليس ، لم أعرف كيف أفرق بين الله وإبليس ، كلاهما أراه فى الحلم على شكل الرجل .

فى التاسعة من عمرى وقع لى حادث آخر مؤلم ، نزيف دموى أصابنى من حيث لا أدرى ، أشد خطورة من حادث الختان ، لأنه يتكرر لمدة أربعة أيام كل شهر ، لا ينقطع عنى إلا بعد أن يبلغ عمرى نصف قرن ، ورد ذكره فى كتاب الله أنه « أذى » بمعنى النجاسة ، على الرجال أن يهجروا النساء فى هذه الأيام حتى يطهرن .

كنت أنكمش فى الركن بعيدًا عن الناس أخفى الألم ، لم يكن لى أن أسأل سؤالاً دون أن أمس المقدس ، الله فى سمائه العلياء ، أما إبليس فقد قرأت قصته فى المدرسة . أمره الله بالسجود لآدم فرفض ، قصة لا علاقة لها بالختان أو المحيض أو آلامى الجسدية والنفسية . أدركت وأنا فى العاشرة من العمر أن إبليس برىء على نحو ما ، لم يصل هذا الإدراك إلى عقلى الواعى أو ذاكرتى الإرادية التى أحفظ فيها ما يرضى الله وأبى والمدرسين فى المدرسة .

ومضى نصف قرن من الزمان تقريبًا ، كنت أزور ابنة عمتى فى قريتنا ، سمعت حفيدتها الطفلة تسألها عن الله وإبليس ، الجدة تلسعها بالعصا الخيرزان ، كانت الطفلة فى العاشرة من عمرها ، بشرتها سمراء بلون بشرتى ، عيناها السوداوتان الواسعتان تتطلعان إلى السماء فى حيرة ورهبة كأنما تبحثان عن موقع الله . تذكرت نفسى فى مثل عمرها . الحركة نفسها والحيرة نفسها . عادت إلىَّ ذاكرتى المفقودة . فى الخمسين من عمرى لم أملك الشجاعة التى ملكتها بعد أن تجاوزت الستين من العمر . لم أكتب سيرة ذاتية فى ذلك الوقت . ترددت طويلاً فى الكشف عن ذاكرتى الطفولية ، كتبت رواية جعلت الطفلة فيها تسأل جدتها الأسئلة نفسها التى راودتنى فى طفولتى ، أعطيتها اسم « جنات » ، لم يقدم أى ناشر فى مصر على طبعها ، أخذتها إلى ناشر فى بيروت ، وافق على نشرها بعد حذف وتغيير عنوانها من « براءة إبليس » إلى « جنات وإبليس » .

تعرضت الرواية للهجوم من بعض النقاد . قالوا : إنها لا تنتمى إلى الرواية أو السيرة الذاتية أو الشعر أو النثر أو أى شىء من هذه الأجناس الأدبية المعروفة . أحد النقاد قال : إنها تنتمى إلى قلة الأدب أو الرذيلة .

٢ - مذكرات طفلة اسمها سعاد :

فى الثالثة عشر من عمرى كنت تلميذة بالمدرسة الثانوية فى حلوان . طلب منا أحمد أفندى مدرس اللغة العربية أن نكتب شيئًا من الذاكرة فى كراسة الإنشاء . كانت ذاكرتى الطفولية قد اندثرت تحت اسم المحرم ، الجنس أو الدين ، نسيتهما مع أحداث طفولتى بما فيها الحب الأول وأنا فى العاشرة من العمر ، ومفهوم الشرف يتعلق بغشاء خلقه الله فى أجساد البنات فقط ، لم يخلقه فى أجساد الأولاد لأن الذكور ليس لهم شرف يتعلق بشىء فى أجسادهم .

كتبت لأحمد أفندى فى كراسة الإنشاء سيرة ذاتية لطفلة اسمها سعاد . غيرت اسمى واسم أبى وجدى السعداوى حتى لا يدرك أحمد أفندى أننى أكتب عن نفسى ، تفاديت المحرمات الكبيرة التى تتعلق بالرؤوس الكبيرة مثل أبى والله وجدى وعمى الشيخ محمد وخالى يحيى وزكريا وغيرهم من الذكور .

إلا أن ذاكرتى اللاإرادية كانت تتسرب من بين السطور ، فى المساحات الخالية بين السطر والسطر ، كنت أكتب على سطر وأترك سطرًا خاليًا يتسع لأى شىء ، وقد سألت سعاد أباها سؤالاً لم أسأله لأبى . وهو : كيف ينفذ الله من خلال الجدران ويراها فى دورة المياه ؟ كانت سعاد تخجل من رفع ملابسها ، تتصور أن الله رجلاً يطل عليها من السقف ، وقال لها أبوها : إن الله ليس ذكرًا أو أنثى وهو روح بلا جسد ، كان أبوها يخاطب الروح بصيغة المؤنث فيقول الروح لا يعلمها أحد ، وبدأت سعاد تخاطب الله بصيغة المؤنث باعتباره روحًا ، غضب أبوها ، أمرها أن تشطب على صيغة المؤنث، مع ذلك كان يؤكد لها أن الله روح فقط يختلف عن الإنسان الذى يملك الروح والجسد ، تصورت سعاد أن الإنسان يملك أكثر مما يملكه الله ، لأن عنده الجسد أيضًا بالإضافة إلى الروح .

كانت سعاد تحب المدرسة إلا أنها تكره المدرسين والجلوس ساعات طويلة وراء التخت الخشبى ، وحفظ الآيات عن ظهر قلب دون فهم شىء ، وإن نسيت كلمة أو أخطأت فى حرف لسعها المدرس بالعصا الخيرزان ، لم يكن يلسع زميلتها مختارة ابنة المأمور ، كانت بليدة لا تحفظ شيئًا ، لكن المأمور كان عنده عساكر تضرب الناس، وأبوها لم يكن عنده عسكرى واحد .

قرأ أحمد أفندى مذكرات الطفلة سعاد وأعطانى صفرًا فى كراسة الإنشاء ، بقلمه الأحمر كتب بجوار الصفر « التلميذة فى حاجة إلى تقوية فى اللغة والدين » . أخفيت الكراسة فى درج سفلى بغرفتى . كنت أخشى أن تقع فى يد أحد خاصة أبى . كان يهددنى بإخراجى من المدرسة إن لم أحصل على درجات التفوق . كانت المدرسة رغم أحمد أفندى والمدرسين هى الأمل الوحيد أمامى للانعتاق من عبودية المطبخ وجدران البيت الأربعة . كانت الكتابة هى حلم حياتى . لم أر نفسى فى أحلامى طبيبة . رأيت نفسى كاتبة أو شاعرة أو موسيقية .

منذ هذا الصفر الأحمر تحولت الأحلام إلى كوابيس على شكل دوائر حمراء ، ألسنة من اللهب ، وتوقفت ذاكرتى عن العمل ، أحمد أفندى لم يتوقف عن أن يطلب منا أن نكتب من الذاكرة فى كراسة الإنشاء . أصبحت أعتمد على مصادر أخرى غير الذاكرة ، منها كتاب المطالعة الرشيدة ، والكتب المقررة فى المدرسة من تأليف رجل مثل العقاد ، ومكتبة أبى فى البيت ، وكتاب الله الكريم وأحاديث الرسول ﷺ .

لم تعد الكتابة ممتعة ، لكن أحمد أفندى أصبح يعطينى درجات التفوق ، أفرح بها وأفخر أمام زميلاتى ، ينقلب الفرح فى أعماقى إلى حزن غامض ، كأنما فقدت شيئًا غاليًا ، أغلى مما بتره الموس من جسدى ، شىء فى الرأس ، فى الخيال وليس بين الفخذين .

كان يمكن أن أستمر على هذه الحال لأصبح مثل أغلب النساء ، امرأة فاقدة الذاكرة والخيال ، وربما أصبحت كاتبة تحصل على الجوائز ، لقب كاتبة كبيرة ، وزيرة ، أو وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى .

إلا أن مذكرات الطفلة سعاد وقعت بالصدفة فى يد أمى . كانت أمى تقرأ وتكتب . جذبها العنوان فقرأت الكراسة كلها . حين عدت من المدرسة رأيتها ترمقنى بعينيها العسليتين يكسوهما بريق ، صوتها فى أذنى له رنين الفضة : عندك موهبة يا نوال . كان ذلك فى صيف عام ١٩٤٤ . مضى على هذا اليوم نصف قرن وأكثر ، لكن صوت أمى يرن فى أذنى كأنما بالأمس ، وصورتها أمامى بلحمها ودمها داخل قميص نومها الأبيض المنقوش بالزهور ، أراها فى الحلم وأعلم أنها ميتة .

سمعت العبارة ذاتها من أبى بعد أن قرأ كراستى ، إلا أن عبارة أمى كانت الأسبق ، والأعمق ، والأكثر حرارة ، ذاكرتها تشبه ذاكرتى ، حين ولدتها أمها لم تنطلق الزغاريد ، أصبح وجه أبيها كظيمًا ، كان يريدها ذكرًا تحمل اسمه واسم أبيه .

كرهت أباها وأمها وجدتها وكل النسوة . لم تشأ أن تكون مثلهن راكدة فى البيت . لم تحلم بالزواج أو فستان الزفاف . كانت تنام وتحلم إنها تطير فى السماء ، تركب الخيل والطائرة ، تعزف الموسيقى وتؤلف الألحان . أخرجها أبوها من المدرسة بالعصا . كانت فى السادسة عشرة من عمرها . زوَّجها لأبى . عاشت حياتها ما بين المطبخ وغرفة النوم . ولدت تسعة من الأطفال ثم ماتت فى ريعان الشباب ويدها فى يدى ، اتسعت عيناها لحظة الموت بالدهشة الطفولية كأنما عادت إليها الذاكرة فجأة .

لولا أمى ربما ضاعت حياتى ما بين المطبخ وغرفة النوم . إلا أنها قرأت مذكرات الطفلة سعاد ، أرادت أن تنقذ ابنتها بعد أن عجزت عن إنقاذ نفسها ، وتعوض فيها أحلامها المجهضة .

٣ - مذكرات فتاة غير عادية :

كنت فى أول الشباب حين ماتت أمى ، مات أبى بعدها بشهور قليلة . قبل أن يموت بأيام قليلة قال لى : أنت مسئولة عن إخوتك وأخواتك من بعدى . لم يقل هذه العبارة لأخى الأكبر . أصبحت ربة أسرة كبيرة العدد ، أقوم بالدورين الأب والأم ، والرجل والمرأة ، الإنفاق والرعاية والحنان .

بدأت فى تلك الفترة من شتاء ١٩٥٩ أكتب سيرتى الذاتية تحت عنوان « مذكرات فتاة غير عادية » . كنت أشتغل طبيبة جراحة فى مستشفى الصدر بالجيزة ، وعيادتى الطبية فى ميدان الجيزة ، أتحمل فى البيت مسئولية لا يتحملها الرجال ، فى المستشفى والعيادة أعالج الرجال والنساء ، أنقذ أرواحهم وأجسادهم من الموت ، إلا أن القانون والشرع يرانى نصف رجل ، لا أستطيع أن أدلى بشهادة فى المحكمة كإنسانة كاملة ، ليس لى حق الولاية على أخواتى القاصرات ، لا يمكن لى السفر دون إذن مكتوب من زوجى ، يملك حقوقًا لا أملكها . منها الطلاق ، تعدد الزوجات، ما سمى « قوامة الرجل » على المرأة رغم أننى أتحمل مسئولية الإنفاق .

رفضت كل هذا . كان معى المنطق والعدل والحق . إلا أن الشرع والدين لم يكن معى . هنا اصطدمت بالمقدس . بدأت أبحث كيف نشأ هذا المقدس فى التاريخ . وصلت إلى الحضارة المصرية القديمة ، كانت الإلهة الأنثى رمز المعرفة والعدل والصحة ، الإلهة « سخمت » نقيبة الأطباء فى مصر منذ سبعة آلاف عام ، « معات » هى رئيسة القضاة وإلهة العدل ، لا يمكن للمرأة أن تكون قاضية اليوم .

فى طفولتى سمعت أبى يقول : الجنة تحت أقدام الأمهات ، أحد النصوص المقدسة. بعد موت أمى رأيتها فى الحلم تعانى الوحدة والحزن فى حياتها الجديدة بالجنة . كان أبى مخلصًا لها طوال حياته ، فى الجنة تخلى عن هذا الإخلاص تركها وحيدة وانشغل بالعذراوات والحوريات ، يشف بياضهن من تحت الساق ، له منهن اثنان وسبعون حورية ، تعود الواحدة منهن عذراء بعد تمزق الغشاء ، ليتمزق من جديد كالجلود المحروقة فى النار تتجدد .

كان أبى رقيق الطبع فهل يتحول بعد الموت إلى آلة ذكورية شديدة القسوة والغباء لا عمل لها إلا تمزيق أغشية العذراوات ؟ أمى حكت لى آلامها ليلة الزفاف ، هذا الألم تعرفه كل امرأة ، فكيف تتكرر هذه المأساة كل ليلة ؟

ألا تكون النار أفضل للنساء من الجنة ؟ وكيف تتحول أمى إلى عذراء بعد أن ولدت تسعة من العيال ؟!

راحت مذكرات فتاة غير عادية إلى العدم . لم ينشرها أحد فى مصر أو بيروت . لم يبق منها ضمن أوراقى القديمة إلا قصة قصيرة بعنوان « ليس لها مكان بالجنة » بقيت فى الدرج الخفى خمسة وثلاثين عامًا ، وافقت على نشرها إحدى المجلات الأسبوعية بمصر بعد الحذف والتعديل عام ١٩٨٩ .

أما مذكرات الطفلة سعاد فلم ينشرها أحد . بقيت كامنة فى الدرج أكثر من أربعين عامًا ، ثم نشرتها عام ١٩٩٠ دار جمعية تضامن المرأة العربية ، قبل أن تغلقها الحكومة بعام واحد .

٤ - مذكرات طبيبة :

إنها رواية تأخذ شكل السيرة الذاتية ، فيها بعض أجزاء من حياتى ، وأجزاء أخرى من حياة زميلاتى الطبيبات وصديقاتى ، نشرت الرواية على شكل حلقات فى إحدى المجلات الأسبوعية فى مصر عام ١٩٥٩ بعد الحذف والتعديل ، ثم صدرت على شكل كتاب عام ١٩٦٠ ، نشرته إحدى دور النشر فى مصر بعد الحذف والتعديل أيضًا ، خرج الكتاب كالطفل المبتور الأعضاء ، أو الطفلة يستأصلون بمقص الرقيب أجزاء من جسدها ، لم ينشغل النقاد إلا بسؤال واحد : أهى رواية أم سيرة ذاتية ؟ وسؤال آخر كان يشغلهم : ما علاقة الطب بالأدب ، كيف أكتب أدبًا وأنا طبيبة ؟

مذكرات طبيبة كتبتها بلغة مختلفة عن لغة الأدباء والأطباء . لم تندرج تحت العلم أو الفن ، وأنشغل بعض النقاد باللغة فحسب ، هل هى أدبية أو علمية ، فصلوا الكلمات عن معناها ، فصلوا العلم عن الفن كما فصلوا الطب عن الأدب . وانشغل بعض النقاد بالمعنى فقط ، تساءلوا ما معنى ما كتبت ؟ ولماذا يخرج عن المفاهيم الموروثة مثل إباحة المحرمات ؟ وقد حكيت عن خادمة صغيرة فى الرابعة عشر من عمرها جاءت إلى عيادتى تطلب منى إجهاضها . لم يكن للطفلة الحامل سفاحًا أن تعود إلى أبيها فى القرية فيقتلها . لقد اغتصبها فى ظلمة الليل سيدها البيه العجوز ، وابنه الشاب كان يتدرب على إثبات ذكورته معها ، وطردتها سيدتها خوفًا من الفضيحة وحماية لرجل العائلة الكريمة ، وكتبت فى مذكرات طبيبة أقول : كيف لا أنقذ هذه الضحية البريئة والمجتمع يطلق سراح الجانى ؟ حين دخلت الطفلة عيادتى تذكرت طفلة تشبهها كانت

خادمة فى بيت جدى ، طردتها خالتى فهيمة من البيت ، أخذتها إلى القطار وعادت بدونها ، لم أعرف هل قتلها أبوها أم ألقت نفسها فى النيل ؟ كنت طفلة صغيرة وعجزت عن إنقاذها ، وفتاة أخرى عجزت عن إنقاذها فى القرية وأنا طبيبة بالوحدة الصحية عام ١٩٥٧ ، رأيتهم ينتشلون جثتها من النيل فى يوم رمادى أغبر ، وحين جاءتنى تلك الخادمة إلى عيادتى قررت إنقاذها . كان الإجهاض ممنوعًا فى القانون ، وفى نقابة الأطباء نقسم عند التخرج القسم الموروث منذ أبقراط : « وألا أجهض حاملاً » ، وطلبت تغيير القسم ، إلغاء هذه العبارة ، واستبدالها بعبارة أخرى نقسم بها نحن الأطباء « ألا نستأصل من جسد الطفل الذكر أو الطفلة الأنثى أى جزء سليم تحت اسم الختان » . ورفض أطباء النقابة طلبى بالإجماع .

كنت كأنما أمشى فى حقل من الألغام ، والأطباء فى التاريخ هم ورثة الكهنة الذين آمنوا أن الماء المقدس يشفى الأمراض ، والأزدواجية فى القوانين هى القاعدة ، والعدالة عمياء ، فهذا الرجل الكبير الذى اغتصب الفتاة تسقط عنه التهمة ولا يعاقب إن تزوجها . هكذا يكافىء القانون الرجل المغتصب بالزواج من البنت التى اغتصبها ، ويعطيه القانون الحق فى تطليقها فى أى وقت يشاء ويخرج من الجريمة بريئًا طاهر الذيل ، أما الفتاة فهى تروح ضحية جريمتين : الاغتصاب والزواج بالرجل الذى أعتدى عليها ، ثم الخروج إلى الشارع بعد الطلاق لتمارس البغاء أو تعود إلى الخدمة بالبيوت لتعيش الاغتصاب مرة أخرى .

كانت مهنة الطب تكشف لى أمراض المجتمع ، عن مآسى الناس خاصة النساء الفقيرات ، وأصبح القلم كالمشرط ، والطب كالأدب يسعى نحو الثورة ضد الظلم ، ينشد العدل أو الحرية أو الحب أو الجمال أو الفضيلة ، وكلها شىء واحد ، ينسكب رغم إرادتى فوق الورق على شكل كلمات لم يألفها النقاد ، والمعانى أيضًا لم يألفوها ، لا تتسق مع الموروث أو التراث ، لا تدخل ضمن القوالب النقدية ، هل هى رواية أو سيرة ذاتية ؟ هل تنتمى إلى الأدب الواقعى أو غير الواقعى ؟ هل هى أدب نسائى أم غير نسائى ؟ ما هى علاقة النص بالمنصوص ؟ ما مرجعيات النص وما علاقة الذات بالأخر ؟ هذا النوع من الأسئلة التى تشغل عقول النقاد .

٥ - مذكراتى فى سجن النساء :

كتبت هـذه السيـرة الذاتية فى خـريف ١٩٨١ ، على مدى ثلاثة أشهر قضيتها فى سجن النساء بالقناطر الخيرية . فى بلادنا يتمتع رئيس الدولة بقداسة الآلهة ، لا يمكن أن ينقده أحد إلا بعد موته . وكان رئيس الدولـة حينئذ قد أعلن أن الحكم فى بلادنا أصبح ديمقـراطيًا ، وأن المعارضة أصبحت شرعية والنقد مباح . بدأت أنقد وأنشر رأيى فإذا بى داخل السجن .

تجربة السجن ضرورية للإبداع الأدبى . سواء كان رواية أو سيرة ذاتية ، شعرًا أو نثرًا ، هذه الفواصل تسقط مع سقوط الفاصل بين الجسد والروح والماضى والحاضر والزمان والمكان .

كنت أخاف السجن قبل أن أدخله ، نحن لا نخاف السجن ولكننا نخاف المجهول . فإذا أصبح الموت معلومًا ربما فقدنا خوفنا منه . تصحو الذاكرة اللاإرادية حين نتحرر من الخوف .

حين نخرج من قبضة الحاضر . حين نتخلص من المشاغل اليومية ومشوشات العقل مثل قراءة الصحف أو متابعة خطب الرؤساء .

فى السجن شعرت بحرية الخروج من قبضة الحياة اليومية ومطالبها ، لم أعد مسئولة عن شىء فى حياتى ، أصبحت حياتى فى يد الآخرين ، وتفرغت أنا لكتابة سيرتى الذاتية . أصبحت أعيش كأنما خارج الكون ، أطل عليه من بعيد دون أن أكون جزءًا منه . نحن فى حاجة إلى هذه المسافة لنرى أنفسنا والآخرين .

لم يكن فى الزنزانة ورقة وقلم . كل يوم يأتينا المسئول البوليسى ويقول مهددًا «الورقة والقلم أخطر من الطبنجة » إلا أننى حصلت على قلم صغير ، من إحدى الفتيات السجينات فى عنبر الدعارة المجاور لنا ، وحصلت على لفة من ورق التواليت من إحدى النساء القاتلات ، كنت أكتب فى الليل ، وفى النهار أخفى القلم والورق داخل علبة صفيح تحت الأرض . كانت الكراسى من الممنوعات ، أجلس فوق قعر صفيحة مقلوبة ، وأمامى قعر صفيحة أخرى مقلوبة أجعلها مكتبًا . كان الليل طويلاً ممدودًا إلى

ما لا نهاية ، والقلم يمشى تلقائيًا على الورق ، تحركه ذاكرتى اللاإرادية ، عدت فى الزمان والمكان كما أشاء فى القرية وعمرى خمس سنوات ، فى المدينة وعمرى أربعين عامًا ، جدتى تنهض من قبرها وتمشى أمامى ، أمى وأبى أيضًا ينهضان من الموت ، زميلاتى فى المدرسة الثانوية وكلية الطب ، الأقارب والقريبات ، الزوج الأول والثانى أيضًا ينهضان من العدم . لم يكن الأول راضيًا عن نجاحى فى الطب ، كان يغضبه أن تتفوق زوجته عليه ، أما الثانى فلم يكن راضيًا عن كتاباتى ، وجاءنى فى يوم يقول « عليك أن تختارى أنا أو كتاباتك » وقلت « كتاباتى » . موقف غريب لا يعيشه الرجل الأديب ، وإن جاءته زوجته وقالت « أنا أو كتاباتك » تصبح الزوجة مجنونة أو شاذة فى نظر الناس ، وإذا اختار الرجل الأديب كتاباته فهو إنسان طبيعى مبدع ، أما المرأة الأديبة التى تختار كتاباتها فهى غير طبيعية أو شاذة ، والمفروض أن تختار زوجها ، فهو حياتها ، لا حياة للمرأة بدون الرجل ، تعيش من أجله وتموت من أجله ، تخلص له فى الحياة وبعد الموت ، أما الرجل فهو يعيش للأعمال الكبرى فى العلم أو الأدب ، والمرأة فى حياته تشغل جزءًا صغيرًا من أجل الترفيه عن العمل ، لا يخلص لها فى حياته أو بعد موته ، يندرج « عدم الإخلاص » تحت بند الرجولة والقانون والشرع .

كانت حياتى عندى أثمن من رجال العالم أجمعين ، وحياتى هى أوراقى أكتبها بلغتى وقلمى وعقلى وذاكرتى ، أعشق موسيقى الكلمات ، وعبيرها يشبه الزهور تتفتح فى الصبح ، كلمة « زواج » تثير نفورى ، تعيد إلى ذاكرتى رائحة المطبخ والبصل والثوم، وقال أحد النقاد عن كلماتى إنها غير طبيعية . فالمفروض أن « الأنا العليا » عند المرأة ناقصة ولا يشغلها الأدب أو الثقافة .

فى مذكرات السجن تذكرت أحداثًا تاريخية هزت الوطن ، مثل ثورة ١٩٥٢ ، والمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عام ١٩٦٢ ، وجدت نفسى جالسة مع الرجال فى القاعة الفسيحة ، فوق المنصة رئيس الجمهورية من حوله رجال الدولة ، إنهم يبحثون عن تعريف للعامل والفلاح ، وأنا فى مقعدى أتلفت حولى فى اندهاش ، من هو الفلاح ؟ السؤال يرن فى أذنى غريبًا ، منذ ولدت فى القرية وأنا أعرفه ، الجلباب الأجرب القديم ، الوجه الضامر الممصوص ، اليدان المشققان المحروقتان بالشمس ، يأكل الجبن الحادق مع المخلل ، يبول الدم فى البول . منذ الطفولة سمعت جدتى الفلاحة تقول «البول الأحمر دليل الصحة والعافية » .

كل الفلاحين كان بولهم أحمر فى مصر ، لم يكن فلاح واحد ينجو من مرض البلهارسيا . إلا أن السؤال كان يرن فى أذنى : من هو الفلاح ؟ الرجال فى الصفوف الأمامية يتبارون للرد أمام رئيس الدولة، فى حضوره يصبح الرجال أكثر أدبًا. أكثر رقة، صوتهم يصبح ناعمًا كأصوات النساء ، وجاء دورى للكلام ، كنت أجلس فى الصفوف الخلفية ضمن الشباب الصغار المجهولين ، كعب حذائى متآكل قديم ، وجهوا إلى السؤال: من هو الفلاح ؟ قلت : الفلاح هو الذى بوله أحمر ، وقال أحد رجال الصحافة أن مثل هذه الكلمات غير أدبية خاصة فى حضور كبار رجال الدولة ، رأيته فيما بعد يركب سيارة طويلة سوداء ، بين شفتيه سيجار ضخم ، لقد دخل مجلس الشعب ضمن الفلاحين ، أما أنا فقد دخل اسمى القائمة السوداء لم يخرج منها حتى اليوم .

فى مذكرات السجن كانت الأحداث العامة تذوب فى الأحداث الخاصة ، لا يمكن الفصل بين حياتى العامة وحياتى الخاصة . وهل يتغير الإنسان لمجرد خروجه من باب بيته ؟! إلا أن الأحداث الخاصة كانت أكثر حميمية ، فهى ترتبط بجسدى وعقلى وغرفة نومى وحياتى وموتى . إن أكبر حدث فى حياتى هو موتى ، أما موت رئيس الجمهورية فهو أقل أهمية ، وقال أحد النقاد : هذه كاتبة تكتب عن ذاتها وتنشغل بها عن الهموم الوطنية الكبرى ، وقال ناقد آخر : هذه هى الطبيعة الأنثوية ، فالمرأة ذاتية أما الرجل فهو موضوعى .

لم يكن يشغلنى هذا الفاصل المصنوع بين الذات والموضوع ، أو الأنا والآخر، أو أدب المرأة وأدب الرجل ، أو أدب الشرق أو أدب الغرب ، كنت مشغولة بالتعبير عما يجول فى خاطرى دون تفكير فى العواقب ، وأكثر ما يرضينى هو أن تصلنى رسالة من قارىء أو قارئة تقول لى : قرأت مذكراتك فى السجن وتغيرت حياتى .

٦ - أوراق حياتى :

بدأت هذه السيرة الذاتية فى شتاء عام ١٩٩٣ ، بعد أن تجاوزت الستين عامًا من العمر ، وأصبحت أعيش المنفى ، فى مدينة صغيرة تشبه القرية اسمها « ديرهام » على بعد أكثر من عشرة آلاف ميل من الوطن .

تجربة المنفى تشبه تجربة السجن ، التحرر من قيود الزمان والمكان وسقوط كثير من الأقنعة أو المحظورات والمخاوف . أكبر خوف فى حياتنا هو الخوف من الموت . هربت من الموت بعيدًا عن الوطن . لقد دخل اسمى ما سميت قائمة الموت ، وهى شىء غامض يزيد غموضًا عن القائمة السوداء ، إلا أننى رأيت الحراسة المسلحة أمام بيتى فى إحدى الليالى الحارة الغبراء من شهر يونيو ١٩٩٢ ، وبودى جارد يرافقنى أينما ذهبت ، واندهشت ، كيف تتحمس الحكومة لحماية حياتى ولم يجف مداد قرارها بإغلاق الجمعية التى أنشأتها ومجلتها « نون » . كنت فى ذلك الوقت أكتب رواية طويلة جديدة . شبح الموت طرد الرواية من خيالى . تضاءلت أحداثها إلى جانب الحدث الذى يهدد حياتى . وهل فى حياتنا حدث أهم من موتنا ؟!

ربما يكون لموتى فوائد جمة ، إلا أن أهم فائدة هى إدراكى لقيمة حياتى . فالحياة مثل أى شىء فى حياتنا لا ندركها إلا حين نفقدها أو نهدد بفقدانها .

أغلب الناس . خاصة النساء لا يقدمن على كتابة السيرة الذاتية لسبب بسيط هو عدم الإدراك لقيمة حياتهن . إن حياة الرجل أو المرأة العادية مليئة بالتجارب الثرية ، إلا أننا نتربى على احتقار ذواتنا وتجاربنا . منذ الطفولة نفقد الإحساس بقيمة حياتنا ، رغم أن كل حياة لها قيمتها وأصالتها وتميزها مثل البصمة لا تتكرر وليس منها نسخة أخرى .

إن حياة الإنسان فى بلادنا رخيصة ، خاصة إذا كان فلاحًا فقيرًا ليس عضوًا فى الطبقة الحاكمة ، أما المرأة الفقيرة فإن قيمتها تهبط إلى نصف قيمة الرجل الفقير من طبقتها ، وإن كانت هذه المرأة زوجته فإن قيمتها تهبط إلى الثمن حسب الميراث فى الشرع .

فى المنفى أصبحت أستاذة للإبداع الأدبى فى جامعة ديوك فى ولاية نورث كارولينا ، على الشاطئ الشرقى الجنوبى للمحيط الأطلنطى بأمريكا الشمالية ، وأنا لا أحب التدريس أو المدرسين ، كنت أطلب من الطلبة والطالبات أن يكتبوا عن طفولتهم ، مع الكتابة تنمو الذاكرة . فى أول العام كان بعضهم لا يكتب شيئًا . إحدى الطالبات وهى أمريكية قالت إنها لا تذكر شيئًا هامًا فى طفولتها وليس فى حياتها شيئ يستحق الكتابة . وفى نهاية العام كتبت هذه الشابة وعمرها عشرين عامًا قطعة أدبية من

السيرة الذاتية . تذكرت أنها فى السادسة من عمرها تعرضت لحادث اغتصاب ليلة الكريسماس ، وارتبط مولد المسيح فى ذاكرتها بحادث الاغتصاب الجنسى ، إلا أن الفاعل ظل مجهولاً ، فى الليل حين تنام يأتيها على شكل رجل له لحية طويلة يشبه بابا نويل ولم تعرف ما هى الهدية ، إلا أنه يهمس فى أذنها بصوت رقيق : سوف تحملين بالمسيح ليكون ابن الله الذى ينقذ العالم من الظلم !

قرأت هذه القطعة على الطلبة والطالبات فى نهاية العام ، وتشجع الجميع ، لم يعد الاغتصاب فى الطفولة مبعث خزى أو عار ، إنه حدث عام ، يحدث لأغلب الأطفال ذكورًا وإناثًا ، وكان فى الفصل طلبة وطالبات من القارات الخمس من آسيا وأفريقيا وأوروبا واستراليا والأمريكتين ، رغم اختلاف الأديان واللغات والثقافات إلا أن المحظورات الدينية والجنسية فى الطفولة متشابهة ، ينسى الأطفال حوادث طفولتهم، ظاهرة تسمى فى الطب « فقدان الذاكرة عند الأطفال » أو باللغة الإنجليزية الطبية .

ترتبط عملية الإبداع بنمو الذاكرة ، يكتشف كل إنسان كنوز الحياة ، وبدأت هذه اللحظات المضيئة تومض فى حياتى وأنا فى المنفى البعيد ، مثل النجوم التى انطفأت وماتت منذ ملايين السنين ، مع ذلك يصلنا ضوؤها ونراها بعيوننا فى السماء متألقة فى الليالى غير القمرية .

وعاش معى المنفى زوجى شريف وهو أديب مبدع فى الطب والأدب والسياسة ، لهذا السبب قضى من حياته خمسة عشر عامًا فى السجن وأعوامًا أخرى فى المنفى ، كنا نمشى معًا على العشب الأخضر على شاطئ الأطلنطى ، تعود إلينا رائحة العشب فى الوطن على ضفاف النيل ، فنستشعر الحنين إلى الوطن والأهل ، تبرز من الماضى حياتنا السابقة وتلتحم بالحاضر فى نسيج واحد .

وتربط السيرة الذاتية بين الخيال والواقع والحلم والحقيقة فى سياق ينساب تلقائيًا مع نمو الذاكرة اللاإرادية . إلا أن الخيال فى بلادنا يرسف فى القيود ، خاصة الخيال الأدبى العلمى ، أو الخيال المادى غير المنفصل عن الواقع . لا يُشجَّع فى بلادنا إلا الخيال الخرافى النابع من الأوهام أو الإيمان بأشياء لا وجود لها مثل العفاريت والشياطين .

ربما تكون السيرة الذاتية أكثر صدقًا من الرواية ، أو أكثر فنًا وإبداعًا ، لأنها تكشف عن الذات بمثل ما تكشف عن الآخر . كتبت أوراقى حياتى فى خمس سنوات خارج الوطن . كان القلم فى يدى مثل المشرط يكشف عما تحت الجلد ، تحت العضل ، يصل إلى جذور الأجزاء المبتورة من الجسد أو العقل أو الذاكرة ، ثم يحلق بى السماء السابعة لأرى أشياء لم أكن أراها وأنا أمشى فوق الأرض .

تضاءلت كنوز الأرض والسماء إلى جوار ما أكتب فى « أوراقى حياتى » . غمرنى فرح لم أشعر به منذ كنت فى السابعة من عمرى . أفرد ذراعىَّ وأتمطى ، وأحتضن الكون وأمشى فى غابة ديوك بين سيقان الأشجار ، وشعاع الشمس يلامس وجهى دافئًا حانيًا كأصابع أمى وأنا فى الخامسة من العمر .

إن أسهل وأصعب الكتابات هى السيرة الذاتية ، هى السهل الممتنع ، هى بديهيات الحياة . نعرفها فى الطفولة ثم نفقدها بالتدريج مع التعليم والإيمان بأن الروح يمكن أن تنفصل عن الجسد ، نتخبط فى شبابنا وكهولتنا مع الثنائيات المفروضة علينا منذ نشوء العبودية .

رغم كل القيود يظل الإنسان المبدع أو الإنسانة المبدعة قادرة على الإمساك بذاكرتها المفقودة ، فلا شىء ينتهى تمامًا طالما أن الإنسان حى ، والطفلة أو الطفل لا يموت أبدًا داخلنا ، ويمكن فى أواخر عمرنا أن نسمع فى أعماقنا العميقة صوت عقولنا الحبيسة ، هذا الصوت الذى لم ينقطع أبدًا عن الهمس لنا ، فالذاكرة لا تموت كليًا ، تظل فى مكان ما داخل خلايا العقل ، ومن هنا تنشأ الرغبة الملحة فى كتابة السيرة الذاتية ، فهى ليست إلا محاولة لاستعادة ذكائنا الفطرى حين كنا فى السابعة من العمر .

وتنبع متعة الكتابة من هذا الإحساس الجديد ، أننا وحدة كاملة مع أجسامنا وعقولنا وأرواحنا ، نعيش الطفولة مع شبابنا ، مع كهولتنا ، يلتحم الحاضر بالماضى والزمان بالمكان مع وجودنا هنا والآن فى هذه اللحظة الممدودة إلى الأبد .

● ● ●

كسر الحدود(*)

منذ ولدت وأنا أسمع الناس من حولى يقولون : لا تتجاوزى الحدود !

أصبح بينى وبين كلمة « الحدود » عداء . فما هى هذه الحدود ؟ ومن يضعها ؟ سؤال كان يراودنى دائمًا فى طفولتى ، ومازال حتى اليوم يراودنى كلما قال لى أحد : لا تتجاوزى الحدود !

أردت مرة أن أكتب قصيدة شعر وأنا طفلة لكن جدى « والد أمى » رمقنى بنظرة ساخرة ، كأنما الأطفال بلا عقول وليس فى قدرتهم كتابة الشعر ، رغم أن الإبداع شعرًا كان أو موسيقى أو رسمًا أو أدبًا أو أى نوع آخر من الإبداع يبدأ فى الطفولة .

لكن الناس يضعون « الحدود » لما يفعله الطفل أو الطفلة . لهذا كرهت كلمة « الحدود » فى طفولتى ، وتولدت فى أعماقى العميقة رغبة ملحة لتجاوز هذه الحدود . وهى رغبة طبيعية فى كل طفل وطفلة . لكن الناس تصورها كأنما هى رغبة غير طبيعية .

من أجل أن تظل الطفلة أو الطفل طبيعيًا يحظى برضا الآخرين واقتناعهم بطبيعته فإنه يلزم هذه الحدود التى يضعها الآخرون أمامه ، وبالتالى يفقد الإبداع .

« أنا » والآخرون ، أو « أنا » و « الآخر » مشكلة تواجه الإنسان المبدع منذ الطفولة ، وكل إنسان يولد مبدعًا ، ويواجه كل إنسان هذه المشكلة ، علاقته بالعالم الخارجى .

حتى هذه اللحظة أنا أواجه هذه المشكلة . إن العالم من حولى يموج بالصراعات ،

(*) القاهرة – الجريدة اليومية (العالم اليوم) ص ١٤ / السبت ١١ يناير ١٩٩٢ .

كالغابة يأكل الكبير الصغير ، من يملك السلاح النووى تكون له المكانة والكلمة العليا . من يملك المال والمنصب أو السلطة تكون له الغلبة على من يملك العطف والرقة والإنسانية .

العالم الخارجى يغضبنى ، وكلما وعيت العالم الخارجى ، ووعيت قيمه وقوانينه زاد غضبى .

فالإنسان الطبيعى يغضب حين يرى الظلم ، لكن هذا الغضب الطبيعى أصبح كأنما هو غير طبيعى ، كأنما الظلم هو الطبيعى وعلينا أن نتقبله بسرور ورضا ، أو على الأقل الصمت وعدم الاحتجاج . لكن الصمت موت ، والاحتجاج على الظلم أولى الخطوات نحو الإبداع .

الطفل الذى يرى أمامه الخادمة الصغيرة فى مثل عمره تكوى بالنار أو تضرب بالكرباج بيد أبيه أو أمه « لأنها كسرت كوبًا » ويظل صامتًا راضيًا لا يتألم ولا يحتج ، تموت فيه بذرة الإبداع ، ويتعود أن يرى الظلم ويسكت بل يشارك فيه .

الإبداع هو الجمال ، والعدل هو الجمال فى قمة مظاهره الإنسانية والاجتماعية .

الإبداع كالبذرة فى الأرض ، تحتاج إلى الرى والماء . هذا الماء هو حب العدل - أى حب الجمال والحرية . لا يوجد جمال بغير عدل أو حرية . مبدأ إنسانى أولى .

« الحرية » كلمة إنسانية جميلة تغنى بها الشعراء والمبدعون والفنانون . الحرية هى نقيض القيود أو الحدود .

كل إنسان يولد حرًا ، وكل إنسانة تولد حرة . هذه حقيقة طبيعية . لكن هناك حقيقة أخرى طبيعية هى أن الإنسان يعيش داخل مجتمع فيه « آخرون » ، وكل فرد من هؤلاء الآخرين له الحرية نفسها التى أريدها لنفسى .

أنا والآخر نستحق الحرية والعدل والجمال . فلماذا أعتدى على حرية الآخرين ، ولماذا يعتدى الآخرون على حريتى ؟

هل الاعتداء على حرية الآخرين وحقوقهم الإنسانية جزء من الطبيعة البشرية ؟
هل الظلم طبيعة الإنسان أم أنه نظام اجتماعى ؟!

سؤال تاريخى قديم يراود كل إنسان مبدع أو كل إنسانة مبدعة .

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال دون قراءة التاريخ البشرى ، ومحاولة الوصول إلى الجذور الأولى التى نشأ منها الظلم أو العبودية .

لكن قراءة التاريخ أو إعادة قراءة التاريخ تحتاج إلى إبداع ، أو إحساس جديد يلتقط الحقائق ويتجاوز حدود التاريخ الرسمى المحدود .

• • •

عصر المجهول(*)

الإبداع إحساس جديد يبدأ غامضًا . رغبة ملحة فى تجاوز الحدود القديمة إلى آفاق من الحياة أوسع وأرحب وأكثر جمالاً وحرية وعدلاً .

لكن عبارة « لا تتجاوزى الحدود » تصاحبنى منذ الولادة حتى الموت . قد أخضع لهذه العبارة وألزم الدار والجدران الأربع . أجلس فى مقعدى وأغلق عينى وأذنى عما يحدث فى العالم الخارجى .

إنه نوع من الراحة لا شك ، يصاحب الإنسان حين يتخلى عن المسئولية ويقول لنفسه : وأنا مالى ؟ فليذهب العالم إلى الحرب أو للنهاية ، وليقتل الآلاف ويجوع الآلاف إنها ليست مسئوليتى ، لست مسئولاً عن العالم !

قلت لنفسى ذلك وأغلقت نفسى عن العالم . لم أعد أتابع الأخبار أو الإذاعات العالمية أو المحلية . شعرت بنوع من الراحة المؤقتة . لم أعد أسمع أخبار الحروب والكوارث والمجاعات والجرائم والقتل والاعتداءات على أرض الغير وحقوق الآخرين .

كلما كنت أتابع هذه الأخبار يزداد يقينى بأننا نعيش فى غابة كبرى . يحكمها قانون عالمى يفتقد العدالة فى عالم قبيح . هناك ارتباط وثيق بين العدل والجمال أو بين الظلم والقبح . إنه الترابط بين الإبداع والرغبة فى التعبير عن هذا الظلم أو هذا القبح لتصبح الحياة أكثر جمالاً أو أقل قبحًا .

ومن هنا ارتباط الإبداع بحرية التعبير . الإبداع يعبر عن نفسه بالضرورة . فإذا فرضنا عليه الصمت مات .

لهذا لم ألزم دارى طويلاً . فالصمت قاتل للنفس الإنسانية . لا يمكن أن يعيش الإنسان وحيدًا داخل جدران أربعة . لابد أن يخرج إلى العالم وإن كان قبيحًا . لابد أن يسمع الأخبار والإذاعات وإن كانت مؤلمة .

(*) الجريدة اليومية (العالم اليوم) ص ١٤ - ١٩ يناير ١٩٩٢ .

ثم من أين يأتى الإبداع إذا أغلقت عينى وأذنى عما يحدث حولى فى العالم الكبير. هل يمكن لهؤلاء الذين نسميهم مبدعين أو فنانين أو أدباء أو أديبات ، هل يمكن أن يعيشوا فى عزلة عن الحياة ؟

هل يمكن مثلاً أن تقوم الحرب العالمية الثالثة دون أن يتأثر هؤلاء المبدعون والمبدعات ؟

لقد غيرت الحرب العالمية الأولى ثم الثانية كثيرًا من القيم الإبداعية بما فيها الفن والعلم والفلسفة والتاريخ وكل مجالات المعرفة ومنها معرفة النفس أو علم النفس.

لقد قلبت الثورة الرأسمالية فى أوروبا كثيرًا من قيم العصور الوسطى رأسًا على عقب .

وفى جامعات أوروبا اليوم مواد علمية جديدة تقوم على محاولة إنسانية جديدة لإعادة فهم وتفسير الفلسفات والنظريات التقليدية وتطويرها بحيث تكون وسيلة لتحرير الإنسان وليست وسيلة للقهر والاستعباد .

ويتبنى هذا الاتجاه الجديد بعض الحركات فى أوروبا مثل الخضر والشباب والنساء والسود وغيرهم .

كذلك أحدثت الثورة الاشتراكية فى روسيا هزة فى العالم شرقًا وغربًا نتج عنها الكثير من التغيير فى القيم الاجتماعية والإبداعية .

وأحدثت حرب الخليج هزة فى العالم وفى بلادنا العربية لا يمكن أن ينجو من آثارها أى إنسان مبدع . كذلك الهزة التى صاحبت انهيار الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية ، وهذه الأزمات الاقتصادية الحادة التى تواجه دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، وتنذر بانهيار الإمبراطوريات الرأسمالية أيضًا .

نحن نعيش عصر التغيرات الكبرى ، وهو عصر يبدو للكثيرين مخيفًا مرعبًا يقود إلى المجهول ، لكنه عصر الإبداعات الكبرى أيضًا التى تميز فترات الانتقال من عصر إلى عصر ، أو من حضارة إلى حضارة .

• • •

لــــذة الإبــــداع(*)

الإبداع مرآة تعكس حياة البشر ، لذلك ينعكس العالم بما فيه من تغيرات أو حروب أو ثورات فى الأعمال الإبداعية على اختلاف أنواعها .

إن قصيدة من الشعر ضد الحرب مثلاً قد تكون أقوى أثرًا فى نفوس الناس من أى شىء آخر . وفى تاريخ الفن نماذج إبداعية هزت وجدان البشر بأكثر مما تفعل الزلازل .

وهناك أعمال إبداعية بقيت رغم زوال العهود التى ظهرت فيها . وكم من ألحان باقية يتغنى بها الناس وإن ضاع اسم مؤلفها مع الزمن .

وكم من أساطير وقصص باقية رغم مرور القرون وأعمال فنية إبداعية ، وتماثيل منحوتة بقيت وإن مات أصحابها . فى الحضارة المصرية القديمة كان هناك فلاسفة وفنانون مبدعون ، نساء ورجالاً ، ومازال الفن المصرى القديم موجودًا يراه الناس بعيونهم ، ويأتون إليه من مختلف القارات . يتحملون مشاق السفر . ينفقون الأموال من أجل رؤيته .

لماذا يسعى الإنسان لرؤية الفن والإبداع ؟ لماذا نسعى لسماع قطعة موسيقى أو قراءة رواية أو رؤية نحت فى الحجر ؟!

سؤال كان يراودنى دائمًا منذ حياتى المبكرة . كنت أدرك أننى حين أسمع الموسيقى أو أقرأ رواية جميلة أشعر بالمتعة .

ومن أجل هذه المتعة يسعى الإنسان إلى الأعمال الإبداعية . لكن لماذا هذه المتعة ؟

وماذا فى الإبداع يثير هذه المتعة فى نفوس الناس ؟

(*) الجريدة اليومية (العالم اليوم) ص ١٤ - ٢٧ يناير ١٩٩٢ .

حين قرأت رواية « الأيام » لطه حسين وأنا تلميذة صغيرة بكيت من الألم ، لكنى رغم الألم أحسست بمتعة . خليط غريب من الأحاسيس يفجره الإبداع فى النفس البشرية .

هذه اللذة الممزوجة بالألم هى السر فى بقاء الفن ، والسر فى قوته وتأثيره على البشر وقدرته على تغيير الإنسان والعالم أيضًا .

الإبداع قادر على تجاوز حدود الواقع إلى واقع آخر أكثر رحابة . وأهم ما يتجاوزه الإبداع هو « القيم » الراسخة فى النفوس ، والمتوارثة عبر الأجيال .

يتجاوز الإبداع حدود القيم السائدة ، ويخلق قيمًا جديدة أكثر إنسانية وعدالة . ولهذا يبدو الإبداع مخيفًا .

ولهذا قد يحكم على المبدعين أحيانًا بالموت أو السجن أو النفى ، لكن ما إن ينقضى ذلك الزمن أو العهد حتى يدرك الناس قيمة ذلك العمل الإبداعى ، ويقام تمثال مجسم للفنان المبدع على حين يموت المسئول الذى أصدر الحكم ضده .

يلعب الإبداع دورًا فى تشكيل القيم التى تُبنى عليها الحضارة الجديدة التى لم تولد بعد .

ونحن نعيش هذه الفترة الانتقالية بين القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين . بين حضارتين . واحدة فى طريقها إلى الزوال والأخرى قادمة .

فترة انتقالية صعبة مخيفة ، لكنها هى أكثر الفترات ملاءمة للإبداع . فالإبداع لا يحدث إلا فى هذه اللحظة الحرجة ، لحظة الانتظار بين موت القديم وولادة الجديد. لحظة أشبه بالعدم ، معلقة بين الموت والولادة . متأرجحة بين المعلوم والمجهول .

لحظة يكون فيها الإنسان وحده تمامًا ، يواجه نفسه ، يستلهم عقله الواعى وغير الواعى ، يعتمد على نفسه تمامًا ، فيبدع شيئًا جديدًا ويلعب دوره فى تشكيل المستقبل، أو يسقط مع الساقطين فى خضم الخوف والتشبث بذيل الماضى كما يتشبث الطفل بذيل أمه لا يعرف كيف يمشى وحده .

الإبداع استقلال مبكر واعتماد منذ الطفولة على النفس وليس على الآخرين .

• • •

حرية التعبير تستيقظ(*)

ظاهرة طيبة أن يتحمس لحرية التعبير عدد من الصحفيين فى بلادنا بمناسبة صدور حكم بالحبس ٨ سنوات على كاتب روائى .

لكن لماذا لم يحدث ذلك الحماس إلا بعد أن أذيع الخبر فى الإذاعة البريطانية ثم انتشر عبر موجات الإذاعات الخارجية ووكالات الأنباء .

كيف عم الصمت عامين تقريبًا منذ نشر أحمد بهجت مقاله فى جريدة الأهرام ١٩٩٠/٣/٣ يتهم مؤلف الرواية بالإلحاد ويطلب تقديمه للنيابة العامة .

كان المفروض أن تحدث الضجة الصحفية فى هذا الوقت ويتصدى لأحمد بهجت كل هؤلاء المتكلمين الآن عن حرية التعبير لكن أحدًا لم يكتب . أرسلت ردًا إلى جريدة الأهرام لم ينشر قلت فيه : إن عمل الصحفى ليس استدعاء النيابة للمؤلفين بل الدفاع عن حرية التعبير .

ولم يدهشنى مثل هذا الصمت فهو مألوف تمامًا ومن النادر أن يدخل أحد فى معركة ضد صحفى معروف بالأهرام من أجل كاتب غير معروف ليس له مؤسسة ولا رابطة بالسلطة .

وفى عام ١٩٩٠ طلبتنى محكمة أمن الدولة بمصر القديمة لأدلى بشهادتى فى تلك الرواية وكان المؤلف علاء حامد قد طلب شهادتى بعد أن أرسل إلى نسختين دون أن أعرفه شخصيًا ودون أن نلتقى ، وقرأت الرواية وذهبت إلى المحكمة وأدليت بشهادتى فى صف المؤلف ، وحقه الكامل فى حرية التعبير ، خاصة فى الأعمال الأدبية الخيالية التى لا يجب الحكم عليها بالمقاييس الدينية ، وليس من حق الأزهر الحكم علي الأعمال الفنية والأدبية ، وأن الرد على مثل هذا الكتاب يكون بكتاب آخر وليس بالنيابة .

لكن بعد عامين من الصمت على هذا الموضوع فوجئت بهذه الضجة الصحفية الآن . بعد أن أذيع الخبر فى الإذاعة البريطانية وغيرها من الموجات الأثيرية ، هب

(*) جريدة الأهالى ص ١٠ – ٨ يناير ١٩٩٢ .

الكثيرون وخرجوا من الصمت ، وكتبوا دفاعًا عن حرية التعبير ، وهكذا أصبح على كل من يتعرض للظلم فى بلادنا أو يصدر ضده قرار جائر أن يلجأ إلى الإذاعة البريطانية أو صوت أمريكا حتى تنتبه إليه الصحافة فى بلادنا ، وقد قرأت لأحد الصحفيين الحكوميين يندد بهذا القرار الذى يحبس مؤلفًا ٨ سنوات بسبب رواية بلا قيمة ، ومؤلف بلا قيمة ، وأن مثل هذا القرار يسىء إلى سمعة الدولة والحكومة فى الخارج ، ولابد من إلغائه ليحتفظ النظام المصرى بصورته المشرقة عن الديموقراطية فى الخارج .

كأنما الذى يهم فقط هو سمعة الحكومة لدى الأجانب وليس هذا الظلم والحبس ٨ سنوات لمؤلف كاتب بصرف النظر عن قيمته الأدبية .

هل الكاتب البعيد عن الأضواء والسلطة والشلل الصحفية يصبح كاتبًا بلا قيمة ؟ وهل الدفاع عن سمعة الحكومة فى الخارج يتطلب إهانة كاتب بهذا الشكل لمجرد أنه بلا سلطة ولا يملك الرد فى هذه الأزمة التى يتعرض فيها للحبس ؟

لقد أصبحت مأساة هذا المؤلف مضاعفة وبالرغم من أننى لا أعرفه شخصيًا ولم ألتق به أبدًا إلا أننى أحترم قدرته على الصمود أمام كل هذا .

• • •

رؤية نقدية لفن محمود سعيد(*)

هذه رؤية مختلفة لفن محمود سعيد من وجهة نظر المرأة التى يفرض عليها «العرى» أحيانًا باسم الحداثة والفن وكسر المحرمات وإطلاق حرية الغريزة ، ويفرض عليها « التغطية » أحيانًا باسم الأصالة والأخلاق والقيم والأعراف واحترام التراث الدينى والهوية .

بين هذين الفريقين تسقط المرأة ضحية ، فهى إما جسد يعرى لتبحلق فيه عين الفنان ، وإما جسد يغطى حتى لا يراه الرجل ، كلاهما وجهان لعملة واحدة أن المرأة فقط هى الجسد .

هذه الإهانة (لفصل روح المرأة وعقلها عن جسدها) لا يشعر بها الرجل ولا يعرفها ، لأنها إهانة بعيدة عن جسده وعن روحه . سواء كان من المدافعين عن الحداثة والفن وحرية الغريزة أو المدافعين عن الأصالة والقيم والأخلاق والدين .

هؤلاء جميعًا قد يختلفون وقد يتفقون إلا أن شيئًا واحدًا يجمعهم هو تحويل المرأة إلى أداة للفن والثقافة وليست شريكًا فى صنع الفن والثقافة .

لهذا لم يكن غريبًا أن ينعقد فى القاهرة مؤتمر كبير عن مستقبل الثقافة العربية فلا توجه الدعوة إلى امرأة واحدة لتجلس على المنصة مع الرجال وتتحدث عن وجهة نظرها فى مستقبل الثقافة فى بلادنا .

الرجال المدافعون عن حرية « عرى » المرأة أمام عين الفنان لا يريدون سماع رأى المرأة فى الثقافة والفن ، لأن المرأة فى نظرهم ليست إلا « موديلاً » يتعرى من أجل حملقة الرجل .

المرأة ليست الجسد والروح والعقل فى كيان إنسانى واحد قادر على الجلوس فوق المنصة مع الرجل والكلام فى الثقافة أو الفن أو السياسة أو غيرها .

(*) القاهرة ١٩٩٠ .

المرأة عندهم موديل صامت ساكن تمامًا بشرط أن يكون عاريًا أيضًا . الصمت والعرى والسكون الكامل هى الموديل المثالى أمام محمود سعيد .

هنا حرية المرأة (فى ألا تكون عارية) مفقودة ، حريتها أيضًا فى ألا تكون متوارية فى الأيقونة القبطية أو مختزلة فى الفن الإسلامى إلى خطوط تجريدية على الأوانى والنقوش أو مجرد جسد يغطيه الحجاب .

أنا لم أجد نفسى ولا أمى ولا جدتى فى لوحات محمود سعيد ، لم أجد بنات البلد الشغالات فى البيوت والحقول والمصانع والمدارس والمستشفيات .

وجدت نساء عاريات مثل جوارى هارون الرشيد جالسات فى وضع ساكن صامت أمام المصور .

أنا بالطبع لست ضد العرى فى الرسم والفن والعلم والطب ، لست ضد العرى إذا كان العرى من أجل مزيد من الكشف والصدق والحرية والعدل ، ولكن فى هذه الحالة لماذا لا يحدث العرى إلا للنساء الشابات . لماذا لا يحدث العرى للرجال والأطفال والعجائز ؟

يقولون أن جسد الرجل ليس جميلاً أو عرى الرجل لا علاقة له بالحرية وليس محرضًا لتفجير المشاعر ، لأن المشاعر التى ستنفجر هنا هى مشاعر المرأة ، والمفروض ألا نفجر بالفن إلا مشاعر الرجال .

كما أن الجميل والقبيح لا علاقة له بجنس الجسد ، وهناك شعوب وجدت فى جسد الرجل العارى فنًا جميلاً رفيعًا كما وجدت فى جسد المرأة العارى فنًا جميلاً رفيعًا ، يأتى رقى الفن من النظرة العادلة لجسد المرأة والرجل ، فالجمال هو العدل والفضيلة هى العدل .

ولماذا هذه النظرة غير المحترمة لهؤلاء العاريات ؟ يستمتع الرجل بالعرى لإشعال مشاعره ثم يلفظه كما يلفظ امرأة الهوى بعد زوال الشهوة .

يقولون عن محمود سعيد أنه فنان حسى يصور الأجسام النحاسية وأشعة الحرارة التى تنبعث منها كأنها شمسًا داخلية تضيئها ، هذا جميل ، إنه يشرك الحواس فى

الاختراق بصور العين والوجدان لسطح اللوحة والنفاذ إلى الحقائق الباطنة ، هذا جميل ، نحن نتحدث هنا عن حرية الفن فى إثارة الحواس ، والارتفاع بالجسد العارى إلى قمة الفضيلة ، إنها محاولة لإعادة الروح إلى الجسد ، إلى تجاوز الواقع المحدود ، إلى الارتفاع على فتات الأيام لنعيش امتدادات بعيدة .

والسؤال هو : ألا يمكن للمرأة الموديل العارية أن تحلم وتتجاوز واقعها المحدود وهى مرتدية ملابسها ؟! وهل العرى الجسدى للمرأة هو شرط ارتفاع الرجل عن واقعه المحدود ؟ ألا يمكن للمرأة غير العارية أن تشغل خيال الرجل وتفجر مشاعره ؟ إن الرجل غير العارى يمكنه تفجير مشاعر المرأة ، ما علاقة الملابس بتفجير المشاعر ؟!

نحن هنا أمام مشكلة تاريخية منذ نشوء العبودية وانفصال الجسد عن الروح فيما يخص المرأة (الروح تشمل العقل أيضًا) والرجل أيضًا . حين يلتحم جسد المرأة بروحها تصبح الملابس ثانوية لا علاقة لها بالحرية الفنية أو الجسدية . فالمرأة الفنانة الإنسانة لا تفرض على الرجل العرى الجسدى بل ترسمه وهو بطل يحارب وهو يزرع وهو يتكلم وهو يتعرى أيضًا إذا كان العرى مطلوبًا .

يقولون : الثلاثينات كانت أخصب فترات حياة محمود سعيد . أخذ فى هذه الفترة يتعقب التفاصيل المثيرة فى جسد الأنثى العارى ، وينقل إلينا نبض الجسد الأنثوى الفائر بالرغبة . أى رغبة ؟ ورغبة من ؟

هل كان العرى رغبة الموديل أم رغبة الفنان ؟ هل سمعنا الموديل تتحدث عن رغبتها أم جلست صامتة ساكنة تمامًا . يقولون أراد محمود سعيد أن يهرب من النساء الأرستقراطيات الباردات المزيفات إلى بنات البلد الساخنات الصادقات فى مشاعرهن، فهل هذا صحيح ؟ هل لوحات محمود سعيد تعبر عن بنت البلد ؟ أى بنت بلد هذه التى تكشف عن نهديها وفخذيها تحت الملاية اللفة ؟ أهى من جوارى هارون الرشيد ؟ وهل هؤلاء الجوارى والغوانى هن بنات البلد اللائى يهرب إليهن محمود سعيد ؟!

هذه أيضًا مشكلة ناتجة عن هروب الفن الأرستقراطى من الزوجة الباردة المحترمة إلى نساء فقيرات ساخنات غير محترمات . هذا الانقسام مفروض على النساء . فلا يمكن للمرأة أن تكون ساخنة ومحترمة . وهنا السؤال : لماذا لم يرسم

محمود المرأة المطحونة فى زواجها وحقلها وفقرها وقدميها المشققتين ويديها الخشنتين ، ألا يمكن للمرأة العارية الفقيرة أن تكون ساخنة جنسيًا إلا إذا تفرغت لمهنة الهوى فى بيوت اللذة ؟!

لوحات محمود سعيد لا تكشف انحيازه للنساء بنات البلد بل لفئة صغيرة من النساء الخادمات الجوارى والغوانى . إنه يتطلع سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا إلى النساء من الطبقة الحاكمة العليا ، لكنه يتطلع جنسيًا وحسيًا لنساء الطبقة الأدنى.

يقولون : اكتشف محمود سعيد تناقض بنت البلد ، تجمع بين الصفاء الروحى والاشتعال الجنسى ، بين المرح الباسم والحزن القاتم ، فهل هذا التناقض لا يسرى على النساء من الطبقة العليا وعلى الرجال أيضًا ، هذا الانفصام بين قدسية الروح الباردة وبين دنس الجسد الساخن .

يصور محمود سعيد جسد المرأة العارية تنتظر الرجل البطل كما كانت مصر تنتظر سعد زغلول ، وكما انتظرت إزيس أزوريس .

هنا يقع محمود سعيد فيما وقع فيه توفيق الحكيم حين كتب مسرحية إيزيس ، وصورها مجرد زوجة تنتظر زوجها ، مثل شهر زاد ومثل بنيلوب اليونانية ، كل منهن لا يشغلها فى حياتها إلا زوجها ، انتظار عودة زوجها إليها ، الانتظار فى سكون وصمت تام مثل الموديل الجالسة أمام الفنان .

« حميدة » الخادمة السمراء الفقيرة هى الموديل المثالى فى حياة الفنان الأرستقراطى ، شهوانية غليظة الشفاه ، سمراء بحرقة الشمس ، عيناها شاردتان بعيدًا عنه حزينتان، تجتر حزنها وحدها. فهو لا يعرف هذا الحزن العميق داخل المرأة، الحزن لأنها تجلس عارية سلبية مطيعة تنتظر أوامره ، فهو يشتهى هذا الحزن ، يريدها متألمة موجوعة مذبوحة بالفقر والقهر ، يثبتها فى هذا الوضع ، يحملق فيها ، تشتد شهوته باشتداد حزنها وألمها . إنها سادية الرجل لا يدركها . يخدع نفسه . يتصور أنه متعاطف مع بنت البلد الفقيرة ، هو فى الحقيقة يستغلها يحولها إلى أداة لفنه وإشباع نزواته .

هذا هو الفن الذكورى الطبقى ، جزء من الثقافة الطبقية الأبوية السائدة ، تجعل الرجل هو الفنان الخلاق . يرسم . يبدع . يفكر ، المرأة هى المخلوقة الجسد العارى الموضوع بلا ذات .

إنها أزمة الثقافة تقوم على هذه الازدواجية . تقوم على رؤية الرجل ، لكن رؤية المرأة غائبة ، فالرجل يرى المرأة يحملق فى جسدها العارى ، المرأة لا تحملق فى جسد الرجل وإن كان مرتديًا ملابسه كاملة .

إن تعرية جسد المرأة فنًا واجتماعيًا لا يشكل تحديًا حقيقيًا للتخلف الثقافى . بل هو أحد أسباب التخلف الثقافى والفنى ، لأن الفلسفة وراءه متخلفه ، فلسفة طبقية أبوية ، يسود فيها فكر الطبقة الأعلى والجنس الأعلى من الذكور .

ما يحدث فى الثقافة والفن اليوم هو هذه الرؤية الذكورية الأحاديه للأشياء ، المتجسده فى تعرية جسد المرأة (عند التيار الحداثى) أو تغطية جسد المرأة (عند التيار الأصولى الدينى) كلاهما يقتل روح المرأة وعقلها من أجل التركيز على جسدها عاريًا أو محجبًا .

كلاهما ضار بالثقافة والفن ، كلاهما فى حاجة إلى تعرية حتى نعرف عورات الثقافة السائدة وكيف نعالجها .

أول خطوات العلاج هو تقديم رؤى نقدية جديدة قادرة على إدراك هذه التناقضات وكشف السلبيات فى تيار الحداثة والتيار الدينى الأصولى ، وكشف التشابه بينهما رغم الاختلاف .

إلا أن هذه الرؤى المغايرة قليلة نادرة أو غير موجودة ، فالمرأة فى بلادنا التى نالت قدرًا من التعليم قد تبنت فلسفة الرجل ورؤيته للفن ، لم تعد قادرة أن تقدم فلسفة جديدة ، وبالتالى فنًا جديدًا إلا فى حالات نادرة .

• • •

الفن فى مواجهة السياسة(*)

مئات الوجوه العربية والإنجليزية تملأ القاعة الكبيرة فى جامعة لندن « كلية الدراسات الشرقية والأفريقية » . رجال ونساء من فلسطين « ومن بلاد عربية أخرى » هربوا بأرواحهم وأطفالهم تاركين الأب العجوز أو الأم . كبر الأطفال وأنجبوا وأصبح الشباب كهولاً . فى قلوبهم حنين موجع ودموع لم تسقط . بحة فى الصدر كالصوت المشروخ لا تخرج . عيونهم مرفوعة تحدق . فوق خشبة المسرح تجسَّدت المأساة . واللحن الفلسطينى القديم يغنيه محمد البكرى . يملأ الجو بعبق التاريخ . أغنية شعبية كان الأطفال فى حيفا يغنونها قبل عام ٤٨ حين كان المؤلف طفلاً .

لازالوا يحفظون الأغنية عن ظهر قلب . تدوى القاعة بصوت غنائهم مع اللحن الراقص . ثم يدب الصمت فجأة . يكتشفون أنهم فى لندن وليسوا فى حيفا ، وأنهم كهول وليسوا أطفالاً . يدب الصمت داخل الصمت لا أسمع فيه إلا الأنفاس . وخفقة قلب تعانق الصمت كأنه الأم أو الأب الغائب فى الوطن والبيت القديم وذكريات الطفولة ورائحة الهواء ، والاسم المحفور على جذع الشجرة .

ويبدأ محمد بكرى الحكاية . سعيد ابن النحس المتشائل . يتشاءم ويتفاءل وينهزم وينتصر ويحب ويتزوج ويلد ويضعف ويفرح ويحزن . لكنه أبدًا لا يترك مكانه ، وأبدًا لا يكف عن الضحك حتى على نفسه فى قمة أزمته .

أجمل ما فى الفن أنه يضحكنا على أنفسنا قبل أن يضحكنا على الآخرين . وإذا ضحك الإنسان على نفسه فارقه الخوف من نفسه واكتسب قوة جديدة فى مواجهة أعدائه . كنت أجلس ومن حولى يرن الضحك بصوت فيه شجاعة جديدة وإعجاب بالإنسان حتى فى لحظة سقوطه .

(*) جريدة الأهرام ص ١١ - ٩/٢٤/ ١٩٨٧ .

وإلى جـوارى المؤلف جالسًا يضحك هو الآخر كأنما يسمع كلامًا جديدًا كتبه غيره . وجهه العريض الأسمر مرفوع ، وعيناه الكبيرتان متسعتان ، وفى اتساعهما دهشة المؤلف بعمله . وتلتقى عيون الممثل بعيون المؤلف لحظة ارتفاع الأكف ، مئات الأكف تصفق . والفرح فى العيون يلمع . انتصار الفن على أكاذيب السياسة .

جاءتنى الدعوة من النادى العربى فى لندن لأشهد المسرحية (١٩٨٧/٩/١٠) عن رواية « المتشائل » للمؤلف الفلسطينى « إميل حبيبى » . مشهد واحد لا يتغير وممثل واحد .. محمد بكرى . الشاب الفلسطينى لعب الدور فى فيلم كوستا جافرا « حناك » . محمد بكرى الممثل المسرحى يتفوق كثيرًا على « محمد بكرى » الممثل السينمائى .

ساعتان نحدق فيه وهو يتحرك فوق خشبة مسرح خالية إلا من سرير كالكنبة ومقشة رز لها يد خشبية طويلة ، تحولت هذه الأشياء إلى كائنات حية تتبادل معه الأدوار . يد المقشة أصبحت زوجته الحبيبة تشاركه السرير .

لم يكن محمد بكرى يمثل ، كان يعيش أمامنا الأزمة وراء الأزمة . عاشها الإنسان الفلسطينى البسيط . لم يهرب وظل فى الوطن موجودًا وحيًا جيلاً بعد جيل لا يستطيع الاحتلال إزالته من الوجود .

إننا نعرف الكثير عن الفلسطينيين خارج فلسطين . لكننا لا نكاد نعرف شيئًا عن الفلسطينيين داخل فلسطين المحتلة . وخاصة هذا الإنسان الفقير الذى اضطرته الظروف أن يعمل تحت حكم الاحتلال وأن يحمل بطاقة هوية عليها أختام العدو .

كيف استطاع هذا الإنسان الريفى البسيط الاحتفاظ بهويته الفلسطينية العربية مع احتفاظه فى جيبه بهوية العدو ؟

كيف استطاع أن يلد أطفالاً ثوارًا لا يعرفون اليأس وهو سعيد ابن النحس ؟ » وأضحكنا التناقض حتى انقلب اليأس أملاً والضعف قوة والحزن فرحًا .

وفى نهاية المسرحية عانقت الممثل والمؤلف معًا . ومئات الأذرع تمتد لتعانقهما معى . الممثل شاب طويل نحيل كالشجرة المعتدلة الفتية . والمؤلف كهل مربع عريض كالمبنى القديم المتين .

وقلت « لأميل حبيبى » هذا عمل فنى بديع يوقظ الحمية ويذكر بالقضية . فلماذا لا تعرضونه فى مصر ؟ قال نحن نأتى إذا تلقينا الدعوة ، لكن هناك مشكلة ، فأنا أحمل جواز سفر إسرائيليًا .

قلت : لكنك فلسطينى عربى ، والعبرة ليست ماذا تحمل فى جيبك من بطاقة هوية ولكن العبرة ماذا تفعل من أجل وطنك . إن الفلسطينى الذى ظل فوق أرضه رغم الاحتلال وظل يقاوم من الداخل أقوى من الفلسطينى الذى فر إلى الخارج . لو أن جميع الفلسطينيين بقوا فى ديارهم وأرضهم لما كان هناك احتلال .

لماذا لا ندعو إميل حبيبى ومحمد بكرى ومسرحية المتشائل إلى مصر . لقد آن الأوان لأن يلعب الفن الصادق دوره السياسى بشجاعة .

• • •



المـرأة والنقـد الأدبـى(*)

تعانى المرأة الكاتبة أو الأديبة من تجاهل بعض النقاد لأعمالها . هذه ظاهرة ليس خاصة بالمرأة العربية فى بلادنا فحسب ولكنها ظاهرة عالمية ، تبدو واضحة فى بعض المجتمعات أكثر من غيرها .. حسب وضع المرأة فى المجتمع والأسرة ، والقيم الاجتماعية والأخلاقية السائدة .

لا يمكن أن ننكر أن نظرة المجتمع لدور المرأة فى الحياة تختلف عن نظرته لدور الرجل . ففى أكثر المجتمعات الصناعية تطورًا لازال دور المرأة الأساسى فى الحياة هو دور الزوجة والأم . أى الدور داخل البيت لرعاية الأطفال والحفاظ على الأسرة ، هو دور الخدمة وتلبية حاجات أفراد الأسرة من مأكل وملبس ونظافة إلى غير ذلك . وقد يشجع المجتمع المرأة على العمل خارج البيت إذا احتاج إليها ، فى الحقل أو المصنع أو المستشفى أو المدرسة أو الحرب ثم يعيدها إلى البيت حين يستغنى عن عملها فى الخارج .

وعلى هذا فإن النظرة العامة إلى المرأة أنها أداة للخدمة داخل أو خارج البيت أكثر منها إنسانة لها عقل خلاق يفكر ويبدع فكرًا أو أدبًا أو فلسفة .

وإذا حدث أن مارست المرأة هذا الإبداع وفرضته على المجتمع على شكل قصة أو رواية أو مسرح أو شعر فإن أعمالها قد تهمل من ناحية النقاد ، أو ينظر إليها باستخفاف ، أو تنقد بشدة وقسوة إذا ما تجرأت ومست فى إبداعها الأدبى أحد أو بعض المحظورات الأساسية التى تتعلق بالسياسة أو الدين أو الجنس .

وهل يمكن لأى إنسان خلاق أن يكتب شيئًا ذا قيمة دون أن يمس تلك النواحى الهامة في حياتنا العامة والخاصة ؟ يتمتع الرجل بصفة عامة بحقوق وحريات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية أكثر من المرأة ، وبالتالى يمكن للكاتب الأديب

(*) هنا لندن – يونيو ١٩٨٧ العدد ٤٦٤ .

أن يحظى بإعجاب النقاد على عمل أدبى جديد ، ويوصف هذا الأديب بأنه شجاع أو لديه شجاعة أدبية . أما الكاتبة الأديبة فيمكن أن توصف بالجرأة بدل الشجاعة ، وأحيانًا بالبجاحة أو عدم الحياء . فالمفروض أن حياء المرأة لابد أن يكون أكثر من حياء الرجل . ومن الصفات السلبية للمرأة أن يقال عنها أن عينيها مفتوحتان وهى صفة إيجابية للرجل ، ومن الصفات السلبية للرجل أن يكون مغمض العينين . أما صفة القطة المغمضة فهى صفة إيجابية فى المرأة .

كيف إذن تغمض الأديبة الخلاقة عينيها عن التناقضات فى الحياة والصراعات العامة والخاصة داخل بيتها وخارجه ؟ وما هو الأدب ؟ أو ما هى القدرة على الإبداع الأدبى ؟ أليست هى تلك القدرة على رؤية التناقضات وكشف المحظورات والصراعات وتغيير القديم إلى جديد أفضل .

ألا تحتاج هذه القدرة إلى عين مفتوحة وعقل متفتح يعمل بنشاط ولا يخشى التفكير حتى فى المقدسات ؟

مشكلة المرأة أن دورها المفروض عليها يجعلها تهتم بجسمها أكثر من عقلها ، فالنظرة السائدة عنها أنها جسد يمتلكه الرجل ، جسد يغطى حسب بعض القيم الدينية السائدة فى بلادنا العربية ، أو جسد يعرى ليلبى احتياجات الاستهلاك وتغير موضة الأزياء وإنتاج المصانع الرأسمالية من مساحيق زينة وتجميل ، وسواء تغطت أو تعرت فالمعنى واحد هو أنها جسم فقط .

وقد تنتج المرأة عملاً أدبيًا بارزًا بالفعل ، يؤثر فى قلوب وعقول الناس العاديين من القراء لكن النقاد لا يحكمون على الإنتاج الأدبى بدرجة تأثيره فى الناس ، بل يطبقون عليه مقاييس شبه أكاديمية أو مهنية عقيمة . إنهم لا ينظرون إلى العمل الأدبى الخلاق ككائن حى ينظر إليه ككل وينال الإعجاب والتقييم ككائن مستقل له صفاته الخاصة وميزاته وجماله ، لكنهم ينشغلون بتطبيق نظرياتهم فى النقد عليه ويحاولون تصنيفه حسب المدارس التى درسوها ، ويصبحون بذلك كمن يقتل الطفل الحى من أجل تشريح جسده ، وبالطبع يفقد جماله الخاص به وحياته وحيويته .

إن قليلاً من النقاد من يتعامل مع النقد على أنه عملية خلاقة مبدعة وليس مجرد تطبيق مقاييس معينة على العمل الأدبى . وإن معظم النقاد رجال لم يتفقوا بعد ولم يتعرفوا بعد على القدرة الخلاقة عند المرأة الأديبة . ليس لأنها امرأة وإنما لأن تجربتها تختلف عن تجربة الرجل ، وتاريخها أيضًا يختلف ، وبالتالى فإن تعبيرها الأدبى يختلف . هذا الاختلاف لا يرجع إلى الفكرة التقليدية السائدة بأن المرأة تحس والرجل يفكر أو أن إنتاج المرأة الأدبى يعتمد أساسًا على عواطفها وأحاسيسها أكثر من عقلها . وأن المرأة ذاتية والرجل موضوعى .

لكن الاختلاف يرجع إلى اختلاف الأدوار فى الحياة واختلاف بنية النساء عن الرجال . واختلاف الاهتمامات ، وكلها ترجع إلى ظروف اجتماعية وسياسية وتاريخية وليس لأسباب بيولوجية أو طبيعية .

والحل الأساسى لمشكلة إهمال النقاد لإنتاج الأديبات من النساء هو أن تبدأ المرأة الخلاقة فى خوض مجال النقد الأدبى ليصبح لدينا الناقدات القادرات على فهم الإنتاج الأدبى للنساء وإعطائه حقه من التقييم والنقد .

● ● ●

الضــــرورة الحيـــوية(*)

هذا السؤال يطرحه الكاتب على نفسه أو الكاتبة ، منذ اللحظة التي يمسك فيها بالقلم ويكتب ، لأن عملية الكتابة فى رأيى عملية غير إرادية . الكتابة هى التى فرضت نفسها على . إنها عندى مثل التنفس ، بمعنى أنها شىء طبيعى ، إذا لم تحدث يشعر الكاتب أو الكاتبة بنوع من الاختناق النفســى - أعنى الكتابة التى تكون جزءًا حقيقيًا من الكاتب ومن حياته ، لا تنفصل عنه ، فلا يكتب من أجل الثراء أو الشهرة أو الانتماء لمهنة الكتابة ، أو لأى سبب آخر لا يتصل بالضرورة الحيوية للكاتب نفسه أو الكاتبة نفسها .

هذه هى النقطة الأولى ...

النقطة الثانية ، حينما تكون الكتابة بهذا الشكل ، فهى تعبر بالضرورة عن رغبة الكاتبة أو الكاتب فى تغيير المجتمع إلى الأفضل ، سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا وتربويًا وأخلاقيًا ، وتصبح الكتابة مثل العمل الفدائى ، ويصبح القلم كالسيف الذى يحارب به الإنسان ، وقد تدفعه الكتابة إلى السجن أو الموت أو أشكال القهر المختلفة .

والكاتب دائمًا بحكم فنه وصدقه ووعيه ، وارتباطه الحميم بآمال وآلام مجتمعه ، مرتبط بالجديد والتقدم ، ولا مهرب له من التصدى لقضايا الوطنية الكبرى ، مثل الحرية وعدم المساواة ، لأن كل هذه الأمور تؤرق الكاتب والكاتبة ، وتعد تحديًا للقوى المتخلفه التى تحافظ على القديم .

لهذا أكتب .

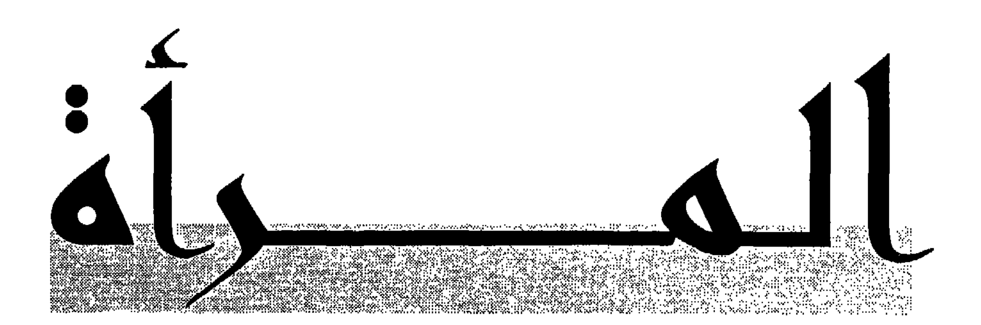
وبصفتى كاتبة وامرأة ، فإن المشاكل والتحديات التى أواجهها تتضاعف ، لأن ما يقبله المجتمع ويحتمله من الكاتب يرفضه هو نفسه من الكاتبة ، لأنه ينظر إليها

(*) المساء ١٩٧٦/١٢/١٧ .

كامرأة ، وعليها أن تلتزم بحدود القيم الأخلاقية المفروضة على المرأة ، والتى لا تبيح لها تناول أمور مباحة للرجال ، مثل الثالوث المحرم : السياسية ، والدين والجنس .

إذا تكلمت المرأة فى الدين فكلامها يثير حساسية أكثر من كلام الرجل فى الدين، وكذلك تعرضها لموضوع الجنس يجعل المجتمع أكثر حساسية فى تلقي ما تكتب ، وما يسرى على الدين والجنس يسرى أيضًا على السياسة . وحتى تسقط هذه التفرقة من جذورها أمسك القلم وأكتب .

● ● ●



المرأة

٢٣ مقالاً

عن قضية تحرير المرأة المصرية(*)

يتصور بعض الرجال فى بلادنا أن قضية تحرير المرأة المصرية قد بدأت وانتهت بكتاب قاسم أمين ، وهم بهذا يتجاهلون جهود النساء المصريات لتحرير أنفسهن فى القرون السابقة من نشوء العبودية (أو النظام الطبقى الأبوى) وحتى يومنا هذا . إن إعادة قراءة التاريخ توضح كيف لعبت المرأة المصرية القديمة دورًا فى الثورات الشعبية والنسائية ضد بطش الفراعنة والسلطة المطلقة للحاكم فى الدولة والعائلة . وقد حرق المصريون والمصريات القصر الملكى ذاته (عام ٢٤٢٠ قبل الميلاد) ، ونادوا بتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء وبين النساء والرجال ، إلا أن المؤرخين الرجال المتحيزين للسلطة الحاكمة قد تجاهلوا جهود النساء فى هذه الثورة التى عرفت باسم ثوة « منف » .

وقد أجهضت هذه الثورة بعد فترة ، وعاد الحكم الفرعونى بسطوته مرة أخرى ، ثم قامت الثورة الشعبية الثانية يقودها النساء والرجال (عام ١٢٦٠ قبل الميلاد) ، وجاءت الأسرة العاشرة (ونظام الرودو) الذى أعاد للمرأة المصرية حقوقها المسلوبة ، وتم القضاء على نظام التسرى ، وتساوت المرأة فى الحقوق العامة والخاصة مع الرجل ، إلا أن هذه الثورة فشلت وعاد نظام الإقطاع والبطش الفرعونى (عام ١٠٩٤ قبل الميلاد) ينزع من النساء والفلاحين حقوقهم ، وأصبح للرجال فقط حق الطلاق والنسب والكهنوتية . ثم ثار الشعب المصرى نساء ورجالاً مرة ثالثة (عام ٦٦٣ قبل الميلاد) واسترد الفقراء والنساء بعض حقوقهم المسلوبة .

لقد تم تجاهل دور النساء فى مصر القديمة بمثل ما تم تجاهل دورهن فى مصر الحديثة ، لأن معظم الذين يكتبون التاريخ رجال يتطلعون إلى السلطة ويحتقرون الشرائح الفقيرة والضعيفة فى المجتمع ومنهم النساء .

لهذا لا أدهش كثيرًا حين يكتب بعض الرجال فى بلادنا قائلين أن قضية تحرير المرأة المصرية بدأت وانتهت بكتاب قاسم أمين ، وأننا فى حاجة إلى كتاب جديد

(*) الأهرام ١٩٩٩/٥/٢٢ .

يتناول قضية المرأة لندخل القرن الجديد والألفية الجديدة ، إنهم بذلك يتجاهلون تسعين عامًا من جهود المرأة المصرية خلال القرن العشرين ، وجهودها فى القرون السابقة على ظهور قاسم أمين .

لن أتعرض لكتابات النساء التحريرية خلال العقود الماضية ، فهى معروفة ومقروءة على نطاق واسع فى مصر والعالم العربى من مثيلات هدى شعراوى وسيزا نبراوى ودرية شفيق ، لكنى سأذكر بعض الكاتبات اللائى شاركن فى النضال لتحرير المرأة المصرية منذ بداية هذا القرن ، ومن هؤلاء النساء الكاتبة عائشة التيمورية ، وجاءت بعدها زينب فواز ، أما ملك حفنى ناصف التى اشتهرت باسم باحثة البادية (١٨٨٦ - ١٩١٨) فقد شاركت بقلمها القوى فى الكتابة لتحرير المرأة ، وكانت معاصرة لقاسم أمين ، وأصبحت آراؤها تكملة لدور رفاعة الطهطاوى ، لكنها كانت أكثر تقدمًا من الطهطاوى وقاسم أمين ، لأنها اعتبرت دعوة الطهطاوى إصلاحًا فحسب ، أما قاسم أمين فقد اعتبر أفكار الطهطاوى تحريرًا .

فلماذا اشتهر قاسم أمين فى التاريخ على حين توارت ملك حفنى ناصف وغيرها من الكاتبات الأكثر تقدمًا من قاسم أمين ؟! لماذا يتم (حتى يومنا هذا) تجاهل الكتابات النسائية التحريرية التى لعبت دورًا فى تقدم المرأة المصرية أكثر من أى كتابات أخرى ؟! هناك عوامل متعددة تلعب دورًا فى تفسير هذه الظاهرة :

١ - أصبحت قضية تحرير المرأة من القضايا الاجتماعية والسياسية المهمة محليًا ودوليًا ، لم تعد شائكة أو محرمة كما كانت بالنسبة لهؤلاء النساء اللائى دفعن ثمنًا غاليًا من أجل قضية المرأة ، بل ربما تكون من القضايا ذات البريق (الأدبى أو المادى) فلماذا لا يركب هذه الموجة الصاعدة بعض الرجال الذين تعودوا ركوب الموجات الصاعدة .

٢ - من السهل جدًا طرد المرأة من أى مجال وإن كان المجال الذى يخصها قبل غيرها حيث أن الرجل لا يزال هو الأقوى سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ، ويمكنه أن يستولى على قضية المرأة أيضًا ضمن ما يستولى عليه من أشياء أخرى .

٣ – من السهل الاعتراف بقيادة الرجل للمرأة حتى فى المجالات التى تخصها ، لذلك يريدون أن يظل قاسم أمين قائدًا لحركة تحرير المرأة حتى يأتى رجل آخر ليحل محله ، ويتوارث التركة رجل وراء رجل .

٤ – يسهل على بعض الرجال منافسة المرأة فيما يخص قضيتها عن أن ينافسوا زملاءهم الذكور فى القضايا السياسية الأكثر أهمية (فى نظرهم) .

٥ – تجميد الحركة النسائية أو الفكر النسائى عند قاسم أمين ليس فقط تجاهلاً لجهود النساء فى هذا المجال بل محاولة لإيقاف مسيرة الحركة النسائية وفكرها المتقدم .

٦ – يحاول هؤلاء الرجال أن يكونوا هم المتحدثين باسم المرأة (كالزوج الذى يتحدث نيابة عن زوجته) ، إنهم يتصورون أنهم أقدر منها فى التعبير عن نفسها .

٧ – لا يريد هؤلاء الرجال التنازل عن مكانتهم فى المجتمع أو على الأقل بالنسبة للنساء . إن تصدى النساء لقضية تحرير المرأة يهدد مصالحهم ومكانتهم ، لأن معنى ذلك أنها ستأخذ المبادرة فى جوانب كثيرة من الحياة .

٨ – من الناحية العملية أن تحرير النساء لن يتحقق أساسًا إلا بجهود النساء أنفسهن ، وإن ساعدهن بعض الرجال ، فإن وجود النساء ضرورى كقوى أساسية فكرية وسياسية واجتماعية .

من المعروف أن أى فئة مقهورة فى المجتمع لن يمكنها التحرر إلا بجهودها .

إن المقياس الأول لمدى تقدم أو تخلف مسيرة المرأة المصرية هو مدى مشاركة النساء المصريات فى هذه المسيرة لتحرير أنفسهن ، ومدى إدراكهن لأهمية هذه المشاركة ، يزداد هذا الإدراك بازدياد خروج النساء للتعليم والعمل بأجر ، والمشاركة فى المهن المختلفة ، والنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى ، وتحمل المسئوليات فى المستويات المختلفة ، وممارسة اتخاذ القرارات فى الدولة والعائلة ، والمشاركة فى الفكر والأدب والكتابة والإعلام والبحوث العلمية والاجتماعية ... إلخ .

هناك جوانب عديدة ومؤشرات متنوعة لمدى تقدم أو تخلف مسيرة المرأة التحريرية ، وليس فقط التمثيل النيابى ، لا شك أن عدد النساء فى البرلمان أو المجالس النيابية أحد المؤشرات ، إلا أنه قد يكون مضللاً فى كثير من الأحيان ، إذ قد تدخل البرلمان نساء لا علاقة لهن بقضية تحرير المرأة ، بل قد يعملن ضدها ، كما هو يحدث فى كثير من برلمانات العالم ، بل قد تصبح المرأة رئيسة لحزب سياسى أو رئيسة الوزراء وتصدر قرارات ضد مصالح النساء ، كما حدث مع مارجريت تاتشر فى إنجلترا ، إذ فقدت النساء فى عهدها الكثير من حقوقهن المكتسبة عبر السنين .

وكم صمتت عضوات البرلمان فى بلادنا عند مناقشة القوانين التى تهم المرأة . على حين ارتفعت أصوات النساء خارج البرلمان فى الجمعيات النسائية الأهلية أو الشعبية أو المنظمات غير الحكومية .

ولا تزال قضية تحرير المرأة فى حاجة إلى مزيد من الفهم ، ولا تزال الحركة النسائية المصرية فى حاجة إلى الكشف عن جوانبها المتعددة فى الماضى والحاضر على السواء .

• • •

فلسفة المرأة فى القرن القادم(*)

ربما يندهش بعض الناس حين نربط بين الفلسفة والمرأة ، لو ربطنا بين المطبخ والمرأة ، أو طبق اليوم والمرأة ، كان ذلك فى نظرهم طبيعيًا يتمشى مع الطبيعة الأنثوية ، أو الفطرة ، يقولون « الفطرة » هى القانون الإلهى أو القانون الطبيعى أو «البيولوجى» .

إلا أن التاريخ البشرى يثبت لنا أن الذى بدأ الفلسفة فى الحضارات القديمة هى المرأة أو النساء ، سواء فى مصر القديمة أو اليونان أو العراق أو فلسطين أو الهند أو الصين ، أو أية بقعة فى العالم القديم فى أفريقيا أو آسيا أو أوروبا .

كشف علم الأنثروبولوچى (علم الإنسان) فى السنين الأخيرة عن حقائق تؤكد أن الفكر والفلسفة واللغة والدين والعلم كلها من اكتشاف النساء القديمات ، ليس لأن عقل المرأة أذكى ، أو الجنس الأنثوى أرقى (كما تحاول بعض النساء إثبات ذلك) ولكن لأن الرجل البدائى انشغل بالصيد وقتل الحيوانات فى الصحراء أو الغابات ، على حين تفرغت النساء لاكتشاف الزراعة ومواد الطعام المطلوبة للحياة اليومية وأدوات الطهى - أى تكنولوجيا الحياة والصحة والنمو .

أما الرجال فقد انشغلوا بتكنولوچيا القتل والتدمير .

لم تدخل الهرمونات أو قانون البيولوچيا فى هذا التقسيم للعمل بين الذكور والإناث ، كما تصور بعض العلماء والفلاسفة الذين نشأوا فى عصور العبودية .

كانت النساء المصريات القديمات هن أمهات الحضارة المصرية الزراعية فى وادى النيل ، واشتهرت منهن أسماء كثيرة معروفة فى تاريخنا رمز إليهن : بإلهة السماء نوت وإلهة الحكمة إيزيس ، وإله العدل معات ، وإله الطب سخمت .

وفى اليونان القديم كانت امرأة اسمها « صوفيا » هى أم الفلسفة ، لذلك سمى علم الفلسفة « فيلوصوفى » وتعنى « محب صوفى » أى أن الفيلسوف هو « محب صوفى » الأم الكبرى للفسقة اليونانية .

(*) روزاليوسف ١٩٩٩/٢/١ - (٣٦٨٦) (٦٥) .

لماذا إذن يندهش بعض الناس حين نربط بين الفلسفة والمرأة فى القرن القادم ؟ لقد اعتبر القرن التاسع عشر « قرن الاستعمار » أما القرن العشرون فقد اعتبر « قرن مقاومة الاستعمار » ، أو قرن حركات التحرير الشعبية ومنها الحركة النسائية التى شاركت فى ضرب القوى الاستعمارية فى عدد كبير من بلاد العالم بما فيها بلادنا العربية ، فى مصر والجزائر والعراق وسوريا ولبنان والسودان واليمن وتونس وليبيا والمغرب والصومال وغيرها .

بعض الناس يتصورون أن فكرة « تحرير المرأة » فكرة غربية ، نشأت فى الغرب وجاءت إلينا بحكم التقليد أو الغزو الحضارى .. فى حين أن فكرة « تحرير المرأة » بدأت فى مصر القديمة حين شاركت النساء مع العبيد فى المقاومة ضد الطغيان الفرعونى أو الاحتلال الأجنبى .

لم تكن المرأة المصرية حبيسة الحجاب أو الجدران الأربعة للبيت أو المطبخ ، بل كان بين النساء مفكرات وفيلسوفات وعالمات فى الطب والفلك والهندسة والقانون والاجتماع والسياسة والاقتصاد والحرب والسلم .

لقد سبقت المرأة المصرية القديمة فى تحرير نفسها أخواتها فى اليونان وبلاد أخرى ، إلا أن التاريخ العبودى قد تجاهل حركة المرأة ونشاطها بمثل ما تجاهل التاريخ الاستعمارى الحديث حركة الشعوب ونشاطها .

أصبح التاريخ مقصورًا على حركة الأباطرة والملوك والرجال من الطبقات الحاكمة واختفت حركة الملايين من النساء والرجال والشباب فى جميع بلاد العالم .

حتى اليوم نحن نعيش هذا الفكر التاريخى والإعلامى الذى يفرد المساحات فى الصحف والشاشة لسرد الحكايات التافهة عن الملوك والأمراء والأميرات ، لقد احتلت أخبار الأميرة ديانا أو مونيكا « عشيقة كلينتون » مساحات إعلامية ضخمة طغت على قتل الآلاف من الشعوب المقهورة دوليًا بالاستعمار الجديد والحكومات المحلية الباطشة .

إن علاقة جنسية واحدة لإحدى الأميرات أو أحد الحكام تنال من الاهتمام الإعلامى والتاريخى أضعاف ما يناله تدمير شعب بأكمله بالقنابل الحديثة .. « ليزر » أو « نووية » أو « صواريخ توما هوك » أو « كروز » .

لقد تعودنا على استهلاك هذا الإعلام والتاريخ المزيف فلم نعد نعرف القضايا الجوهرية من القضايا التافهة .. لقد أدمنا هذا النوع من المعرفة الكاذبة ، أو الوعى الكاذب ، كما يدمن الشباب البانجو والهيروين .

أصبحنا نستهلك أخبار ديانا ومونيكا وكلينتون كما نستهلك الشويبس والكولا والكنت والمارلبورو وال تى شيرت مكتوبًا عليها « أحب أمريكا » .

إلا أن كل ذلك لن يستمر فى القرن القادم مع تزايد الوعى بين النساء فى العالم ، والاستفادة من دروس الماضى خلال القرن العشرين ، وتقدم الفكر والفلسفة فيما يخص العلاقة بين النساء والرجال .

خلال السنين الأخيرة من هذا القرن العشرين شاركت أعداد متزايدة من النساء فى إقامة فلسفة جديدة أكثر إنسانية وعدلاً فى النظر إلى المرأة والمجتمع والسياسة والدين والعلم والطب وغيرها من فروع المعرفة .

مثلاً فى الطب استطاع الفكر النسائى العلمى الحديث أن يثبت خطأ كثير من الأفكار التى دخلت علم الطب كحقائق شبه مقدسة لا يمكن تغييرها .

هناك فكرة فى الطب تعلمناها ونحن طلبة وطالبات أن عملية الإخصاب تتم بسبب حركة « الحيوان المنوى الذكرى نحو بويضة المرأة الساكنة » .

لقد سادت هذه الفكرة الخاطئة عن « سكون » بويضة المرأة أو سلبيتها فى علوم الطب والفلسفة والبيولوجيا وعلم النفس أيضًا . لقد ردد هذه الفكرة « أرسطو » فى نظريته الفلسفية وقال : إن بويضة المرأة « كائن ميت » أو « وعاء فارغ من الحياة»، لا تدب فيها الحياة إلا بسبب « حركة » الحيوان المنوى الذكرى (السبيرماتوزون) وأقام سيجموند فرويد نظريته النفسية على سلبية المرأة وإيجابية الرجل .

إلا أن البحوث العلمية الجديدة التى أجرتها النساء فى العالم (وبعض الرجال) قد كشفت عن أن بويضة المرأة ليست ساكنة وليست سلبية ، بل هى تتحرك نحو السبيرماتوزون ، وأن عملية الإخصاب لا يمكن أن تتم دون هذه الحركة للبويضة ، وهكذا تغيرت المفاهيم العلمية عن الإخصاب فى البشر ، وأصبحت عملية الإخصاب

تقوم على حركة البويضة والسبيرماتوزون معًا ، إنهما يتحركان تجاه بعضهما البعض ، إنه لقاء واندماج معًا لتكوين الجنين الجديد .

لقد تغير علم البيولوچيا أو علم الطب بسبب تزايد قوة النساء الاجتماعية والسياسية ومشاركتهن فى البحوث العلمية والطبية التى كانت مقصورة على الرجال منذ نشوء النظام الذكورى الطبقى أو النظام العبودى .

كما تغيرت أيضًا النظرة إلى علم الفلسفة وإلى علم التاريخ واللغة والأدب والدين والاقتصاد بسبب تزايد المشاركة النسائية وإضافة تجربتهن إلى تجارب الرجال وعقولهن إلى عقول الرجال .

لقد تغيرت النظرة إلى المرأة من شىء ساكن سلبى مفعول به إلى إنسانة كاملة الأهلية والحركة والنشاط والإيجابية ، وامتدت هذه الفكرة السياسية إلى صلب علم الطب والبيولوچى ، كما تغيرت النظرة إلى الطبيعة من شىء ساكن سلبى يمكن اغتصابه واستغلاله وتشويهه إلى كائن عضوى حى يشمل النبات والحيوان والشجر والهواء والأرض ، ومن هنا نشأت فكرة الحفاظ على البيئة والتعامل معها باحترام وأيضًا التعامل مع المرأة باحترام .

● ● ●

عن شهرزاد ومَى زيادة

امرأة حرة وأصدقاء غير أوفياء(*)

كان أبى يحترم أمى احترامًا كبيراً ، يناديها أمام الناس بلقب زينب هانم ، يساعدها فى إعداد مائدة الطعام ، يرتب ملابسه بنفسه ، ولا ينتظر منها أن تخدمه ، أو تسقيه وهو مضطجع فى السرير ، أو تسليه بالحكايات حتى ينام مثل الملك شهريار. كان شهريار مثار سخريتنا ونحن أطفال ، فهو أكثر منا طفولة لأننا ننام وحدنا دون الاعتماد على الحكايات . أما شهرزاد فلم تحظ أيضًا باحترامنا ، لأنها كانت بلا عمل ولا شىء يشغلها إلا تلهية زوجها بالحكايات مثل الجوارى والإماء .

وكان أخى الأكبر يحاول السيطرة على أخواتى الصغيرات ، أحيانًا يضطجع فى السرير مثل الملك شهريار ويطلب من أختى أن تسقيه ، لكن أبى كان ينهره ويفرض عليه أن ينهض ويسقى نفسه .

هكذا أدركنا منذ الطفولة أن كرامة البنت لا تقل عن كرامة الولد ، وأن واجب الولد أن يخدم نفسه بمثل ما تخدم البنت نفسها .

لهذا السبب لم تكن شهرزاد مثلى الأعلى فى الحياة ، رغم كل ما قرأت عنها من مديح وثناء على أنوثتها ، وأمومتها ، وقدرتها بالمكر والحيلة ، على أن تحول شهريار من سفاك للدماء إلى إنسان متحضر . منذ طفولتى لم أحترم وسائل المكر والحيلة ، ربما سمعت أبى يذم الماكرين وأصحاب الدهاء والحيلة ، يقول عنهم : « المداهنون » ، «المخادعون» ، « المنافقون » « الماكرون والماكرات » ، ولم تكن أمى ذات مكر وحيلة ، بل كانت تواجه المشاكل بشجاعة ووضوح وبالمنطق دون حاجة إلى الالتواء أو المراوغة.

لقد قرأت الكثير عن شهرزاد ، وكيف روضت شهريار ، لكنى لم أقرأ عن شهريار ولماذا تمتع بهذه السلطة المطلقة لسفك الدماء أو لماذا حظى بهذه الحرية ليقتل كما

(*) روزاليوسف من ١٥ : ٢١/٥/١٩٩٩ - (٣٧٠) .

يشاء ، أو لماذا حظى بهذه الفوضى ليفعل ما يشاء ، فالفرق كبير بين الحرية والفوضى. إن الحرية مسئولية ترفع الملك أو الحاكم إلى مستوى الإنسانية فيحترم حقوق الآخرين ، لكن الفوضى تهبط به إلى درك الأنانية والجشع ، هذه الفوضى التى حظى بها شهريار هى الفوضى ذاتها التى يحظى بها الملوك والحكام فى ظل النظام الدكتاتورى منذ نشوء العبودية وحتى يومنا هذا . فهل استطاعت شهرزاد أن تعالج زوجها من هذا الداء بتلك الحكايات المسلية ؟!

لم تغير شهرزاد شيئًا من سلطة زوجها المطلقة فى الدولة والعائلة . لقد كف عن سفك دماء البنات البريئات إلا أنه لم يكف عن السلطة المطلقة ، لقد ظل السيد المطاع دون مناقشة ودون محاسبة ، وظلت زوجته شهرزاد أسيرة له ، تلعب دور الجارية والعشيقة والزوجة والمسلية تحكى له الحكايات كالطفل حتى ينام . كان شهريار رجلاً مريضًا بالسلطة المطلقة مدللاً كالطفل ، لم تعالجه زوجته من هذا المرض بل زادته تدليلاً وأنجبت له ثلاثة أبناء ذكور كأنما لتشبع ذكورته حتى الثمالة .

إن أبرز ما يميز شهرزاد هو الدافع الجنسى الذى يمنحها المكر والدهاء للسيطرة على الرجل ، وهنا يكمن الوهم بأنها علمت شهريار الإنسانية ، والحقيقة أنها علمت النساء المكر والدهاء وكيف يسيطرن على الرجال بالخداع والمراوغة ، وليس بالمواجهة والشجاعة والمنطق ، لم تغير شهرزاد شيئًا من قيم العبودية المتوارثة ، والتى تشكل العلاقة بين الرجل والمرأة ، أو بين السيد المطاع والعبد المطيع ، والتى تؤكد فكرة العبودية التى تقول أن الطبائع البشرية هى هى فى كل زمان ومكان ، والمرأة هى هى المرأة ، التى هى محل الانفعال أو مكان العاطفة ، تتحلى بالطاعة وحب الحكاية والكلام والمحاورة والمراوغة والمكر والكيد ، والرجل هو هو الرجل ، هو العقل والزمان الفاعل ، فيه الصرامة والجد ، والعلم والحزم والميل إلى التفكير والفلسفة والدين والسياسة والحرب .

لاشك أن الأفكار فى قصة شهرزاد قد خرجت من المنبع ذاته الذى خرج منه شهريار وهى العبودية ، حيث تكون المرأة واحدة من اثنين ، الملاك الطاهر ، الأم العذراء المضحية التى تلد الذكور، أو الشيطانة التى تمارس الجنس دون أن تلد أطفالاً.

لقد كان شهريار ضحية هذه المرأة الفاسدة ، لكن امرأة صالحة أخذت بيده وأرشدته كالأم إلى الطريق الصحيح . هنا أيضًا يتضح التناقض ، فالمرأة هى الفاعلة سواء فى مجال الشر أو الخير والرجل هو المفعول به .

ولم يكن لشهرزاد دور فى الحياة خارج بيتها ، لقد انحصر دورها داخل الأنوثة والأمومة داخل الأسرة التى يحكمها الزوج ، ولم يكن لها دور فى الحياة الاجتماعية والسياسية العامة . لهذا السبب أصبحت شهرزاد نموذجًا للمرأة الصالحة المثالية حتى يومنا هذا ، لم يحكم عليها أحد بالمرض النفسى كما حدث لغيرها من النساء اللائى لم يتزوجن ولم يلدن ، وحاولن المشاركة فى الحياة ، سن مثيلات الكاتبة مى زيادة .

لقد ثبت أن مى زيادة لم تكن مريضة نفسيًا ، لم تكن مريضة بعقلها ، بل العكس ، كانت تتمتع بموهبة عقلية نادرة ، إلا أنها لم تكن مثل شهرزاد ، لم تلعب مى زيادة الدور الأنثوى الأمومى لرجل واحد ، بل فتحت صالونها الأدبى لعدد من الرجال يزيد على العشرين ، ولا أدرى لماذا لم تفتح مى زيادة صالونها للنساء أيضًا ؟ ألم يكن فى عصرها نساء أديبات أو على الأقل هاويات للأدب ؟ كان هذا السؤال يدور فى عقلى كلما قرأت عن صالون مى زيادة الأدبى . لقد ظل صالونها مسرحًا لعالم الرجال ، رجال عجائز متزوجون وغير متزوجين ، يتبارون فى معركة غامضة أيهم يكون الفائز الأول أو الفائز الوحيد ، وكانت مى زيادة هى المرأة الوحيدة وسط الرجال ، لا تنافسها امرأة اخرى ، يفوح عطرها الأنثوى وشبابها الغض وسط بحر من الكهول الذكور ، تركوا زوجاتهم فى البيوت وراء الحجاب ، وانطلقوا للسهر والسمر والفرفشة والترويح عن النفس من كآبة الشيخوخة وملل الحياة الزوجية .

كانت مى زيادة أديبة مبدعة وامرأة حرة عاشت بلا زوج وبلا أطفال ، كانت على قدر كبير من الشجاعة ، إلا أنها لعبت دورًا فى صالونها الأدبى يشبه دور شهرزاد ، شهريار لم يكن واحد بل عشرين شهريار ، بحر من العيون والآذان الذكورية المتطلعة المتعطشة للحب ، رجال تجاوزوا الستين عامًا وعاشوا جدب العواطف داخل مؤسسة الزواج ، خرجوا من بيوتهم يبحثون عن الحب تحت وهم الأدب أو الشعر ، يستمعون إلى

مى زيادة وهى تتحدث بصوتها الأنثوى الناعم فيطربون كما كانوا يطربون لسماع أم كلثوم ، يخلعون الطرابيش ويصفقون : الله الله !

وقد يقع أحدهم فى حبها أو قد يقع جميعهم ، إلا أنه حب هش لا يصمد أمام ضوء النهار ، ويسقط أمام أية محنة أو امتحان .

لهذا السبب تبخر هؤلاء الرجال فى الهواء حين تعرضت مى زيادة لأزمتها ، حين أودعت المستشفى النفسى فى لبنان إثر مؤامرة الأقارب للاسيتلاء على أموالها . تلاشت مى زيادة من خيال هؤلاء الرجال ، لم يزرها أحدهم بالمستشفى ، ثم نجحت مى زيادة فى الخروج من الأزمة وعادت إلى مصر وبدأت تلقى المحاضرات ويتألق نجمها من جديد . إلا أنها ظلت وحيدة . ورفضت أن تلتقى بهؤلاء الذين تخلوا عنها وقت المحنة ، وماتت وحيدة . هكذا تفوقت مى زيادة على شهرزاد فى الشجاعة والإقدام ، واستطاعت أن ترفض الدور العبودى للأنوثة والأمومة وأن تترك وراءها ثروة أدبية أكثر أهمية من أن تلد ثلاثة من الذكور .

• • •

الوعي النسائي العربي

١ - جدتي وأمي :

في بداية القرن العشرين الماضي لم تكن جدتي تقرأ أو تكتب . كانت حياة أمي وخالاتي وعماتي تنحصر داخل البيت والمطبخ وولادة الأطفال ، كان الأب أو الزوج هو صاحب السلطة في العائلة والمجتمع والدنيا والآخرة . في طفولتي في الأربعينيات من القرن العشرين شعرت باختناق . لولا خروجي إلى المدرسة لأقدمت على الانتحار . قاومت محاولة تزويجي وأنا في العاشرة من عمري . لولا مساندة أمي لأصبحت اليوم مثل أغلب النساء في العالم العربي (والغربي أيضًا) مجرد زوجة وأم وجدة عجوز بلا اسم ولا كيان راكدة في الفراش أعاني تصلب المفاصل والشرايين وأنتظر الموت .

منذ أيام قليلة قبل أن يحل بنا القرن الواحد والعشرين عدت إلى الوطن بعد غيبة. لم تدهشني الردة التي تعاني منها النساء في بلادنا العربية فقد شهدت مثلها في حياة النساء الأمريكيات والأوروبيات . لم يدهشني الحجاب الذي ترتديه النساء في بلادنا تحت اسم الدين أو الإسلام ، فقد رأيت حجابًا آخر ترتديه النساء الأوروبيات والأمريكيات في عصر ما بعد الحداثة ، ليس مصنوعًا من القماش كالحجاب الديني وإنما من طبقات المساحيق والألوان التي تخفي بها المرأة وجهها تحت اسم الجمال أو الجاذبية الجنسية .

لهذا أختلف مع هؤلاء الذين يظنون أن النساء تحررن في البلاد الأوروبية أو أمريكا ولم يعدن لديهن مشاكل ، يكفي أن نعيش في تلك البلاد فترة ، أو نطلع على ما تكتبه النساء هناك حتى ندرك أن تحرير المرأة لم يتحقق في بلد من البلاد ، طالما أن النظام الذي يحكم العالم هو امتداد للنظام الطبقي الأبوي الذي نشأ مع العبودية واستمر حتى اليوم بأشكال مختلفة ، وأسماء متعددة أساسها الرأسمالية الحديثة وما بعد الحديثة .

لا يمكن أن أنكر أن حياتى تختلف عن حياة جدتى وأمى . وأننى أقرأ وأكتب بالقلم والكمبيوتر وأسافر فى بلاد العالم ، وأناقش الرجال وذوى السلطة فى أمور الثقافة والدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والطب والأدب والجنس وكل شىء . ربما دفعت ثمنًا باهظًا من حياتى الخاصة والعامة نظير الحصول على هذه الحقوق ، إلا أننى انتزعتها بقوة الإرادة والتصميم والعمل المستمر وإثبات جدارتى العقلية والجسمية والروحية فى كيان واحد . أدركت من خبرتى فى الحياة بعد أن تجاوزت الستين عامًا أن قوة الإنسان أو الإنسانة تنبع من هذه القدرة على التحام العقل بالجسم بالروح . أو بعبارة أخرى القدرة على مقاومة الفلسفة العبودية القائمة على فصل الجسم عن العقل عن الروح ، هذه الفلسفة السائدة حتى اليوم والتى تجعل من الأديان السماوية وغير السماوية سندًا لها .

٢ - الـردة :

تتمثل الردة فى حياة النساء الأوربيات والأمريكيات فى تصاعد الحركة السياسية المسيحية التى تحاول إعادة المرأة إلى حظيرة البيت ، والخضوع لسلطة الأب والزوج تحت اسم الحفاظ على القيم الأسرية أو العودة إلى الروحانيات ، وهى حركات سياسية أصبحت تنمو فى الثلث الأخير من القرن العشرين بعد انهزام الحركات النسائية التحريرية وحركات الشباب والحركات التقدمية العمالية المناهضة للرأسمالية والعولمة، والتى مهدت لظهور الولايات المتحدة كقوة كبرى أو رأس الرمح الرأسمالى الاستعمارى الجديد ، بعد أن تهاوت القوى التحريرية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية والبلاد العربية ، وبعد سقوط حائط برلين وتهاوى الاتحاد السوفيتى ، ثم اشتعال حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وتراجع فكرة الوحدة العربية أو العالم العربى الذى أصبح يحمل اسمًا جديدًا هو الشرق الأوسط .

كل ذلك ليس إلا جزءًا من الردة التى يمر بها العالم فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين . وهى ردة عالمية ومحلية وعربية فى آن واحد ، لأننا نعيش فى عالم واحد ، (وليس ثلاثة عوالم أو أربعة) ، تحكمه قوة دولية واحدة ، تستمد قوتها من التفوق العسكرى القائم على احتكار السلاح النووى (ونزعه عن البلاد

الأخرى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية والشرق الأوسط فيما عدا إسرائيل) وتستمد قوتها الاقتصادية من القدرة على سن القوانين التجارية غير العادلة تحت اسم حرية السوق ، ويمكنها بعد كل ذلك أن تحتكر القدرة التكنولوچية والإعلامية القادرة على غسل أدمغة ستة بلايين من البشر وإقناعهم على الدوام بأفكار ضد مصالحهم من أجل مضاعفة أرباح القلة الحاكمة .

وكيف تتحرر النساء فى ظل نظام عالمى كهذا قادر على تسخير أغلب الحكومات المحلية لضرب أى فرد أو مجموعة تحاول التمرد أو الثورة ؟!

٣ - النخبة :

فى بلادنا العربية استطاعت القوى الحاكمة تدجين أى حركة تنهض لتغيير الأوضاع . لا فرق فى ذلك بين حركة نسائية أو عمالية شبابية أو غيرها . يشهد القرن العشرون على ذلك ، والأمثلة كثيرة ، منها ما حدث فى مصر والعراق وسوريا والسودان وتونس والمغرب والصومال وغيرها ، لا أظن أن بلدًا عربيًا واحدًا نجا من هذا المأزق ، مما أدى إلى ضعف الحركات السياسية المتقدمة فى بلادنا ، لم يبق منها إلا بعض السجلات فى التاريخ ، وبعض عجائز تجاوزوا السبعين ، انعزلوا فى بيوتهم يكتبون مذكرات حياتهم ، وأحيانًا يخرجون يطلون على ما يحدث فى الأحزاب السياسية ، التى تحولت إلى أندية ثقافية مشغولة بفكرة صراع الحضارات أو الأديان أو الهويات ، أو تحولت إلى ما يشبه الإدارات غير الحكومية الخاضعة للحكومة فى الواقع والحقيقة.

هذه هى أغلب النخبة المثقفة فى بلادنا العربية ، التى تقود الرأى العام ، وتشغل المساحات فى صحف الحكومة والمعارضة الشكلية ، وفى المؤتمرات العربية والدولية، يتنافسون على الظهور فى الصورة مع الملك أو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء ، أو وزير الثقافة أو الإعلام ، يحتكرون الجوائز العربية والعالمية ، يحمل كل منهم لقب معارض أو يسارى أو ماركسى ، أو ليبرالى عولمى ، وغير ذلك من لغة ما بعد الحداثة .

تشتمل النخبة المثقفة نساء بالطبع ، لا يختلفن كثيرًا عن الرجال ، تظهر صور بعضهن بالحجاب أو بدون حجاب ، لا شك أن حجاب العقل أخطر من أى حجاب آخر ،

لأنه لا يظهر فى الصورة ، ويوحى بأن المرأة متحررة ، رغم أن عقلها لا يختلف عن عقل جدتها (أو الأصح جدها) وربما يكون أكثر تخلفًا .

٤ - الاستهلاك :

هذه النماذج من النساء العربيات ضحايا الاستهلاك الفكرى الأمريكى الذى تروجه وسائل الإعلام فى عصر العولمة أو الرأسمالية فى نهاية القرن القديم وبداية القرن الواحد والعشرين . قد تكون الواحدة منهن أستاذة فى الجامعة أو عميدة كلية من الكليات أو صحفية أو أديبة أو عالمة ذرة أو عضــو فى البرلمان أو مجلس الشورى، أو وزيرة من الوزيرات ، وربما تكون الواحدة منهن قد تجاوزت الستين وظهرت بعض تجاعيد الزمن على وجهها ، فإذا بها تسرع لإخفاء التجاعيد تحت طبقة كثيفة من المساحيق (حجاب ما بعد الحداثة) أو بعملية جراحية لشد الجلد ، وتمشى تتأرجح على كعب عال ، يتأرجح من أذنيها قرط ضخم ثقيل ينوء به رأسها أو عنقها ، أما عقلها فقد تم حشوه بما تكتبه النساء الأمريكيات (من الليبرالية الرأسمالية أو الجبهة السياسية المسيحية المتصاعدة) عن أن الأمومة هى مصدر السعادة الوحيدة للمرأة الطبيعية ، وأن خروج النساء إلى العمل ومنافسة الرجال لم يؤد إلى شىء إلا تعاسة النساء وتفكك الأسرة وانحراف الأبناء وانتشار المخدرات وغيرها من المشاكل .

يتبنى الإعلام الأمريكى (وتوابعه فى بلادنا العربية) هذه الأفكار ما بعد الحديثة عن فشل حركات تحرير المرأة فى إسعاد المجتمع والأسرة ، وأن طموح المرأة العلمى أو السياسى أو الفنى أو الأدبى قد أدى إلى هدم الأسرة ، إلى انحراف الشباب، وهذه محاولة إعلامية للتمويه والتغطية على الأسباب الحقيقية التى أدت إلى البطالة وتزايد الفقر فى ظل الرأسمالية العالمية والمحلية .

لقد تم الكشف عن هذا التمويه الإعلامى العالمى والعربى ، والذى قد يرتدى أحيانًا ثوب العلم أو البحوث العلمية الجديدة ، إلا أن هذه الكتابات التحريرية كثيرًا ما تحاصر أو تمنع بواسطة الرقابة الرسمية أو غير السمية ، لقد دخل اسمى القائمة السوداء فى السبعينيات من القرن العشرين ، والتى تحولت إلى القائمة الرمادية فى نهاية القرن وبداية القرن الجديد .

لعل القائمة الرمادية أخطر من القائمة السوداء ، لأنها قد توحى بانعدام الرقابة على الفكر ، مثل حجاب ما بعد الحداثة الذى قد لا يظهر فى الصورة ، ولعل الاستهلاك الفكرى فى عصر العولمة أخطر من استهلاك البضائع الأمريكية أو منتجات الشركات متعددة الجنسيات ، لأن التخلف العقلى أشد خطرًا من أى تخلف آخر ، وأخطر مراحل التخلف العقلى فى بلادنا هى عجز النخبة من الرجال أو النساء على إنتاج الأفكار الجديدة القادرة على التغيير ، تعتمد النخبة العربية على الاستهلاك لأفكار الآخرين ، واجترار النظريات الأمريكية الأوروبية الحديثة أو ما بعد الحديثة ، أو اجترار النظريات الروحية أو الدينية القديمة أو ما يسمى التراث .

ويسود فى هذا المناخ صراعات ثقافية مزيفة بين ما يسمى الوطنية والتغريب أو الأصالة والمعاصرة ، وكلها تدور فى فلك الاستهلاك الفكرى مما تنتجه عقول الآخرين فى بلاد الغرب أو فى بلاد الشرق .

لا يزال الإبداع الفكرى فى بلادنا العربية ممنوعًا بالقوى السياسية والدينية الحاكمة ، الإبداع يعنى البدعة وهى كلمة سلبية فى القاموس السياسى الدينى فى بلادنا ، أن كلمة « الخلق » الفكرى أكثر خطورة ، لأنه لا يوجد فى الكون إلا خالق واحد ، من ينافسه قد يعرض نفسه (أو نفسها) لتهمة الزندقة ، وهى تهمة لا تخص القرن القديم فحسب ، ولكنها تمتد إلى القرن الجديد ، بل تزداد خطورة مع تصاعد التيارات الدينية ، التى تعود بنا إلى فكرة أن المعرفة كلها وردت فى الكتب الدينية ، ودورنا هو مجرد التفسير وليس خلق الجديد .

٥ - قشور التغيرات :

خلال القرن العشرين حصلت النساء فى بلادنا العربية على بعض الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية . تزايدت أعداد النساء اللائى خرجن إلى التعليم ويعملن خارج البيت بأجر قد يتساوى أحيانًا مع الرجال وقد يقل عنه فى أحيان كثيرة . تزايدت أعداد النساء اللائى أصبحن مسئولات عن إعالة الأسرة والإنفاق عليها . أدت البطالة المتزايدة إلى تزايد عدد الرجال العاجزين عن الإنفاق ، وبالتالى حصول المرأة القادرة على الإنفاق على بعض الحقوق الجديدة ، أو مناقشة بعض الحقوق التى كانت

حكرًا على الأزواج ، مثل حق الزوج فى منع زوجته من العمل خارج البيت ، أو حق الزوج فى منع زوجته من السفر ، أو حق الزوج فى إجبار زوجته على البقاء معه وعدم القدرة على تطليقه أو خلعه .

تمت تغيرات جزئية وفرعية فى بعض القوانين الخاصة بالزواج والطلاق ، إلا أن جوهر سيادة الرجل وسلطته المطلقة على نسائه لم تتغير ، بل زادت فى بعض الأحيان بسبب الردة ، والإحياء الفكرى لأكثر الأجزاء تخلفًا من التراث والأديان ، والهزائم العربية المتكررة فى الحروب الاستعمارية والإسرائيلية خلال القرن العشرين ، مما أدى إلى فقدان الثقة فى الذات ، واستشراء عقدة النقص ، ومحاولة التخلص منها تحت ستار من الهوية المتضخمة ، التى قد لا تجد شيئًا تتمسك به ليميزها عن الآخر سوى حجاب المرأة أو ختان الإناث . بل إن أحد المفكرين من النخبة المصرية وهو أستاذ بالجامعة الأمريكية وقد تأسلم فى السنين الأخيرة وأعلن أن الختان والحجاب جزء من الهوية الأصلية للمرأة العربية المسلمة . وهو يقلد فى هذا الاتجاه الأفكار الأمريكية والأوروبية السائدة اليوم عن الهوية واختلاف الثقافات وموجة الاستشراق الجديدة .

انتشرت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين كتابات استشراقية نسائية أمريكية تؤيد حجاب المرأة وختانها تحت اسم احترام الثقافات الأخرى . خلال وجودى فى مدينة لندن فتحت جريدة الجارديان (يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩) فرأيت مقالاً لإحدى النساء الفيمنيست اللائى نادين بتحرير النساء خلال النصف الأخير من القرن العشرين (هى جيرمان جرير) أكدت فى مقالها على تأييد ختان النساء كجزء من الهوية والثقافة الأصيلة فى بعض البلاد . وفى مؤتمر المرأة العربية - عقد بالقاهرة خلال عام ١٩٩٩ ، ترددت هذه الأفكار على لسان بعض النساء الأمريكيات اللائى دعين للمؤتمر . كنت خارج الوطن فى ذلك الوقت إلا أننى تابعت بعض ما كان يدور خلال ذلك الأسبوع وأدركت كم برزت أفكار النساء الأمريكيات فى المؤتمر وسيطرت على عقول النساء والرجال العرب . لاحظت أيضًا انه قد تم تجاهل أفكار وكتابات النساء العربيات التحريرية المتقدمة وتركيز الأضواء على أفكار النساء الأمريكيات وتوابعهم من العرب ، كما تم إبراز أعمال الرجال الذين كتبوا عن تحرير المرأة ، رغم أن هذه الكتابات طرحت مشكلة المرأة العربية من وجهة نظر الرجل ، وظلت حبيسة الفكر الأبوى

الطبقى الدينى ، أو داخل حدود الخطاب العربى الإسلامى الليبرالى الذى لا يتعرض لجوهر المشكلة وأسبابها الحقيقية ، بل يقدم بعض الإصلاحات الجزئية مثل إصلاح التعليم وبعض بنود قانون الأحوال الشخصية ، دون تغير النظرة التقليدية إلى المرأة كزوجة وأم، واعتبار دورها الرئيسى فى الحياة هو الأمومة وخدمة الأسرة فى البيت ، وقد نادى هؤلاء الرجال بأهمية تعليم المرأة بهدف تحسين أدائها للخدمة فى البيت ورعاية الأطفال ، حسب قول الشاعر : الأم مدرسة إن أعددتها ، أعددت شعبًا طيبًا الأعراق .

وكم يتغنى الشعراء فى بلادنا العربية بالأم ، ويرددون عبارة : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، إلا أن الدراسة العلمية المتعمقة لأحوال النساء فى بلادنا تؤكد لنا أن حقوق الأمهات ضائعة فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة على حد سواء .

إن اسم الأم فى بلادنا ليس له قيمة أخلاقية أو اجتماعية ، وليس إلا اسم الأب هو الذى يعطى الشرف والوجود الاجتماعى للأبناء والبنات . وقد استطاعت حركات النساء التحريرية فى بلاد أخرى أن تكسر هذا الاحتكار الأبوى لنسب الأطفال ، وأصبح لاسم الأم الحقوق نفسها التى يحظى بها اسم الأب ، وتبع ذلك اكتساب النساء لبعض الحقوق المدنية والاجتماعية الأخرى بالإضافة إلى مزيد من الحرية الشخصية للنساء. لكن هذه الحقوق ظلت محدودة محكومة بالنظام الأبوى الطبقى الذى يحكم سياسيًا واقتصاديًا ، مما يؤكد لنا أن الحرية لاقتصادية والسياسية جزء لا يتجزأ من الحرية الاجتماعية والشخصية .

٦ - القدرة الاقتصادية للمرأة :

فتحت إحدى الصحف المصرية يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩٩ لأرى فى الصفحة الأولى مانشيتًا كبيرًا عن مشروع جديد لقانون الأحوال الشخصية (بشرط الا يتجاوز حدود أحكام الشريعة الإسلامية) ، وصورة كبيرة لعدد من رجال الحكم وممثلى السلطات التنفيذية والدينية فى بلادنا .

كنت عائدة من خارج الوطن بعد غيبة والناس فى مصر تستعد للاحتفال بالقرن الجديد الواحد والعشرين إلا أن كل شىء بدا لى كأنما هو الاحتفال بالقرن القديم أو القرن من قبله ، حيث كان الرجال يشرعون القوانين التى تحكم النساء ، وأصحاب

الأموال والأراضى من الإقطاعيين والرأسماليين هم الذين يشرعون القوانين التى تحكم الأجراء والعمال والفقراء .

ربما كان ضمن هؤلاء الرجال فى الصورة امرأة تحمل لقب وزيرة الشئون الاجتماعية إلا أنها لم تظهر الصورة على الإطلاق واكتفى المحرر بذكر اسمها ، مما يؤكد أنها هامشية ولا قرار لها وسط هذا الخضم من الذكور .

وقد أصبحت جميع القوانين فى بلادنا مدنية وليست دينية فيما عدا قانون الأحوال الشخصية . وذلك لأن تغير القوانين لا يحدث دون وجود قوة سياسية اجتماعية قادرة على الضغط والتغيير ، وهذا أمر لم يحدث للنساء العربيات حتى اليوم، لم تستطع النساء فى بلادنا تنظيم أنفسهن داخل قوة سياسية منظمة واعية قادرة على تغيير القوانين .

لقد حاولنا تجميع الحركة النسائية العربية داخل منظمة تضامن المرأة العربية خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين إلا أن هذه الحركة ضربت بواسطة السلطات السياسية والدينية فى مصر والبلاد العربية حين بدأت هذه الحركة تقوى سياسيًا وتعارض التدخل الأمريكى إبان حرب الخليج فى بداية عام ١٩٩١ ، كما ضربت أيضًا محاولات تكوين الاتحاد النسائى المصرى خلال عام ١٩٩٩ .

يدلنا التاريخ على أن الأديان كانت فى خدمة الأنظمة السياسية والاقتصادية وليس العكس ، بدليل ما حدث للأديان من تغيرات مع تغير الأنظمة السياسية . إن معظم المؤسسات الدينية عادة ما تتبع الحكومة فى ظل النظام الملكى أو الجمهورى على حد سواء . وكم اجتهد رجال الدين أو المشايخ لإعادة تفسير الآيات القرآنية حسب توجيهات الحاكم وأعوانه . وفى تونس : ألم تلعب توجيهات الحبيب بورقيبة فى تغيير بعض أحكام الشريعة ومنها تعدد الزوجات وقانون الإرث ؟! وهل الشريعة الإسلامية التى تحكم اليمن أو المملكة العربية السعودية هى نفسها الشريعة الإسلامية التى تحكم مصر أو تونس أو المغرب ؟!

وفى مصر اليوم يدور الجدل حول مشاكل الاغتصاب والإجهاض وإعادة العذرية والأشكال الجديدة للزواج التى فرضتها التغيرات الاقتصادية ومنها الزواج العرفى وزواج المسيار وغيرها .

أهم هذه التغيرات الاقتصادية هى أن أعدادًا متزايدة من النساء المصريات أصبحن يمارسن العمل خارج البيت وينلن أجورًا عن هذا العمل أكسبتهن بعض الحقوق الاجتماعية الجديدة ، ومنها رفض سيطرة الزواج والتمرد على قانون الطاعة .

لقد استطاع الرجل بسبب قدرته الاقتصادية أن يسيطر على المرأة سياسيًا ودينيًا . يكفى أن نعيد قراءة الآيات القرآنية التى تقول ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم ﴾ (سورة النساء - الآية ٣٤).

أصبحت المرأة قادرة على الإنفاق على نفسها وعلى أسرتها كالرجل وأحيانًا أكثر منه . هكذا ضعف قانون الطاعة وقد ارتكز قانون الطاعة على الإنفاق الذى كان واجب الرجل فحسب .

وفى المشروع الجديد لقانون الأحوال الشخصية المصرى (المنشور بجريدة الأهرام فى ١٥ ديسمبر ١٩٩٩ ص ١٣) تنص المادة رقم ٢٠ على الآتى :

« للزوجين أن يتراضيا فيما بينهما على الخلع فإن لم يتراضيا عليه وأقامت الزوجة دعواها بطلبه وافتدت نفسها وخالعت زوجها بالتنازل عن حقوقها الشرعية وردت عليه الصداق الذى دفعه لها حكمت بتطليقها منه » .

ندرك من هذه المادة أن القدرة الاقتصادية للمرأة هى أساس حريتها . إن المرأة العاجزة اقتصاديًا التى تحتاج إلى نفقة زوجها لا تملك حق تطليقها أو خلعه ، ولابد أن تعيش معه رغم بغضها له ، ترضى شهوته على حساب كرامتها مثل العبد أو البغى التى تقدم جسدها للرجل مقابل المال أو الإنفاق .

إن شرط الحرية الشخصية والاجتماعية أو السياسية هو القدرة الاقتصادية أو الاستقلال الاقتصادى ، ويسرى هذا المبدأ على الأفراد الرجال والنساء بمثل ما يسرى على الدول والجماعات . وتتجسد أزمة المرأة العربية فى عجزها الاقتصادى واعتمادها على الرجال فى الإنفاق بمثل ما تتجسد أزمة الأمم العربية فى عجزها الاقتصادى واعتمادها على القوى الخارجية فى ظل النظام العالمى الجديد أو الاستعمار الجديد .

٧ - الأنوثة المعلبة :

إن الصراع الدائم فى عالمنا اليوم هو صراع اقتصادى فى الأساس يتخفى تحت رداء دينى أو ثقافى . لهذا تظهر على السطح الصراعات الإثنية والعرقية والدينية ، تروج لها وسائل الإعلام ، والفكر العالمى والعربى التابع له ، ويقرأ الناس فى الصحف كل يوم عن الحروب الدينية التى تبغى قتل المسلمين فى البوسنة أو الشيشان أو فلسطين أو السودان أو الجزائر أو أفغانستان أو غيرها ، ويظن الناس فى بلادنا أنها مجرد حروب ضد الإسلام ، ولا علاقة لها بالبترول أو تجارة الأسلحة ، أو فتح الأسواق الجديدة أمام القوى العالمية وكسر الجواجز أمام رأس المال الأجنبى أو البضائع الأجنبية ، والقضاء على الإنتاج المحلى تحت اسم حرية السوق أو العولمة .

لا يدرك الناس العلاقة بين نمو القوى الرأسمالية الاستعمارية الجديدة والتيارات الدينية السياسية اليمينية التى رأت أن سيف الله ينجح أكثر فى قتل المعارضين من سيف الحاكم ، ويصبح الدين ورقة سياسية رابحة فى المعارك الدائرة ، ومن يعارض يتهم بالكفر أو الإلحاد ، وهى تهمة أخطر من الخيانة السياسية أو خيانة الوطن .

أما المرأة المعارضة لهذه القوى الحاكمة فهى تتهم فى أخلاقها وشرفها بالإضافة إلى تهمة الكفر والزندقة . فى عام ١٩٩٢ أصبح اسمى فى قائمة الموت مع مجموعة من المفكرين العرب . وكان على أن أعيش خارج الوطن فى المنفى أكثر من خمسة سنوات . وقد عدت إلى الوطن أخيرًا ، إلا أنه لم يعد الوطن العربى ، أصبح شيئًا يسمونه الشرق الأوسط ، تحكم فيه قوى غير عربية ، تسود فيه بضائع أجنبية ، تغطى على شاشات التليفزيون الإعلانات عن مساحيق الوجه الأمريكية ، عن أدوات التجميل بأشكال متعددة ، إلى حد أن أصبحت أرى الشغالات فى البيوت يرتدين تحت الحجاب المساحيق والألوان والعطور الأجنبية الفواحة ، لا تختلف أستاذة الجامعة فى حجابها ومساحيقها عن الشغالة أو الخادمة فى البيوت ، إنها الأنوثة المعلبة داخل الإعلام الأمريكى ، لترويج أدوات الزينة التى تمثل المورد الخامس لأرباح الرأسمالية العالمية ، أول هذه الموارد تجارة السلاح ثم البترول ، ثم المخدرات ، ثم الأدوية ، ثم المساحيق وأدوات الزينة .

٨ - طموحات القرن الواحد والعشرين :

تابعت المظاهرات الشعبية فى شوارع مدينة سياتل فى نهاية نوفمبر ١٩٩٩ أثناء وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية . أدركت أن القوة لا يهزمها إلا القوة . أدركت أن النظام العالمى الطبقى الأبوى لن يسقط (ومعه مؤسساته المالية من نوع منظمة التجارة الدولية) إلا بقوة الشعوب المنظمة الواعية القادرة على ضرب القوة بالقوة . رغم القنابل المسيلة للدموع التى استخدمها رجال البوليس لتفريق المظاهرين إلا أن القوة المنظمة للجماهير من النساء والشباب والعمال انتصرت على القوة البوليسية . وفشل اجتماع منظمة التجارة الدولية الذى عقد فى مدينة سياتل ، وأصبح على القوة الحاكمة دوليًا أن تعيد النظر فى قوانين التجارة غير العادلة .

كنت أفحص وجه المتظاهرات من النساء والرجال والشباب وأرى بعض الوجوه العربية . أغمض عينى لأحلم بأن هذه المظاهرات تحدث فى بلادنا العربية ضد البنك الدولى وصندوق النقد ومنظمة التجارة الدولية إلا أننى كنت أفتح عينى وأدرك أن المظاهرة فى مدينة سياتل وليست فى أى مدينة عربية .

إن القضاء على القوانين الظالمة التى تحكم الدول أو الجماعات أو الأفراد نساء أو رجالا لن يتحقق إلا عن طريق القوة الشعبية المنظمة الواعية من النساء والرجال والشباب . هذا هو الدرس الذى يجب أن تتعلمه الشعوب العربية نساء ورجالا . لقد أدركنا على مدى القرن القديم وبداية هذا القرن الجديد أن القوى الدولية وأتباعها من الأنظمة العربية قد فشلت تمامًا فى تحقيق الأمن والعدالة والحرية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال . أدركنا أن الحكومات العربية أقدمت على تنازلات حرصًا على مصالحها ومصالح القوى الخارجية . هذه التنازلات لم تمنح الأنظمة العربية جواز المرور إلى القرن الجديد ، بل ردتها إلى الوراء إلى القرون القديمة ، وفرضت عليها حلولاً مؤقتة لا تسمح لها بالخروج من المأزق الاقتصادى أو السياسى أو الثقافى . ويُضحى عادة بقضية تحرير النساء تملقًا للتيارات الدينية أو النظر إليها على أنها مشاكل اجتماعية محدودة لا علاقة لها بالقضايا السياسية والاقتصادية الدولية والمحلية . مثلها مثل قضية الشباب التى ينظر إليها كقضية اجتماعية تشمل التأهيل

والتوظف والتسكين مع إبعادها عن السياسة . فى بلادنا تتحول المعارضة أيضًا إلى أحزاب شكلية دون أى قوة سياسية أو قواعد جماهيرية قادرة على التظاهر ضد القوانين الظالمة محليًا أو دوليًا .

رغم إجهاض حركات المرأة العربية التحررية وتجاهل أغلب كتابات النساء على مدى القرن العشرين فإن القرن الواحد والعشرين يبشر بأن هناك تغيرًا سوف يحدث ، وأن الشعوب العربية نساء ورجالاً لم تمت بعد ، وقد ساهمت كتابات المرأة العربية مع الكتابات النسائية فى بلاد أخرى فى كشف الازدواجية والتناقضات داخل النظام الطبقى الأبوى الدولى والعربى ، وعلى تفكيك الأيديولوچيا السائدة فى أجهزة السلطة . ولا تزال النساء العربيات قادرات على تنظيم أنفسهن وخلق الوعى الجديد رغم العقبات .

شهدت بوادر هذا الوعى فى لقاءاتى الأخيرة مع بعض الشابات العربيات أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الخامس لجمعية تضامن المرأة العربية الذى عقد بالقاهرة خلال أكتوبر ١٩٩٧ ، وفى المؤتمرات النسائية داخل الوطن العربى أو خارجه ، وقد امتد نشاط النساء العربيات خارج حدود بلادهن ، واستطاعت النساء من أصل عربى اللائى هاجرن إلى استراليا أو كندا أو أمريكا أو أوروبا أن ينظمن أنفسهن داخل جمعيات تضامن المرأة العربية التى انتشرت فى العالم وأصبح لها نشاطها ومؤتمراتها فى بلاد المهجر ، وقد بدأت الجسور تقوم بين النساء داخل الوطن العربى وخارجه .

لعل آخر هذه المؤتمرات فى القرن العشرين نظمته النساء العربيات فى كندا خلال أكتوبر ١٩٩٩ ، جاءتنى الدعوة وحرصت على الحضور ، وهناك فى مدينة مونتريال التقيت بمئات الشابات العربيات اللائى يدرسن بالجامعات أو اللائى يعملن ويتولين رعاية أسرهن ، أو المحامية أو الباحثة فى العلوم أو الفنون أو الأديبة أو الشاعرة أو غيرها وقد تفوقت بعضهن على النساء الكنديات والأمريكيات فى مجال العلم أو الفن أو النشاط السياسى .

وعلى شاشة الإنترنت والويب أصبح لجمعية تضامن المرأة العربية الدولية وجودًا تلتقى من خلاله على الشاشة كل يوم آلاف النساء العربيات داخل الوطن العربى وخارجه .

أصبحنا قادرات على متابعة مؤتمرات المرأة العربية ما بين المشرق والمغرب ، ومن مالبورن فى أستراليا إلى سان فرانسيسكو فى أمريكا الشمالية ، إلى جنوب أفريقيا وغيرها من بلاد العالم . لاشك أن شاشة الإنترنت والويب أصبحت فى نهاية القرن القديم وبداية القرن الجديد وسيلة الاتصال والتواصل بين النساء العربيات فى جميع بلاد العالم .

إلا أن حركة المرأة العربية داخل الوطن العربى لازالت فى حاجة إلى مزيد من التنظيم والوعى من أجل تحرير النساء العربيات والوطن العربى كله . ذلك أن نصف المجتمع لا يمكن أن يتحرر فى بلاد غير محررة .

● ● ●

شهر مارس وتحرير المرأة فى أفريقيا

أصبح شهر مارس فى العالم هو عيد النساء فى مختلف البلاد شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ، تقام الاحتفالات فرحًا بالانتصارات الجديدة فى مجال تحرير المرأة .

أهم دعوة جاءتنى بمناسبة هذا الشهر كانت من النساء فى غانا . سافرت كثيرًا داخل القارة الإفريقية من السنغال على الساحل الغربى إلى كينيا وتنزانيا فى الشرق ، وجوهانسبرج فى الجنوب وأوغندة وإثيوبيا داخل الوسط ، إلا أننى لم أسافر إلى غانا . قابلت بعض الشخصيات النسائية من غانا فى مؤتمرات دولية . بهرنى بعضهن بقوة الشخصية واتساع المعرفة والشجاعة فى القول والحركة ، ومنهن الكاتبة الشهيرة « أما آتا أوودو » ، ولا أنسى أيضًا هذه الأستاذة الجامعية الرشيقة ذات البشرة السوداء والعيون اللامعة التى ألقت علينا فى أحد المؤتمرات فى نيويورك محاضرة عن تحرير المرأة تفوقت فيها عن النساء الأمريكيات والأوروبيات ، وفى المساء تفوقت أيضًا فى الرقص والغناء .

وتصورت أن الحرية فى غانا أكثر من غيرها ، لكن الدعوة التى جاءتنى كشفت عن أن بعض العادات العبودية لاتزال راسخة هناك ، وأن هذه الأستاذة المتحررة عقلاً وجسمًا لا تمثل الأغلبية الساحقة من النساء فى غانا ، وليس هذا ضدها ، بل العكس ، لأنها استطاعت رغم القيم العبودية فى مجتمعها أن تتغلب عليها وأن تفرض نفسها داخل بلادها وخارجها باعتبارها شخصية إنسانية ذات عقل متحرر وجسم كسر القيود وخرج من بين سلاسل القهر رشيقًا قويًا كالسهم .

وتحتفل النساء فى غانا بيوم المرأة العالمى ١٩٩٩ لأن الحركة النسائية هناك نجحت فى إلغاء إحدى العادات العبودية التى كانت سارية حتى يونيو ١٩٩٨ - أى العام قبل الماض فقط، بعد نضال طويل عبر السنين خاضته الحركة النسائية كقوة جماعية، وأيضًا خاضته بعض الرائدات اللائى تمرّدن لهذه الحركة ، فالعمل الجماعى يبدأ عادة

بأفراد قلائل من النساء أو الرجال ، قد يموتون أو يُسجنون ويدفنهم التاريخ ، إلا أن البذرة تكون قد زُرعت فى الأرض ، ولا بد من يوم يأتى ليبرز النبات الأخضر فوق السطح تحت الشمس .

فى يونيو ١٩٩٨ نجحت الحركة النسائية فى غانا فى تعديل قانون العقوبات الذى كان يبيح للأب أن يقدم ابنته العذراء لرجل غريب عنها يغتصبها جنسيًا ويشغلها فى بيته خادمة تطبخ وتغسل ويشغلها فى حقله تزرع وتروى وتحصد ، وتحمل وتلد أطفالاً ، كل ذلك بلا أى حقوق إلا طعامها .

ولماذا يفعل الأب ذلك بابنته ؟!

لأن فى غانا عادة عبودية تسمى باللغة المحلية (لغة الأيوى) عادة « التروكوسى » وتعنى « عبيد الإله » . هذا الإله بالطبع لا يراه أحد لكن له مندوب على الأرض يحمل لقب « القس » . هذا القس يعيش فى معبد اسمه « أولو كورتى » . وهناك فى كل قرية عدد من هؤلاء الرجال الذين يحملون لقب القس يسمونهم « القساوسة » وهم فى نظر أغلب الناس أرواح بلا أجساد ، وإن كان لهم أجساد فهى أجساد طاهرة لا تمارس ما يمارسه الناس من حياة زوجية مدنسة بالجنس .

إلا أنهم يمارسون شيئًا آخر اسمه « التروكوسى » ، يشتمل على الجنس إلا أنه جنس يباركه الإله فلا يكون مدنسًا .

حسب هذه العادة « التروكوسى » الراسخة فى نسيج المجتمع الغانى منذ نشوء العبودية ، فإن القس له سلطة الإله ولا أحد يحاسبه على ما يفعل ، ومن حقه أن يعيش فى أحسن منزل ويستمتع بأحسن طعام وأجمل العذراوات فى القرية ، كل ذلك تحت اسم « إرضاء الإله » .

والناس كلهم يحملون اسم « عبيد الإله » ، وعلى كل أب أن يأخذ ابنته العذراء الصغيرة ، قبل أن يدركها الحيض ، يأخذها إلى « القس » ، ينحنى أمامه فى المعبد ، ويسمونه « بيت الإله » ينحنى الأب أمام القس ويقول له باحترام ورهبة : « هذه ابنتى العذراء خذها يا سيدى إرضاء للإله » .

وتصبح البنت الصغيرة ملْكًا للقس ، تعيش معه فى بيته ، تؤدى له الواجبات المنزلية مجانًا ، الطبخ والتنظيف والغسل ، وتزرع أرضه ، وبعد أن يدركها الحيض يُضاف إلى واجباتها الجنس ، عليها أن تعاشر القس معاشرة الأزواج .

قد يملك القس من هؤلاء البنات ما يصل إلى خمسة عشر ، يطلق عليهم اسم « حريم الإله » ، مثل حريم هارون الرشيد !

بعد معارك طويلة من الحركة النسائية فى غانا أجاز البرلمان فى ١٢ يونيو ١٩٩٨ تعديل القانون بإضافة مادة جديدة رقم ٣١٤ (أ) تعتبر عادة « التروكوسى » جريمة تستوجب السجن ثلاث سنوات على الأقل .

منذ صدور هذه المادة حتى اليوم تحرر ما يزيد عن ألف فتاة من أسيرات التروكوسى فى ٣٢ قرية فى غانا .

بدأت المعركة ضد التروكوسى تشتد حين كُشفت قصة إحدى البنات واسمها « أبلا كوتور » عمرها اليوم ١٣ عامًا ، وقد أخذها أبوها العام الماضى (وعمرها ١٢ عامًا) ووهبها للقس ، كتعويض أو تكفير عن عملية اغتصاب أمها (بواسطة خال الأم) وقد نتج عن هذا الاغتصاب مولد الإبنة أبلا كوتور .

بعد ١٢ يونيو ١٩٩٨ أصبحت « أبلا كوتور » حرة من الناحية القانونية وليست ضمن أملاك القس ، إلا أن أحدًا من أسرتها لم يتقدم لاستلامها ، خوفًا من بطش الإله أو القس ، أو التقاليد الاجتماعية السائدة والتى لم يستطع القانون الجديد أن يغيرها بهذه السرعة .

إن العادات العبودية الراسخة فى المجتمع تحتاج إلى وقت وجهد وحملات ثقافية لرفع الوعى لدى الناس ولا يكفى إصدار قوانين جديدة . أقول هذا لأن كثيرًا من الناس فى بلادنا تصوروا أن ختان الإناث سوف ينتهى بعد صدور قرار وزير الصحة بمنعه . إلا أن هذا غير صحيح ، وكثيرًا ما يتحايل الناس على القانون لتحقيق عاداتهم القديمة.

وأيضًا بالنسبة لإلغاء المادة ٢٩١ من قانون العقوبات التى تسقط التهمة عن الرجل الذى يغتصب فتاة إذا تزوجها ، وقد سهلت هذه المادة فى القانون لبعض الرجال

أن يخطفوا ويغتصبوا البنت التى يريدونها وبعد ذلك يذهبون إلى أسرتها ويقولون : نحن على استعداد للزواج منها ، وغالبًا ما ترحب الأسر بهذا الحل إصلاحًا للخطأ أو تسترًا على الفضيحة أو حماية لشرف العائلة . هكذا تروح البنت ضحية جريمتين : « الاغتصاب » و « الزواج من الرجل الذى اغتصبها » . وهكذا يكافأ الجانى بالزواج من الضحية ، وتسقط عنه التهمة والعقاب وهو الإعدام حسب القانون أو السجن المؤبد مع الأشغال .

بدأ بعض الرجال والنساء فى بلادنا ينادون بإلغاء هذه المادة ٢٩١ من قانون العقوبات باعتبارها بعض بقايا العبودية أو القهر الواقع على الإناث ، ولابد من إلغاء هذه المادة حتى نطهر القوانين فى بلادنا من رواسب العبودية .

إلا أن تغيير القانون لا يكفى ، ولابد من حملات ثقافية وتعليمية وإعلامية ترفع الوعى لدى الناس ، وتساعدهم على التخلص من هذه العادات والتقاليد أو العرف ، الذى يكون أحيانًا أقوى من القانون لارتباطه بما يسمى إرضاء الإله أو القس أو رجال الدين أو غيرهم ممن لا يفرقون بين التعاليم الدينية والتعاليم البشرية .

لعل شهر مارس ١٩٩٩ يلعب دورًا فى رفع الوعى والإسهام فى هذه الحملات الثقافية والإعلامية .

• • •

الدكتورة سهير اللقماوى كما عرفتها(*)

كنت طفلة فى المدرسة الابتدائية حين سمعت صوتها فى الراديو ، صوت قوى ممتلىء ، يشبه صوت أم كلثوم ، إلا أنها لا تغنى ، لكن تتحدث فى الأدب والثقافة وتعليم المرأة .

كان الراديو فى الأربعينيات جهازًا سحريًا (مثل الإنترنت اليوم) ، والأصوات تخرج منه شبه سحرية ، إلا تلك الأحاديث عن الطبخ والتدبير المنزلى ، كنت أهرب منها إلى الأدب والفن ، أحرك مفاتيح الراديو لأسمع أم كلثوم وطه حسين وسهير القلماوى ، قال أبى : إنها تلميذة طه حسين هو الذى شجعها ، وهى أول امرأة مصرية تدخل الجامعة .

حين دخلت الجامعة سألت عنها ، قالوا إنها فى كلية الآداب ، وكنت أنا فى كلية الطب ، لم أعرف الطريق إليها ، كانت أستاذة كبيرة معروفة وأنا فى أول الشباب ، تخرجت طبيبة وبدأت أكتب الأدب ، نشـــرت بعض القصص القصيرة ، وأول رواية طويلة « مذكرات طبيبة » ظهرت على حلقات فى مجلة « روز اليوسف » فى يوم دق جرس التليفون فى بيتى ، جاءنى الصوت القوى الممتلىء الذى سمعته فى الراديو منذ عشرين عامًا .

أنا سهير القماوى قرأت روايتك فى مجلة « روزا » وأعجبتنى واصلى الكتابة يا نوال ..

كانت لحظة فى حياتى لا أنساها ، كان صوتها هو الوحيد بين النساء المعروفات حينئذ الذى جاءنى ، كلماتها شجعتنى على الكتابة وملأتنى بالأمل ، كان أبى يقول دائمًا : « كلما ارتفع الإنسان تواضع » ، كانت سهير القلماوى فى قمتها الأدبية وكنت

(*) الأهرام ٧ مايو ١٩٩٧ ص ١٠ (توفيت ٥ مايو ١٩٩٧) .

أنا فى أول حياتى ، رفعت سماعة التليفون وكلمتنى ، لم تستغرق المكالمة إلا دقيقة أو نصف دقيقة ، إلا أنها بقيت فى ذاكرتى أربعين عامًا .

إن سهير القلماوى مثل طه حسين أحد الأعمدة الثقافية والأدبية فى بلادنا ، يجب ألا تندثر أعمالها بوفاتها ، فما أسهل أن تندثر الرائدات من النساء .

إن الرواد من الرجال أمثال طه حسين يجدون بعض الاهتمام من الحركة الثقافية والأدبية فى بلادنا ، فهى حركة يغلب عليها الرجال بحكم التاريخ والقوة السياسية ، ولا تزال الحركة الثقافية النسائية هامشية ، تغلب عليها الصراعات الحزبية ، تميل إلى التضحية بقضية المرأة من أجل القضايا الأخرى ، لهذا السبب اندثرت أعمال الكثيرات من الرائدات المصريات ، فى حياتهن وبعد موتهن .

سهير القلماوى لها مؤلفات وكتابات تستحق الاهتمام ، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا ، إنها جزء من التاريخ لابد أن تعرفه الأجيال المتعاقبة .

كانت سهير القلماوى صديقتى ، وكنت أختلف معها فى الرأى حول أمور كثيرة ، إلا أن هذا الاختلاف هو أساس التطور والنمو والإبداع ، وهو أساس الصداقات الإنسانية الأدبية القوية ، هذه الصداقات تنشأ بين الأنداد ذوى الرأى ، وليس بين الإمعات التابعين للآخرين ، وكانت سهير القلماوى تحترم الرأى المخالف ، لأنها كانت تحترم رأيها ونفسها . لم تتأرجح سهير القلماوى بين التيارات المسيطرة ، حافظت على مبادئها وإن دخلت فى نزاع مع ذوى السلطة ، ولم تكن مثل غيرها الذين عاشوا فى كل العهود وتربعوا على عرش الثقافة والأدب والمرأة .

هل يمكن لوزارات الثقافة والتعليم والإعلام أن تبذل الجهود لتعريف الشباب والشابات فى مصر بأعمال سهير القلماوى ؟! لها كتاب بعنوان « أحاديث جدتى » يمكن أن يدخل المدارس ويقرأه الأطفال من الأولاد والبنات ، ربما تتشجع البنات المصريات على مقاومة الردة الثقافية التى تفرض عليهن الاختفاء وراء الخمار أو جدران البيت والمطبخ .

لا يزال تاريخ سهير القلماوى وأعمالها مجهولة عند الأجيال الجديدة فى بلادنا ، أخشى أن تندثر تمامًا بوفاتها كما حدث لنساء غيرها ، فالضربات لاتزال توجه إلى الحركة النسائية تحت أسماء ومسميات دينية أو سياسية ، ولا يزال أغلب المؤرخين من الرجال الذين يهتمون بالرواد أكثر من الرائدات ، لا يزال عدد المؤرخات من النساء قليلاً يعد على الأصابع ، تنشغل معظمهن بالكتابة عن الرواد من الرجال .

فهل يمكن أن تتبنى الحركة النسائية المصرية مشروعًا جديدًا لإحياء تاريخ الرائدات المصريات ، ومنهن الدكتورة سهير القلماوى ؟!

أرجو ذلك ! لابد ! .

• • •

الوعى القومى
بين الحركة الوطنية والحركة النسائية(*)

ما أسهل أن تكتب عن تحرير الفقراء دون أن تنصف الخادم الفقير فى بيتك ، وما أسهل أن تكتب « عن تحرير النساء » ثم تسلب زوجتك حقها ، أو تسب خادمك (إذا لم يحفظ كلمته) وتقول له « أنت مَرَة » (يعنى امرأة باللغة الفصحى) ، وتمدح المرأة الشجاعة ذات الشهامة قائلاً : « إنتى رجل » ، كأنما المرأة لا كلمة لها ولا شجاعة ولا شهامة .

هذا التناقض بين القول والعمل لا يخص الأفراد ، وليس سمة عصرنا الحديث فحسب ، ولكنه يخص الدول والجماعات البشرية منذ نشوء النظام السياسى الاقتصادى الذى عرف فى اللغة باسم النظام « الطبقى الأبوى » . وتعكس اللغة أو الثقافة القيم السياسية والاقتصادية للطبقات الحاكمة فى أى مجتمع .

يكفى أن نتابع الأخبار فى العالم أو فى بلادنا العربية والأفريقية لنشهد التناقض الصارخ بين ما تعلنه الدول (خاصة ذات القوة العسكرية النووية) من بيانات عن مكافحة الإرهاب والدعوة إلى السلام ، وتطالعنا الأنباء كل يوم بصور المجازر البشرية فى أفريقيا وبلادنا العربية ، أقربها إلينا الاعتداء الإرهابى الإسرائيلى على شعب لبنان وفلسطين المحتلة خلال هذا الربيع الدامى من عام ١٩٩٦ ، والذى دعمته الولايات المتحدة الأمريكية بالسلاح العسكرى ، والفيتو فى الأمم المتحدة ، وتكنولوچيا الإعلام الحديث ، الذى حوَّل المذابح أو المجازر البشرية إلى عمل من أعمال السلام والحرية أو الديموقراطية .

هذا هو النظام العالمى الجديد أو السلام الإرهابى الذى أحرزته البشرية فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ، وهو النظام الطبقى الأبوى القديم يتجلى فى أوضح صوره الحديثة ، ويؤكد لنا كل يوم أنه لا يعرف إلا القوة العسكرية ، ولا يؤمن إلا بالربح الاقتصادى ، تحت سيطرة الطبقة الأعلى المالكة للمال والسلاح فى الدولة ، والجنس الأسمى المالك للسلطة والفضيلة داخل العائلة .

(*) القاهرة ١٩٩٦ .

أدى هذا النظام فى التاريخ البشرى إلى تناقضات خطيرة فى القيم السياسية والأخلاقية على حد سواء ، وتم الفصل التعسفى بين الرجال والنساء ، وبين أصحاب الأملاك والأجراء . أصبح تاريخ الإنسانية هو ذلك الصراع اللانهائى لتحرير النساء والفقراء من عار الفقر ، وعار المرأة ، بعد أن أصبحت كلمة امرأة سبّة وكلمة فلاح إهانة .

لم تكف فى التاريخ ثورات النساء وثورات الأجراء أو الفقراء ضد جميع الأنظمة ابتداء من العبودية إلى الإقطاعيات الزراعية إلى الرأسماليات الصناعية إلى الاشتراكيات المزيفة إلى عصر تكنولوچيا القوى النووية والإعلامية الذى نعيشه اليوم .

كان يمكن للثورة العلمية أو التكنولوچية الحديثة أن تُستخدم فى منافع عظيمة لشعوب الكرة الأرضية ، وكان يمكن للطاقة النووية أن تحدث ثورة إنسانية تقضى على مآسى الجوع أو الفقر أو الأمراض ، لكنها بدلاً من ذلك فقد استُخدمت لإنتاج القنابل ، وأسلحة الدمار الشامل ، وتبددت البلايين فى تنظيم مؤتمرات دولية تنفخ فى الأبواق بكلمات خاوية عن السلام ، أو البحث فى السماء عن ذنب فضائى تاه عبر ملايين السنين الضوئية بين النجوم .

لم يقترن « العلم » أو السياسة أو الأخلاق بالضمير الإنسانى أو مبادئ العدل أو الحرية والتعاون ، بل اقترنت كلها بتراكم الربح والمال وتجميعها بالقوة المسلحة والتنافس .

ارتبطت القيم الأخلاقية بالقوة الاقتصادية والسياسية والإعلامية . وأصبحت القيمة العظيمة لأى دولة فى امتلاكها السلاح النووى ، والقيمة الكبرى لأى فرد يظهر على شاشة التليفزيون ، أو نرى صورته فى الصحف كل يوم أو كل أسبوع .

أصبحت الناس تخاف القوة ، خاصة الفلاسفة الذين يعيشون فى راحة وأمان داخل أبراجهم العالية ، فلم نسمع عن فيلسوف واحد فى عصرنا استشهد من أجل الدفاع عن العدل أو الحرية ، وفى العصر العبودى استشهد سقراط فى اليونان القديم ، واستشهدت الفيلسوفة المصرية « هيباثيا » فى الإسكندرية القديمة منذ ألف وستمائة عام .

لم ينجب عصرنا مثل هؤلاء الفلاسفة أو المفكرين أو المثقفين من الرجال والنساء ، من ذوى الشجاعة فى قول الحق ، وعدم الفصل بين القول والعمل .

رغم تراكم الثراء والمال والتكنولوچيا لم يحقق عصرنا العدل أو الحرية لأغلب سكان الأرض بل زادت الهوة بين الفقراد والأثرياء وزادت التفرقة بين الرجال والنساء .

وحين تشتد الأزمات أو المذابح يستيقظ ضمير الفلاسفة أو المثقفين فجأة ، يمسكون أقلامهم ، يسودون الصفحات البيضاء من الورق ، يستنكرون الاعتداء أو الإرهاب ، يوجهون الإدانات إلى « الضحية » أو الشرائح الأضعف سياسيًا من الطبقات الأقل أو الجنس الأدنى من النساء ، يتفادون الإشارة إلى الرؤوس الكبيرة من رجال السياسة أو الحكم .

ونقرأ فى الصحف أو الكتب النظريات الحديثة عن فساد عالمنا المعاصر بسبب غياب الأخلاق أو القيم والتقاليد ، أو بسبب خروج النساء إلى العمل أو انخراطهن فى حركات نسائية ، أو بسبب تزايد أعداد الفقراء أو العاطلين وانخراطهم فى حركات إرهابية تهدد الأمن العام .

هكذا تضيع الحقائق فى خضم الكلام أو الكتابة أو الإعلام السائد ، ينتشر الوعى الزائف بين النساء والرجال ، تنقلب الحركات التحريرية المدافعة عن حقوق الفقراء أو حقوق النساء إلى حركات عنصرية انفصالية تزرع الكراهية أو الحقد بين الجنسين أو بين الطبقات .

فى بداية هذا القرن أو نهاية القرن الماضى دُمغت حركات تحرير العمال فى بلادنا بأنها حركات مشبوهة مستوردة من الغرب يسيطر عليها الأجانب أو الشيوعيون الملاحدة ، هدفهم الأساسى ضرب الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى . وبالمثل أيضًا أدينت الحركات النسائية بأنها مستوردة من الغرب تُعلن الحرب على الرجال والأسرة أو الأخلاق والتقاليد ، وتؤدى إلى فصل نضال الرجال عن نضال النساء داخل الحركة الوطنية .

خلال القرن العشرين اكتسبت حركات العمال أو العاملين فى مجالات الصناعة والزراعة قوة سياسية جديدة بعد انتشار الأفكار الاشتراكية وتقوية اتحادات العمال والنقابات ، ولم يعد الدفاع عن الفقراء يعنى الإلحاد الشيوعى ، ولم يعد الحديث عن

القهر الطبقى كفرًا بالله وخيانة للوطن ، لكن المشكلة الطبقية ظلت منفصلة عن المشكلة الأبوية ، وظل الوعى الوطنى العام منفصلاً عن الوعى النسائى .

لم يكن تنظيم النساء سهلاً أو ميسورًا ، لأن أغلب النساء معزولات داخل الحياة الخاصة أو الأسرة الصغيرة ، لا يسهل تجميعهن مثل الرجال داخل المؤسسات العامة مثل النقابات أو الاتحادات أو البرلمانات أو الأحزاب السياسية . وقد نشأت هذه المؤسسات فى بلادنا والمرأة محرومة من حقوقها السياسية ، ولهذا أصبحت الأغلبية فيها للرجال ، وسيطرت عليها قلة من الطبقة الوسطى الساعية إلى الحكم أو الارتباط بالطبقة العليا ، يملكون الكتابة والتأريخ للحركة الوطنية - بل للحركة النسائية أيضًا .

فى مصر مثلاً يكتب هؤلاء المؤرخون عن قاسم أمين كأنما هو المحرِّر الأول والأخير للنساء ، ويندثر الدور الذى قامت به المرأة قبل قاسم أمين أو الكتابات التى قدمتها النساء عبر مراحل التاريخ حتى يومنا هذا .

يرتبط التاريخ بالسلطة الحاكمة لاشك ، حكومة ومعارضة ، ويأتى التاريخ كمحصلة للصراع الحزبى حول السلطة والنفوذ . وكانت المرأة ولازالت خارج هذا الصراع ، بسبب ضعف حركتها السياسية وعدم قدرتها على التنظيم ، أو مقاومة الوعى الزائف السائد فى أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم .

يرتكز الوعى الزائف على إخفاء التناقض بين القول والعمل ، على تجزئة المعرفة والفصل بين القضايا العامة والقضايا الخاصة أو بين السياسة والدولة والأسرة والأخلاق أو بين القضية القومية أو الوطنية وبين القضية النسائية .

ويُخفى الوعى الزائف الأسباب الحقيقية للمذابح والمجازر التى تحدث فى بلادنا العربية والإفريقية . يحدث الفصل بين القوة والمسئولية . تقع المسئولية على الأضعف وتعاقب الضحية مثل الأفارقة الفقراء أو العرب الكسالى الخاملين أو النساء المتخلفات ناقصات العقول والدين أو الشباب العاطلين بلا وازع ولا ضمير .

إذا أردنا أن نعالج هذا الخراب السياسى والاقتصادى والثقافى والأخلاقى فلابد من علاج لهذا الوعى الزائف عن طريق الربط الدائم بين السياسة والاقتصاد والثقافة والأخلاق والدولة والأسرة والخاص والعام والقضية النسائية والوطنية والقومية . هذا الربط ضرورة لعلاج تجزئة المعرفة ، ولتشخيص الأزمات تشخيصًا صحيحًا ، وبالتالى علاجها على النحو الصحيح .

لقد أصبحنا نحن النساء أو الفقراء أو الأفارقة أو العرب ، أول الضحايا لهذا النظام الطبقى الأبوى الجديد ، الذى يحمل اسم النظام العالمى الجديد . ويسقط كل يوم مئات القتلى أغلبهم نساء وفقراء وأطفال وشباب . لقد أصبحنا ضحايا البطش العالمى والمحلى تحت اسم التعاون أو الترابط الدولى أو ما يسمى أحيانًا « الكونية » نسبة إلى كون واحد أو عالم واحد تسقط فيه الحدود بين البلاد ، وتتم الوحدة بين البشر .

إلا أن هؤلاء البشر ليسوا إلا القلة الحاكمة دوليًا ومحليًا . المالكة للمال والسلاح، الساعية إلى تفريق الشعوب المحكومة فى بلادنا الإفريقية والعربية ، وإقامة الحدود بينهم ، وتفتيت قواهم تحت اسم الاختلاف ، أو التعددية وتباين الأديان أو الثقافات أو القوميات أو الجنسيات .. إلخ .

وتستخدم كلمة مثل « الديموقراطية » كسلاح ذو حدين ، أو الكيل بمكيالين ، حرية إسقاط الحدود تحت اسم الكونية ، وحرية إقامة الحدود تحت اسم التعددية والاختلاف .

هكذا يتخبط المثقفون فى بلادنا بين هذه الكلمات الحديثة الرنانة ، فى هذا العصر الذى يسمونه عصر ما بعد الحداثة ، أو عصر ما بعد الاستعمار أو عصر ما بعد التحكم الاقتصادى إلى عصر حرية السوق ، وحرية النساء والفقراء أو سكان « العالم الثالث » .

يقود هذا العصر مفكرون من جامعات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، أكاديميون داخل غرفهم المغلقة يدبجون الكلمات والاصطلاحات الجديدة ، يتقاتلون بالحروف واللغة ، ويقولون إن ساحة القتال فى عصر ما بعد الحداثة هى الساحة اللغوية أو الثقافية وليس الساحة الاقتصادية . لقد أصبحنا فى عصر ما بعد الاقتصاد . أصبحنا فى عصر اللغة أو الثقافة .

هكذا يتم الفصل مرة أخرى بين اللغة أو الثقافة وبين الاقتصاد والسياسة . يقود هذا الاتجاه الفكرى الجديد رجال ونساء من الطبقة الرأسمالية الحديثة يرفلون فى نعيمها الاقتصادى ، لكنهم ينسون أو يتناسون هذه الحقيقة حين يمسكون أقلامهم ويكتبون نظرياتهم الجديدة عن عصر ما بعد الحداثة أو عصر اللغة والثقافة .

وقد أصبح مصيرنا يتوقف على مقاومة الوعى الزائف الذى تسوقه إلينا هذه الطبقة العالمية والمحلية الحديثة ، والذى يحمل أغلبهم ألقابًا أكاديمية ضخمة من نوع « مفكر أو فيلسوف » علينا ألا ننخدع بهذه الفلسفة اللغوية الثقافية المنفصلة عن الاقتصاد والسياسة والتاريخ . فاللغة اجتماعية سياسية اقتصادية ، وليست شيئًا علويًا معلقًا فى السماء أو هابطًا من أعلى .

إلا أن هؤلاء الفلاسفة والمفكرون يضعون « اللغة » فى مكان علوى يشبه مكانة الدين . وهناك من يؤمن أن الخالق الأعظم هو الذى خلق اللغة وهو الذى يغيرها وفق مشيئته وليس لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية تحدث فى حياة الرجال والنساء فوق الأرض .

ويحاول هؤلاء المفكرون تطوير اللغة بمعزل عن تطوير الاقتصاد والسياسة ، مع أن اللغة أو الثقافة ليست إلا انعكاسًا للقيم الاقتصادية والاجتماعية السائدة .

خلال هذا القرن ومنذ تزايد القوة السياسية والاقتصادية أو الحزبية لطبقة العمال والفلاحين لم تعد كلمة « عامل » أو « فلاح » إهانة كما كانت . لكن كلمة امرأة (مَرَه بالعامية) لاتزال إهانة ونوعًا من السباب .

يرجع ذلك إلى ضعف القوة السياسية والاقتصادية للنساء فى بلادنا ، فالمرأة هى أضعف شرائح المجتمع سياسيًا واقتصاديًا ، وهى أول من يُطرد من الأعمال المنتجة بأجر فى الأزمات الاقتصادية ، وهى أول مَنْ يموت فى الحرب مع أطفالها ، وهى أول مَنْ يُتهم ويُدان فى الأزمات السياسية أو الأخلاقية أو تصاعد النعرات الدينية .

ذلك أن الفلسفة السائدة رغم تطورها عبر القرون لاتزال فى جوهرها فلسفة طبقية أبوية ، ويحكم العالم دوليًا ومحليًا طبقة صغيرة من الرجال يملكون المال والسلاح والدين والدنيا . ويصبح التحدى الملقى على الحركة النسائية فى بلادنا أن تسعى نحو القوة السياسية والاقتصادية والثقافية فى جميع المجالات العامة والخاصة داخل الأسرة الصغيرة والمجتمع الكبير سواء بسواء .

• • •

فلوس المرأة هل هى عورة ؟[*]

دق جرس التليفون بمنزلى ليلة الجمعة ٢٠ يوليو ١٩٩٦ . صوت امرأة تولول عبر الأسلاك : الحقينى يا دكتورة . الأستاذ طلعت فى غيبوبة فوق الجهاز !

كنت فى غيبوبة النوم . جهاز إيه ؟ الأستاذ طلعت أخويا ؟ أيوه يا دكتورة أخوك بيموت فوق الجهاز الحقينى !

انتبهت وتذكرت . كان أخى منذ ساعات قليلة جالسًا إلى جوارى يضحك ويستعد للسفر للإسكندرية لقضاء شهر أغسطس . اتفقنا على اللقاء غدًا فى بيته ليعطينى صورنا القديمة منذ الطفولة . انتزعها من بيت جدى منذ أكثر من نصف قرن واحتفظ بها داخل صندوق مغلق كأنها الجواهر . لم أعرف قيمة هذه الصور إلا الشهر الماضى فى لندن ، طلب منى الناشر الإنجليزى خمس عشرة صورة لمراحل الطفولة وأول الشباب ، سوف ينشر هذه الصور مع كتابى الجديد « أوراقى حياتى » .

أصبحت فى الشارع .. السيارة تشق الظلمة من شمال القاهرة إلى الجنوب ، الضربات تحت ضلوعى تتصاعد مع مطبات الطريق .

هل ألحق أخى قبل أن يموت ؟ منذ أيام قليلة نصحه طبيبه الخاص ألا يذهب إلى المستشفى لعمل غسيل كلوى . وسألنى الرأى فقلت له بالحرف الواحد : أنا لا أنصح أى إنسان قريب أو غريب بالذهاب إلى أى مستشفى ، فأنا اشتغلت طبيبة سنين طويلة فى هذه المهنة الكئيبة ، أدركت حقيقة جوهرية هى : المستشفيات فى بلادنا لم توجد إلا للإسراع بوفاة الناس . أما هذا الجهاز المسمى بجهاز الغسيل الكلوى فليس إلا أداة للقتل .

ضحك أخى وكان يحب الضحك والمرح منذ الطفولة . أكثر ما كان يحب الموسيقى والعزف على العود . الرجال والنساء فى عائلة أبى وأمى كانوا مثل بعض

(*) نشر بجريدة العربى ٥ أغسطس ١٩٩٦ .

المشايخ اليوم ، يـرون أن الموسيقى « زنـا » كعمل المرأة خارج البيت واختلاطها بالرجال ، وهجر أخى الموسيقى ودخل الجامعة ليحمل شهادة عليا ، عاش بهـا ومات بهـا موظفًا مجهـولاً فى أحد سراديب .

قبل أن أصل إلى مستشفى ٦ أكتوبر بالدقى مات أخى فوق الجهاز . ألقوا به فى غرفة قذرة كما يلقون بالآلاف من الموتى الفقراء المجهولين أو الموظفين تحت مظلة التأمين الصحى بلا واسطة للوزير أو رئيس الجهاز .

أخذونى إلى حيث رأيت الصراصير السوداء تجرى فوق البلاط ، فوق الترولى رأيت شيئًا ملفوفًا فى بطانية قذرة .

قدماه تطلان عاريتين مرعوبتين بلون الجير الأبيض بلا قطرة دم . عرفته من قدميه . الأصابع الطويلة لها شكل أصابعى . لم أستطع أن أرفع البطانية المهلهلة لأرى وجهه .

قلت للمسئولين عن الجهاز : هذه جريمة قتل . كانوا من زملائى الدكاتره ، بعضهم يمسك سبحة صفراء بين أصابعه ويرتدى لحية سوداء طويلة ، قالوا : الموت بإرادة الله يا دكتورة الا تؤمنين بالله ؟ هكذا فى غمضة عين انقلب الوضع . كنت أتهمتهم بالإهمال إلى حد القتل . أصبحت أنا المتهمة بعدم الإيمان أو الكفر .

الليلة الأخيرة لأخى فى هـذه الدنيا قضاها عاريًا داخل ثلاجة المستشفى . فى الصباح سافر داخل الكفن والصندوق إلى قريتنا كفر طحلة حيث المقبرة .

فى القرية تجمعت النساء والرجال من عائلة السعداوى من الفلاحين والفلاحات بالوجوه المتربة المرهقة والأيادى المشققة .

عائلة شكرى بيه سليلة المجد حتى طلعت باشا فى اسطنبول « المرحوم جدى والد أمى منح أخى اسم طلعت على اسم جده العظيم فى تركيا » رائحة العرق والطين فى الجلاليب القديمة تختلط برائحة العطور الأنثوية فى الفساتين والطرح السوداء الحريرية .

أكثرهم شجاعة كانت زينب ابنة عمتى المرأة الفلاحة الفارعة القامة تذكرنى بجدتى مبروكة « أم أبى » خطوتها الواسعة تدب فوق الأرض . صوتها مملوء بالقوة : ماتحمليش هم حاجة يا دكتورة . أحنا فتحنا المقبرة وكل حاجة جاهزة عشان الجنازة .

زينب الفلاحة لم تولول مثل النسوان القادمات من المدينة ، الملفوفات فى الطرح والفساتين الحريرية ، الشاحبات الوجه من عدم رؤية الشمس ، أو عدم الحركة أو العمل فى الحقل . إنهن من عمر زينب لكن زينب لا تكف عن الحركة والعمل من طلوع الشمس حتى غروبها . وهن جالسات متربعات فوق الشلت . يولولن أو يثرثرن أو يتقاسمن الميراث قبل أن يتوارى الجثمان فى المقبرة .

كان المنادى فى القرية قد طاف قبل صلاة الجمعة يعلن عن وفاة الأستاذ طلعت السعداوى ابن فلان وشقيق فلان وفلانة ، هذه الفلانة هى أنا . ذكر المنادى اسمى كاملاً « الدكتورة نوال السعداوى » . تجمع الفلاحون من قريتى والقرى المجاورة فوق الجسر ، ينتظرون قدومى ، يريدون تقديم العزاء لى . إنهم يعرفوننى منذ كنت طبيبة الوحدة الصحية المجمعة فى طحلة ، وقد سعيت كثيراً لإدخال الكهرباء والمياه النقية ورصف الطريق الزراعى وفتح المدرسة للبنات ومركز الشباب ، ومازلت أسعى حتى اليوم لإدخال شبكة المجارى أو الصرف الصحى .

لم يشعر أحد من الفلاحين أن اسم المرأة عورة إذا نادى به المنادى ، أو أن مشاركتها فى جنازة أخيها نوع من الزنا مثل خروجها إلى العمل بأجر .

إلا أن بعض الدكاترة من حملة الشهادات العليا من الرجال فى العائلة الكريمة كانوا على خلاف مع الرجال الفلاحين . لاحظت أن لبعضهم اللحى الطويلة والمسابح الصفراء ، سمعتهم يقولون : اسم المرأة لا يصح أن ينادى به كما ينادى اسم الرجل ، والمرأة ممنوعة من السير فى الجنازات حسب الإسلام الصحيح .

دار النقاش بين الدكاترة والفلاحين حول الإسلام الصحيح . والإسلام غير الصحيح . لم أشترك فى النقاش ولم أشارك أيضًا فى الجنازة . قلت لنفسى ربما

يتحول الأمر إلى معركة بين الدكاترة والفلاحين ، وأهم شىء عندى هو أن يدفن أخى ، وأطمئن على مثواه الأخير قبل أن أعود إلى القاهرة .

بعد الجنازة والدفن ، بدأنا نحسب المصاريف كان الاتفاق أن أدفع ٥٠٪ من المصاريف - بعد أن استولت زوجة المتوفى على معاشه من الحكومة والذى صرفه قبل الوفاة بساعة واحدة ، وقدره ٦٥٠ جنيهًا مصريًا ، إذ دست يدها فى جيبه وهو فوق الجهاز وقبل أن يلفظ أنفاسه - وأخى الأصغر يدفع النصف الآخر .

فى الطريق الزراعى من القرية إلى المدينة دار فى رأسى هذا السؤال : لماذا يكون اسم المرأة عورة ومشاركتها فى الجنازة عورة ؟

فلماذا لا تكون أيضًا فلوس المرأة عورة ؟ ولم يعترض أحد من الدكاترة على أن أدفع المصاريف .

• • •

طريقى ليس إلى بكين !(*)

منذ مؤتمر المرأة الأول فى المكسيك عام ١٩٧٥ دُعيتُ إلى عدد من المؤتمرات الدولية تحت شعار الأمم المتحدة ، عددها كبير ، وأثرها قليل ، رغم ما ينفق فيها من مال وجهد ، وبعد مؤتمر المرأة فى كوبنهاجن عام ١٩٨٠ بدأت أشك فى جدوى هذا العمل ، وكنت قد أنفقت عامين من عمرى فى أديس أبابا وبيروت ، حيث اشتغلت بالأمم المتحدة ، مستشارة لبرامج المرأة فى أفريقيا وآسيا (عامى ١٩٧٩ ، ١٩٨٠) قدمت بعدهما استقالة صغيرة تتكون من عبارة واحدة هى « لا أظن أن تحرير النساء فى أفريقيا وآسيا سيحدث من خلال الأمم المتحدة » .

وقلت لنفسى وأنا فى طائرة العودة إلى بيتى فى مصر : ربما تكون الأعمال الأدبية وكتابة الروايات أجدى وأعمق أثرًا . إلا أن الدعوة جاءتنى لحضور مؤتمر المرأة فى نيروبى عام ١٩٨٥ وذهبت . واشتركت فى مظاهرة نسائية تتكون من ستة آلاف امرأة سوداء ضد المؤتمر الحكومى (الذى عقد فيما يشبه قصر كينياتا) حيث قرأت مندوبات الحكومات خطبًا مكتوبة من قبل « حبرًا على ورق مصقول » .

وتأكدت بعد مؤتمر نيروبى أن تحرير النساء خاصة « السوداوات الفقيرات فى أفريقيا » لن يكون عن هذا الطريق ، وكم تصدعت رأسى من قراءة تقارير الأمم المتحدة عن نساء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، أو ما يسمونهن «نساء العالم الثالث» تقارير سميكة تأتينى بالبريد حيث أكون ، تشبه قرارات مجلس الأمن لإيقاف المذابح فى البوسنة أو فلسطين أو الصومال أو رواندا أو .. أو .. بأنها حبر على ورق .

واليوم فى درج مكتبى الدعوة إلى مؤتمر المرأة فى بكين (سبتمبر ٩٥) أمسكها فى يدى ، وفى يدى الأخرى صحيفة الصباح تحكى عن المذبحة فى شرق البوسنة فى « سيربيرنيتسا » تذكرنى بمذبحة صبرا وشاتيلا ، وعين الحلوة ، والكرامة، والرشيدية ، وجثث النساء والأطفال الفلسطينيين واللبنانيين رغم مرور السنين أراها

(*) نشر بجريدة الأهرام ١٩٩٥/٧/٣٠ .

تنزف بمثل ما تنزف هذه الجثث ، عيون الأطفال المقتولة لاتزال مفتوحة ، تطل على العالم بدهشة ، ملامحهم متشابهة ، رغم اختلاف البلاد والأديان والألوان ، الفم مفتوح والدم متجمد عند النفس الأخير ، والعالم كله يشهد الجريمة ، يرى القتلة من إسرائيل أو من الصرب ، دون أن يفعل شيئًا ، بل إنه يساند القتلة ضد المقتولين ، والعناوين الكبيرة فى الصحف تقول : هزم الصرب قوات الأمم المتحدة فى موقعة سربيرنيتسا شرق البوسنة . هذه القوات الدولية (التى شكلت عام ١٩٤٨) ، وطائرات حلف الأطلنطى انهزمت أمام قوات الصرب الصغيرة المحدودة !!؟ فتح الصرب نيرانهم على ٨٠ ألف نسمة سكان المدينة المحاصرة يعيشون منذ ٣ سنوات بلا ماء ولا كهرباء ولا غاز وممنوع عليهم الإمساك بالسلاح للدفاع عن أنفسهم ! وفى الصورة فى الصحيفة يبتسم المسئولون عن الأمم المتحدة ويقولون : انتصار الصرب لا يعنى فشل الأمم المتحدة لأن خيارنا هو « الحوار » وليس استخدام القوة العسكرية ! .

يا إلهى ! لم نسمع هذه العبارة فى يناير ١٩٩١ قبل حرب الخليج التى قتل فيها نصف مليون نسمة تحت قرار الأمم المتحدة ، وخيارها حينئذ « القوة العسكرية » وليس الحوار ! (أى خيار !؟) .

تلعب القوى الدولية ومعها الأمم المتحدة دورها المزدوج من وراء الستار ، فهى تشجب الاعتداء فى بيانات ورقية أو كلامية ، وتمد الجيش المسلح بمزيد من السلاح ، وتمنع عن الشعب الأعزل أى سلاح فلا يستطيع الدفاع عن نفسه .

نساء وأطفال يواجهون جيشًا مسلحًا بأجسادهم العارية ، والدعوات إلى مؤتمر المرأة فى بكين تطير عبر البريد إلى النساء ، تتنافس عليها النساء ، فما أجمل بكين فى بداية الخريف ، وما أجمل تقارير الأمم المتحدة عن الفقر والنساء فى أفريقيا بالذات ، إلا أننى تأكدت مما تأكدت منه منذ عشرين عامًا ، أن الطريق إلى تحرير النساء لا يكون فى بكين أو كوبنهاجن . الطريق إلى تحرير النساء يبدأ من هنا ، من مسقط الرأس ، من المكان الذى ولدنا فيه ونموت فيه ، وإلا فإن كتابة القصص والروايات أجدى وأمتع !

• • •

ومـاذا تقـول المـرأة
فى القـرن الواحـد والعشـرين(*)

العالم ينطلق نحو آفاق فى العلم والفن ونظريات المعرفة والسلوك والقيم المادية والروحية على حد سواء . المرأة العربية هى نصف العالم العربى عددًا . عقولاً وأرواحًا . ولابد أن يكون لها دورها فى تشكيل عالم أفضل فى القرن الواحد والعشرين ، عالم أكثر عدلاً وحرية وحبًا وتعاونًا .

هل تظل المرأة العربية غارقة فى مشاكل القرن التاسع عشر حائرة بين العمل أم الزواج السفور أم الحجاب ، الدنيا أم الأخرة .. فى الوقت الذى تركب فيه المرأة الإسرائيلية الطائرات العسكرية وتتدرب على السلاح النووى لضرب أى بلد عربى يقول لا .

ليس معنى ذلك أن تنخرط المرأة العربية فى القوات المسلحة وتظل عانسًا بغير زواج أو أمومة أو حب . لكن ما أعنيه هو أن تجمع المرأة العربية بين حياتها الخاصة وحياتها العامة .. أن تدرك أن هذا الفاصل بين الحياة الخاصة والعامة فاصل مزيف يجب أن يزول . فالإنسان « رجلاً أو امرأة » عضو فى مجتمع كبير وعضو فى أسرة فى الوقت ذاته . ولا يمكن أن يتفرغ الإنسان لحياته الخاصة فقط .

إن حدث ذلك فى القرون الماضية فقد كان الناس غير مدركين للترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع . كان العمل السياسى منفصلاً عن الحياة الاجتماعية والشخصية للملايين من الناس والرجال . لهذا السبب كانت الحكومات قادرة دائمًا على البطش بهؤلاء الملايين واستغلالهم فى أعمال السخرة والعبودية ، سواء داخل البيت « النساء » أو فى الحقول والمصانع والأشغال الشاقة الأخرى . يعملون طول النهار بأقل الأجور ، يتم قهرهم ثقافيًا بالتجهيل الإعلامى ، بالتجهيل التعليمى فى المدارس . يتدربون على الطاعة العمياء منذ الطفولة ، على اعتبار أن الحكام وأولى الأمر هم مندوبو الله فوق الأرض .

(*) نشر بجريدة العربى / القاهرة ١٩٩٥/٢/٦ .

هذه بقايا الأفكار العبودية التى حافظ عليها أصحاب السلطة فى الشرق والغرب على السواء . فى البلاد الإسلامية والمسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية وغيرها .

فى القرن الحادى والعشرين يسير الناس نساءً ورجالاً نحو إدراك أكبر أن طاعة الله فى الحرية والعدل والحب . الله فى أعماقنا هو الضمير الذى يجعلنا أكثر إنسانية . أكثر تعاطفًا وتعاونًا ، وليس هو السيف أو الرصاصة أو القنبلة أو القوات البوليسية أو العسكرية .

فى القرن الحادى والعشرين يدرك الناس أن العالم أصبح محكومًا بقوة عسكرية نووية دولية تدعمها قوة اقتصادية استعمارية جديدة تتكلم لغة جديدة ظاهرها السلام والعدل والمساواة وحقوق الإنسان والديمقراطية . باطنها الحرب والضرب لكل من قال «لا» بل لكل من اكتشف الخديعة أو الازدواجية .

الأمل فى القرن الحادى والعشرين أكبر من القرن العشرين . لأن الازدواجية كشفت دوليًا وإقليميًا . فى بلادنا العربية ارتفعت الأصوات الوطنية تسأل عن الترسانة النووية فى إسرائيل . لماذا لا يفتشها هؤلاء المندوبون عن الأمم المتحدة فى مجلس الأمن كما يفتشون البلاد العربية الأخرى ؟

إن عملية تزييف الوعى لن تستمر فى القرن الجديد كما استمرت فى القرون السابقة . إن انعزال النساء عن الحياة السياسية العامة لن يستمر ، لأن غياب نصف المجتمع العربى عن العمل العام هو غياب للمجتمع العربى كله عن الحياة السياسية الدولية أو المحلية .

أمام الوطن العربى تهديد كبير بسبب التضاعف المستمر لقوة أمريكا وإسرائيل النووية والاقتصادية . هذا التهديد سيفرض على العالم العربى وعيًا جديدًا وإدراكًا جديدًا بأن النساء العربيات قوة كبيرة كامنة لم تلعب دورها بعد .. قوة كبيرة يريدون عزلها فى البيوت وراء الحجاب .. وراء اللاعمل والبطالة . أو السخرة بلا أجر داخل الجدران الأربعة ، فماذا تقول المرأة العربية فى القرن الجديد ؟

• • •

المرأة لا تولد امرأة .. بل تصبح امرأة !

نحن فى فبراير سنة ١٩٩٣ من نافذتى الزجاجية الفسيحة أطل على « قمة التشابل » كما يسمونها هنا فى جامعة « ديوك » ورؤوس الأشجار الباسقة تناطح السحب ، الصنوبر والأرز وأنواع أخرى ضخمة تشبه الأشجار فى إفريقيا الاستوائية وغابات الهند وسرى لانكا الكثيفة . أمامى فوق المكتب كشف بأسماء الطلاب والطالبات الذين اختاروا الانضمام إلى فصل « المرأة والإبداع » ، والذى أقوم فيه بتدريس رواياتى وأعمالى الأدبية ، وأعمال أخرى لبعض الأدباء والأديبات من مختلف أنحاء العالم .

الطلبة والطالبات هنا هم الذين يختارون الأستاذ . جاءوا من القارات الخمس ليدرسوا هنا فى جامعة ديوك فى ولاية نورث كارولينا . واحدة منهم اسمها « مايا » من الهند ، قالت لى أول يوم دخلت فيه الفصل : « قرأت روايتك » « فردوس » منذ أربع سنوات فغيرت حياتى كلها ، وشاب أمريكى يدرس الطب ومع ذلك أدرج اسمه فى كشف فصل المرأة والإبداع ، وسألته لماذا ؟ قال : لأنى مثلك تمامًا أحب الأدب والطب معًا .

تجربة جديدة أعيشها هنا فى هذه الجامعة الأمريكية .

تجربة الربط بين العلم والفن والطب والأدب والحلم والحقيقة والجسم والعقل ، احمل لقبًا جديدًا هو « أستاذة زائرة » أعيش وسط الشباب والشابات . آكل معهم فى مطعم الطلاب . أتجنب مطعم الأساتذة . أشعر على نحو غريب أننى أنتمى إلى عالم الشباب وليس الكهول . شعرى شاب وأبيض منذ زمن بعيد . لكن بشرتى لاتزال مشدودة وقلبى مشدودًا إلى المستقبل . أمشى أكاد أجرى كما كنت وأنا طفلة . لم تتغير خطوتى فوق الأرض . لا أعرف هذه المشية المرتخية البطيئة لنساء الطبقات العليا من ذوات الكعوب العليا الرفيعة .

نحن فى فبراير ١٩٩٣ . وأنا أمشى فوق الممرات الطويلة بين سيقان الأشجار الممدودة عاليًا مثل ناطحات السحب ، والمبانى البيضاء الضخمة ذات الطراز الأمريكى القديم منذ القرن الماضى . والأسقف الحمراء تطل منها المداخن .

أتوقف أمام المبنى الأبيض الغارق فى غابة من الشجر . إنه القسم الذى أدرس فيه . أرى اسمى مكتوبًا فوق لوحة صغيرة من تحتها رف صغير يحمل البريد المرسل إلىّ ، والأخبار الجديدة عن الأنشطة فى الجامعة . جامعة ديوك () تنطقها السكرتيرة « جيل » بطريقة غريبة على أذنى . امرأة أمريكية بيضاء البشرة جاءت من كارولينا الجنوبية ، حيث تتغير اللهجة مثل لهجة أهل الصعيد فى بلادنا . « جيل » تعمل سكرتيرة القسم الأدبى ثم تركب سيارتها الحمراء وتعود إلى مزرعتها حيث بيتها وابنتها وزوجها . إنها تملك مع أسرتها خمسمائة فدان وسبعين بقرة تحلبها وتبيع لبنها ، وأقول لها : لابد أنك من الأثرياء وتضحك جيل بصوت عال يشبه صوت الفلاحات فى قريتى كفر طحلة وتقول : لو كنت من الأثرياء ما اضطررت إلى العمل كسكرتيرة . لا أستطيع أن أعيش أنا وأسرتى من دخل الأرض والبقر ، لأنه قليل بالنسبة لغلاء المعيشة ومصاريف الأسرة . نحن الفلاحون نعانى هنا من النظام الاقتصادى الذى يجعل أصحاب المصانع ، وخاصة مصانع السلاح هم الأثرياء ، أما أصحاب الأرض من الفلاحين من أمثالى فمازلنا نعانى .

تذكرت ، وهى تكلمنى ، مظاهرات الفلاحين الذى خرجوا بالآلاف من مختلف بلاد أوروبا ، وتجمعوا أمام مقر المجلس الأوروبى فى ستراسبورج يوم ١ ديسمبر ١٩٩٢ ، وقدموا احتجاجًا ضد الاتفاقية الأمريكية الأوروبية بقطع الدعم الزراعى ، وفى برن ، بسويسرا ، وأنا أمشى أمام البرلمان السويسرى يوم ١٤ ديسمبر ١٩٩٢ رأيت مجموعة من الفلاحين ، تتوسطهم بقرة ضخمة تسد مدخل البرلمان . كان مشهدًا غريبًا ، ذكرنى على نحو ما بالبقرة المقدسة التى يعبدها بعض الناس فى الهند . لكنى عرفت أنها مظاهرة احتجاج من الفلاحين (وأبقارهم أيضًا) على قرار الحكومة بشق طريق فى الجبال يدمر مزارعهم ومراعيهم . وقال لى واحد من الفلاحين بصوت غاضب : إنهم أهل الصناعة الذين يحكمون ويبطشون بأهل الزراعة من الفلاحين .

إن السكرتيرة « جيل » فلاحة تحلب سبعين بقرة وتكتب على الكمبيوتر ، وتعرف قوانين الجامعة ، وتحكى لى الكثير عن الصراعات بين أهل الزراعة وأهل الصناعة

والسلاح فى المجتمع الأمريكى . وهى لا تقف لأحد حين يدخل عليها وإن كان عميد الجامعة أو الرئيس كلينتون . هكذا هى تقول . إنها لا تقف لأحد ، لأنها تؤدى عملها بالكامل ، وليس ضمن واجباتها الوقوف لأى أحد .

إنه يوم الثلاثاء ٩ فبراير ١٩٩٣ . الشتاء هنا يذكرنى بشتاء نيودلهى فى الهند . دافىء والشمس ساطعة . الأشجار ساكنة تمامًا بلا ريح . الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم المشحون بالعمل . حيث ألتقى مع الطلبة والطالبات فى فصل الإبداع والمرأة. حين طلبت منى الجامعة أن أقوم بالتدريس ، قلت : « أنا لم أشتغل بالتدريس أبدًا وكم أكره كلمة التدريس والمدرسين » لكنهم قالوا لى : التدريس هنا مختلف، ولك مطلق الحرية فى الاختيار . قلت : آختيار ماذا ؟ قالوا : اختيار ما تدرسين .

وهكذا اخترت أن أدرس أعمالى الأدبية . كم هى تجربة جديدة وشيقة . أن تقوم الأديبة بتدريس رواياتها للطلاب والطالبات . والتدريس هنا يعنى الجدل والحوار والنقد . لأول مرة أسمع نقد الطلاب والطالبات لرواياتى وقصصى . بعضهم بدا لى أكثر فهمًا للأدب من بعض النقاد .

فى إحدى هذه الأمسيات دار الجدل حول المدرسة الجديدة لنقد الأدب النسائى . ذهبت إلى الأمسية مع شريف حتاتة (وهو أيضًا أستاذ زائر فى جامعة « ديوك » يجمع فى محاضراته بين الأدب والسياسة) وتعرفنا على عدد من الطلاب والأساتذة . منهم « توريل موى » وهى أستاذة للنقد الأدبى النسائى الجديد . أهدتنى بعض مؤلفاتها وآخرها كتاب جديد عن سيمون دى بوفوار .

قرأت الكتاب (٣٥٧ صفحة) فى ليلة واحدة . إنه رؤية جديدة أكثر صدقًا وعمقًا لأعمال سيمون دى بوفوار وحياتها ، بلا فصل بين الحياة والنص .

وتدعونى « توريل موى » إلى العشاء فى منزلها ، داخل غابة من أشجار الصنوبر والأرز . دقيقة الملامح ، نحيفة الجسم ، تتكلم اللغة الإنجليزية بلكنة نرويجية ، فهى فى الأصل من النرويج ، وحماسها للكاتبات من النساء صادق عميق ، وخاصة فرجينيا وولف وسيمون دى بوفوار .

تطل من وراء نافذتها الزجاجية على قمم الأشجار وتقول : لا يمكن الفصل بين حياة الأديب أو الأديبة والنص المكتوب لا يمكن فصل حياة سيمون دى بوفوار عن كتاباتها وأعمالها المنشورة . الإنسان هو ما يكتب من نصوص . سيمون دى بوفوار واحدة من أهم المفكرين فى العالم خلال القرن العشرين ، وتعرضت لهجوم كبير من النقاد فى فرنسا ، بعضهم اتهمها بالسطحية ، أو النرجسية أو التمحور حول الذات ، وبعضهم أهمل أعمالها الأدبية ولم يهتم إلا بحياتها الشخصية كامرأة أو علاقتها بسارتر وبعضهم لجأإلى الصمت وتجاهل وجودها تمامًا وانشغل بكتاب من الرجال الهامشيين فى الأدب الفرنسى .

وأعود بذاكرتى إلى الوطن . يذكرنى الهجوم على سيمون دى بوفوار بالهجوم الذى تتعرض له بعض الكاتبات فى بلادنا ، لقد ولدت سيمون دى بوفوار فى فرنسا عام ١٩٠٨ ، وأنا ولدت فى مصر بعدها بثلاثة وعشرين عامًا . وحين أسمع هجاء النقاد الفرنسيين لها أدرك كيف يتشابه النقاد فى فرنسا ومصر وغيرهما من بلاد العالم ، رغم اختلاف الزمان أو اللغة أو التاريخ أو الدين أو الثقافة .

ولعل أهم عبارة كتبتها سيمون دى بوفوار فى كتابها الجنس الآخر (١٩٤٩) هذه العبارة التى أصبحت مثل الحكمة النسائية السائدة فى أمريكا اليوم .. « المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة » .

معنى ذلك أن المجتمع هو الذى يصنع شخصية المرأة وصفاتها الأنثوية وليس الطبيعة أو البيولوجيا .

استطاعت هذه الفكرة أن تهدم فكرة سابقة عليها كان يتبناها سيجموند فرويد تقول : إن الطبيعة أو البيولوچيا هى التى تحدد مصير الإنسان الرجل أو المرأة .
وبالإنجليزية

لكن الفلسفة تغيرت ، وتغير معها علم النفس وعلم الجسم (البيولوچيا) وتغير أيضًا الأدب والنقد الأدبى . شارك فى هذا التغيير عدد قليل من الرجال المفكرين ، وعدد أكبر من النساء المفكرات والكاتبات فى العالم ، منهن سيمون دى بوفوار ، ومن قبلها كانت فرجينيا وولف التى ولدت عام ١٨٨٢ فى إنجلترا ، وتعرضت لهجوم أشد

مما تعرضت له سيمون دى بوفوار فى فرنسا . إلى حد أن قضت أيامها الأخيرة مع المرض النفسى (مثل كاتبتنا العربية مى زيادة) ثم ماتت منتحرة عام ١٩٤٥ .

حاول النقاد دفن فرجينيا وولف ، وسيمون دى بوفوار إلى الأبد فلا يذكرهما أحد . لكن الناقدات الجديدات من النساء بدأن إعادة اكتشاف هاتين الكاتبتين فى ضوء المدرسة النقدية الجديدة ، وإعادة اكتشاف تلك القيمة الكبيرة لأعمالهما الأدبية غير المنفصلة عن حياتهما ونضالهما من أجل الإبداع والحرية .

فى المساء ذهبت لمشاهدة فيلم جديد من إخراج مخرجة إنجليزية اسمها « سالى بوتر » أخذته عن رواية فرجينيا وولف « أورلاندو » جيل جديد من المخرجات السينمائيات يحاولن إعادة اكتشاف الأديبات من مثيلات فرجينيا وولف .

ساعتان من المتعة الفكرية داخل عقل هذه الأديبة البريطانية التى لم يحتملها المجتمع البريطانى فى الأربعينيات من هذا القرن العشرين ، وقتلت نفسها بيدها ، بعد أن خطت هذه اليد عدداً من المؤلفات الأدبية لم تدرك قيمتها الحركة النقدية فى زمانها .

• • •

مظاهرات النساء فى أوروبا

فى ليلة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٩٢ ، وجدتنى أسير فى مدينة زيوريخ وسط تسعة آلاف امرأة سويسرية يرتدين السواد ، يحملن الشموع ، درجة الحرارة صفر والصقيع يهبط ، يسرن بخطوة واحدة ثابتة فى مظاهرة صامتة يحملن لافتات تقول : (نعلن احتجاجنا على اغتصاب ثلاثين ألفًا من نساء البوسنة بواسطة قوات الصرب ، لابد من اعتبار « الاغتصاب » جريمة حرب مثل القتل تمامًا « تسقط العنصرية الجديدة » ، «تسقط النازية الجديدة » .

« لماذا إرسال القوات المسلحة الأمريكية إلى الخليج العربى وإلى الصومال ، وليس إلى البوسنة » ؟!

« يسقط النظام العالمى الجديد ذو الوجهين » !!

« يسقط النظام الطبقى الأبوى .. » إلخ .. إلخ) .

وفى كل مدينة فى سويسرا نظمت الحركة النسائية المظاهرات احتجاجًا على اغتصاب نساء البوسنة .. آلاف النساء خرجن فى الليل المظلم والصقيع يهتفن ضد النظام العالمى الجديد ، وضد اضطهاد النساء والفقراء .. سرت بينهن لا أشعر بالبرد ولا أشعر بالظلام ، وأقول لنفسى : ترى هل خرجت فى بلادنا مظاهرات مثل هذه المظاهرات ؟! هؤلاء النساء فى أوروبا اللائى يصورن على أنهن إباحيات ومنحلات ، هؤلاء النساء كن أقدر من الرجال عندنا على تنظيم المظاهرات بالآلاف ضد اغتصاب النساء المسلمات فى البوسنة !! هؤلاء النساء كن أكثر وعيًا بالترابط بين السياسة الدولية والدين والاقتصاد والجنس .. ألا يمكن أن نعيد النظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين ؟ ألا يمكن أن نفكر بعقولنا فيما يحدث فى العالم من حولنا ؟! ألا نكف عن اعتبار المرأة المسلمة مجرد عورة يجب أن تغطى ، أو أن الرجل المسلم ليس إلا ذئبًا شاغله الأوحد فى الحياة هو النظر إلى ما قد يظهر من وجه المرأة أو ذراعها أو ساقها ؟!

الا يمكن أن نعيد النظر إلى سياستنا الاقتصادية بحيث نستقل عن الآخرين ونطعم أنفسنابأيدينا وإنتاجنا ، وليس عن طريق المعونات والقروض - أن تكون السياحة جزءًا من النشاط الثقافى والاقتصاد ، وليس المصدر الأساسى لبقائنا على قيد الحياة .

الصمت نوع من العدوان

فى اجتماع للكاتبات من مختلف أنحاء العالم فى مدينة سان سباستيان بأسبانيا فى الفترة من ٢٧ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٢ - تساءلت كاتبة أسبانية من مدريد اسمها « لوزيرا اتكزفيك » :

لماذا يصمت النقاد عن إبداع الكاتبات النساء اللائى يكسرن القيود ؟!

وردت كاتبة شابة لم تذكر اسمها ولا اسم بلدها ، ولكنها استشهدت بقول كاتبة أفريقية معروفة اسمها « أما أتا إيدو » قالت : « إذا رفض أحد النقاد الحديث عن أعمالك فهذا نوع من العنف ، لأنه يسعى إلى قتلك كإنسانة مبدعة » .

هكذا يصبح الصمت نوعًا من العدوان ، وفى ختام الندوة اتفقت الكاتبات رغم اختلاف الجنسية واللون والعقيدة .. إن شعارنا يجب أن يكون « كسر الصمت » .

لأنه « الصمت » وليس « الاختلافات » هو الذى يشل الإنسان الخلاق ، امرأة ، أو رجلاً .

• • •

المرأة وتوازن القوى فى العالم[*]

خلال الشهور الأربعة الماضية حضرت خمسة مؤتمرات عالمية للمرأة فى الولايات المتحدة ، وإنجلترا ، والنرويج ، وتنزانيا ، والنمسا : وقد عقد المؤتمران الأخيران خلال أكتوبر الماضى فى « أروشا » (تنزانيا) وفيينا (النمسا) نظمتهما الأمم المتحدة من أجل الإعداد لمؤتمر المرأة العالمى الذى سيعقد فى نيروبى (يوليو ١٩٨٥) بمناسبة انتهاء عقد المرأة (٧٥ - ١٩٨٥) .

وقد أصبحت قضية المرأة اليوم من القضايا السياسية الهامة التى يمكن أن تسبب القلق والأرق لكثير من حكام الغرب ومنهم رئيس الولايات المتحدة . لقد تزايدت التنظيمات النسائية قوة ووعيًا منذ منتصف هذا القرن وأصبحت تمثل خطرًا متصاعدًا على الأنظمة الرأسمالية العالمية ..

ورغم الاختلاف فى الآراء والفلسفات بين حركات تحرير المرأة فى العالم إلا أنها تتفق فى معظمها على فكرتين أساسيتين :

١ - إن التحرير الحقيقى للنساء لا يمكن أن يحدث فى ظل مجتمع رأسمالى طبقى .

٢ - إن التحرير الحقيقى للنساء لا يمكن أن يحدث فى ظل نظام عائلى أبوى أو قائم على سيطرة الرجل .

وقد استطاعت التنظيمات النسائية فى أمريكا أن تقود فى السنين الأخيرة حملة ضد حكومة الولايات المتحدة ، وأن تعلن فى اجتماعاتها ونشراتها المطبوعة أن إدارة ريجان هى المسئولة الأولى عن تهديد العالم بحرب نووية عالمية ، وإشعال الحروب فى بلاد العالم الثالث ، ومساندة الأنظمة العنصرية الإرهابية فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية .

وفيما يخص قضية الشرق الأوسط كانت معظم التنظيمات النسائية ترى أن الإمبريالية العالمية والصهيونية مترابطتان ، وأنهما العقبة الأساسية أمام تحقيق السلام والعدالة والتنمية فى بلاد الشرق الأوسط .

(*) نشر عام ١٩٨٥ .

لكن التنظيمات النسائية الصهيونية والتى تسمى نفسها : « التنظيم النسائى اليهودى » كانت تعترض دائمًا على إدانة الصهيونية ، وتحاول أن تعكس الأمور فتقول : إن الصهيونية حركة تحريرية أما منظمة التحرير الفلسطينية فهى حركة إرهابية . وكانت تعترض أيضًا على ربط قضية المرأة بمشاكل الرأسمالية . مدعية أن مشاكل المرأة اجتماعية بحتة وليس لها علاقة بالسياسة أو الاقتصاد .

ولم يكن لهذا المنطق أن يسود فى المؤتمرات النسائية العالمية وإن عقدت فى قلب الولايات المتحدة ذاتها . وذلك أن ثلاثين عامًا من الخبرة والعمل قد سلحت معظم العناصر النسائية بالفهم السياسى الواعى ، والقدرة على ربط القضية السياسية بالقضية الاجماعية .

وقد لمس رونالد ريجان بنفسه فى حملته الانتخابية الأخيرة مدى عداوة التنظيمات النسائية العالمية لسياسته بما فيهم بعض التنظيمات النسائية الأمريكية .

وقبل انعقاد المؤتمر العالمى للمرأة فى فيينا أكتوبر الماضى اجتمع ريجان مع المنظمات النسائية اليهودية والصهيونية وأعلن فى الاجتماع أن حكومته لن تسمح بأن ينحرف المؤتمر العالمى للمرأة فى نيروبى (يوليو ١٩٨٥) عن مساره الاجتماعى ليصبح مؤتمرًا سياسيًا يوجه الإدانة للصهيونية والإمبريالية كما حدث فى مؤتمر المرأة السابق فى كوبنهاجن (يوليو ١٩٨٠) وأنه إذا حدث ذلك فسوف تنسحب الولايات المتحدة من مؤتمر المرأة فى نيروبى .

فى هذا الجو الملبد بالتهديدات الأمريكية الصهيونية عقد مؤتمر المرأة العالمى فى فيينا ، وحشدت له الوفود من المنظمات الصهيونية والأمريكية . ولم يكن هناك منظمة واحدة عربية ، مع أن الهيئة الداعية لهذا المؤتمر هى الأمم المتحدة (لجنة التخطيط للإعداد لمؤتمر المرأة العالمى فى نيروبى) وسألت رئيسة هذه اللجنة (دام نيتا بارو) عن سبب غياب التنظيمات النسائية العربية ، وقالت لى السيدة بارو : لقد أرسلنا دعوات لجميع المنظمات والهيئات النسائية غير الحكومية فى جميع أنحاء العالم بما فيها البلاد العربية . ودهشت فعلاً . هل ضاعت الدعوات فى البريد ؟ هل وصلت الدعوات ولم يهتم أحد ؟ أم أن جميع الهيئات النسائية فى العالم العربى حكومية ولا توجد هيئات غير حكومية ؟

كان عدد عضوات مؤتمر فيينا مائتى امرأة من جميع أنحاء العالم . لم يكن بينهن إلا ثلاث نساء عربيات . عصام عبد الهادى وليندا مطر ، وقد جاءتا ضمن وفد الاتحاد النسائى الديمقراطى العالمى . وكنت أنا ثالثتهن ، وقد سافرت ضمن وفد منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية .

وجاءت النتيجة النهائية لمؤتمر فيينا على عكس ما أرادته القوى الصهيونية الأمريكية . وشمل التقرير النهائى للمؤتمر على هذه النقاط :

١ - قضية المرأة لا تنفصل عن القضايا السياسية والاقتصادية عالميًا ومحليًا .

٢ - السلام لا يتحقق بغير عدل .

٣ - الصهيونية والإمبريالية والتفرقة العنصرية والجنسية وعدم عدالة النظام الاقتصادى العالمى كلها أهم العقبات أمام تحقيق السلام والعدالة والتنمية فى بلاد العالم الثالث .

٤ - لاتزال النساء وخاصة نساء العالم الثالث هن الفئة الأكثر تعرضًا للقتل فى الحروب ، والأكثر معاناة من الاستغلال والفقر والهجرة .

٥ - لاتزال النساء (رغم كونهن نصف المجتمع) بغير قوة سياسية فعالة وقادرة على تغيير النظم والقوانين لصالحهن .

إن القوى السياسية الفعالة فى العالم اليوم يمين أو يسار لا تضم نصف المجتمع من النساء إلا بنسبة ضئيلة (٥٪ - ١٥٪) لاتزال النساء فى لعبة التوازن بين القوى السياسية مجرد أقلية هامشية ، تسرى عليها أحكام التفرقة العنصرية والجنسية كما تسرى على الأقليات ، ويتعرضن لأن يكن كبش الفداء حين يقع الصراع الحاد بين القوى السياسية المتنافسة على السلطة والثروة فى أى بلد .

لقد أصبح الصراع حادًا فى معظم بلاد العالم بين اليمين واليسار ، ولا شىء يمكن تحقيقه إلى الأمام أو إلى الوراء إلا كمحصلة لتوازن القوى بين الأحزاب السياسية الفعالة . فأين قوة النساء فى هذه الحلبة أو الساحة المتصارعة ؟

من خلال حضورى لمؤتمر النساء فى أمريكا وأوروبا أثناء الشهور الماضية لاحظت أن المرأة فى الغرب أصبحت تفقد بعض الحقوق التى حصلت عليها خلال

السبعينيات والستينيات . إن لعبة توازن القوى السياسية أصبحت تميل ناحية اليمين ، وفى اليسار تنقسم على نفسها وتضعف ، والأزمة الاقتصادية تترك آثارها السلبية على النساء أكثر من غيرهن ، فالنساء لا يملكن القوة السياسية المنظمة التى تدافع عن مصالحهن ، ولا تزال النساء فى الاتحادات العمالية والنقابات المهنية والأحزاب السياسية أقلية غير فعالة (٥٪ - ١٥٪) وأغلبهن فى القواعد الدنيا ولا نصيب لهن (إلا نادرًا) فى المقاعد العليا حيث يصنع القرار .

وتدفع المرأة فى الغرب إلى العودة إلى البيت كحل لمشكلة البطالة الناتجة عن الأزمة الاقتصادية الرأسمالية . وتحاول القوى السائدة أن تجد حلاً للأزمة من خلال شعار جديد هو العودة إلى الدين ، أو الانصراف عن الماديات إلى الروحانيات .

وليس جديدًا أن يستخدم الدين كغطاء لأزمة سياسية واقتصادية وليس جديدًا أن تحاول القوى السياسية المتصارعة تفسير الدين حسب مصالحها . لكن الجديد هو وعى المرأة المتزايد بأنها تمثل نصف المجتمع ومع ذلك فهى لا تمثل أى قوة سياسية فعالة فى ساحة الصراع ، ولا تملك وسائل تفسير الدين حسب مصالحها ، وبالتالى فإنها أول من يقع عليها الاضطهاد الدينى والسياسى والاقتصادى .

وقد نشأت حركة دينية جديدة بين بعض حركات تحرير المرأة وخاصة فى أمريكا، وهى تدعو إلى ما يسمى : « الثيولوچية النسوية » وتتركز هذه الدعوة فى إحياء الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام والهندوكية والبوذية وغيرها . على أن يعاد تفسير هذه الأديان من وجهة نظر النساء . وتقود هذه الحركة منظمات النساء اليهوديات والأمريكيات . وهى منظمات تابعة للحركة الصهيونية ، وتحاول هذه الحركة تقسيم النساء حسب الدين ، وتأكيد شرعية دولة إسرائيل العنصرية القائمة على الدين اليهودى ، وكذلك الدولة العنصرية فى جنوب أفريقيا القائمة على الدين المسيحى ، وكذلك نظام الخمينى فى إيران الذى يدعى قيامه على الدين الإسلامى .

ورغم عداء هذه المنظمات للثورة الإيرانية فى بدايتها الأولى حين رفعت شعارات الحرب ضد الإمبريالية الأمريكية إلا أنها أصبحت تدعم نظام الخمينى . فالقوى الصهيونية الأمريكية لا تخشى فى العالم الثالث إلا نشوب الثورات السياسية

الاقتصادية الاشتراكية . أما الحركات الدينية المتعصبة فهى لا تخشاها . بل قد تدعمها علنًا أو سرًا .

إن إسرائيل كدولة يهودية عنصرية قائمة على الدين لا يمكن أن تأمن وتستقر إلا وسط دويلات دينية مثلها . وهذا هو السبب الأساسى وراء حروب لبنان الطائفية ، ليصبح المحيط من حول إسرائيل مجرد دويلات صغيرة يحكمها ملوك الطوائف والمذاهب والأديان المختلفة .

إن هذه الصراعات الدينية الجديدة التى أصبحت تشتعل فى أماكن متعددة من العالم الثالث بين مسلمين ومسيحيين ، أو هندوكيين وسيخ ، أو بين المذاهب داخل الدين الواحد مثل الصراع بين الشيعيين والسنيين ، كل ذلك ليس إلا نتيجة وجود دول عنصرية قائمة على الدين مثل إسرائل تدعمها القوى الاستعمارية .

ويربط بين الدول العنصرية رغم اختلافاتها الدينية رغبة واحدة لاستخدام القتل والعنف من أجل اغتصاب حق الآخرين . وليس غريبًا أن إسرائيل هى التى أصبحت تمد « الخمينى » بالسلاح الآن ، وهى التى ترسل السلاح أيضًا إلى الحكومة العنصرية فى جنوب أفريقيا وإلى الأنظمة الإرهابية العنصرية فى أمريكا الوسطى (جواتيمالا والسلفادور وغيرهما) .

وتكون النساء دائمًا من أول الضحايا فى جميع هذه الأنظمة العنصرية القائمة على استخدام الدين سياسيًا . ورغم أن إسرائيل تعلن فى المؤتمرات الدولية أنها تساوى بين النساء والرجال إلا أن القوانين اليهودية داخل إسرائيل تجعل الرجل مسيطرًا على المرأة . كما أن فكرة حجاب المرأة أو إخفاء رأسها ووجها نشأت فى العصر العبودى وظهرت أول ما ظهرت فى الديانة اليهودية. وترتكز هذه الفكرة عى نقطتين أساسيتين :

١ - أن المرأة فى النظام العبودى كانت تدرج ضمن قائمة الحيوانات باعتبارها جسدًا صرفًا وليس لها رأس أو عقل . أى أنها مخلوق ناقص ، وبالتالى يجب أن تغطى نفسها خزيًا من طبيعتها الناقصة .

٢ - أن الرجل يملك المرأة كما يملك قطعة الماشية ، ومن حقه أن يربطها فى الوتد أو يغطيها تمامًا عن الأعين خشية أن يراها غيره فيسلبها منه .

وكانت المرأة فى المعابد اليهودية تغطى رأسها ووجهها . وقد رأيت بعض الراهبات فى الأديرة والكنائس فى روما يرتدين الحجاب الكامل الذى يغطى رؤسهن

ووجوهن . وعلى هؤلاء الذين يظنون أن حجاب المرأة قد نشأ فى الإسلام أن يعودوا لدراسة التاريخ ونشوء العصر العبودى وبدء الديانة اليهودية .

والسؤال الذى يخطر لى الآن هو : ماذا أعدت المنظمات النسائية العربية والأحزاب والهيئات الشعبية العربية لمؤتمر المرأة العالمى فى نيروبى ؟

إن القوى الصهيونية والأمريكية تحشد صفوفها وتستعد لإرسال أكبر عدد ممكن من عناصرها إلى مؤتمر نيروبى . إنهم يعملون ليل نهار لإعداد الأوراق والبحوث لإثبات عكس ما يحدث للنساء الفلسطينيات المشردات فى الأراضى العربية المحتلة ، وفى خيام اللاجئين فى لبنان وسوريا وتونس واليمن والجزائر وغيرها من البلاد العربية .

حين عدت إلى الوطن بعد آخر مؤتمر فى فيينا كان أول خبر قرأته هو محاولة تعديل قانون الأحوال الشخصية لإلغاء بعض حقوق المرأة وخاصة ذلك البند الذى يعطى المرأة حق طلب الطلاق إذا تزوج زوجها بأخرى .

إن إكراه المرأة على البقاء مع زوج لا تريده (فما بال أن يتزوج بأخرى) ليس من الإسلام . بل إنه بعض بقايا قوانين العبودية . وعلى الذين يظنون أنه من الإسلام أن يعودوا لدراسة القرآن وأحاديث الرسول دراسة متعمقة تتوخى الجوهر والمعنى وليس مجرد الحرف واللفظ .

إن هذه الأزمة الجديدة التى تهدد حقوق المرأة العربية ليست إلا جزءًا من الأزمة الاقتصادية والسياسية العالمية التى تحاول ارتداء أثواب دينية متعددة ، والتى تزرع التعصب الأعمى والعنف من أجل الإرهاب والاغتصاب وتقسيم شعوب العالم .

إن دروس التاريخ تؤكد أن الحق بدون قوة يعرض نفسه للاغتصاب . فأين هى قوة النساء العربيات ؟ لاتزال النساء أقلية هامشية فى جميع القوى والأحزاب العربية يمين ويسار (٢٪ إلى ١١٪) ولازلنا نلاحظ أنه كثيرًا ما يضحى بحقوق المرأة من أجل كسب قوى دينية سياسية متصاعدة محليًا وعالميًا . وليس أمام النساء العربيات اليوم إلا تنظيم أنفسهن سياسيًا ليصبحن قوة فعالة فى ساحة الصراع السياسى .

• • •

فى الطريق إلى
المؤتمر العالمى للمرأة فى نيروبى(*)

تتحرك نساء العالم اليوم للإعداد للمؤتمر العالمى للمرأة الذى يعقد فى يوليو القادم فى نيروبى عاصمة كينيا . وأكثر النساء حركة الآن هى المنظمات الصهيونية العالمية ، وأبرزها المجلس القومى للنساء اليهوديات ، النساء اليهوديات الأمريكيات (ويزو) والمجلس العالمى اليهودى والمنظمة الصهيونية الأمريكية .

وقد اجتمعت فى باريس مؤخرًا أكثر من ١٦٠ مندوبة عن هذه المنظمات للإعداد لمؤتمر المرأة فى نيروبى . وفى هذا الاجتماع قررت النساء الصهيونيات إرسال أكبر عدد منهن إلى مؤتمر نيروبى من أجل التصدى لنساء العالم الثالث (فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط) اللائى جعلن من مؤتمر المكسيك ومؤتمر كوبنهاجن (السابقين) منبرًا عالميًا لإدانة الصهيونية كحركة عنصرية ، وكذلك حكومة جنوب أفريقيا العنصرية .

وقررت النساء الصهيونيات أنهن لن يسمحن بتكرار ما حدث فى المكسيك وكوبنهاجن ، وإن - أى إدانة لإسرائيل أو الصهيونية ليست إلا نتيجة كراهية اليهود ومعاداة السامية . ووضعت هؤلاء النساء خطة من أجل ضرب أى قوة نسائية تحاول إدانة الصهيونية أو إثارة المشكلة الفلسطينية . وأعلن فى باريس سفير الولايات المتحدة فى اليونسكو (هون جان جيرا لد) أن الولايات المتحدة لن ترسل وفدًا رسميًا إلى مؤتمر نيروبى إذا ما تكتلت نساء العالم الثالث ضد الحركة الصهيونية .

وسبق ذلك أيضًا اجتماع ريجان نفسه مع ممثلات المنظمات الصهيونية وإعلانه انسحاب أمريكا من مؤتمر نيروبى إذا ما تكررت مأساة مؤتمر كوبنهاجن والمكسيك ، وهذه المأساة هى سيطرة نساء العالم الثالث على المؤتمرين السابقين وإدانة الصهيونية واعتبارها حركة عنصرية مثلها مثل حكومة جنوب أفريقيا .

(*) يونيو عام ١٩٨٥ .

باختصار شديد : إن جميع المنظمات الصهيونية النسائية وغير النسائية تتحرك ليل نهار من أجل الإعداد لمؤتمر المرأة فى نيروبى . فماذا نفعل نحن النساء العربيات لمواجهة هذا؟ الملاحظ أن المنظمات النسائية العربية لا تفعل شيئًا محسوسًا حتى الآن .

والدليل على ذلك أننى لم أجد من النساء العربيات فى مؤتمر ڤيينا (أكتوبر ١٩٨٤) إلا اثنتين فقط . رغم الأهمية الشديدة لهذا المؤتمر العالمى والذى عقد تحت إشراف الأمم المتحدة للإعداد لمؤتمر نيروبى وحضرته أكثر من مائتى مندوبة عن المنظمات النسائية فى العالم ، كان معظمهن من المنظمات الصهيونية .

ومثل ما حدث فى مؤتمر كوبنهاجن حدث فى مؤتمر ڤيينا فقد حاولت المنظمات الصهيونية استبعاد كلمة الصهيونية تمامًا من التقرير النهائى وعدم اعتبارها حركة عنصرية . وحدث صراع طويل على مدى يومين كاملين ، انهزمت فيه المنظمات الصهيونية أمام تكتل نساء العالم الثالث (من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية) معنا نحن النساء العربيات ، وكنا ثلاث نساء عربيات فقط . عصام عبد الهادى وليندا مطر ونوال السعداوى . ونص التقرير النهائى على أن الصهيونية وحكومة جنوب أفريقيا حركات عنصرية استعمارية تستخدم العنف من أجل اغتصاب حقوق الغير . وتحاول المنظمات النسائية الصهيونية إبراز المشكلة وكأنها معاداة اليهود أو العداء ضد السامية ، وهى خدعة سياسية ودينية يحاولن بها التغطية على الحركة الصهيونية كقوة استعمارية سياسية واقتصادية بالإضافة إلى اغتصابها الوطن الفلسطينى والأراضى العربية وقيامها بعدد من المذابح التاريخية (صبراوشاتيلا) فى لبنان وغيرها .

والسؤال الآن : ماذا أعدت المنظمات النسائية العربية والهيئات الشعبية والأحزاب لمؤتمر المرأة العالمى فى نيروبى ؟ إن قضية المرأة ليست منفصلة عن قضية تحرير الوطن والاستقلال والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتنمية الشاملة والوحدة العربية . لقد حاولنا بفضل حماس وتعاون الاتحاد العام للمحامين العرب أن نجهز لندوة عربية دولية للمرأة تعقد فى القاهرة خلال فبراير للإعداد لمؤتمر المرأة فى نيروبى . لكن ندوة واحدة لا تكفى . وحماس هيئة عربية واحدة لا يكفى .

• • •

ولماذا لا تدخل المرأة مجمع البحوث الإسلامية؟(*)

الاختلاف فى الرأى ظاهرة صحية تحتاج إلى الرعاية لتنمو وتزدهر إرساء لقواعد الديمقراطية الصحيحة . وأنا أختلف مع الدكتورة سهير القلماوى فى رؤيتها لعدد من أمور الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية ومنها مشكلة المرأة المصرية .

إلا أن هذا الاختلاف فى الرأى لا يحول دون الصداقة والعلاقة الإنسانية الواجبة بين الأفراد ، وخاصة بين حملة الأقلام والمدافعين عن حرية الرأى والديمقراطية .

ولن اتعرض فى هذا المقال لما أقرأه أحيانًا على لسان د. سهير القلماوى فى تحقيقات صحفية ، ووصفها للاجتماعات النسائية غير الحكومية بأنها مجرد شغب أو شرذمة نساء . لن أتعرض لهذا . فالتحقيقات قد تنقل بعض الكلمات أحيانًا على نحو غير دقيق .

ولكنى أتعرض هنا فقط لما قرأته بقلم الدكتورة سهير القماوى فى مقالها بجريدة الأخبار ١٩٨٥/٦/١٩ ، حول قانون الأحوال الشخصية .

ولا أظن أننى أختلف كثيرًا مع د. سهير القلماوى فى تفاصيل رؤيتها لمشروع القانون ، أو فهمها العميق لجوهر الشريعة ، واتفق معها تمامًا فى أن الإسلام لم يبح للرجل أن يستعمل رخصة الزواج كيفما أراد وأن التعدد رخصة مشروطة بالضرورة وبالعدل . وإن الإسلام مسئولية وإرادة وتحكم فى الشهوات وليس إطلاقها بغير مسئولية .

وأتفق أيضًا مع د. سهير القلماوى فى أن الزوجة المسلمة تعيش فى قلق شبه دائم ، وقد تدخر المال أو الذهب بغير علم زوجها توقعًا ليوم يطلقها فيه أو يتزوج عليها

(*) نشر بجريدة الأخبار ١٩٨٥/٦/٢٥ .

بأخرى . لكن الأخت المسيحية (لأنها آمنة من هذين الخطرين) تضع مالها على مال زوجها من أجل مشروعات مشتركة تفيد الأسرة .

أما اختلافى مع د. سهير القماوى فيتركز فى نقطة جوهرية هى كيفية حصول فئات الشعب (ومنهم النساء) على حقوقهن وتغيير التشريعات والقوانين لصالحهن .

ترى الدكتورة سهير القلماوى أن الحكومة هى الجهة المسئولة عن ذلك ، والحكومة فى رأيها تتصرف بكل الحكمة والغيرة على صالح الشعب ، وعلى الشعب ومنهم النساء أن ينتظروا ما تفعله الحكومة وكل شىء يجب أن يسير فى القنوات الرسمية .

ولا يمكن لأحد أن ينكر أن الطريق عبر القنوات الرسمية هو أحد الطرق . وليس الطريق الوحيد لتوصيل رأى الشعب إلى حيث يصنع القرار .

لكن الديمقراطية الحقيقية تتناقض مع هذه الفكرة القائلة بانتظار الناس حتى تأتيهم القوانين من أعلى . فالقانون الذى يأتى من أعلى يمكن أن يضيع من أعلى أيضًا .

تريد د. سهير القلماوى أن يتحول الناس إلى متفرجين ، لا مشاركين فى صنع القرار ، وأن مشاركة النساء فى الديمقراطية تكون عن طريق أن ترسل كل سيدة مذكرة برأيها إلى مجمع البحوث الإسلامية ، فهل الديموقراطية هى مجرد إرسال المذكرات أم أنها مشاركة فى صنع القرار ؟

ولا تنزعج الدكتورة سهير القلماوى لأن المرأة غائبة فى عضوية مجمع البحوث الإسلامية لأن العلماء فى رأيها لا يمكن أن يدخلون فى لعبة الحرب بين الرجل والمرأة القادمة من الغرب .

وهنا اختلف أيضًا مع د. سهير القلماوى . وأعتقد أن المرأة المصرية يجب أن تكون حاضرة فى عضوية مجمع البحوث الإسلامية وفى جميع الهيئات الدينية

والتشريعية العليا . وأن حضورها يجب أن يكون متناسبًا مع كونها نصف المجتمع ، ولا تكون أقلية هامشية يضيع صوتها فى زحمة الأصوات .

إن مشاركة النساء فى صنع القرارات العليا ليس بدعة من الغرب ، وليست حربًا بين الرجل والمرأة ولكنها ضمن الأسس التى تقوم عليها الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسياسية وجوهر الإسلام أيضًا . لقد شاركت السيدة خديجة زوج الرسول فى صنع القرارات العليا الأولى للدعوة الإسلامية، بل إنها هى أول من آمن بنبوة محمد ، وهى أول من قرر أن محمدًا رسول الله ، قالت له « انهض أنت رسول الله ، اذهب وانشر دعوة الإسلام » . لولا السيدة خديجة ربما ما جاء الإسلام ولا انتشر .. فكيف تصبح المرأة عندنا (بعد خمسة عشر قرنًا من حياة السيدة خديجة) خارج دوائر صنع القرار . بل خارج الهيئات الدينية جميعًا بما فيها مجمع البحوث الإسلامية ؟!

• • •

مى زيادة
فى ذكراها الرابعة والأربعين(*)

عاشت تكتب . وكان هذا غريبًا فى عصرها . فالمرأة كانت للإحساس وليس للتفكير . وكانت جميلة . وهذا أيضًا غريب . فالجميلة لا تمسك القلم ، إلا لتلون شفتيها . وكانت أيضًا ذكية . وهذا هو الأغرب . فالعقل يفسد الأنوثة وهى كما تبدو لهم أنثى .

وكل ثلاثاء يذهبون إليها . ويحدث الجدل والنقاش . كان غرامها الجدل . وكان غرامهم المرأة بغير جدل . القد الممشوق بغير جدل . عيون المها وبياض الحور بغير جدل .

لم يستطع واحد منهم أن يراها كما رأت نفسها وفشل الجميع فى حبها .

لم تكن مصرية حسب قانون الجنسية . أمها من فلسطين وأبوها من لبنان . لكنها تجاوزت القانون والأرض والمكان وأحبت مصر . وماتت ودفنت فى مصر .

رأت الوطن فى عقلها قبل أن تطأه بقدمها . الوطن عندها كان الإنسان وأى مكان ، حيث الحب وحيث العدل .

كانت سابقة لزمانها ، وكانوا سجناء عصرهم لا يرون الوطن إلا مسقط رأس . أو قطعة أرض كالمرأة تمتلك .

كانت فى العشرين من عمرها وكانوا كهولاً فوق القمة لكن شبابها كان أنضج وأعقل أرادت أن تكون كما هى . وأرادوها مثل نساء عصرها .

وظلت تدافع عن كيانها كعقل ، فاتهموها بفقدان العقل ووضعوها فى مستشفى كالسجن . فقاومت وأضربت عن الأكل ولم تضرب عن الكتابة .

وماتت فى شبابها وحيدة بلا أهل وملايين النساء ماتت يحوطهن الأهل . لكننا نذكرها ولا نذكرهن ، أليس هذا عزاء لها ؟ ولكل امرأة تفكر مثلها .

● ● ●

---

*) نشر بجريدة أخبار اليوم ١٩٨٥/١١/١٦ ص ٤ .

إنچى أفلاطون(*)

رائدة من رائدات الإبداع الفنى والفكرى فى بلادنا أعطت الفن حياتها وثابرت بإصرار وصدق على التعبير عن ذاتها والمجتمع .

ودفعت ثمن الصدق . دخلت السجن وعاشت وحيدة بلا زوج ولا أطفال . لكن أعمالها وإنتاجها المبدع الخلاق أكبر أثرًا من أى إنتاج بيولوچى .

لم تفصل بين حركة الريشة فوق الورق وحركة الإنسان داخل مجتمع يموج بالصراعات ، وفى تشكيل لوحاتها كانت تسعى دائمًا نحو الحركة والضوء . تترك بين شرائط الألوان فراغات ومساحات يشع منها النور باحثة عن الوضوح والعدل . تفتش عن الإنسانية والإنسان المقهور فى الظلمة . واستطاعت بضربات فرشاتها أن تكشف عن الظلم .رحيلها اليوم ليس رحيلاً لأنها باقية بأعمالها وكل لوحة من لوحاتها تجسد حياة بأكملها . وأعظم تكريم للفنانة المبدعة إنچى أفلاطون هو أن يسلط الضوء على أعمالها وأن يزداد عدد الذين يرون لوحاتها يومًا بعد يوم داخل البلاد وخارجها .

إن الفنانات المبدعات والفنانون المبدعون ليسوا فى حاجة إلى كلمات رثاء وتأبين. ولكنهم فى حاجة إلى أن تظل أعمالهم معروفة ومنشورة ومرئية لا تختفى تحت غبار التاريخ .

وما أحوجنا اليوم إلى إحياء أعمال المبدعين من النساء والرجال ، وخاصة هؤلاء الرائدات الراحلات من الفنانات أو الكاتبات اللائى طواهن التاريخ .

لقد آن الأوان لأن تحظى المرأة المبدعة الخلاقة بما تستحقه من اهتمام وتقدير.

● ● ●

(*) نشر بجريدة الأهرام ١٩٨٩/٤/٢٧ ص ١٣ .

فدوى طوقان

رحلة جبلية صعبة(*)

منذ أيام قليلة جمعنا مكان واحد فوق الجبل فى الضفة الشرقية . رأت بعينيها الأطفال يقيمون المتاريس ويواجهون رصاص العدو . كلهم أطفالى . هكذا قالت (ثم ضمت كفيها الصغيرتين فوق صدرها تحت الشال الصوفى الأخضر) ولى هنا طفلة اسمها « طروب » أجىء إليها عبر الحدود . وفى كل مرة أقف أمام شباك التصاريح . ولى عنها قصيدة فى ديوانى الأخير (تموز والشىء الآخر) مهداة إلى « طروب » :

آه يا غنوة حب عذبة ، يا لحن مزهر
اقرئينى فى الغد الآتى وإذ تصبحين يا حلوة أكبر
اقرئينى فى الغد الآتى فشعرى
صورة من واقع جهم مكدر
أمس يا حبة عينى
فاض بى شوق إلى مرآك . شوق لا يصور

وجهها وهى تنشد الشعر أضاء وتورد وأصبح كوجه فتاة عاشقة فى العشرين . توقفت عن الإنشاد فجأة وصمتت فهبط الحزن فوق ملامحها كالشيخوخة المفاجئة.

سبعون عامًا ربما منذ ولدت فى « نابلس » لا تعرف تاريخ ميلادها بالضبط . كانت أمها فى « نابلس » (مثل جدتى فى « كفر طحلة ») تؤرخ الوقائع حسب تغيرات الجو أو الأحداث الكبيرة تقول مثلاً : جرى ذلك عام الثلجة الكبيرة أو عام الجراد أو عام الزلزال . وحين سألت أمها : متى ولدت ؟ قالت : كنت يومها أطهى عكوب (بقلة شائكة تنبت فى جبال نابلس فى شهور فبراير ومارس وإبريل) هذه هى شهادة ميلادها الوحيدة . لكنها تذكر أنها خرجت إلى الدنيا والإمبراطورية العثمانية تلفظ

(*) نشر بجريدة الأهرام ٢٤ فبراير ١٩٨٨ ص ١١ .

آخر أنفاسها ، وجيوش الحلفاء تواصل فتح الطريق لاستعمار غربى جديد - ١٩١٧ - ، وفى سبتمبر تم احتلال باقى فلسطين ، وفى نابلس ألقى الإنجليز القبض على أبيها ونفوه خارج وطنه . لم تفرح أمى بولادتى . ترى هل ربطت مقدمى إلى العائلة بالنحس الذى طرأ عليها ؟ أعنى إبعاد الإنجليز لأبى منفيًا ؟!

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة واهنة وظل وجهها نحيلاً حزينًا . واشرأبت أذناها مرهفتين لأى صوت يحمله الهواء عبر الحدود . جسمها الصغير الضامر انتفض فوق الكنبة البيضاء : هذه طلقة رصاص ، وطفل آخر يسقط ، كلهم أطفالى فى نابلس والضفة ، وهنا لى طفلتى طروب . أهى ابنتك ؟ لا ، أكثر من ابنتى ، بيتى فى نابلس حيث ولدت وحيث كتبت الشعر . لم أهجر وطنى أبدًا ولم أهجر الشعر أبدًا . كان على أن أختار بين الزواج والشعر فاخترت الشعر وأنجبت كل أطفال نابلس ، وطروب أيضًا :

فاض بى شوق إلى مرآك ، شوق لا يصور
فتجهزت بتصريح لكى يأذن ضباط وعسكر
بعبورى نهرنا العانى على حلم التحرر
ولدى الشباك فى الجسر انتظرت الدور فى صمت وفى صبر
حان دورى فتقدمت أحث الخطو جذلى
ولتعسى رد لى الجندى تصريحى وأقصانى بعيدًا وتأمر
(إرجعى من حيث أقبلت) . (...... - : لماذا ؟) .
(ارجعى من حيث أقبلت) وزمجر
قلت : ما ذنبى ؟ أنا لم أعص أمرًا ولا زعزعت أمنًا
لا ولا حرضت أو شاغبت فى دولة (قيصر)
.. خبرونى .. أين ألقى ضابط الجسر
عسى يشرح الضابط لى ما لم يفسر
فأنا من فرط حرصى وأنا من فرط حبى لبلادى وأرضى
ولبيتى ولبستانى وجيرانى وللأشجار والأطفال والأحجار
(والدوار) والسوق وأصحاب الدكاكين

ومن خوفى من الإبعاد والنفى الذى يقطع مثل خنجر
لم أزل أحتمل الإذلال والقهر وأصبر
صاح فى حدته القصوى : (افهمى يا هذه ما قلت
هيا وارجعى من حيث أقبلت) وأقصانى بعيدًا وتوتر ..
فتراجعت بخطو يتعثر
إى وربى لـم أعـد أفهـم شيئًا
غير كونى فى زمـان اليتم والحكم اليهـودى المقـدر
ليس لى (معتصم) يأتى فيثأر
لا ولا (خالد) فى اليرموك يظهر ..
عدت أدراجى وجرح القلب يدمى وبعينى دموع تتحدر

• • •

رسالة إلى الشهيدة
نعمات فى ذكرى الأربعين(*)

قرأت وأنا خارج الوطن عن استشهادك تحت الرصاص وأنت تمارسين حقك السياسى فى الانتخابات الأخيرة .

وكنت أظن أننى سأعود إلى الوطن فأجد اسمك فى كل مكان ، أو على الأقل أرى لك تمثالاً فى أحد الميادين الكبيرة .

لكنى عدت ولم أجد إلا الصمت والنسيان . لماذا ؟ لماذا يحاولون ردم التراب على دمك وقد دفعت حياتك كلها ثمن الدفاع عن كرامة الوطن وكرامة المرأة . وهل هناك كرامة لوطن بغير حرية أو ديمقراطية . وهل هناك كرامة للمرأة أكثر من إصرارها على المشاركة فى صنع الحرية ؟

لو كنت يا نعمات وزيرة أو حرم وزير أو أى رأس كبير لما جفت الأقلام من التغنى بشجاعتك ، ولدخلت التاريخ كواحدة من أبطال الوطن .

لكن التاريخ لازال يا نعمات لا يحكى كفاح البسطاء من الشعب أمثالك . ولازال يحول دمهم الساخن المسفوك إلى ماء باردتشربه الأرض ويهال عليه التراب . ولازلنا لا نقرأ فى التاريخ إلا عن تفاهات الملوك والسلاطين . ونزهات زوجاتهم الترفيهية بين الفقراء والمعدمين .

وهل يذكر التاريخ امرأة مصرية اسمها شفيقة محمد ؟ هذه المرأة مثلك سقطت شهيدة تحت رصاص الإنجليز يوم ١٤ مارس ١٩١٩ ، وقد خرجت مع رجال قريتها إلى الطريق الزراعى تقطع أسلاك التليفون وتنزع قضبان السكك الحديدية لتمنع قطارات السلطات الإنجليزية من التقدم . وفى هذا اليوم سقطت برصاص الإنجليز حمدية خليل من كفر الزغارى بالجمالية وسيدة حسن . وفهيمة رياض وعائشة عمر .

(*) نشر بجريدة الشعب ١٧ يوليو ١٩٨٤ .

هل يذكر التاريخ هؤلاء النساء شهيدات ثورة ١٩ واللائى لم يفصلن بين كرامة الوطن وكرامة المرأة .

لماذا لم يصبح ١٤ مارس هو يوم المرأة المصرية نحتفل به كل عام كما نحتفل بيوم ٨ مارس الذى يرمز إلى نضال نساء فى بلاد أخرى ؟ ولماذا لم يسجل التاريخ عن ثورة ١٩ إلا أسماء زوجات الباشوات والحكام ، ولم يحدث أن دفعت واحدة منهن حياتها أو دمها فداء للوطن مثلما فعلت هؤلاء الشهيدات ؟

وها هو ذا التاريخ مرة أخرى يهيل التراب وأمام أعيننا على دم شهيدة جديدة سقطت تحت الرصاص وهى تدافع عن حقها وحق الوطن فى الحرية والعدالة والديمقراطية .

كيف يمكن لنا يا نعمات أن نوقف عجلة هذا التاريخ المزيف ؟ كيف يمكن للشعب المصرى رجالاً ونساء أن يفرض على التاريخ الأحداث الصحيحة والأبطال الحقيقيين ؟!

إن الطريق لازال طويلاً وشاقًا أمام البسطاء من الشعب ليكتبوا تاريخهم . فكتابة التاريخ تحتاج إلى شعب يعرف القراءة والكتابة أولاً ولا تعانى أغلبيته من الأمية . وكتابة التاريخ تحتاج إلى شعب له قوة سياسية واعية .

وكيف يمكن للشعب المصرى أن يكون قوة سياسية واعية وهناك قوانين مسلطة على عنقة أحدها قانون الانتخاب ذاته ؟

ولم يكن غريبًا أن يحجم أغلب الشعب عن الذهاب إلى صناديق الانتخاب . وليس غريبًا أن يهال التراب على دم نعمات . فلازال الطريق طويلاً ، ولازال الخوف يعشش فى القلوب ونفاق السلطة يجرى فى العروق .

وكم هو مخجل أن ينقضى أربعون يومًا على استشهادك دون أن تصبح ذكراك مناسبة وطنية يحتفل بها الشعب المصرى كله أو على الأقل نساء مصر . فأين هن نساء مصر والجمعيات النسائية وجمعية هدى شعراوى وقد قدمت لوطنك يا نعمات من دمك وحياتك أضعاف ما قدمته هدى شعراوى حين خلعت الحجاب .

• • •

محاولة عزل قضية المرأة(*)

إن قهر المرأة واستعبادها واستغلالها ليس حالة خاصة بالمجتمع العربى أو الشرقى أو بلاد العالم الثالث ، ولكنها ظاهرة تدخل فى صلب النظم السياسية والاقتصادية والثقافية ، سواء كانت إقطاعية متخلفة أو صناعية متقدمة تكنولوجياً . ذلك أن مشكلة المرأة فى عالمنا الإنسانى الحديث قد نتجت عن ذلك النظام الذى جعل طبقة تسود على طبقة ، وجنس الرجال يسود على جنس النساء . إنها مشكلة طبقية وجنسية فى آن واحد .

إلا أن هناك بعض الناس الذين يغضون أعينهم عن لب مشكلة المرأة العربية لتنعزل جهود النساء من أجل تحرير أنفسهن عن جهود الثورة الشعبية ، رجالاً ونساء ، التى تهدف إلى تغيير تركيبة المجتمع تغييراً جذرياً يقضى على الاستغلال الطبقى المحلى أو الأجنبى ، بمثل ما يقضى على سيطرة الرجل على المرأة فى المجتمع الكبير وداخل الأسرة الصغيرة . تلك الأسرة التى هى بؤرة النظام الطبقى الأبوى ، ومن خلالها تتوالد القيم والأخلاقيات والمقدسات الأبوية والطبقية على مر الأزمان والأجيال .

ويحاول بعض الناس وخصوصاً فى الدوائر الغربية الاستعمارية أن يصوروا مشكلة المرأة العربية على أنها مشكلة خاصة بالدين الإسلامى ، محاولين أن يردوا التخلف الذى تعانى منه البلدان العربية إلى أسباب دينية وتاريخية وليس إلى أسباب اقتصادية وسياسية ، قوامها أن موارد العرب تستنزف وتستغل بواسطة الاستعمار الغربى الجديد. ولهذا هم يفصلون بين تحرير العرب الاقتصادى والسياسى وبين عملية القضاء على التخلف أو تحقيق التقدم والتنمية .

أما التنمية فهم يحددون معناها لتقتصر على مجرد عملية التحديث على النمط الغربى ، واستخدام بعض ما انتجته البلدان الغربية من تكنولوجيا ، على أن تظل موارد العرب خاضعة لمصالح الغرب ومحكومة بقوانين الاستغلال الرأسمالى العالمى وشركاته الكبرى .

(*) نشر بمجلة الأسبوع العربى /بيروت / ١٩٧٩/٧/٢ .

وقد شهدت بعض البلدان فى العالم العربى والعالم الإسلامى هذا النوع من عمليات التحديث ، على يد بعض الأنظمة والحكومات المحلية والموالية للغرب . ولم يكن من نتيجة لهذا التحديث إلا نوع من التنمية الزائفة التى تتميز بمزيد من الفقر والمعاناة للأغلبية الساحقة من الشعب ، ومزيد من الثراء للطبقات الحاكمة والطبقات العليا ، كما تتميز أيضًا بأن الجزء الأكبر من الزيادة فى الثروة ، بسبب تلك التنمية ، يذهب إلى البلدان الغربية فتزيد الهوة بين مستوى المعيشة فى البلاد المتقدمة عنها فى البلاد المتخلفة، وفى الوقت الذى تربح فيها أمريكا من ثروات العرب ملايين الدولارات سنويًا ، يموت من أطفال العرب سنويًا مليون طفل قبل أن يبلغوا عامهم الأول من العمر بسبب الجوع والفقر والمرض . بل إن هؤلاء الأطفال الذين ينجون من الموت لا يجدون من المواد الغذائية الأساسية كالبروتينات والفيتامينات إلا ما يساوى ــــ ما يحصل عليه الكلاب والقطط فى أمريكا .

وبازدياد الهوة بين الأقلية التى تملك المال والسلطة والأغلبية الساحقة التى تهلك إرهاقًا ومرضًا ، تزداد حدة المشاكل والصراعات داخل البلد وتتفجر الثروات الشعبية وحركات التحرير الذى ازداد نشاطها العلنى أو السرى فى معظم أنحاء العالم الثالث .

وقد كانت الثورة الإيرانية الأخيرة إحدى هذه الثورات الشعبية التى تفجرت بسبب اشتداد الأزمة الاقتصادية لأغلبية الشعب الإيرانى رجالاً ونساءً . وعلى الرغم من عملية التحديث التى تزعمها شاه إيران السابق والتى لم ينتج عنها إلا مزيد من القهر للشعب الإيرانى ، ومزيد من استغلال البترول وموارد إيران بواسطة القوى الاستعمارية العالمية .

إن ثورة إيران ثورة سياسية واقتصادية أساسًا ، وليست ثورة من أجل فرض الحجاب على النساء ، كما حاولت بعض الصحف الغربية تصويرها وقد رفعت الثورة الإيرانية شعار الدين الإسلامى كشعار للتحرير من الاستغلال الغربى الثقافى والاقتصادى معًا . وذلك لأن الإسلام كان فى جوهره كما بدأه سيدنا محمد دعوة إلى تحرير العبيد ، ولم يكن النظام الاقتصادى الذى سماه سيدنا محمد ﷺ « بيت المال » إلا نوعًا مما يمكن أن نسمية بالاشتراكية البدائية ، فقد كان هذا المال هو مال المسلمين جميعًا بالتساوى على الرغم من انتماءاتهم القبلية ، إلا أن هذه الاشتراكية

البدائية سرعان ما قهرت على يد بعض خلفاء سيدنا محمد وأولهم عثمان بن عفان الذى منح بنى أمية الأرض والنفوذ فى البلاد الزراعية التى غزاها العرب كمصر والشام والعراق ، وبدأ داخل الإسلام الصراع بين مؤيدى المساواة والعدالة وبين مشجعى النظام الإقطاعى الطبقى . وقد انتصر الفريق الثانى على مر عهود التاريخ وتعاقب على البلدان العربية والإسلامية عهود مظلمة من القهر الإقطاعى والغزو الأجنبى ، بلغ أشده فى ظل الحكم العثمانى الذى كان مثلاً للفساد والاستغلال والقهر واستعباد النساء فى العمل المضنى ، أو عزلهن من وراء الحجاب فى سجن « الحريم » .

وأما الشعوب العربية والإسلامية المقهورة ، لم يكن هناك من أمل فى الخلاص من الظلم الداخلى والخارجى إلا عن طريق تحقيق العدالة والمساواة التى نادى بهما الإسلام فى جوهره . ولهذا السبب فإن معظم الثوريين العرب الذى حاربوا الإقطاع والاستعمار ، أو معظم زعماء النهضة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كانوا من رجال الدين الإسلامى ، من أمثال الأفغانى والكواكبى والنديم والشيخ محمد عبده الذين اقترنت دعوتهم إلى تحرير البلاد من الإقطاع والاستعمار بالدعوة إلى تحرير المرأة .

وهذا قد يفسر لنا لماذا اتخذت الثورة الإيرانية من الإسلام شعارًا لتحريرها من حكومة الشاه المستغلة ؟ .

ومن الملاحظ فى السنين الأخيرة تلك الموجة والتيار المتصاعد لإحياء الإسلام فى العالم الإسلامى والعالم العربى كسلاح فى يد الشعوب المقهورة ضد القهر والاستغلال ، كما تزايدت الجهود لإحياء اللغة العربية وخصوصًا فى تلك البلدان العربية التى حلت فيها اللغات الاستعمارية الغربية محل اللغة العربية ، كشمال أفريقيا: تونس والجزائر والمغرب ، التى بدأت عملية تعريب شاملة .

إن حركة الاستقلال الثقافى إلى جانب الاستقلال السياسى والاقتصادى ، إنما هى حركة تزداد نموًا ووعيًا فى معظم أنحاء العالم الثالث ، وخصوصًا فى أفريقيا ، حيث بدأت الشعوب تطرد عنها الاستغلال الاقتصادى بمثل ما تطرد الاستغلال الثقافى ، وتبحث عن أصالتها وجذورها الثقافية والحضارية كنوع من استعادة الشخصية والوقوف بقوة وصلابة فى وجه الغزو الغربى ، الذى سلبها شخصيتها وأصالتها بمثل ما سلبها مواردها الطبيعية ، واقتلعها من ماضيها ومن جذورها ليجعل منها شعوبًا ضعيفة مزعزعة فقيرة ماديًا ومعنويًا فى آن واحد .

لكن هذا التيار التحريرى المتصاعد يتلقى الضربات من الداخل والخارج ، وللحفاظ على مصالحها الاقتصادية ، تتخذ القوى الغربية وسائل متعددة لمقاومة ذلك التيار الشعبى المتزايد .

إحدى هذه الوسائل أنها تصطاد أى ثغرة فى الإسلام مثلاً كى تبرزها وتسلط عليها الأضواء ، كما حدث عندما ارتفعت الصيحات فى الصحافة الغربية منددة بأن الثورة الإيرانية حركة رجعية ، لأنها تفرض على النساء الحجاب أو « الشادور » وتعود بها إلى القرون الوسطى . وهى محاولات غير مباشرة لإجهاض الثورة الإيرانية وتفريغها من مضمونا السياسى والاقتصادى وتصويرها على أنها مجرد ردة دينية متعصبة متخلفة .

وتتسم مثل هذه المحاولات بالحرص والذكاء لأن التيار الدينى الإسلامى ، وإن وحد الشعوب وساعد على تضامنها ضد الاستعمار الغربى ، إلا أنه أيضًا يحمى المنطقة من الغزو الاشتراكي أو الشيوعية ، التى صورت على أنها حركة إلحادية ضد الدين .

وعلى هذا يمكن القول أن القوى الاستعمارية تحتاج إلى الإسلام بقدر ما هى تخشاه ، ولهذا فهى تهاجمه وتحافظ عليه فى آن واحد ، يساعدها فى تلك المهمة المتناقضة تلك الأنظمة الإسلامية ورجال الدين الذين خدموا الحكم العثمانى بمثل ما خدموا الاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى ، والذين تعاونوا على قهر الشعوب باسم الإسلام والدين . صوروا الإسلام على أنه دين يحمى الطبقات ويحرم الثورة أو التمرد ضد الحكام أو ضد النظام القائم ويحرم الشكوى من الفقر باعتبار أن الله هو الذى يوزع الرزق على من يشاء من عباده فيعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء ، وعلى المسلم المؤمن أن يتقبل إرادة الله ومشيئته بنفس راضية قانعة .

وقد رأينا كم لعب الإعلام الدينى دورًا فى خدمة الحركات الرجعية الاستغلالية وكم شجع الأفكار الخرافية والاستسلامية والقدرية والتواكلية التى تعجز الشعوب عن الثورة ضد الظلم والاستغلال .

إلا أن هناك دائمًا من رجال الدين الإسلامى الواعين الذين كشفوا هذه الأساليب ونادوا بأن الإسلام كأى دين آخر لا يمكن أن يفهم من خلال نصوص متفرقة ، مثل : « وجعلنا بعضكم فوق بعض » ، أو « الرجال قوامون على النساء » . ولكنه يفهم من خلال مبادئة الأساسية التى تنادى بالمساواة والعدالة .

وكان بعض زعماء الثورة الإيرانية من هؤلاء الرجال المسلمين الواعين كما كان فيها أيضًا زعماء غير واعين كهؤلاء الذين نادوا بأن ترتدى المرأة « الشادور » فافسحوا عن جهل أو عن عمد للقوى المعادية لاستقلال إيران الثغرة التى تنفذ منها للهجوم على الثورة الإيرانية .

وقد لاحظنا أيضًا كيف تستغل الحكومات الإسلام من أجل استغلال الشعوب ، وقد استخدم النظام المصرى الدين الإسلامى فى بدء السبعينيات كسلاح ضد التيار الشعبى المؤيد للاشتراكية ، وشجعت السلطة المصرية الهيئات الدينية ماديًا ومعنويًا لتقف في وجه القوى الاشتراكية إلى حد تشجييع النساء والطالبات المصريات ليرتدين الحجاب ، إلا أنها سرعان ما تراجعت عن سياستها بعد ما تصاعد التيار الدينى الإسلامى وأصبح يهدد السلطة الحاكمة ويؤيد الثورة الإسلامية فى إيران والثورة الفلسطينية ويتآزر مع الدعوة إلى العدالة والمساواة الاقتصادية ، حتى لا ينعزل عن مشاكل الجماهير الملحة . وقد اتجه هذا النظام المصرى أخيرًا إلى الهجوم على هذا التيار الإسلامى ، ورأينا كيف هاجم أيضًا الثورة الإيرانية الإسلامية . ورأينا أيضًا كيف اشتدت الحماسة فى الصحافة الغربية حول موضوع « الشادور » والمرأة الإيرانية باسم المساواة والعدالة والحرية وحقوق المرأة كإنسان ، هذه الحماسة التي لم نشهدها من الصحافة الغربية فى ظروف أخرى وقع فيها اعتداء أشد وأبشع على حقوق النساء والرجال والأطفال ، وكيف شردت شعوب بأكملها واعتدى عليها وأخرجت من ديارها وأوطانها ، وضربت نساؤها وأطفالها بالقنابل والنابالم ، وتحول من عاشوا منهم إلى لاجئين يعيشون فى الغربة والخيام حياة أشد بؤسًا من الموت . وقد بالغت الصحافة الغربية فى صراخها واحتجاجها على ما يحدث للمرأة الإيرانية فى ظل الثورة الإسلامية حتى تحمست بعض الهيئات النسائية العالمية للسفر إلى إيران لمساندة المرأة ضد تلك الثورة الرجعية . وأنا لست ضد التضامن العالمى للنساء ، بل إننى أعتقد أن قوة النساء وتضامنهم فى جميع أنحاء العالم عن وعى وفهم لقضية المرأة

بمختلف أبعادها ، يعتبر مكسبًا كبيرًا للمرأة فى أى مكان ، بل مكسبًا كبيرًا لجميع القوى التقدمية والاشتراكية فى أى بلد .

إلا أننى ضد أى محاولة لعزل قضية المرأة عن قضية تحرير البلد كله من النظام الطبقى والاستعمار الخارجى ، كما أننى ضد أن تستغل حماسة النساء الغربيات للتآزر والتساند مع إخواتهن فى البلد الأخرى لضرب الثورات الشعبية التحريرية فى آسيا أو أفريقيا ، أو أى مكان آخر فى العالم .

وأنا بطبيعة الحال لست مع هؤلاء الزعماء الدينيين فى إيران الذين نادوا بأن ترتدى المرأة « الشادور » ، وأعتقد أنهم إما مغرضون وإما مخطئون ، فالزعيم الدينى ليس إلهًا ، وليس معصومًا عن الخطأ وهو فى حاجة إلى النقد والتوجيه من القوى الشعبية نساء ورجالاً . وقد وقفت بعض النساء الإيرانيات من أمثال هؤلاء الزعماء موقفًا واعيًا ناقدًا ورافضًا ، وانضم إلى نساء إيران الزعماء الدينيون الواعون والرجال الثوريون الوطنيون ، ونتج عن ذلك التضامن الواعى تصاعد القوى التى تقاوم الدكتاتورية الدينية تحت اسم الثورة الإسلامية .

أقول هذا لأوضح أن الحركة الإسلامية بمثل ما تضم ثوريين متقدميين سياسيًا واقتصاديًا ، فقد تضم أيضًا زعماء متخلفين اجتماعيًا وثقافيًا ، بل إن الرجل الواحد منهم قد يجمع داخله التناقضات فتكون له رؤية سياسية واقتصادية متقدمة ، لكن رؤيته للمرأة تظل متخلفة . وهذا الأمر يكاد يكون عامًا فى معظم الحركات ، بل فى الحركات الاشتراكية والحركات الماركسية كثيرًا ما يعانى الرجال هذا التناقض .

ذلك أن التطور السياسى والاقتصادى أسرع من التطور الثقافى والاجتماعى ، والاقتناع العقلى أسهل من الاقتناع الشعورى ، ومن هنا أهمية دور الحركة النسائية ، وأهمية القوة السياسية للنساء لتفرض على الرجال أن يغيروا أنفسهم وأن يعالجوا ذلك الانفصام داخل شخصياتهم .

● ● ●

المرأة المصرية والمشكلة الاقتصادية(*)

لا يمكن لأى عين مهما ضعف بصرها ألا تلاحظ ذلك التغير السريع الذى أصبح يصيب ملامح المصريين والمصريات وعلى الأخص المصريات . أول ما يلفت النظر هو عضلات الوجه المتقلصة والبشرة الشاحبة والعيون القلقة للنساء المصريات الواقفات امام بائع الخضروات أو الفاكهة أو الجزار ، أو حتى محل البقالة المتواضع البسيط فى أى حى من الأحياء الشعبية .

بالطبع هناك نسبة كبيرة من النساء المصريات لا يذهبن إلى تلك الأماكن إلا مرة في العام ، فى العيد مثلاً حين تحتفل الأسرة بشراء كيلو أو نصف كيلو من اللحم ، لم تذق طعمه طوال العام .

وأنا لا أتحدث فى هذا المقال عن هذه الشريحة الضخمة من المجتمع المصرى ، والتى تمثل حسب تقارير الاقتصاديين ٧٠٪ من عدد السكان ويتراوح دخل الأسرة فيها ما بين ٤٥ إلى ٩٠ قرشًا فى اليوم الواحد ، ولا يقل عدد أفرادها عن سبعة أو ثمانية أشخاص حسب الإحصاءات الرسمية . ولكن أتحدث الآن عن تلك الطبقة التى سميت فى الماضي القريب بالطبقة المتوسطة ، ومنها هؤلاء الموظفون والموظفات والمهنيات من خريجى الجامعات والمدارس . إن المرأة فى هذه الطبقة كانت بصورة عامة تشترى الخضروات واللحم وتمارس تلك العملية الطبيعية المسماة « الطبخ » بصفة منتظمة كل يوم أو كل يومين على الأكثر . ولم يكن شراء اللحم أو البطيخ أو الجبنة يمثل لها أى مشكلة أو مأساة .. ولكن كم هى مأساة اليوم عملية شراء المواد الأساسية للطعام لدى جميع الطبقات فى مصر ، بدءًا بالطبقات الدنيا إلى الطبقات المتوسطة إلى ما فوق المتوسطة . لاشك فى أن التركيبة الطبقية فى مصر قد تغيرت بشكل ملحوظ فى السنوات الأخيرة . كنا في الماضى القريب ، أى منذ سبع أو ثمان سنوات ، نلاحظ أن

(*) نشر بمجلة الأسبوعى العربى /بيروت / ١٩٧٩/٨/٢٠ .

عندنا أربع طبقات مختلفة : الطبقة الدنيا ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة فوق المتوسطة ، والطبقة العليا . أما الآن فقد انصهرت الطبقات الثلاث الأولى داخل طبقة واحدة يمكن أن تسمى « الطبقة ذات الدخل المحدود » . وهذا لفظ مؤدب نوعًا ما . أما اللفظ الواقعى فهو « الطبقة التى تعانى اقتصاديًا » . وهذه الطبقة تحتل الآن أكثر من ٩٥٪ من الشعب المصرى . أما الـ ٥٪ الباقية فيمكن أن نطلق عليهم اسم « الطبقة ذات الدخل غير المحدود » ، أو « الطبقة العالية » أو الطبقة المرتاحة اقتصاديًا .. وإذا كان الشعب المصرى قد بلغ ٤١ مليون نسمة ، فإن الطبقة التى تعانى يصل تعدادها إلى ٣٨,٩٥٠,٠٠٠ نسمة . وهذا العدد يشمل الذكور والإناث . وعلى هذا يمكن القول أن ١٩,٤٧٥,٠٠٠ امرأة مصرية تصاب بتقلص فى عضلات وجهها وشحوب فى البشرة ، إذا ما فكرت يومًا فى تلك العملية التى أطلق عليها اسم « الطبخ » .

فى أحد الأيام خلال عام ١٩٧٦ ، قالت لى « أم محاسن » وكانت امرأة تأتى إلى منزلى مرة فى الأسبوع لتقوم بأعمال النظافة نظير ٢٠٠ قرش فى كل مرة ، وهى لم تعد تأتى من ١٩٧٦ ، وأصبحت أقوم بما كانت تقوم به . قالت أم محاسن وهى تلطم خديها : « يا ناس يا هوه إذا طبخت فى يوم « عدس » - والله « عدس » لا غير فإننى أنفق ١٠٠ قرش ! » كان ذلك من عامين ، أما اليوم ونحن فى سنة ٩٧٩ فقد تضاعف سعر العدس أيضًا . أما أكلة « الفول المدمس » فكانت تكلف أم محاسن بمثل ما تكلفها أكلة العدس . وكانت أسرة أم محاسن خمسة أفراد فقط . أى أنها تعتبر أسرة صغيرة الحجم بالنسبة إلى أغلب الأسر المصرية .

أما « الجبنة البيضاء » التى كانت فى متناول الأسر المحدودة الدخل ، فقد اختفت من السوق المصرية بمثل ما اختفت معظم المنتجات المصرية المحلية ، وحلت مكانها منتجات مستوردة دخلت مصر من « الباب المفتوح» على مصراعيه على أنواع الجبنة الفرنسية والإيطالية والمعلبات الأمريكية والهولندية والدانماركية ، والتى لا يقدر على شرائها بالطبع إلا ذوو الدخول غير المحدودة ، من الشريحة العليا فى المجتمع . وقد تظهر « الجبنة البيضاء » أحيانًا فى بعض محلات البقالة من ذوى الروح الوطنية المشجعين للصناعات المحلية ، لكن الكيلو أصبح ثمنه ٢٠٠ قرش على الأقل . أى ما يوازى دخل الأسرة المصرية الكادحة فى أربعة أيام .

ولعل أغلب ما يحدث فى مصر أن الأسعار تختلف من تاجر إلى تاجر ومن محل إلى محل . وهذه هى الحرية أو الديمقراطية التى يتمتع بها الشعب المصرى ، والتى لا يمارسها إلا فئة التجار وأصحاب محلات البقالة والخضر والفاكهة واللحوم . كل تاجر أعطى نفسه الحرية فى أن يضع الثمن للشىء الذى يبيعه . ومن هى تلك المرأة المصرية الشجاعة التى تستطيع أن تناقش الجزار أو بائع الخضروات أو الفاكهة ؟ أن أقل ما يمكن أن يصيبها هو سلسلة من أقبح أنواع السباب تصيب أباها وأمها قبل أن تصيبها هى .

أما الفاكهة ، فلم تعد تدخل إلا بيوت ذوى الدخل غير المحدود ، حتى « البطيخ » أو « الخيار » فاكهة الفقراء أصبح اليوم من السلع التى يكتفى بالنظر إليها من بعيد . وهناك من السلع ما لا ينظر إليها على الإطلاق ، مثل الجوافة والعنب والبرتقال والبرقوق أو المانجو . فهذه أسماء لم يعد لها مكان فى ذاكرة أكثر من ثمانية وثلاثين مليون مصرى ومصرية .

وكانت لى صديقة عرف عنها هدوء الأعصاب والتريث فى الحكم على الأشياء وعدم نقد المسئولين طالما هم يملكون السلطة . وبالطبع كانت ممن يؤيدون سياسة الباب « المفتوح » ، رأيتها منذ أسبوعين تشد شعرها وتقول : « يا ناس يا هو كل يوم نقرأ فى الصحف عن الجهود التى تبذل من أجل « الأمن الغذائى » ، ولكن الأسعار تزداد بازدياد المساحات المخصصة للأمن الغذائى فى الصحف ! » وأصبحت صديقتى هذه ، وهى جامعية محترمة تقف أمام الجزار أو « الخضرى وهى شاحبة اللون وعضلات وجهها متقلصة » .

أما هؤلاء المصريات المنتميات إلى الشريحة الرقيقة ذات الدخل غير المحدود ، فإن الواحدة تجلس فى الشرفة المطلة على النيل تتسلى بحبات البرقوق أو الكريز (نوع ما من الفاكهة سمعت عنها) وتقول لمن حولها فى دهشة : « - مين قال فى مصر أزمة اقتصادية ، هذه إشاعات يروجها أعداء الباب المفتوح ، أعداء الشعب غير المعترفين بكارتر وبيجين وكامب ديفيد .. وتلتهم قطعة أخرى من « المانجو » (هذه

فاكهة ليس لنا بها أى علاقة إلا نظريًا فحســـب) وتقول بصــوت ناعم حريرى : « تمام يا فندم » (هــذا اللقب شائعًا بين الطبقة العليا) إنهم يدعون وجود أزمة اقتصادية ، والحقيقة يا فندم أنها ليست إلا مشكلة هؤلاء النساء المصريات الجاهلات

اللائى يلدن بسرعة الأرانب ، أنهم مشكلة الـ (تنطقها بالإنكليزية) وعلينا بحبوب « منع الحمل » . وترد واحدة أخرى تدغدغ بين أسنانها قطعة من الخوخ (نوع من الفاكهة أيضًا : تمام تمام يا فندم ، المشكلة هى كيف نوقف الأرانب ؟ ولكن ماذا نفعل ، والمرأة المصرية جاعت ومهما ضمرت ونحلت من الجوع فإن شهيتها للحمل لا تقل أبدًا ؟ .

وترن الضحكات الرقيقــة الناعمة فى الليل مع نسمات النيـل الهادئة إلى حيث لا يعــلم أحـد . . .

• • •

جوهر قضية المرأة العربية(*)

على النساء الغربيات المتحمسات لتحرير المرأة أن يتفهمن نواحى التشابه والاختلاف بين مشاكلهن ومشاكل النساء فى البلاد الأخرى ، وبين الثقافة الغربية والثقافة العربية ، وألا يجرهن الحماس الزائد بغير دراسة إلى الاشتراك عن حسن نية فى إجهاض حركات تقدمية أو ثورات تحريرية ، وربما كان ذلك هو السبب الأساسى الذى دعا النساء الإيرانيات إلى أن يقفن موقفًا سلبيًا من بعض النساء الأمريكيات اللائى سافرن إلى طهران للهجوم على الثورة الإيرانية التى تفرض على النساء « الشادور » !

وعلى النساء الغربيات أن يدركن أن المعركة الأساسية التى تواجه النساء فى البلاد الإسلامية والعربية ليست هى معركة فلسفية بين الإلحاد والإيمان بالدين ، وليست هى معركة من أجل التنمية المحدودة أو التحديث على نمط الغرب ، ولكنها معركة من أجل أن تعود منابع الثروة الاقتصادية والثقافية إلى يد الشعوب ، والتمكن من خلق نظام جديد على أنقاض النظام الطبقى الأبوى .

وقد رأينا أن الأنظمة العربية أخذت موقفًا استسلاميًا فيما يتعلق بقضية الشرق الأوسط وفلسطين كالنظام المصرى ، وعقدت صلحًا من شأنه أن يدعم نفوذ الاستعمار الأمريكى والصهيونية ويضع العرب ومواردهم تحت رحمة هذه القوى ، رأينا أن هذه الأنظمة عندما أرادت أن تهاجم الثورة الإيرانية هاجمتها باسم التحديث وتحرير المرأة.

إلا أن خبرتنا الماضية تبين لنا أنه كلما زادت الارتباطات بالنظم الإمبريالية تراجع التقدم الاجتماعى وارتفعت أصوات المحافظين والرجعيين والمتمسكين بأكثر النواحى السلبية فى الدين والتقاليد ، وأصيبت قضية المرأة بنكسات شأنها شأن

(*) نشر بمجلة الأسبوع العربى / بيروت ١٩٧٩/٧/٩ .

قضايا باقى فئات الشعب . كما أن عملية التحديث وخاصة فيما يتعلق بالمرأة ليست إلا عملية سطحية شكلية تفقد المرأة العربية شخصيتها وأصالتها ، وتصنع منها نسخة مشوهة من المرأة الغربية ، بالإضافة إلى أنها عملية لا تحل مشاكل الأغلبية الساحقة من النساء العربيات الكادحات فى الحقول أو المصانع أو البيوت أو المهن المختلفة . فهى عملية تقدم مزيف لا يصل إلى أعماق مشكلة النساء العربيات ، ولا يساوى المرأة بالرجل سياسيًا أو اقتصاديًا أو نفسيًا أو حتى جنسيًا ، لأن الحرية الجنسية الظاهرية التى تحظى بها المرأة الغربية لا تحرر المرأة بقدر ما تستعبدها وتحول جسدها إلى تجارة رأسمالية رابحة .

وفى ظل هذا التحديث لا تحصل سوى أقلية ضئيلة جدًا من النساء على الميزات السياسية والاقتصادية التى تتمتع بها طبقة معينة من المجتمع ، بل إن هذه القلة القليلة المتميزة من النساء ، والتى قد تصل أحيانًا إلى تولى مناصب الوزيرات أو عضوات البرلمان كثيرًا ما يكن من ذوات التفكير المحافظ أو الرجعى . فإذا بوجودهن فى تلك المناصب السياسية العالية لا يساعد على تحرير النساء بقدر ما يساعد على استغلالهن .

وقد صفقت الصحافة الغربية طويلاً فى هذه الشهور الأخيرة لتولى امرأة منصب رئيسة وزراء بريطانيا ، وبالرغم من كونها امرأة إلا أننى أعتقد أن أفكارها المحافظة سياسيًا واقتصاديًا والمعادية للتقدم الاشتراكى ولحركات التحرير فى أفريقيا والعالم الثالث سوف تنعكس على النساء بمزيد من الاستغلال والقهر .

إن معركتنا ليست معركة تعصب أعمى لجنس النساء ، أو تعصب أعمى لدين معين . ومن أجل نجاح هذه المعركة فإن من الممكن أن تتحد القوى النسائية مع الرجال المتدينين الثوريين مع الماركسيين مع الاشتراكيين . ولعل هذا هو السبب الأساسى فى نجاح ثورة كثورة إيران وقدرتها على التخلص من حكومة الشاه ونظامه الذى دام أكثر من سبعة وخمسين عامًا . وكانت النساء الإيرانيات أحد الأعمدة الأساسية فى هذه الثورة بمثل ما كانت الجزائريات فى الثورة الجزائرية ،

والفلسطينيات ، واليمنيات والفيتاميات والموزامبيقيات وغيرهن من النساء اللائى اشتركن ولازلن يشتركن فى حروب التحرير فى آسيا وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية .

إن النساء كن دائمًا ولازلن وقودًا للثورات الشعبية ، ولكن ما أن تستتب الأمور ويستقر الحكم الجديد حتى يتراجع المسئولون عن بعض الحقوق التى منحت للنساء أثناء الثورة . ولعلنا لاحظنا ذلك فى الثورة الجزائرية ، وكذلك أيضًا فى الثورات الاشتراكية فى العالم بما فيها الثورة الاشتراكية الروسية . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب أهمها فى رأيى هى أن النساء يشتركن فى الثورة كأفراد متفرقات خاضعات لرجالهن ويكن من أوائل المضحيات لكنهن لا يشتركن فى الحكم بعد الثورة بل يتراجعن اختيارًا أو إجبارًا إلى مواقعهن الأولى فى البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن الأخرى تحت سيطرة رجالهن ، ولا يحاولن أن يشكلن من أنفسهن قوة سياسية تتعادل مع عددهن كنصف المجتمع ولا مع حجم جهدهن وإنتاجهن فى مختلف النواحى الزراعية أو الصناعية أو المهنية أو حتى فى البيوت ، حيث لا يقل جهدهن أو إنتاجهن عن أى مجال آخر .

إن الحكام الثوريين الجدد كلهم أو معظمهم رجال ، وسرعان ما ينسون أو يتناسون مشاكل النساء أو لا يولونها الاهتمام أو الأولوية المفروضة ، وبدلاً من أن تبذل الجهود للقضاء على النظام الأبوى وسيطرة الرجل فى الدولة أو العائلة أو الأسرة توجه الجهود للمحافظة على هذه القيم لصالح الرجال .

ويمكن لنا أن ندرك بعض مشاكل النساء فى مجتمعاتنا العربية بملاحظة التغير الذى يحدث فى البلد بتغير النظام الإقطاعى إلى النظام الاشتراكى ، وقد يمر البلد أيضًا بمرحلة من التصنيع والنمو الرأسمالى بمثل ما حدث فى بعض البلاد العربية التى اتجهت نحو الاشتراكية . وقد تطلب تغير المجتمع وحاجته إلى الأيدى العاملة فى الصناعات الجديدة والمهن والخدمات المتزايدة إلى أن ينزح من الريف إلى المدن أعداد متزايدة من الرجال والنساء . وأصبحت المرأة العاملة فى المدينة تواجه بمشاكل جديدة أهمها أنها حرمت من ميزات الأسرة الريفية الكبيرة العدد ، التى كانت ترعى

أطفالها أثناء غيابها فى الحقل ، وحرمت من الروابط الاجتماعية والنفسية والتعاونية التقليدية فى الريف فى الوقت الذى لم يعوضها المجتمع عن هذه الحاجات الضرورية ، بل ظل متمسكًا بدورها القديم داخل الأسرة من حيث الخدمة ورعاية الأطفال ، ذلك الدور الذى فرض على المرأة كنتيجة لتقسيم العمل بين الجنسين فى ظل النظام الأبوى الطبقى .

وفى الوقت الذى غير فيه المجتمع كثيرًا من القيم الأخلاقية والاجتماعية وتبنى قيمًا جديدة لتساعده على تشغيل النساء فى المدن فقد حافظ على بعض القيم التى تضمن له استمرار استغلال النساء فى أعمال البيت ورعاية الأطفال بغير أجر . وفى الوقت الذى مجد فيه المجتمع عمل المرأة وتعليمها وحطم بعض القيود الاجتماعية ومحظورات الحريم القديمة لتصبح النساء قوة عمل متحركة تمسك بالقيم التى تربط النساء بالأطفال وخدمة الزوج ، وبالغ فى تمجيده للأمومة ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، وطاعة الزوج من طاعة الرب ، ولاتزال المرأة المصرية وإن تعلمت وعملت وبلغت منصب الوزيرة خاضعة لقانون « الطاعة » فى قانون الزواج .

وحينما ترهق المرأة وتعجز عن الجمع بين وظائفها المتعددة داخل البيت وخارجه، أو حين تقصر فى واجباتها تجاه الأطفال أو الزوج يكيل لها المجتمع الاتهامات، ومنها أنها بإهمالها الأطفال أو عصيانها لزوجها تساعد على تمزيق الأسرة المقدسة .

وفى الوقت الذى يحافظ فيه المجتمع على قدسية الأسرة فإنه ينتهك مقدسات أخرى كثيرة . بل إنه ينتهك قدسية الأسرة ذاتها ويمزقها بإعطاء الرجل حقه المطلق فى الطلاق وتعدد الزوجات . تلك الفوضى الجنسية الممنوحة للرجال ، والتى كثيرًا ما تسبب تشريد الأطفال وتمزيق الأسرة .

وفى الوقت الذى يتغنى فيه المجتمع بالأمومة لا يوفر للأمهات العاملات الوسائل الضرورية لرعاية أطفالهن ، بل لا يمنح الأم العاملة الأوقات الكافية لإرضاع طفلها أثناء العمل ، أو الأجازة الكافية لرعايته بعد الوضع .

إن إصرار المجتمع على ألا تزول الأسرة (وإن تمزقت) ليس إلا بسبب حاجته للأسرة كمؤسسة تتحمل عنه نفقات الأطفال (ونفقات الخدمات الأخرى التى تقوم بها المرأة بغير أجر) . ومن أجل التمويه لم يفصل المجتمع بين حب الأم أو الأب وبين الإنفاق على إطعام الأطفال وتعليمهم . فكأنما العواطف الأسرية تتضمن أيضًا مطالب الأطفال الاقتصادية . فى حين أن النظام غير العادل قد جعل الأغلبية الساحقة من الأسر العربية عاجزة عن توفير الحاجات الاقتصادية الضرورية لأطفالهم ، وجعل معظم الأمهات فى بلادنا العربية كادحات مرهقات فقيرات ، ولا يتوفر لديهن الحد الأدنى من الغذاء الضرورى ، مما يجفف اللبن فى ثديى الأم الحديثة الوضع فيحرم الطفل من لبن أمه الطبيعى فى معظم الأحيان ، بل يحرم أيضًا من حنانها ، لأن الظروف القاسية التى تجفف اللبن فى الثدى تجفف الحنان فى القلب ، والمرأة التى لا تحظى بحنان أحد لا تستطيع أن تمنح الحنان لأحد ، وفاقد الشىء لا يعطيه . وكثيرًا ما تفنى مثل هذه المرأة شبابها وصحتها فى العمل المضنى فى الحقل والبيت بغير أجر ، فإذا ما تجاوزت الشباب وتجمع فى جيب زوجها بعض المال الذى جناه من عرقها تطلع حوله باحثًا عن زوجة شابة جديدة .

أما المرأة العربية التى حظيت بالتعليم العالى والأجر المتساوى مع الرجل فإن زوجها فى معظم الأحيان هو الذى يسيطر على أجرها ، وقد يهددها بالطلاق إذا ما لاح لها أن تخرج من تحت سيطرته . ولازال الزواج هو الحماية الأخلاقية والنفسية والاجتماعية للمرأة العربية ، ذلك أن القيم الأبوية القديمة لازالت شائعة فى البيت والشارع والمدرسة والعمل والجامع والراديو والسينما والمسرح والصحف والمجالات وكل مكان .

وهناك بعض النساء الأوروبيات والأمريكيات اللائى يتصورون أن النساء العربيات يعشن عهود البربرية ، ويتخذن من بعض العادات التى لازالت موجودة فى بلادنا مثل عادة ختان البنات على أنها دليل على البربرية وقهر النساء .

ولاشك أننى ضد هذه العادة وغيرها من العادات ، وقد كان كتابى «المرأة الجنس» هو أول كتاب باللغة العربية يتصدى لهذه العادة ولغيرها من مظاهر القهر للنساء ،

إلا أننى اختلف مع هؤلاء النساء الأوروبيات والأمريكيات فى نظرتهن غير التاريخية إلى مثل هذه العادات ، ولا أتفق معهن على أنها ظاهرة خاصة بالنساء العربيات أو الأفريقيات وحدهن ، ولا أحبذ تسليط الضوء عليها بمعزل عن أنواع القهر الأخرى السياسية والاقتصادية والتاريخية .

وبالرغم من أن المرأة الغربية لا تتعرض لعملية الختان ولا يستأصل البظر من جسدها جراحيًا لكنها تتعرض لعمليات نفسية وتربوية وثقافية تستأصل منها البظر . وربما كان سيجموند فرويد من أشهر الرجال الذين استأصلوا بظر المرأة نفسيًا وفسيولوجيًا حين وضع نظريته المعروفة عن نفسية المرأة ، وقرر أن البظر عضو ذكرى ، وأن النشاط الجنسى البظرى مرحلة طفولية ، وأن النضوج والصحة النفسية للمرأة تقتضى أن يكف البظر عن نشاطه ويتحول النشاط الجنسى إلى المهبل .

ولاشك أن عملية استئصال البظر جراحيًا تبدو أكثر وحشية من عملية الاستئصال النفسية إلا أن النتيجة قد تكون واحدة من حيث إلغاء وظيفة البظر ، فيصبح وجوده مثل عدم وجوده، بل أحيانًا ما تكون العمليات النفسية أشد خطورة ، لأنها تخدع المرأة، وتوهمها بأنها كاملة الأعضاء ، فى حين أنها ليست كذلك من الناحية العملية ، أو توهمها بأنها حرة وهى ليست حرة أو أنها سعيدة وهى ليست سعيدة .

إن هذا الوهم من أخطر الأشياء على المرأة ، لأنه يسلبها أهم الأسلحة فى معركتها للتحرر ، ألا وهو سلاح الوعى بأنها لازالت مستعبدة .

ونحن النساء العربيات ندرك أننا لازلنا مستعبدات ، ليس لأننا ننتمى إلى الشرق أو الإسلام أو العرب ، ولكن لأننا نعيش فى مجتمع طبقى أبوى سيطر على العالم منذ بضعة آلاف السنين .

إن خلاصنا من هذا النظام هو الوسيلة الأساسية لتحريرنا . لكن نجاحنا لتحقيق هذا التحرير لن يتم إلا إذا أصبحنا قوة سياسية تعادل نصف المجتمع . إن السبب الأساسى (فى رأيى) الذى أعجز النساء عن استكمال تحريرهن (حتى فى البلاد التى

تحولت نحو الاشتراكية) هو أنهن لم يمثلن أبدًا القوة السياسية القادرة على فرض حقوقها .

وقد كان معظم الرجال الاشتراكيين العرب يرون أن تكون قوة نسائية سياسية إنما هى فكرة خاطئة ، تقسم صفوف الرجال والنساء وتحرف المعركة عن أهدافها السياسية والاقتصادية الأساسية وتحولها إلى صراع بين الجنسين .

كما أن معظم النساء العربيات المتحمسات لتحرير المرأة وقيادات الجمعيات النسائية العربية كن يتصورن أن مشكلة المرأة مشكلة خاصة بهن ، أو مشكلة اجتماعية تتعلق بالأسرة والأطفال ولا علاقة لها بالأمور السياسية الكبرى مثل قضية الاشتراكية أو الحرية أو الديمقراطية .

إلا أن تجارب وأخطاء الماضى قد أنضجت الكثيرات من القيادات النسائية . ومن الرجال الاشتراكيين العرب ، وبدأ معظمهم يدركون الحاجة الملحة إلى التغلب على تلك الهوة التى تفصل بين ما هو سياسى وما هو شخصى ، ومحاولة خلق نظرية ثورية عصرية ، توائم بين التنظير والتطبيق ، وتسد الثغرة ما بين التفكير والشعور ، وتعثر على صيغة جديدة لعلاقة نضال النساء ونضال الرجال .

إن هذه الصيغة الجديدة لابد وأن تربط بين القهر العام الواقع على الرجال والنساء ، وبين القهر الخاص الواقع على المرأة لكونها امرأة . بمعنى آخر لابد من الربط بين الثورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين الثورة الثقافية والأخلاقية والنفسية والشعورية .

إن تسييس الحركة النسائية العربية وتجميع النساء من كل بيت وكل قرية وكل مدينة ، ومن الفلاحات الأميات والمهنيات المتعلمات ، يعنى أن الثورة العربية تستطيع أن تتغلغل داخل كل بيت وكل كوخ وكل عقل نسائى وتكتسب بذلك صفتها الجماهيرية الشعبية ، ولا تخضع لأقلية أو طبقة معينة من النساء .

ليس هناك من أحد سوى النساء العربيات أنفسهن القادرات على تكوين نظريتهن وأفكارهن ووسائلهن لتحرير أنفسهن ، وعلى خلق المرأة العربية الجديدة ذات الشخصية الأصيلة القادرة على اختيار أفضل ما فى تراثها وحضارتها القديمة وأفضل ما فى العلوم والأفكار الجديدة . المرأة العربية الواعية التى لا تعيش الوهم بأن الحرية ستأتيها منحة من السماء . أو هبة من الرجال ، ولكنها تدرك أن طريق الحرية طويل وشاق ، وأنها ستدفع ثمن الحرية غاليًا . إلا أنها تدرك أيضًا أنها تدفع ثمن العبودية غاليًا ، فلماذا لا تدفع وتكون حرة بدلاً من أن تدفع وتكون عبدة .

ولسوف تلعب النساء العربيات كقوة سياسية دورهن لتحقيق الوحدة العربية ، هذا الأمل الذى ظن بعض الناس أنه تبدد بعد خدعة السلام الأخيرة إلا أننى أعتقد أن الشعوب العربية رجالاً ونساءً تسير بخطى أكثر وعيًا وأكثر ثباتًا نحو الوحدة والتحرير الحقيقى .

● ● ●

آخر قلاع الملكية الخاصة
امتلاك الرجل لزوجته(*)

اشتد الصخب وارتفعت الصيحات ، فزع أغلب الرجال وبعض النساء المملوكات للرجال ، فالأمر يتعلق بآخر قلاع الأملاك الخاصة للرجل ، وهو امتلاكه لزوجته حسب القانون العبودى القديم ، الذى يقول : الرجل يملك زوجته لكن المرأة لا تملك زوجها ، لأن السيد يملك العبد لكن العبد لا يملك سيده .

منذ نشوء العبودية أو الرق فى التاريخ اندرجت الزوجة (سُميت الرقيقة من كلمة الرق) ضمن أملاك زوجها من عبيد وماشية وأشياء أخرى . أصبحت المرأة شيئًا أو جسدًا يملكه زوجها ، أما زوجها فهو يملك جسده ونفسه لأنه إنسان وليس شيئًا .

لهذا نسمع هذا الصراخ حين تحدث محاولة صغيرة لتغيير هذا الوضع الذى يتعارض مع جميع حقوق الإنسان . يتغنى الرجال بحقوق الإنسان فى كل مكان ، فإن أصبحت المرأة هى هذا الإنسان . فزعوا وصاحوا : امسك المرأة باللجام وإلا أفلتت من الحبس أو الاحتباس !

هذه الكلمة « الاحتباس » التى ترن فى الأذن مؤلمة نابية تذكرنا بعصر العبيد ، هذه الكلمة أصبحت تتردد على الألسنة فى بلادنا كأنما هى كلمة عادية ! كأنما نعيش فى عصر الرق ، رغم أن ثورات العبيد فى التاريخ قد حرّمت الرق ، ولم يعد من حق أحد أن يملك جسد أحد ، وانتشرت حقوق الإنسان على شكل قوانين تكفل لكل فرد حق امتلاك جسده وعقله ونفسه ، وحقه فى العمل بأجر يناسب العمل ، وحقه فى السفر والتنقل دون قيد أو شرط (إلا إذا كان محكومًا عليه فى جريمة قتل) وغير ذلك من حقوق الإنسان الأساسية التى نحفظها عن ظهر قلب .

إلا أن المرأة فى بلادنا لم تعد إنسانًا بعد فى نظر أغلب الرجال . بل فى نظر بعض النساء أيضًا . شاهدت امرأة على شاشة التليفزيون (وهى أستاذة بالجامعة)

(*) نشر بجريدة الأهالى ٢ فبراير ٢٠٠٠ .

تصرخ دفاعًا عن حرية الطلاق وحرية السفر للزوج دون قيد أو شرط ، أما الزوجة فهى لا يحق لها الطلاق أو الخلع أو السفر دون موافقة زوجها ، لأن عقد الزواج يفرض على الزوجة طاعة زوجها ، فهو ينفق عليها وله الحق مقابل الإنفاق فى احتباسها .

خرجت كلمة « احتباسها » من فم المرأة بصوت ذكورى منفر ، وهى أستاذة بالجامعة تلقن الطلبة والطالبات فى بلادنا هذه القيم القائمة على احتباس النساء مقابل الإنفاق ، ثم نشكو بعد ذلك من تفسخ القيم الأخلاقية ، وهل هناك شىء ضد الأخلاق أكثر من إجبار النساء على الحياة مع رجل مكروه لمجرد الإنفاق عليهن ؟! وما الفرق بين امرأة تقدم جسدها لزوج مكروه مقابل قروشه وبين المومس فى سوق البغاء ؟! مع ذلك تشمخ الأستاذة الجامعية بأنفها وتلعن النساء اللائى يطالبن بحرية المرأة ، كما حدث فى البلاد الغربية المنحلة الأخلاق ، حيث تمتلك المرأة جسدها كاملاً ولا وصاية لأحد على هذا الجسد !

هذا هو كلام الأستاذة الجامعية الذى وافقها عليه أغلب الرجال الحاضرين فى تلك الندوة فوق الشاشة ، وهو كلام يبدو فى ظاهره مع الأخلاق. لكنه فى الحقيقة ضد الأخلاق . لأن الأساس فى الأخلاق هو أن يملك الإنسان جسده وعقله وتكون له الحرية دون وصاية من أحد . إن الفضيلة لا تكون فضيلة إلا بالحرية والاختيار – أى المسئولة ، أما الفضيلة التى تفرض بالقوة والإجبار والوصاية فهى ليست فضيلة ، وإنما مجرد خضوع للقهر .

لهذا فإن قضية حرية الإنسان : الرجل والمرأة هى جوهر الدين الصحيح والقانون الصحيح . إن الحرية حق من حقوق الإنسان وليست منحة يعطيها الزوج لزوجته . وتكتسب المرأة حريتها بمثل ما يكتسب الرجل حريته حسب القوانين الوضعية والدينية، وهناك فى الكتب السماوية آيات متعددة تؤكد مبدأ الحرية والمساواة بين البشر نساءً ورجالاً . وفى القرآن هذه الآيات مثل ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء ﴾ (سورة النساء – آية ١) ، ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (سورة التوبة – آية ٧١) وتعنى هذه الآية أن الولاية من حق النساء والرجال وليس من حق الرجال وحدهم . ومن أحاديث الرسول محمد ﷺ « النساء شقائق الرجال » ، « والناس سواسية كأسنان المشط » . وغير ذلك كثيرًا .

لكن الأستاذة الجامعية كانت تدافع عن رأيها تحت اسم الشرع والدين وهى جاهلة بهما ، وقد أيدها فى رأيها عدد من الرجال ومنهم أحد كبار أطباء النفس ، الذى تحدث باسم علم النفس ، وراح يؤكد أن النفس نزاعة للهوى . تجاهل أن هذه النفس قد تكون ذكرًا أو أنثى ، وقصر كلامه على المرأة ، قال إنها عاطفية بطبيعتها الأنثوية تغلب عليها نزعات دونية جنسية لأسباب نفسية ، فإن وجدت طريق الخلع أو الطلاق سهلاً (لمجرد أن ترد لزوجها الصداق وتتنازل عن النفقة) فإنها قد تتخلى عن اسرتها وزوجها لمجرد نزوة جنسية . أما إذا وجدت طريق الطلاق مسدودًا أمامها فسوف لا تجد أمامها إلا طريق الخير والصلح مع زوجها حفاظًا على الأسرة المقدسة!

كان بين شفتيه « بايب » كاد يسقط من فمه وهو ينطق كلمة « الأسرة المقدسة » ، وضحكت من هول المفارقة ، لأن هذا الأستاذ الطبيب النفسى كان زميلاً لى فى كلية الطب ، تزوج من زميلة لنا كانت طالبة مثالية أصبحت طبيبة ناجحة ، لكنه فرض عليها بعد الزواج أن تتفرغ لخدمته وخدمة الأطفال ، عاشت معه ثلاثين عامًا وأكثر ، أنجبت منه خمسة من الأولاد والبنات ، أخلصت لحياتها العائلية ، لم يكن لها حياة أخرى إلا الأسرة المقدسة ؟

إلا أن هذه الأسرة المقدسة تلاشت فجأة أمام نزوة جنسية طارئة لزوجها بعد أن بلغ السبعين عامًا . لقد استطاعت ممرضة صغيرة فى عيادته أن تسيطر عليه جنسيًا .

أصبح يشترى حبوب الفياجرا ويركع عند قدميها يتمسح فى ساقيها مثل الخروف فى قصة ألف ليلة وليلة ، وكان من قبل رجلاً من بنى آدم ثم سحرته المرأة على هيئة خروف . وقد جاءتنى زميلتى القديمة تبكى على زوجها الأستاذ الكبير الذى ضحى بها وبالأسرة المقدسة من أجل فتاة تصغره بأربعين عامًا ، تعامله بجفاء وقسوة ، لا تريد منه إلا المال . فهى تحب شابًا من عمرها ولا تطيق أن يلمسها هذا الرجل العجوز ذو السبعين عامًا ، مع ذلك تقدم له نفسها مقابل المال وهو يعرف ذلك ، ويقول : واجب الزوج الإنفاق وواجب الزوجة الطاعة .

كنت أرمقه وهو يتحدث على الشاشة بازدراء ، فهو يرتدى قناع العلم والوقار ، يتحدث عن الأسرة المقدسة وضرورة سد الطريق أمام المرأة لتحافظ على هذه

الأسرة! بالطبع لم يتحدث الأستاذ الكبير عن ضرورة سد الطريق أمام الزوج ليحافظ على الأسرة المقدسة ! بل راح يسهب فى قدسية الأسرة ، وأنها كيان واحد ملتحم وليست أفرادًا منفصلين أو مجموعة من الغرباء لا شأن لأحدهم بالآخر ، وبالتالى فهو يعارض التصريح فى القانون بحق الزوجة فى السفر دون إذن زوجها ، فهذه الأمور تحل داخل الأسرة المقدسة وليس بقرار خارجى من وزير العدل .

بالطبع تجاهل هذا الأستاذ الكبير أنه سافر عشرات المرات دون موافقة زوجته ، بل إنه طلقها دون موافقتها وتزوج فتاة تصغره بأربعين عامًا دون أن يعترض القانون ، وأنفق عليها فى عامين اثنين مدخرات عمره وعمر زوجته وأسرته ، وعلى شراء حبوب الفياجرا ، دون جدوى ، فالزمن لا يعود إلى الوراء ، والعجوز لا يصبح شابًا وإن صوَّرت له الأوهام غير ذلك . لقد هجرته العروس الشابة بعد عامين فقط وذهبت إلى حبيبها الشاب .

ومع ذلك يشمخ هذا الأستاذ الكبير بأنفه ويعلن على شاشة التليفزيون أن المرأة لا يحق لها أن تملك جسدها لأنها أنثى (ترن كلمة أنثى فى أذنى نابية) ولا يحق لها السفر دون إذن زوجها لأنها فى حاجة إلى حماية ، ولا يصح أن تحظى بالحرية الجنسية التى تحظى بها المرأة فى الغرب وإلا تفككت الأسرة المقدسة التى هى نواة المجتمع .

بالطبع لم يسأله أحد : ولماذا يحظى الرجل بالحرية الجنسية التى يحظى بها ، ولماذا لا نضع القيود على حرية الرجل من أجل الحفاظ على الأسرة المقدسة ؟! لم يسأله أحد لأن أغلب الناس فى بلادنا تفكر بنصف عقل أو بعقل مزدوج لا يرى التناقض فيما يقولون وغياب المنطق والعدل . أغلبهم رجال أعمتهم رغباتهم وشهواتهم عن رؤية الحقيقة . إنهم يخافون على ضياع آخر القلاع فى أملاكهم الخاصة ، وهو امتلاك الزوجة ! لقد تحرر العبيد فى التاريخ بعد أن امتلكوا القوة السياسية لانتزاع حقوقهم . وليس أمام النساء طريق آخر للتحرر من قانون الاحتباس !

• • •

فكر وثقافة

٢٨ مقالاً

إعادة قراءة تاريخ مصر القديم (*)

يلعب التاريخ دوراً هاماً فى فهم الماضى ، الذى يبنى عليه الحاضر والمستقبل من بعد ، إذ لا يمكن الفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، لهذا تلعب مجلة «روزاليوسف» دوراً إيجابياً فى فتح صفحاتها لمقالات جديدة عن تاريخ مصر القديم ، يشارك فيها عدد من المفكرين والباحثين فى التاريخ القديم ومنهم الدكتور « وسيم السيسى » والدكتور سامح عرب ، وقد قرأت فى روزاليوسف ١٩٩٩/٤/١٦ رد الدكتور سامح عرب على مقال الدكتور وسيم السيسى (روزاليوسف ١٩٩٩/٤/٢) تحت عنوان « حق الاختلاف حول أوزوريس » وأعجبنى المقال لأسلوبه العلمى الهادىء الذى يحاول الوصول إلى الحقيقة ، وهل أوزوريس هو أول الموحدين فى التاريخ (كما يقول الدكتور وسيم السيسى) أم أن إخناتون (إيمحوتب الرابع) هو أول من دعا إلى التوحيد ؟

وفى هـذا المجال يمكن أن يجتهد الباحثون والباحثات ، وهناك من يقول إن « إيزيس » (وليس أوزوريس) هى الأولى فى التاريخ التى قامت فلسفتها على التوحيد مثل أمها « نوت » إلهة السماء وجدتها الكبرى « نون » التى كانت إلهة الكون الموحد دون انفصال السماء عن الأرض ، لقد بدأت الديانات الانفصالية فى التاريخ بانفصال السماء عن الأرض ، وكانتا وحدة واحدة بقيادة واحدة هى الإلهة الأم الكبرى « نون » وقد ساعدت هذه الوحدانية على ازدهار الكون ونمو الخير وتوزيعه على الناس بالعدل دون أسياد وعبيد ، إلا أن نشوء العبودية أدى إلى ظهور فلسفة جديدة تقوم على الانقسام والتفرقة « فرق تسد » .

إن هذه الفترة من التاريخ القديم فى حاجة إلى دراسات متعمقة بعيدة عن التنافس السياسى والحزبى الذى يقسم الناس إلى فرق تتنازع الحكم فوق الأرض وفى السماء أيضاً .

(*) روزاليوسف – من ٨ : ١٩٩٩/٥/١٤ .

إن ما نعرفه عن التاريخ القديم لا يزيد على آثار الحجار أو حروف مدونة على جدران المعابد والبرديات ، وأساطير وردت فى بعض الكتب الدينية باعتبارها قصصًا غير حقيقية أو حقيقية ، وقصة الخلق فى التوراة لا تذكر شيئًا عن أوزوريس أو إخناتون، مع أن النبى موسى (الذى نسبت إليه التوراة) قد قرأ فلسفة إخناتون ونفرتيتى وتأثر بهما ونقل عنهما ، وهو أمر طبيعى لأن كل نبى أو زعيم سياسى لايبدأ من فراغ أو من الصفر ، ولكنه يبنى أفكاره على أفكار من سبقوه ويزيد عليها ، أو يطورها إلى الأفضل أو إلى الأسوأ حسب المرحلة التاريخية التى يمر بها الشعب فى ذلك الوقت .

ولعل أكبر غلطة فى التاريخ البشرى هى أن الإله أوزوريس هو أول الآلهة الذكور الموحدين ، الذى ولد نفسه بنفسه ولم تلده أمه ، وهى الإلة « نوت » وكانت إلهة السماء وزوجها « جب » إله الأرض ، بعد انفصال السماء عن الأرض ، وقد ولدت « نوت » أربعة من الأولاد والبنات (إيزيس ونفتيس وست وأوزوريس) .

إلا أن الصراعات بين الآلهة كانت دائرة حول امتلاك الحكم والأرض الزراعية ، واستطاع الإله «رع» أن ينزع عن الألهة الأم تاجها ، وكان قرص الشمس ذاته ، أو «أتوم» وهو الإله الكامل الواحد (الجعران / خبرى) الذى اتحد مع ذاته وأنجب (دون حاجة إلى المرأة) زوجًا من الآلهة هما « شو » إله النور أو الحرارة أو الجفاف ، و « تفنوت » إلهة الظلام أو البرد والرطوبة ، وهنا نتوقف قليلاً لندرك كيف تم الاستغناء عن دور المرأة الزوجة والأم فى إنجاب الآلهة ، كأنما الإله الذكر قادر وحده على الإنجاب ، وكما حدث فى التاريخ من الانتقال من الإلهة الأم إلى الإله الأب حدث فى عبادة الحيوانات التى كانت ترمز إلى الإلوهية ، وكانت « البقرة » ترمز إلى الإلهة أيزيس أو حتحور ، إلا أن الملك مينا (أو نارمر) أنشأ عبادة التمساح المذكر (سوبك) فى الفيوم وعبادة العجل « أبيس » المذكر أيضًا فى منف ، وكان الملك مينا أو نارمر حاكمًا باطشًا ظالمًا للفقراء والنساء وكان يتمتع بلقب « قاطع الرءوس الجبار » .

أجل ، كان الصراع فى التاريخ حول الحكم والأرض صراعًا دمويًا تقطع فيه الرءوس وقد انهزمت الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى الفقير (رجالاً ونساءً) أمام هذا البطش الفرعونى ، وقد تنكر فرعون فى ملابس الإله الذكر .

واشتد الصراع بين الإله الملك إخناتون (إيمحوتب الرابع) وبين الإله الملك آمون رع ، وانهزم رع وجلس إخناتون على عرش مصر ، وقال إن الإلهة الوحيدة المعبودة هى « الشمس » ، وكانت محاولة لاستعادة وحدانية الإلهة الأم الكبرى ، وكان إخناتون إنسانًا رقيقًا يحتوى على صفات الأمومة والأنوثة مع الرجولة ، وكان جسمه أيضًا مثل عقله يظهر بعض الصفات الأنثوية والذكورية فى آن واحد ، وحين رأيت صورة إخناتون ونفرتيتى لأول مرة تصورت أن إخناتون هو المرأة ونفرتيتى هى الرجل ، وقد رأيت لإخناتون ثديين وردفين أكبر مما عند زوجته نفرتيتى ، وهناك من يقول أن أناشيد إخناتون هى التى ألفتها نفرتيتى وهى التى كانت تحكم وليس زوجها ، أو ربما كان إخناتون يحكم من خلال أمه الملكة « تى » ذات الشخصية القوية ، إلا أن هذه الفترة لاتزال فى حاجة إلى دراسات متعمقة حيادية غير خاضعة للفسفة الذكورية السائدة فى العالم اليوم .

وهناك تشابه كبير بين أناشيد إخناتون ونفرتيتى ومزامير الملك داود فى التوراة ، وقد تحولت الفلسفة بعد ظهور التوراة إلى فلسفة طبقية أبوية أساسها النسب الأبوى والسيطرة الذكورية فى الدولة العائلة ، هكذا حدث الصراع ضد « عبادة الشمس » المؤنثة ، وانهزم إخناتون ونفرتيتى هزيمة منكرة على يد الآلهة الذكور فى التوراة ، الذين تصارعوا فيما بينهم حول الحكم والأرض ، ومازالوا يتصارعون حتى اليوم ، وبعد أن جعلهم الإله شعبه المختار ومنحهم الأرض الموعودة (أرض فلسطين) مقابل ختان الذكور ، وكثيرًا ما نبذوا هذا الإله الواحد غير المرئى وعبدوا « العجل » وقت الهزائم .

ومن المعروف أن المرأة المصرية القديمة كانت تحظى بمكانة عالية فوق الأرض وفى السماء ، وكانت تنسب إليها أطفالها ، وكانت إلهة العدل مؤنثة فى مصر القديمة واسمها « معات » .

إلا أن الصراعات الدموية قد أطاحت بفلسفة العدل أو الحق وحلت مكانها فلسفة « القوة » المسلحة ، واستطاع الفراعنة والملوك الإقطاعيون أن يسلبوا الشعب المصرى حقوقه تحت اسم الإله الحاكم أو فرعون الأكبر .

إن إعادة قراءة التاريخ القديم تكشف لنا عن الكثير من الأسباب الاقتصادية والسياسية التى أدت إلى قهر الفقراء والنساء من الشعب أخلاقيًا ودينيًا ، هناك ترابط بين السياسة والاقتصاد والدين والأخلاق لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، لكن هذا الفصل يحدث فى المدارس والجامعات بسبب ما يسمى بـ « التخصص » .

وقد أدى التخصص إلى الجهل بهذه الروابط بين العلوم الإنسانية والتاريخية وبين العلوم الطبيعية كالطب والفيزياء والكيمياء .

وهناك مبدأ فى علم الطب يقول : « لابد من معرفة الأسباب الحقيقية للمرض من أجل القضاء عليه » بهذا يجب على الطبيب أن يدرس تاريخ حياة المريض أو المريضة وأن يربط بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وما يسرى على الأمراض الجسمية لابد أن يسرى على الأمراض الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والنفسية .

وكثير من الناس يتحدثون عن أزمة الشباب والشابات فى بلادنا إلا أن القليل جدًا ما يربط هذه الأزمة فى الأخلاق (أو فى الأسرة والزواج أو الاغتصاب أو انتشار المخدرات) بما يحدث فى مجال الاقتصاد والسياسة والتاريخ والفلسفة والدين .. إلخ.

ولعل إعادة قراءة تاريخ مصر القديم تساعدنا على فهم الحاضر أكثر ، وبناء مستقبل أفضل ، ولهذا حديث آخر .

• • •

تأثيم المعرفة .. لماذا حدث فى التاريخ البشرى ؟(*)

نشرت إعلانا فى الصحف أطلب شغالة فى البيت تساعدنى فى التنظيف والطبخ فجاءنى العشرات من خريجات وخريجى الجامعات ، عملت لهم اختبارًا لأنتقى الأكثر ذكاء ونظافة وأمانة ، وفازت بالعمل فتاة شابة فى الرابعة والعشرين من عمرها تخرجت فى كلية الآداب ولم تجد عملاً مثل غيرها من آلاف الخريجين ، اسمها « أمل » وجهها فيه لمعة الذكاء الفطرى المطموس تحت طبقة من الشحوب والفقر واليأس ونقص الفيتامينات ، اشتريت لها عددًا من علب الفيتامينات الطازجة ، وملابس نظيفة وأعطيتها بعض كتبى لتقرأ عن حقوقها كإنسانة ، أقبلت أمل على العمل بهمة ونشاط ، وأصبح بيتى نظيفًا وتفتحت شهيتى للطعام بسبب مهارتها فى الطبخ ، ولم تعد قمصان نومى بلا أزرار ، كانت « أمل » تجيد أيضًا « الخياطة » ، حتى الجوارب القديمة بدأت ترتق ما فيها من ثقوب ، ومربة « اللارنج » التى كنت أتوحم عليها منذ موت أمى منذ أكثر من ثلاثين عامًا بدأت أتذوق طعمها داخل برطمانات صغيرة ، أعادت إلى التفاؤل الطفولى حين كنت فى السابعة من العمر ، وأصبحت نكهة الطعام تتصاعد من بيتى ، تنبعث فى عقلى وجسدى وروحى نشوة وإحساس جديد بالحياة والحرية والأمل والحب !

أجل الحب أيضًا . لقد فقدت شهيتى للحب مع الجوع المزمن الذى لازمنى منذ انشغلت بالكتابة والتأليف والفكر و الفلسفة وغير ذلك من الأمور غير النافعة فى حياتنا الراهنة .

إلا أن هناك أنواعًا من البشر وفصائل من الحيوانات أو الكائنات التى تزن على خراب عشها ، ربما أكون واحدة من هؤلاء ، وإلا فلماذا ناديت على أمل ذات يوم وقلت لها : اسمعى يا أمل أنت فتاة ذكية ونشيطة ، ولابد أن لك أحلامًا وطموحات فى حياتك ؟

(*) روزاليوسف -١٥/٢/١٩٩٩ - (٣٦٨٨) (٦٥) .

قالت أمل : نعم عندى حلم واحد .

قلت ما هو ؟

قالت : أتعلم كومبيوتر .

قلت : يا سلام ! بس كده ؟!

فى دقائق اتصلت تليفونيًا بمكتب كمبيوتر بجوار بيتى ، التحقت فيه أمل فى اليوم نفسه ، وبدأت التدريبات على الكمبيوتر ، بعد شهر واحد أصبحت أمل تكتب بأصابعها العشرة بسرعة معقولة ، وتعلمت مهارات أخرى على الكمبيوتر غير الكتابة ، كنت أدفع لها كل شهر ثلاثمائة جنيه للتدريبات واقتحام مجالات جديدة فى المعرفة ، بعد ثلاثة أشهر أصبحت أمل من أمهر الكاتبات على الكمبيوتر باللغة العربية والإنجليزية ، كانت تذهب إلى مكتب الكومبيوتر للتدريب ثلاث ساعات كل يوم من السادسة حتى التاسعة مساء ، وكانت تقوم أيضًا بتنظيف البيت والطبخ ورعاية أمورى ، كما كانت تفعل قبل التحاقها بالمكتب .

كل صباح كانت تدق جرس البيت فى الساعة التاسعة صباحًا ، تقول لى صباح الخير وعلى وجهها ابتسامة مشرقة . كل يوم كانت تأتى فى موعدها فى الصباح ، تنتهى من أعمال البيت فى الواحدة ظهرًا ، وفى اليوم التالى أسمع الجرس ، أعرف أنها هى ، وكانت أجازتها يوم الجمعة من كل أسبوع .

وجاء العيد وأخذت ثلاثة أيام أجازة مثل موظفى الحكومة ، أعطيتها الخميس والجمعة إجازة بعد إجازة العيد ، وكان موعدها السبت الساعة التاسعة صباحًا كعادتها .. وجاء السبت إلا أن « أمل » لم تأت . قلت ربما مريضة بعد أن أكلت « كعك » العيد ، وسوف تأتى فى الغد ، إلا أن الغد جاء ولم تأت « أمل » ، لم يرن جرس البيت فى التاسعة ولم يرن جرس التليفون أيضًا لتخبرنى عن سبب غيابها كانت تكلمنى فى التليفون حين تغيب لعذر طارىء .

لى صديقة اسمها سوسن أحكى لها عن همومى أحيانًا ، جاءتنى فى زيارة فوجدتنى جالسة يدى تحت خدى وليس فى بيتى طعام ، سألتنى بسرعة :

- وفين أمل ؟

- مش عارفة يا سوسن !

- مش عارفة إزاى ؟

- بعد أجازة العيد مارجعتش .

- مش قلت لك بلاش تعلميها كمبيوتر ، طبعًا يا ستى بعد ما تعلمت ولقت شغلة أحسن لا يمكن ترجعلك تانى !

- يعنى مافيش حاجة اسمها وفاء فى الدنيا ؟

اطلقت صديقتى سوسن ضحكة ساخرة ، وقالت : إذا تعارضت المصلحة الخاصة مع الوفاء انتصرت المصلحة ، وأنا نصحتك وقلتلك بلاش تعلميها وإلا فقدتيها !

أجل ، لقد فقدت « أمل » لأننى ساعدتها على التعليم وفتحت لها طريقًا للمعرفة.. عضضت بنان الندم وقلت لنفسى : « لو لم أعلمها لبقيت فى بيتى تشتغل » !

ألهذا حرمت النساء من التعليم ليشتغلن فى البيوت ويتفرغن لخدمة الأسرة من الرجال والأطفال والعجائز بدون أجر إلا طعامهن !

ألهذا حرم العبيد والأجراء من التعليم ليعملوا فى الأرض أو البيوت أو المصانع بأقل الأجور التى لا تكاد تسد الرمق ؟!

ألهذا أصبح التعليم لا يؤدى إلى المعرفة الحقيقية بل إلى نوع من التأهيل المهنى أو الوظيفى فحسب ؟

كانت هذه الأسئلة جميعًا واردة فى عقلى منذ وعيت الحياة ، منذ رفضت الزواج وأنا فى أول الصبا وقررت أن أتعلم وأسعى إلى المعرفة بأى ثمن وإن دفعت حياتى ثمن المعرفة .

إلا أن كل ذلك لم يطعمنى أو ينفض التراب عن الرفوف فى بيتى ، أو يخيط لى الأزرار الساقطة فى قميصى ، أو يغسل لى ملابسى ويكويها .

هكذا نشرت إعلانًا جديدًا فى الصحف أطلب شغالة وجاءنى العشرات من الخريجين والخريجات ، عملت لهم اختبارًا ساعدتنى فيه صديقتى سوسن . اختارت فتاة شابة خالية من الذكاء والطموح ، وقالت لى : الشغل فى البيوت لا يمكن أن يقوم به إلا الأغبياء المعدمون من الطموح !

وأدركت ما كنت أدركه منذ وعيت الحياة ، لقد قامت الفلسفة العبودية فى التاريخ البشرى على تأثيم المعرفة وأصبح الجهل فضيلة والغباء ميزة كبيرة .

وكانت خطيئة أمنا حـواء أنها رفضت الجهـل ومـدت يدهـا وأكلت من شـجـرة المعرفة ! كان الإثم الأكبر فى التاريخ العبـودى هـو « تذوق المعرفة » وليس « تذوق الجنس » كما أشيع فى الكتب التى لقنونا إياها فى المدارس .

إلا أننى لمحت وسط الطابور فتاة شابة تشبه « أمل » وجهها يضىء بلمعة الذكاء الفطرى ، التقت عيوننا فى لحظة خاطفة وابتسمت ، فأشرت لها بيدى ، كانت ابتسامتها مثل الضـوء لمست شيئًا بعيـدًا فى أعماقى ، ربما طفلة السـابعة ذات التفاؤل الساذج .

• • •

اكتئاب المثقفين ومسئولية الحوار مع السلطة (*)

توقفت كثيرًا أمام مقال الأستاذ صلاح الدين حافظ المنشور فى جريدة الأهرام بتايخ (٣ فبراير ١٩٩٩) الذى تعرض فيه لظاهرة صمت المثقفين فى اللقاء السنوى الذى يعقد مع رئيس الدولة بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ، وتدثر معظمهم - ولا يستثنى نفسه - « بدفء الجلوس الكسول فوق الكراسى الوثيرة » ، ويقول إن تكاسل المثقفين وتقاعسهم عن طرح الأسئلة الصعبة فى المسائل الصعبة يؤدى إلى أن يحتل الساحة أنصاف مثقفين يطرحون أسئلة صحفية سريعة ، أو يتناولون قضايا جزئية أو مشكلة عاجلة أو مطالب شخصية ، دون أن يغوصون بالحوار فى العمق أو يصلون إلى جذور الأشياء .

ويقسم صلاح الدين حافظ المثقفين إلى فريقين ، فريق عزل نفسه وانسحب بسبب الاكتئاب أو الإحباط ، وفريق فرض نفسه بالسباحة فى التيار ونفاق السلطة .

وأنا أتفق تمامًا مع الأستاذ صلاح الدين حافظ إلا أننى كنت أود أن يتطرق أكثر لتحليل هذه الظاهرة ، ويضع النقاط على الحروف ، إلا أنه ينهى المقال بسؤال : من المخطىء فى هذا ؟ ويقول : « أهى السلطة التى تحتكر الحوار وتخنق النقاش وتصادر الحرية وتعزل المثقفين وتخنقهم ؟ أم أن المثقفين يتحملون مسئولية لا تقل عن مسئولية السلطة ، وأن على كل منهم أن يراجع نفسه قبل أن يصيبه الاكتئاب أو النفاق».

لا شك أن المسئولية تقع على السلطة وعلى المثقفين ، وإن كان قسم كبير من المثقفين يندرج تحت السلطة ، وقسم كبير آخر لا يندرج تحت المكتئبين أو تحت المنافقين ، هذا القسم الكبير من المثقفين لم يكن له أى ذكر فى مقال الأستاذ صلاح الدين حافظ ، ورغم أنه ربما يشمل الأغلبية من المثقفين والمثقفات فى بلادنا ، إلا أنه

(*) نشر فى جريدة الأهالى ١٩٩٩/٢/٢٤ وقد رفضت جريدة الأهرام نشر هذا المقال .

قسم مهمل ، ونادرًا ما يحظى بالأضواء الصحفية أو الإعلامية ، ولا يدعى لحضور اللقاءات الفكرية مع رئيس الدولة أو ندوات معرض الكتاب ، أو هذا الفيض الهائل من المؤتمرات الثقافية والمهرجانات ، وإن دعى مرة (ذرًا للرماد فى العيون) فإن الدعوة لا يمكن أن تتكرر إن فتح الواحد فمه ، أو فتحت الواحدة فمها وقالت شيئًا مختلفًا .

ولى تجربة فى هذا المضمار لها أهميتها لإلقاء الضوء على التجربة العامة . فأنا لا أنتمى إلى فئة المكتئبين ولا إلى فئة المنافقين أو المنافقات ، وحين أحضر اجتماعًا ما فأنا أبذل ما أستطيع من جهد (سواء بالفعل أو القول) لكسر الحواجز المصنوعة واختراق ترسانة المنافقين الذين يحتلون عادة الصفوف الأمامية والكراسى الوثيرة ويسدون الطريق أمام كل من يريد الكلام ، بصراحة أكثر أو عمق أكبر . ولهذا السبب تم استبعادى تمامًا من هذه اللقاءات الفكرية أو غير الفكرية التى تعقد فى مصر أو فى عواصم البلاد العربية ، كما تم استبعاد الكثيرين من أمثالى ومثيلاتى من المثقفين والمثقفات .

المسألة إذن ليست الأكتئاب أو الإحباط . بل المسألة أن السلطة تملك جميع وسائل الثقافة والفكر والإعلام والنشر والتوزيع والنقد الأدبى وكل شىء ، ويمكن للسلطة أن تستبعد من تشاء ، خاصة هؤلاء الذين يمكن لهم أن يتكلموا بشجاعة أكبر ويغوصون إلى جذور المشاكل ويطرحون الأسئلة الصعبة فى المسائل الصعبة ، وقد يتعرض هؤلاء إلى ما هو أكثر من الاستبعاد ، وأعنى الطرد من العمل ، أو النفى إلى الخارج أو إلى الداخل ، وتشويه السمعة عبر أجهزة الإعلام والصحافة التى تملكها الدولة ، والغريب أن أحدًا لا يتصدى للدفاع عن هؤلاء المنبوذين ، والذين قد ينالون تقديرًا علميًا أو أدبيًا كبيرًا خارج وطنهم ، ولا يعترف بهم أحد داخل الوطن إلا بعد أن يتلقى الضوء الأخضر من المسئولين أو السلطة .

الغريب أيضًا أن بعض الذين يصيبهم « الاكتئاب » على صلة حميمة بالسلطة ، يرفلون فى نعيمها ، ويجلسون فى كراسيها الوثيرة . أيكون « الاكتئاب » هنا نوعًا من تأنيب الضمير .

وقد نصحني بعض أصدقائي من المثقفين أو الأدباء الذين ماتوا بمرض «الاكتئاب» ومنهم صلاح جاهين وأحمد بهاء الدين ويوسف إدريس ، ولعل آخرهم هو الدكتور «على الراعى » ، قالوا لى فى كل مرة أتعرض فيها لعقاب السلطة « لن تعيشى فى سلام أبدًا ما لم تقيمى بينك وبين السلطة جسرًا ، فما بال أن تشقى طريقك إلى المجد الأدبى أو العلمى » .

لهذا أختلف مع الأستاذ صلاح الدين حافظ ، وأعتقد أن المشكلة ليست هى كسل المثقفين وتقاعسهم عن التعبير بشجاعة وعمق عن آرائهم ، ولكن المشكلة هى هذا الحرص على الجسر بينهم وبين السلطة ، وخوفهم من سقوط هذا الجسر ، الذى يتصورون أنه الحماية لهم ولأولادهم من الفقر أو المنفى أو العزلة ، أو على الأقل الحرمان من الأضواء الإعلامية والصحفية .

وكم من مقالات كتبتها فلم تجد لها مكانًا فى الصحف الحكومية أو صحف المعارضة ، وكم من مقالات نشرت لى بعد حذف أهم أجزائها ، وكم من مثقفين ومثقفات يكيلون المدح للمسئولين من أجل تمرير عبارة واحدة ناقدة ، لكن ماذا تفعل قطرة ماء فى البحر الواسع أو خضم المحيط ؟

• • •

الأرض مقابل الختان
أوقفوا ختان الذكور ! (*)

مع بداية القرن الواحد والعشرين يتحلى النظام العالمى الجديد بكلمات جديدة براقة تتخفى وراءها أشكال جديدة من الاستغلال والاستعباد للفقراء فى العالم وللنساء أيضًا .

وأصبحت كلمة العولمة من الكلمات الغامضة الساحرة لكثير من المثقفين فى الغرب والشرق أو الشمال والجنوب ، إلا أن نتائجها على شعوب العالم ليست إلا مزيدًا من الكوارث والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والحروب الدينية والطائفية المشتعلة فى كل بلاد العالم اليوم ، وكم من النساء والشباب والأطفال يسقطون قتلى الفتن العقائدية والتى تختفى وراءها المصالح المادية .

أضعف شرائح المجتمع هم أول الضحايا ، وهم النساء والفقراء من جميع الطبقات والفئات والألوان ، زادت الهوة مع مزيد من العولمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، وبين الجنس المؤنث والجنس المذكر الذى له السيادة فى الدولة والعائلة فى ظل النظام العالمى الجديد ، كما كان فى ظل النظام العالمى القديم ، لا يختلف النظام الجديد عن القديم إلا فى التفاصيل والجزئيات ، ولكن الجوهر واحد ، فهو جوهر النظام الطبقى الأبوى ، يعنى ذلك أن قلة من الأفراد تشكل « الطبقة الحاكمة » تسيطر على مصائر الملايين وأرواحهم وأرزاقهم وأمنهم وأمن أولادهم وبناتهم .. هذه القلة القليلة من الأفراد فى كل بلد من العالم تملك المال والسلاح والإعلام . الثالوث الذى ترتكز عليه السلطة الدولية أو المحلية ، الثالوث الذى تبطش به على الأغلبية البشرية المفروض عليها الفقر والصمت ونزع السلاح .

يمكن لمن يدرس التاريخ أن يكتشف الترابط بين السلطة والجنس منذ نشوء العصر العبودى ، منذ انقسام المجتمع إلى أسياد وعبيد ، وإلى نساء ورجال .

(*) روزاليوسف ٢١/١٢/١٩٩٨ .

في مصر القديمة كانت « نوت » هى الإلهة الأم ، إلهة السماء ، وزوجها « جيب » كان إله الأرض ، وكانت الأم هى التى تعطى اسمها لأطفالها ، لم تكن الأبوة معروفة ، كان الرجال يتصورون أن الجنين يتكون فى بطن الأم بقدرة خارقة غامضة سماوية ، ثم بدأ العقل البشرى يكتشف شيئًا فشيئًا علم البيولوچى وعلم الأمبريولوچى « الأجنة » ، وبدأ الرجل يعرف دوره فى عملية الإخصاب ، ثم بدأ يكتشف « الأبوة » .

لم يعد يأكل أطفاله أو يغتصبهم كما كان يفعل من قبل ، ولم يعد يؤمن بأن النساء يحملن بسبب أرواح تهبط إليهن من السماء .

انعكست هذه الفكرة البدائية فى الأساطير القديمة ، وكم قرأنا هذه الحكايات عن الأبطال الشجعان الذين ولدتهن أمهاتهن بعد أن نفخت الآلهة المقدسة فى أرحامهن ، ويصبح المولود مقدسًا ، وإن كانت المولودة أنثى أصبحت قديسة أيضًا تنضم إلى زمرة الإلهات المعبودات .

إلا أن المجتمعات البشرية كانت فى تحول مستمر وصراع دائم للاستيلاء على السلطة والمال والأرض . ظهر الصراع فى التاريخ بين الآلهة الذكور والإلهات الإناث ، يكشف التاريخ القديم عن معارك طويلة بين الإلهة المصرية أيزيس وأعدائها من خارج البلاد وداخلها ، استمرت هذه المعارك الضارية تحاول هدم فلسفة إيزيس فى مصر (وغيرها من البلاد فى الغرب والشرق) .. حتى عام ٣٩٤ ميلادية ، حين جاء الإمبراطور تيودور وحطم تماثيل إيزيس ومعابدها فى الإمبراطورية الرومانية ، وفى مصر ظل أتباع إيزيس وكهنتها يقاومون حتى آخر معبد من معابدها فى جزيرة « فيله » .

والسؤال هو : كيف نشأ ختان الذكور فى التوراة ؟

فى الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبى إبراهيم عهدًا ، يقول له: « أقيم عهدى بينى وبين نسلك من بعدك عهدًا أبديًا .. أعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا .. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم .. يختن منكم كل ذكر .. فتختنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم ، فيكون عهدى فى لحمكم أبديًا .. وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلتكم فتقطع تلك النفس من شعبها ، إنه قد نكث عهدى » .

هـذه هـى الكلمات التى جاءت فى التـوراة ، تؤكـد لنـا أن إلـه اليهـود رفـع شـعار « الأرض مقـابل الختـان » ، وهو شـعـار غـريب ، فمـا عـلاقـة الاسـتيلاء علـى أرض الغير بالقوة المسلحة وختان الذكور ؟!

لا يمكن أن نفهم هـذا السر إلا إذا قرأنا ما جاء فى التوراة بعد ذلك ، كان إبراهيم ابن مـائـة سنـة وزوجتـه سـارة بنت تسعـين سنـة ، لم يكن عنـدهـمـا ابن يرثهـمـا ، أشـارت سارة على إبراهيم أن يتزوج جاريتها هاجر لينجب منها الولد ، لكن ما أن أنجبت هاجر ابنها إسماعيل حتى غيرت سارة رأيها ، طلبت من زوجها إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها، تردد إبراهيم قليلاً ، لكن سـارة اقنعتـه بطردهمـا بعد أن أنجبت لـه ولدًا ، قالت إنه من عند الله ، فسأل إبراهيم الله مندهشًا : « هل يولد لابن مائة سنة ؟ وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟ » (الإصحاح ١٧ / تكوين ١٨) توسل إبراهيم إلى الله أن يجعل ابنه اسـمـاعيل يعـيش أمامـه ، لكن الله رد عليـه فـى التـوراة قـائلاً : « فـقـال الله بل سـارة امـرأتك تلـد لك ابنًا وتدعـو اسـمـه إسحـاق وأقـيم عهدى معـه عهـدًا أبـديًا لنسـله من بعده » .

هكذا تمت الخطة حسب تدبير زوجته سارة وفق رواية التوراة . خطة استغرقت ثلاث عشرة سنة بسبب تردد إبراهيم وتلكئه فى طرد زوجته هاجر وابنها إسماعيل ، أمرت سـارة بتختين إسـمـاعيل قبل طرده وعـمـره ثلاثة عشـر عـامًا ، كمـا أمـرت سـارة بتختين زوجها إبراهيم وعمره تسعة وتسعين عامًا .

تقول التوراة : « وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته .. فى ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمتباعون بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه » .

فى الإصحاح الثامن عشر نكتشف العلاقة الخفية بين الرب وسارة زوجة إبراهيم إذ يظهر الرب عند باب خيمة إبراهيم ، ومعه ثلاثة رجال ، وسجد إبراهيم إلى الأرض ثم أسرع إلى سارة زوجته داخل الخيمة قال لها : « أسرعى بثلاث كيلات دقيقًا سمينًا ، أعجنى واصنعى خبز ملة . ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً جيدًا وأعطاه للغلام

فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم ، وإذا كان واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا » .

بعد الأكل سأل الرب إبراهيم عن زوجته فقال له : هاهى فى الخيمة فقال إنى أرجع إليك .. ويكون لسارة امرأتك ابن ، وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهى وراءه ، وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام .. وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء » .

إلا أن سارة تحصل على ابنها إسحاق ، كيف ؟ .. لا نعرف ، ولماذا كانت تقف وراء الباب تتسمع ما يدور بين الرب وزوجها إبراهيم ، ولماذا كان الرب يستجيب لجميع طلباتها ويأمر زوجها إبراهيم بطرد هاجر وابنها إلى الصحراء ؟!

وهل هناك إذلال للرجل وهو فى التاسعة والتسعين من عمره أن يمسكه الرجال ، يكشفون عورته ، يقطعون غرلته بالموس أو قطعة من الحجر ؟ لقد تلوث جرح إبراهيم ولم يلتئم إلا بعد زمن طويل من الألم والمعاناة ، حتى أنه اشتكى للرب من الألم وطلب منه الرحمة .

ويظل الشعار القديم أو العهد القديم « الأرض مقابل الختان » غير مفهوم ، وفى حاجة إلى دراسات أعمق لعصور العبودية والصراعات على السلطة والمال والأرض بين الجماعات البشرية المختلفة .

إلا أن عادة ختان الذكور مثل عادة ختان الإناث أصبحت تتوارث عبر الأجيال ، رغم ما يصاحبهما من مخاطر صحية مختلفة .

بل كثيرًا ما حاول المجتمع البشرى تبرير هذه العمليات الجسدية من أجل استمرارها ، كانت السلطة الحاكمة فى أى مجتمع فى حاجة دائمة إلى التحكم فى أجساد النساء والعبيد ، وقطع أجزاء منها لأسباب قمعية تتخفى تحت الدين .

ولهذا انتشرت الشائعات حتى بين الأطباء أن عمليات الختان للإناث والذكور ضرورة من أجل النظافة أو الصحة أو لمنع بعض الأمراض .

منذ أكثر من ثلاثين عامًا حين نشرت كتابى « المرأة والجنس » ثارت السلطة الحاكمة فى الدولة لأن الكتاب تضمن بعض الفصول التى تكشف عن المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الإناث ، كان هذا الكتاب (والذى صودر عام ١٩٦٩) هو فاتحة المشاكل فى حياتى ، والتى أدت إلى فقدانى منصبى فى وزارة الصحة فى أغسطس ١٩٧٢ ، رغم ذلك أصدرت الكتاب من بيروت عام ١٩٧١ ، وأعقبته بكتب أخرى على توالى السنين ، نشرت كلها فى بيروت أو معظمها .

لكنى لم أتعرض فى هذه الكتابات السابقة إلى المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الذكور ، كنت مشغولة بما تصورت أنه أهم من ذلك ، كما أننى لم أكن عرفت بعد شيئًا عن هذه المخاطر الصحية ، وهى معلومات حديثة نسبيًا ، لم يتم نشرها فى المجلات الطبية إلا فى السنين العشر الأخيرة .

لحسن حظى وصلت إلىّ هذه المعلومات حين كنت أستاذة زائرة فى جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا ، بأمريكا الشمالية ، خلال الأعوام ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، وقد شهدت هذه السنوات الثلاث حركة طبية واسعة النطاق ، وفى أنحاء متعددة من العالم ، لنشر المعلومات الجديدة عن مخاطر ختان الذكور ، وساعدت الثورة الإلكترونية الأخيرة فى سرعة نشر هذه المعلومات ، وتكونت فرق من الأطباء تدعو إلى منع ختان الذكور ، وتقدم للجماهير العادية المعلومات الطبية عبر الإنترنت تحت عنوان : « الأطباء يعارضون الختان » .

فى المعركة ضد ختان الإناث انتصرت الحقائق الطبية والعلمية وصدر القرار فى مصر بمنع ختان البنات عام ١٩٩٧ ، وقد حسمت المعركة السلطة الدينية فى مصر حين أعلن شيخ الأزهر أن الختان مسألة طبية من اختصاص الأطباء وليست مسألة فقهية .

هذه عبارة صحية تمامًا تنطبق على ختان الإناث والذكور أيضًا ، والمفروض أن يطلع الأطباء فى مصر على المعلومات الطبية الجديدة التى تؤكد أن ختان الذكور ضار صحيًا وليست له أية فوائد كما أشيع قديمًا .

ورغم عدم وجود آية واحدة فى القرآن الكريم تذكر الختان (ختان الذكور أو الإناث) ، إلا أن عادة ختان الذكور انتشرت بين المسلمين ، رغم اختلاف الفقهاء حولها ، واختلف الفقهاء المسلمون حول ختان النبى إبراهيم ذاته ، بعضهم قال إنه ولد مختونًا ، وكانت هناك أسطورة يهودية انتشرت فى البلاد الأخرى عن طريق التجارة ، وهى أن الإله يخلق الأنبياء طاهرين مختونين ، وأن (الغرلة) تسقط من أجسادهم مع الولادة ، كما يسقط الحبل السرى والمشيمة ، ثم اتضح فيما بعد أن الغرلة لم تسقط عن إبراهيم ، ولم تعرف بهذا السر إلا زوجته سارة ، وبعد أن بلغ من العمر تسعة وتسعين عامًا ! ..

فى بداية هذا القرن العشرين كان الشيخ محمد عبده ضد ختان الذكور واعتبره عادة يهودية لا علاقة لها بالإسلام ، إلا أن المشايخ عارضوه ، وفى بداية الستينيات من هذا القرن ردد الشيخ محمد شلتوت رأى الشيخ محمد عبده ، وقال عن ختان الذكور «إنه إسراف فى الاستدلال» ولم يأمر به الله إلا لليهود .

هذه الآراء لم تغير من العادة الموروثة منذ الفراعنه ، منذ أصبحت إراقة الدم رمز الخضوع والولاء للإله فرعون ، بدلاً من تقديم القرابين . كان الأثرياء يقدمون للإله فرعون ذبائح من أجساد حيواناتهم ، لكن الفقراء أو العبيد لم يملكوا الماشية وكانوا يقدمون قطعة من أجسادهم صغيرة مع قليل من الدم ، دمهم ، وفى التوراة آيات كثيرة عن سرور الإله حين كان يشم رائحة الدم ، أو الشواء (خاصة الضأن) فوق المحرقة ، من هنا جاء مفهوم الطهارة بإراقة الدم ، فى التوراة لا تطهر المرأة بعد الحيض أو المخاض (الولادة) إلا بعد أن تذبح فرخًا للإله تطهر به من نجاسة دمها ، وإن ولدت أنثى تكون نجاستها مضاعفة وتذبح فرخين .

تطورت الطهارة أو عملية التطهير من دنس الولادة بالماء وليس الدم ، وهى خطوة إلى الأمام ، أصبح الطفل المولود يغطس فى الماء ليصبح طاهرًا (تسمى عملية التعميد فى المسيحية) ، وهى عملية لم يأخذ بها المسلمون ، فلماذا انتشرت عادة ختان الذكور فى البلاد الإسلامية ؟

كثير من فقهاء المسلمين يرفضون فكرة الختان للذكور أو الإناث ، إن الله كامل لا يخلق إلا الكامل ، فكيف يعدل البشر على خلق الله ؟!

بعض الفقهاء يعتبرون الختان مثل قص الأظافر .. نظافة للرجل ، إنهم يظنون أن الغرلة شىء ميت مثل الظفر ، بعضهم يعتبر الختان مثل قطع الحبل السرى ، إلا أن أغلب الآراء لم تكن تشجع الختان ، بعض الفقهاء كانوا يرون أن ختان الذكور وختان الإناث شرط ضرورى للطهارة ، ولا تقبل صلاة إنسان غير مختون رجل أو امرأة .. بعض الآراء تقول إن الشيطان يتخفى وراء بظر المرأة ، ووراء غرلة الرجل ، لذلك وجب قطعهما لإخراج غدة الشيطان منهما ، بعض الآراء تقول أن الشيطان يتخفى وراء شعر العانة ، لذلك يجب حلق شعر العانة وإلا أصبح الإنسان غير طاهر ولا يقبل الله صلاته .

لاشك أن شيخ الأزهر اليوم الدكتور سيد طنطاوى أكثر تقدمًا من شيخ الأزهر منذ سنين قليلة (الشيخ جاد الحق) الذى أكد أن عادة ختان الإناث واجب إسلامى لمنع الرذيلة والحفاظ على شرف البنت ، وهو رأى غير صحيح دينيًا وعلميًا أيضًا .

بعض الآراء يقول أن الدعوة لعدم الختان جاءت من الغرب ، وهذا غير صحيح لأن كثيرًا من الآراء المعارضة لختان الذكور والإناث عريقة فى بلادنا عراقة الصراع بين العقل واللاعقل ، وقد قرأت مؤخرًا فى إحدى الصحف التى تملكها إحدى الجماعات الدينية فى بلادنا ما يؤكد أن ختان الموتى من الذكور والإناث ضرورى حتى يدخل الميت أو الميتة إلى الجنة ! فالجنة لا يدخلها إلا الطاهرون والطاهرات ! وإن ختان الموتى يقلل ذنوبهم التى اقترفوها فى الدنيا .

بعض الآراء تقول إن الأطباء فى بلادنا متخلفون وينقلون عن الغرب دائمًا . لكن الطبيب الرازى (محمد بن زكريا الرازى) الذى عاش أوائل القرن العاشر (أى منذ أكثر من ألف عام) هذا الطبيب عارض كل ما يسىء إلى جسد الإنسان السليم تحت آية مسميات دينية ، عارض الختان والوشم وأى شىء يخدش جسد المرأة أو الرجل ، وقد كانت كتب الطبيب الرازى تُدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر

الميلادى ، وكان يؤمن أن الله هو رمز العدل والصحة ، إلا أن كتب الطبيب الرازى قد مُنعت من التداول فى بلادنا ، بمثل ما مُنعت كثير من الكتب الأخرى الطبية أو العلمية التى حاربت هذه العادات الضارة تحت اسم الدين أو الأخلاق ، ومنها كتابى « المرأة والجنس » الذى صودر من الأسواق المصرية منذ ثلاثين عامًا ، إلا أن الحياة الإنسانية تسير إلى الأمام دائمًا رغم الصعوبات .

● ● ●

تأملات على بحيرة مارينا(*)

دعتنى إحدى الصديقات القديمات لزيارتها فى الفيللا التى تطل على بحيرة «مارينا» على الساحل الشمالى . كانت المرة الأولى التى أذهب إلى هذا المكان الجديد الذى يرتبط فى خيال الكثيرين بالطبقة الجديدة صاحبة الملايين أو البلايين . أخذت معى المايوه لأسبح فى البحيرة . وكتابًا أقرأ فيه إن شعرت بالملل ، فأنا أعرف صديقتى منذ الدراسة فى كلية الطب ، وأعرف لماذا تدعونى بكل هذا الإصرار رغم فتور العلاقة بيننا منذ الانفتاح ، فجأة انقلب زوجها من الحديث عن الاشتراكية والقطاع العام إلى الحديث عن الرأسمالية والقطاع الخاص .

تذكر أن خاله الباشا مات بالذبحة الصدرية بعد أن فرض عليه جمال عبد الناصر الحراسة ، والأرض التى ملكتها العائلة الكريمة أخذتها الدولة ، ولم يبق إلا الشقة الكبيرة فى الزمالك والعمارة فى المعادى ، لكن الله فتح عليه منذ أيام الانفتاح الأولى ، فهو يعرف دنيا المال والاستثمار ، ويسافر إلى باريس ولندن وجنيف ونيويورك ، ويتكلم ثلاث لغات ، ينحنى حين يصافحنى قائلاً : « أهلا نوال هانم » ، كلمة هانم تخرج من بين شفتيه الرقيقتين مع دخان السيجار الفاخر .

كان اليوم مشرقًا ، الشمس تتألق فوق المياه الرقراقة تلامس الشاطىء فى موجات صغيرة ناعمة ناعسة ، ارتديت المايوه وأسرعت لألقى نفسى فى البحيرة كالطفلة ، كنت أنجذب إلى المياه الزرقاء الصافية أكثر من التحف الفاخرة التى كدستها صديقتى فى الفيللا ، والشبكة الثمينة المرصعة بالفصوص المشعة التى انشبكت بها ابنتها لأحد كبار التجار أو رجال الأعمال . نطقت كلمة « الأعمال » كإنها هى إحدى المقدسات الجديدة . وأسألها : ما هى هذه الأعمال ؟ فترد بكلمة إنجليزية أكثر غموضًا هى « البزنس » .

تمددت بالمايوه على الرمال تحت أشعة الشمس ، تركتنى صديقتى وراحت تشرف على أمور الفيللا ووليمة الغداء ، تحلو القراءة على الشاطىء وهواء البحر واليود والأكسوچين يملأ الرئتين ، فتحت الكتاب وبدأت أقرأ ، عيناى تتركان الصفحة وترمقان

(*) جريدة الأهالى ١٩٩٨/٨/١٩ .

الوجوه والأجسام التى تتمشى على الرمال ، بنات رشيقات بالمايوه المكشوف أعلى الفخذين ، وبنات سمينات مترهلات داخل الفساتين الواسعة الطويلة رءوسهن ملفوفة بالحجاب ، يتصببن بالعرق ، يرمقن البنات السابحات فى المياه بحسد ، يختفى الحسد تحت نظرة ازدراء أو حركة امتعاض بالشفتين الممطوطتين .

لمحت وجه فتاة تلف رأسها بإيشارب أحمر ، يتدلى من أذنيها قرط ضخم يلمع تحت الشمس ، بشرتها بيضاء مدهونة بالأصباغ والمساحيق ، شفتاها مصبوغتان بلون أحمر قانى ، تتعثر فى ذيل فستانها الحريرى الطويل ، يتأرجح جسمها المربع الممتلئ فوق كعبين عاليين ينغرزان فى الرمل ، إلى جوارها تمشى أمها تكاد تشبهها إلا أنها اكبر سنًا ، تلف رأسها بطرحة بيضاء مثل العائدات من الحج ، ابتسمت الأم حين لمحتنى وقالت : إزيك يا دكتورة .. تذكرت ملامحها ، كانت تجلس فى دكانة البقالة بالقرب من بيتى فى الجيزة ، كنت أشترى منها الجبنة البيضاء والبيض والبسطرمة ، زوجها البقال اسمه محمد ، مربع سمين أبيض يكاد يشبه زوجته ، كان يرتدى جلبابًا ، فجأة تغير البقال محمد فى أيام الانفتاح ، بدأت أرفف جديدة تملأ الدكان تتكدس عليها زجاجات المياه المعدنية المستوردة ، وسفن أب ، وشويبس واللبان الأمريكى تشوجام ، وارتدى محمد بدلة وحذاء جلديًا أسود ، بدت عليه سمات الأفندية ، يحرك بين يديه سبحة صفراء ، ويغير الدولارات فى السوق السوداء اتسع دكانه واشترى قطعة الأرض المجاورة ، بنى عليها عمارة عالية . فى الدور الأرضى أقام معرضًا كبيرًا للسيارات ، أصبح يأتى إلى الدكان داخل سيارة مرسيدس ، تحول الدكان إلى سوبر ماركت ، كانت ابنته طفلة ، لابد أنها هذه الفتاة التى تمشى إلى جوار أمها ، سمعتها تقول لى « شفناكى فى الدش يا دكتورة مع واحد شيخ مش فاكره اسمه كان عصبى شويه ، لكن ليه يا دكتورة مش لابسه الحجاب ؟ مش حرام كده المايوه ؟!

جلست الأم وابنتها معى بعض دقائق ، دار الحوار على الحرام والحلال ، ترهف البنت أذنيها المثقلتين بالقرط الضخم ، ربما تستمع لأول مرة فى حياتها إلى أن المايوه ليس حرامًا فوق شاطىء البحر فالمفروض أن البحر للسباحة ، والسباحة رياضة ممتعة من حق النساء والرجال وليس الرجال فقط .

جاء البقال محمد الذى أصبح برونزى اللون ، يرتدى « مايوه ملون » ، جسده سمين مترهل ، له كرش قبيح المنظر ، إلا أنه يشمخ بأنفه بكبرياء ونوع من الفطرسة

قال « أهـلا يا دكتورة » بطرف لسانه ، ربما لم يعجبه أن تجلس ابنته وزوجته مع امرأة ترتدى المايوه ، يتحدث إليها بلهجة خشنة ، يأمرها بالعودة إلى الڤيللا ، نطق كلمة الڤيللا بالفاء ، رنت فى أذنى « الفلة » ، مثل سداده الزجاجة من الفلين .

أصبحت جالسة وحدى على الرمال ، لم أعد قادرة على القراءة ، أريد أن أتابع هذه الطبقة الجديدة التى تتحرك أمامى على شاطىء بحيرة مارينا . تكونت فى السنوات العشرين الأخيرة منذ الانفتاح ، منهم من أطلق عليهم اسم « القطط السمان » رأيتهم يتمشون على الشاطىء بأجسامهم السمينة القصيرة يشبهون القطط المستأنسة فى البيوت ، أردافهم متهدلة إلا أن عيونهم تلمع كعيون القطط الجائعة ، سيقانهم رفيعة مشدودة ، حركتها سريعة متوترة ، يدخلون بها مسرعين إلى البنك المركزى ، ومنه ينطلقون إلى مكاتب أصحاب النفوذ ، فى مجالات الاستثمار أو التنمية والاستيراد والتصدير ، فى الغرفة التجارية ، وفى الغرفة المظلمة حيث يعدون أوراق البنكنوت ، ولا يمكن لهم أن يدفعوا ضرائب ، فالمفروض أنهم لا يملكون شيئًا ، الأموال كلها ليس لها مكان ، يمكن أن تطير فوق البحار إلى جزر الباهاما ، أو جزر أخرى وراء الشمس والقمر ، لا يمكن لأحد أن يمسكها ، إلا إذا بدأ القط السمين يلعب بذيله ، يتحرش بالقطط الكبار ، أو يتمادى ويتجاوز الحدود المرسومة، حينئذ يعلقون الجرس فى عنقه، يظهر مانشيت فى الصحف بالحبر الأحمر : اضبط القط السمين قبل أن يهرب خارج البلاد ، أو اضبط القطة السمينة التى هربت !

لمحت أحد الصحفيين المعروفين يتمشى الهوينى على شاطىء البحيرة ، يدخن البايب ، عيناه شاردتان فى الأفق ، إنه ضيف دائم على موائد الوزراء ، يتشمم الأخبار وراء البحار ، يرقب حركة القطط السمينة من الذكور والإناث ، قلمه يطل من جيبه العلوى له غطاء من ذهب ، كل كلمة منه توزن بالدولار أو الدينار أو الاسترلينى ، يأتيه الشيك فوق مكتبه قبل أن يكتب عنوان المقال ، قد يتحول القط السمين فجأة إلى بطل قومى ، وقد ينقلب البطل القومى فجأة إلى قط سمين إنها صاحبة الجلالة الصحافة .

لمحنى الصحفى المشهور وقال « أهلاً يا دكتورة » ، ثم ابتعد مسرعًا يتطلع نحو السماء ، رأيت ثلاث طائرات هليكوبتر ملونة تتسابق فى الفضاء قرب الشاطىء داخلها رءوس شباب يلعبون فى الجو ، ربما يمتلك الواحد منهم طائرة هليكوبتر أو سيارة مائية تمشى فوق الرمال أو فوق البحر ، ربما يكون ابن هذا الصحفى الشهير داخل إحدى هذه الطائرات .

يملكها أبوه أو صديق أبيه من كبار القطط السمينة ، وكلهم يعشقون الصحافة وأضواء الإعلام ، يتنافسون على الظهور أمام الرأى العام ، يحركون السبحة بين أصابعهم علامة التقوى والإيمان ، تفوح أنفاسهم برائحة الخمر والنساء والمخدرات .

ثم لمحتها تمشى بجسمها الطويل الممشوق داخل مايوه أسود مزين عند البطن بفصوص من اللؤلؤ أو الترتر ، تهز جسمها برشاقة الراقصات ، وهى معروفة وسط راقصات البطن ، يمشى إلى جوارها زوجها يرتدى مايوهًا من النوع الدينى المحتشم ، يغطى ركبتيه ، ربما هو سعودى أو كويتى أو من الدوحة ،، يملك مسجدًا وعددًا من العمارات أو المحلات ، ربما هو فى السلك الدبلوماسى أيضًا ، فهو يحمل فى يده التليفون «المحمول» ، يشترى فى الصحف المساحات للإعلان عن البضائع فى محلاته، سيارات أو تليفزيونات أو كمبيوترات ، يشترى من جامعة كاليفورنيا درجة الدكتوراه ، يشترى أيضًا لنفسه حراسة خاصة وبودى جارد ، إن مات فجأة برصاصة مكتومة الصوت أو سم تضعه له زوجته فى الشراب ، يظهر نعيه فى أكبر الصحف فى صفحة كاملة أو نصف صفحة بالبنط العريض ، ولا يمضى على موته أيام حتى ترقص زوجته الفنانة فى إحدى حفلات الزفاف بالقاعة الواسعة فى فندق الخمس نجوم ، ثم تتزوج فى السر أحد الأمراء فى بلد من بلاد الخليج .

كنت جالسة على شاطىء بحيرة مارينا ، فى يوم من أيام يوليو ١٩٩٨ ، استمتع بالفرجة على أنواع الرجال والنساء من الطبقة الجديدة ، وجاءت صديقتى القديمة تدعونى إلى وليمة الغداء ، مائدة طويلة رُصت عليها الصحون ، أطباق لا أعرف اسمها تنطقها بالفرنسية ، وأطباق أعرفها مثل الفول المدمس والطعمية والعدس أبو جبة ، وفخذة خروف مشوية ، صديقتى تتفاخر بكل ما تملك ، وأنا أفقد شهيتى ، تملأ الصحن أمامى بالطعام ، لم أعد آكل اللحم الضأن ، ليه يا نوال ؟ شرحت لها أن لحم الضأن يحتوى على كميات كبيرة من الدهون ، سألتنى بدهشة « عاملة ريچيم يا نوال ؟ مش معقول » ...

رمقت جسمها السمين المترهل بنظرة من طرف عينها وقالت : خلاص عجزنا يا نوال ومافيش متعة فى حياتنا إلا الأكل !

حين عدت إلى بيتى أحسست أن جسمى خفيف ، رشيق ، وضعت نفسى تحت الدش، غسلت رمال شاطىء مارينا ، وصور الأجساد فوقه ، شعرت بسعادة !

● ● ●

الاغتصاب ومفهوم الشرف والأخلاق

أذكر أن صلاح أبو سيف أراد أن يقدم إحدى رواياتى الأدبية كعمل سينمائى ، وهى رواية « مذكرات طبيبة » التى نُشرت فى الخمسينيات ، وأعيد نشرها بعد ذلك عدة مرات ، وقرأها صلاح أبو سيف خلال الستينيات ثم جاء يطلب منى الموافقة على تحويلها إلى فيلم سينمائى ، وفعلاً كتب صلاح أبو سيف السيناريو لها ، وبدأ يبحث عن شخصيات نسائية بين الممثلات ليقمن بدور البطولة ، رفضت إحدى الممثلات المشهورات حينئذ تمثيل الدور الرئيسى فى الرواية ، وقالت لصلاح أبو سيف ، أنها تعودت فى جميع أفلامها السابقة أن تبكى على عذريتها فى حالة الاغتصاب ، فكيف تقوم بدور مختلف تمامًا يعطى مفهومًا آخر للأخلاق ؟! معظم الممثلات المعروفات ترددن فى قبول الدور للسبب ذاته . وبدأ صلاح أبو سيف يبحث عن وجوه جديدة من الشابات الهاويات للسينما والفن ، إلا أنه توقف تمامًا عن تنفيذ الفيلم بعد أن وصله قرار الرقابة برفض الفيلم ، وجاء فى أسباب الرفض أن بطلة الرواية وهى الطبيبة تقوم بعملية إجهاض لفتاة فقيرة خادمة تعرضت للاغتصاب بواسطة مخدومها الذى يشغل منصب وكيل وزارة ، قالت الرقابة : إن الإجهاض ممنوع قانونًا وبالتالى لا يمكن إباحته فى الفيلم ، كما ذكرت أن الاغتصاب فى مصر غير موجود إلا نادرًا جدًا ولا يشكل ظاهرة تستحق العرض السينمائى ، وأنه فى تلك الحالات النادرة فإن الرجل المعتدى لا يمكن أن يكون وكيل وزارة أو يشغل مثل هذا المنصب الكبير ، وبالتالى فإن الفيلم يسىء إلى سمعة كبار الموظفين فى الدولة . ذكرت الرقابة أيضًا أن الفيلم يقدم مفهومًا للشرف والأخلاق يختلف عن المفهوم السائد ، الا وهو عذرية الفتاة .

سألنى صلاح أبو سيف إن كنت أستطيع أن أغير فى الرواية بحيث تفلت من الرقابة إلا أن الأمر كان مستحيلاً بالنسبة لى ، لأن الرواية كلها كانت تقوم على كشف الزيف فى مقاييس الأخلاق السائدة وأهمها بالطبع مقياس العذرية .

وأخيرًا وبعد أكثر من ثلاثين عامًا قرأت فى الصحف أن فضيلة شيخ الأزهر نفسه قد أعلن أنه يوافق على إباحة الإجهاض وإعادة العذرية للفتاة التى تتعرض للاغتصاب ، وهذا يؤكد لنا أن مفهوم العذرية لم يعد مقدسًا وأصبح قابلاً للجدل والنقاش ، وأن تحريم الإجهاض المطلق فى جميع الحالات ليس أمرًا عادلاً أو مشروعًا ، ومن حق الفتاة الحامل بسبب الاغتصاب أن يكون لها حق الاختيار بين الإجهاض أو الاحتفاظ بالجنين إن شاءت . لقد قرأت رأى فضيلة شيخ الأزهر وشعرت بسرور ، إلا أننى أعتقد أن الأمر يحتاج إلى مزيد من النقاش العلمى والأدبى على حد سواء ، فالأعمال الأدبية الإبداعية قادرة دائمًا على السبق فى ميدان البحث عن القيم الجديدة التى تكفل للإنسان الفرد ، الرجل أو المرأة ، والمجتمع كله حياة أكثر سعادة وحبًا وصدقًا وعدلاً وحرية . وإذا عجز الإبداع الأدبى عن خوض المستقبل والجديد فما الذى يستطيع ؟! لاشك أن للخيال العلمى آفاقًا كبيرة ، لكن آفاق الإبداع الأدبى والفنى تتجاوز الآفاق العلمية ويمكنها أن تتحرر من بعض القيود التى قد لا يتحرر منها العلم فى مرحلة تاريخية أو فى ظروف اجتماعية وسياسية معينة .

وقد توقعت بعد أن قرأت رأى فضيلة شيخ الأزهر أن يحدث الجدل والنقاش فى الكتابات الأدبية للنساء والرجال ، إلا أننى لم أقرأ حتى الآن ما يلفت النظر رغم كثرة ما نقرأ عن حوادث الخطف والاغتصاب التى تتعرض لها الفتيات الصغيرات والكبيرات .

لاشك أن الاغتصاب ليس ظاهرة جديدة فى بلادنا أو أى بلد آخر فى العالم ، وسوف يظل الاغتصاب موجودًا ، يتزايد مع تزايد الفقر والبطالة ، وتزايد أعداد الشباب فى العالم المحرومين من الزواج أو الحياة الطبيعية لأسباب اقتصادية واجتماعية . لهذا أعتقد أن النجاح فى القضاء على ظاهرة الاغتصاب فى بلادنا (وأى بلد آخر فى العالم) يرتبط أساسًا بالقضاء على الأسباب الرئيسية للظاهرة ، وليس بقطع رأس الشاب الذى يغتصب فتاة . لاشك أن العقاب ضرورى إلا أن اقتلاع أسباب

الجريمة ودوافعها هو الطريق الأصح والأعمق والأبعد مدى للقضاء على الجريمة من جذورها .

لاشك أن حماية الفتيات ضحايا الاغتصاب هو واجب إنسانى واجتماعى عظيم ، لكن السؤال : هل إصلاح غشاء العذرية بمشرط الجراح يحمى الفتاة فعلاً ؟ بالعكس إنه يعرضها لعملية جراحية قد يكون لها مضاعفات ، هذا إذا نجحت العملية فى عملية الإصلاح . وهى لا تحمى أيضًا الرجل الذى سوف يتزوج هذه الفتاة . لأنها سوف تكتم السر والمفروض أنه لا يعرف شيئًا ، وإلا فما فائدة العملية الجراحية ؟!

إن الرجل يفضل أن يتزوج فتاة صادقة بدون غشاء بكارة عن أن يتزوج فتاة كاذبة بغشاء بكارة مزيف أيضًا . إن الكذب أو إخفاء مثل هذه الحقيقة يضر بصحة الفتاة الجسمية والنفسية ، فهى تعيش فى خوف دائم وتخشى أن يعرف زوجها السر ، وهو سر لا يمكن التكتم عليه إلى الأبد ، ويلذ لكثير من الناس إفشاءه ولا أحد يفشى أسرار العائلات مثل أقرب الناس إليها .

وقد آن الأوان لمناقشة هذه القيمة الأخلاقية من أساسها ، لأن دم العذرية ليس مقياسًا للأخلاق أو الشرف فى معظم الحالات ، والأفضل للمجتمع أن يصلح مفهوم الأخلاق عن أن يصلح أغشية البنات بالمشرط الجراحى .

وقد أوضحت حقائق الطب أن ثلاثين فى المائة من البنات يولدون طبيعيًا بدون غشاء أو بغشاء مطاط لا ينزف قطرة دم واحدة ليلة الزفاف ، وقد اشتغلت طبيبة فى الأرياف وعرفت كيف تدربت الدايات على تزييف دم العذرية بشتى الوسائل ، تتفوق الدايات المدربات فى هذا المجال على مشرط الجراح الذى يفشل فى معظم الحالات ، بل قد يسبب الضرر للفتاة أو زوجها فى المستقبل .

فلماذا إذن يتمسك المجتمع بهذا المقياس الواهى والسطحى للأخلاق والشرف ؟! هل لأنه يعفى الرجال من المسئولية الأخلاقية ذاتها التى يطالب بها البنات ؟! وهل يمكن اعتبار الرجل غير مسئول عن سلوكه الجنسى لمجرد أنه ولد بدون غشاء ؟ وهل

يمكن للقيم الأخلاقية أن تسرى على جنس دون الآخر ؟! ألا تتعارض هذه الازدواجية مع مبدأ الأخلاق ذاته ؟

لا يمكن أن ننكر أن بعض الأعمال الأدبية الإبداعية قد كشفت عن هذه الازدواجية الأخلاقية ، إلا أننى لم أعثر على عمل فنى أو أدبى فى بلادنا يتناول هذه المشاكل الحياتية التى تهم الملايين من النساء والرجال ، والتى تمس القيم الأخلاقية السائدة ، خاصة تلك التى تتعلق بحياة النساء . يحاول بعض الناس تثبيت هذه القيم باعتبارها من الثوابت التى يجب ألا نغيرها ، رغم أنها تتغير على الدوام ، وتسقط بحكم الزمن ، أو لأنها لا تملك مقومات البقاء ، ولا تستطيع الصمود أمام حقائق الحياة أو المنطق البسيط .

وقد سقطت قيمة العذرية كمقياس للأخلاق فى معظم بلاد العالم شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، لأن الأخلاق الصحيحة تتعلق بسلوك الإنسان اليومى فى العمل والبيت والشارع والمجتمع ، إنها تتعلق بالصدق والشجاعة وعدم النفاق ، تتعلق بالأمانة وعدم السرقة .. إلخ . ولايمكن أن تتعلق القيم الأخلاقية بصفات تشريحية أو بيولوجية يولد بها البشر أو لا يولدون بها .

بعض الناس يتخوفون من سقوط قيمة العذرية كمقياس لأخلاق البنت قبل الزواج . لكن اتضح لنا أن هذه القيمة ليست مقياسًا بأى حال من الأحوال ويمكن التحايل عليها بسهولة .

إن الأخلاق القوية للبنات والأولاد ترتبط بالتربية السليمة منذ الطفولة ، بالإحساس بالحرية والعدل والثقة بالنفس . إننا نولد ونعيش طفولة خائفة مذعورة مكبوتة أساسها الكذب وإخفاء الحقائق ، والإيمان بقيم سطحية مثل العذرية ، واحتقار اسم الأم وتمجيد اسم الأب واعتباره الاسم الوحيد الذى يعطى للطفل الشرعية والشرف .

لقد ناديت كثيرا بأن يكون لاسم الام الشرف ذاته الذى يحظى به اسم الاب ، وألا يكون هناك شىء اسمه طفل غير شرعى . وأيهما أكثر أخلاقًا وإنسانية أن نفرض على الفتاة التى اغتصبت أن تقتل جنينها بالإجهاض أو أن نعطيها الحق فى أن تلد طفلها وتعطيه اسمها ؟!

لقد صرح شيخ الأزهر بإباحة الإجهاض للفتيات فى حالة الاغتصاب . لكن ما الموقف من فتاة لا تريد أن تعرض نفسها لمخاطر العملية ؟ أو لأنها تريد الاحتفاظ بطفلها ؟! هل نفرض عليها أن تقتل الطفل لمجرد أن والد الطفل كان مجرمًا مغتصبًا ؟! وكيف يمكن أن يكون لهذا الوالد المجرم الحق فى إعطاء الشرف للطفل لمجرد أنه الأب ، وأن الأطفال ينسبون للأب ؟

وكيف نحرم هذه الأم البريئة الشريفة من طفلها ؟ كيف نحرمها من إعطاء اسمها الشريف لطفلها على حين نبيح للأب غير الشريف أن يعطى اسمه للطفل ؟!

ما هذا التناقض الأخلاقى الصارخ فى حالات الاغتصاب ؟ ولماذا يدفع الأطفال الأبرياء والأمهات البريئات ثمن أخطاء الأب وجرائمه ؟!

لهذا أنا أختلف مع رأى شيخ الأزهر فيما يخص إباحة الإجهاض أو إعادة العذرية فى حالات الاغتصاب . بدلاً من قتل الأطفال الأبرياء فى بطون إمهاتهن . أليس الأسهل أن يحمل الطفل اسم أمه ؟

وبدلاً من إصلاح الغشاء فى أجساد الفتيات بمشرط الجراح . أليس الأسهل إصلاح مفهوم الشرف ؟! ليكون أكثر شرفًا وأخلاقًا ؟!

كما أننى ضد هذه الحملة التى تنادى بالإعدام فى حالات الاغتصاب . لم يكن الإعدام وسيلة للقضاء على أى جريمة . بل كثيرًا ما تزداد الجرائم بزيادة العقوبات والقوانين ضدها .

والأفضل أن نعالج أسباب الاغتصاب فى النظام الاقتصادى السياسى الذى يحكم العالم كله وليس بلادنا فقط . الا وهو النظام الأبوى الطبقى الرأسمالى الصناعى أو الزراعى الإقطاعى ، أو العشائرى أو القبلى أو البدوى .. إلخ .

هذا النظام الذى نشأ فى العبودية ويستمر حتى اليوم ، النظام الذى يحكم الأغلبية الساحقة فيه قلة قليلة من أصحاب المال والسلاح والإعلام ، حيث يكون . النسب الأبوى هو النسب الوحيد الشريف ، حيث يكون من حق الرجل أن يعاشر جنسيًا أكثر من زوجة ، وأن يشرد أسرته ليشبع شهواته ونزواته ، حيث القوانين والقيم كلها مزدوجة بما فى ذلك الدستور .

إن الدستور فى معظم بلاد العالم (بما فيها أمريكا) لا يعاقب رئيس الدولة إذا خان زوجته لكنه يعاقبه فقط إذا خان الوطن ، كأنما الزوجات أو النساء خارج الوطن أو لا يمثلن نصف الوطن !

• • •

ولماذا لا يدور حوار فكرى خلاق ؟(*)

قرأت عددًا من المقالات المتفرقة فى الأيام الأخيرة حول مشكلة تخلفنا العلمى ، وكيف اتسعت الهوة العلمية بيننا وبين أوروبا وأمريكا ، بل بيننا وبين إسرائيل ، وكيف أصبح العالم (خارج بلادنا) يواجه اختراعًا جديدًا كل دقيقتين .

كنت أتصور أن حوارًا فكريًا سوف يدور حول هذه القضية الهامة ، وحول المقالات التى نشرت عنها ، ومنها المقال الأخير فى جريدة الأهرام (١٩٩٨/٨/٤) بقلم فهمى هويدى . إلا أن هذا الحوار لم يحدث . لا أحد يريد التحاور مع أحد . نوع من الترفع أو الكبرياء ! كأنما لا أحد يقرأ لأحد ، والكل فقط يكتبون ، لهذا نشهد كل يوم سيلاً من المقالات المنفصلة بعضها عن البعض ، إن حدث تعليق على مقال فهو يأتى غالبًا من القراء ، لا يرد بالطبع صاحب المقال . نوع من الترفع أو الكبرياء ثم يغلق باب الحوار قبل أن يبدأ .

ربما لهذا السبب لم أعد أقرأ الصحف ، فهى تستهلك الوقت دون أن تنتج الأفكار الجديدة . إلا أن مقال فهمى هويدى عما سماه كارثة تخلفنا العلمى وقع بالصدفة تحت يدى ، وجدت فيه من التناقضات ما يدعونى إلى الكتابة . إنه يقول إن العقل العلمى لا يستورد ، وأنا أتفق معه فى هذا ، لأنى أعتقد أن القدرة على الإبداع تتطلب حريات اجتماعية وسياسية وثقافية واسعة تشجع على تجاوز الحدود المرسومة بالمحظورات والمحرمات ، وتساعد على انطلاق العقل إلى آفاق جديدة غير مألوفة قد تتناقض مع الموروثات الفلسفية أو العقائدية .

لكن صاحب المقال لا يتطرق إلى هذه الإشكالية التى تمثل عقبة أساسية أمام العقل المصرى للإبداع أو الاختراع ، كما أنه لا يتطرق أيضًا إلى الأسباب التى جعلت

(*) نشر فى جريدة الأهرام ١٩٩٨/٨/١٠ .

العقل الأوروبى أو الأمريكى أو الإسرائيلى يتفوق علميًا ، وكيف كسروا القيود التى كانت تمنع التفكير فى كثير من المقدسات . إن اكتشاف الإلكترون مثلاً وما تبعه من ثورة إلكترونية هائلة لم يكن يتحقق أبدًا فى ظل الإيمان بنظرية خلق الكون القديمة .

ويؤكد صاحب المقال على أن العقل العلمى لا يستورد وهى فكرة صحيحة ، إلا أنه يطالبنا فى نهاية المقال أن نستورد من الباكستان طريقتها فى « الجهاد العلمى » التى حصلت بها على القنبلة الباكستانية . لكن ما هو هذا الجهاد العلمى ؟ يقول صاحب المقال : إن المهندس الباكستانى عبد القدير خان عمل فى الغرب ١٥ عامًا ثم نقل إلى بلاده كل ما وقع تحت يديه من معلومات حتى حكمت عليه محكمة هولندية بالسجن ٤ سنوات ! أين هو الإبداع الفكرى فى نقل المعلومات من الغرب ؟ وبطريقة غير مشروعة ؟! والأخطر من ذلك (حسب قول صاحب المقال) إن هذا المهندس بعد أن عاد إلى بلاده أرسل أحد مساعديه إلى ألمانيا حيث أسس عدة شركات وهمية عملت كواجهة للتسوق النووى ! يا إلهى ! هل إنشاء شركات وهمية من أجل تهريب المعلومات العلمية من الغرب هو الإبداع الفكرى والعلمى المطلوب ؟! أليس الاستيراد القانونى أشرف من الاستيراد غير القانونى ؟ رغم اعتراضنا على فكرة الاستيراد أصلاً . خاصة فى مجال الإبداع الفكرى .

إن القدرة على الإبداع الفكرى لابد أن تنبع من المجتمع ذاته . هذه القدرة لا تستورد ولا يمكن تهريبها من الغرب أو الشرق . إنها تتطلب أساسًا الحرية السياسية والاجتماعية الواسعة ، أو ما يسمى الديمقراطية الحقيقية داخل البيوت والمدارس وجميع المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية ، إلا أن صاحب المقال يرى أن حل المشكلة يعتمد على صدور « قرار سياسى سيادى ما أن يصدر حتى يحرك مختلف الدوائر ويحفز الهمم » فهل صدور قرار من رئيس الدولة يحل مشكلة التخلف العلمى والفكرى فى بلادنا ؟! هل يعتمد كل شىء فى بلادنا على قرار من رئيس الدولة ؟! الا نعيب على هؤلاء الوزراء لا يبادرون بالأفكار الجديدة دون انتظار توجيهات السيد الرئيس ؟ فما بال العلماء ، المفروض أنهم ذوو عقول مفكرة وليسوا مجرد موظفين مطيعين فى الدولة .

ألا تكون المشكلة إذن فى العلماء أنفسهم ، أو فى المفكرين أو ما يطلق عليهم المفكرون ؟! لقد حضرت اجتماعًا واحدًا (فى يناير ١٩٩٧) مع هؤلاء المفكرين فى « الحوار الفكرى » مع رئيس الدولة ، ودهشت لأن الاجتماع بدأ وانتهى دون مناقشة مشكلات الفكر أو الإبداع الفكرى فى بلادنا . لقد مرَّ علينا أحد الموظفين وطلب منا أن نكتب ما نريد من أسئلة على ورقة . وكتبت سؤالاً كالآتى : لماذا تعجز مؤسسات التعليم والإعلام والتربية فى بلادنا عن تكوين العقل المبدع الخلاق ؟ ولا أعرف ماذا كان مصير هذا السؤال ، هل ضاع فى الطريق إلى المنصة ولم يصل إلى رئيس الدولة ، أم أنه وصل إليه ورأى أنه لا يستحق المناقشة ؟ وكتبت مقالاً فى حينه حول هذا الموضوع . رفضت الصحف نشره . ثم نشر فى جريدة حزبية معارضة بعد حذف بعض أجزائه ، طالبت فيه بإجراء حوار فى الصحف حول مشكلة التخلف الفكرى فى بلانا ، ولماذا يعجز العقل المصرى عن الاختراع ؟

• • •

العدل مطلوب فى جميع القوانين الخاصة والعامة(*)

فى مقالة بالأهرام (١٨ نوفمبر ١٩٩٧) يقسم فهمى هويدى البشر إلى قسمين : العلمانيون الذى لا يؤمنون بالمطلق الثابت وكل شىء عندهم نسبى ، ولذلك تتغير قيمهم الأخلاقية بلا روابط ولا ضابط مثل كائنات الغابة. ٢ - المتدينون الذين يؤمنو بالمطلق الثابت ولذلك فإن أخلاقهم رفيعة لأنها تعود إلى مرجعية ثابتة .

وهذا فى رأيى تقسيم تعسفى وخطير للمجتمع والناس ، وقد ينطوى بوضوح أو بغير وضوح على دعوة للصراع على أساس الدين أو التدين ، هذا الصراع الذى يفرخ الحروب الأهلية فى كثير من الأحيان ، ويمكن أن يغذى الفكر الإرهابى ، أو قتل الأبرياء لأسباب دينية ، فالذين قتلوا من السياح الأجانب فى الأقصر يمكن أن يندرجوا (فى هذا الفكر) إلى العلمانيين ، بل إن الذين يختلفون معه فى الرأى من المسلمين يمكن أن يندرجوا أيضًا تحت قسم العلمانيين ، هكذا يتم الحكم على الناس بالفكر أو الفساد الأخلاقى لمجرد الاختلاف فى الرأى حول مفاهيم كلمات صعبة مجردة مثل المطلق الثابت عند فهمى هويدى . ويتلقى الإنسان رصاصة فى صدره بسبب هذا الاختلاف النظرى حول المطلقات دون أن يفهم شيئًا منها .

وفى مقاله يقول فهمى هويدى إن النبى محمدًا ﷺ قد رفض أن يتزوج على بن ابى طالب على ابنته فاطمة ، واشترط عليه أن يطلقها إذا تزوج امرأة أخرى . فلماذا إذن لا يكون سلوك النبى هو القاعدة القانونية وليس الاستثناء ؟ وإذا كان الرجال لا يمارسون تعدد الزوجات إلا فى ٢٪ من الحالات (كما يؤكد فهمى هويدى نفسه) فلماذا يبيح القانون التعدد ؟! لقد ثرنا أيام الملك فاروق حين رأينا أن القوانين فى بلادنا تخدم ٢٪ من المجتمع المصرى فقط ، فكيف نسكت على قانون يمس صميم الحياة الشخصية للرجال والنساء والأطفال ويخدم فقط ٢٪ من الرجال ، بالإضافة

(*) نشر فى جريدة الأهرام ٨ ديسمبر ١٩٩٧ ص ١٠ .

إلى أن هذا القانون يقنن الظلم أو الازدواجية أو الكيل بمكيالين ، لأن الطلاق أو التعدد يعطى كحق مطلق ثابت لطرف دون الطرف الآخر .

إن فكرة الطلاق أو التعدد (على حد قول فهمى هويدى نفسه) قد قامت أصلاً لمجرد حل بعض المشكلات التى قد تعترض الحياة الزوجية ، لكن هل الحياة الزوجية تتكون من طرف واحد هو الرجل ؟ ولماذا تحل هذه المشاكل على حساب طرف واحد ؟ ولماذا يصبح الزوج هو الحكم أو صاحب الحل والربط مع أنه أحد أطراف النزاع؟! لقد استطاعت السيدة فاطمة أن تحمى نفسها وأسرتها ضد الطلاق وتعدد الزوجات بسبب وجود أبيها النبى محمد ﷺ وقدرته على فرض الشروط على زوجها عند توقيع العقد . وهل يمكن لأى أب أن يكون فى قوة النبى ﷺ وقدرته على حماية ابنته ، ومن يحمى النساء الضعيفات والبنات الصغيرات ، ومعظمهن يتزوجن فى أوضاع اجتماعية لا تؤهل لهن فهم بنود القانون فما بال أن تفرض الشروط فى العقد ؟

والسؤال هو : لماذا لا ينص القانون بوضوح على زوجة واحدة لكل رجل ، فيصبح التعدد هو الاستثناء ، ويمكن لمن شاء من الـ ٢٪ من الرجال أن يشترط التعدد عند توقيع العقد ، وهذا أسهل وأعدل ، لأن الرجال أكثر قوة من النساء ويمكن لهم أن يفرضوا شرطهم هذا فى العقد ، كما أنهم أقلية نادرة (٢٪ فقط) .

إن إباحة الطلاق والتعدد قانونًا لجميع الرجال يجعل جميع النساء مهددات ، وجميع الأسر مهددة بالتفكك ، والمشكلة ليست مقصورة فقط على الـ ٢٪ أو ٣٪ ، ولكنها تشمل الجميع ، لأن التهديد فى حد ذاته دون وقوع الطلاق أو التعدد يؤدى إلى كثير من المشكلات النفسية للنساء والأطفال، وهناك مثل شائع يقول: «وقوع البلاء ولا انتظاره» .

إن إعطاء الرجل وحده الحق المطلق فى الطلاق أو التعدد أو النسب قد يشجع ضعاف النفوس من الرجال على سوء استخدام هذا الحق. واقرءوا معى ما نشر بجريدة الأهرام ١٥ نوفمبر الماضى صفحة ١٨ و ١١ ، هذا الولد ليس ابنى وأرفض نسبه إلى.. عبارة أصبحت تتردد كثيرًا داخل محاكم الأحوال الشخصية أطلقها الرجال وتستروا وراءها ، استخدموا سلاح مدمرًا لتصفية الحسابات مع شريكة العمر ورفيقة الحياة

لتخرج من حياته دون أن تحصل على مليم واحد من حقوقها الشرعية وهى تجر خلف أذيالها أطفالاً بلا أب أو هوية أو نسب ، ويكون هؤلاء الأبرياء هم الضحايا . وتسوق الجريدة أمثلة لزوجات منهن الطبيبة والمهندسة التى عاشت مع زوجها ٦ سنوات كاملة فإذا به يعاقبها لأنها رفضت التنازل له عن ميراثها من أبيها لكى يشترى لنفسه سيارة ، والعقاب هو إنكار نسب أطفاله منها ، ودفعها إلى المحاكم لتثبت هذا النسب ، وكأنها هى تدخل عش الدبابير ، وعليها أن تدوخ السبع دوخات داخل سراديب القانون مع المطلقات والثكالى واليتامى ، وقد تحصل على حقها بعد سنين طويلة أو لا تحصل عليه ، فالرجال أكثر من النساء فهمًا للقانون وقدرة على التلاعب به .

لا شك أن العدل مطلوب فى جميع القوانين الخاصة والعامة المحلية والدولية ، لأن الله هو العدل « عرفوه بالعقل » ، كما يقول المثل الشائع ، فالعدل إذن هو المطلق الثابت المقدس فى جميع الأديان والمواثيق الدولية والدساتير المحلية . إلا أن هذا العدل ينتهك أمامنا كل يوم فى حياة الأفراد والشعوب والدول . ويكيل القانون الدولى بمكيالين ولا يختلف فى إزدواجيته عن قانون الأحوال الشخصية ، مثلاً تضرب العراق حتى الموت لأنها خالفت قرارات الأمم المتحدة ، ويموت يوميًا خمسمائة طفل عراقى بسبب الحصار الاقتصادى المفروض بقرار دولى ، أما دولة إسرائيل فهى تخالف قرارات الأمم المتحدة كل يوم ، وتقتل الأطفال والشباب الفلسطينيين ، وتهدم البيوت وتبنى المستوطنات ومع ذلك لا يعاقبها أحد بل تكافأ بالأموال والمعونات والمعدات العسكرية النووية .

هكذا لا يختلف العالم الذى نعيش فيه عن الغابة ، لأن القوة هى التى تسود وليس الحق ، ولأن الكيل بمكيالين أو الازدواجية هى منطق القوة ، هى المطلق الثابت المقدس لهذه القوة ، تفرضه على الضعفاء تحت شعارات دينية أحيانًا ، أو تحت شعارات علمانية ، حسب مصلحة الأقوى ، مما يؤكد عدم صحة هذه التقسيمة التى يتبناها فهمى هويدى وهى معروفة فى التاريخ ، وكم أدت إلى مذابح دينية فى الغرب والشرق .

• • •

أنا لا أفكر إذن أنا موجود ! (*)

١ - عن الإرهاب الفكرى :

من أجل الوجود فى عصرنا الحديث (أو ما بعد الحديث) أسبغ الله علىَّ نعمة عدم الانتماء إلى هذه الفئة الرفيعة القدر ، والتى يطلق عليها لقب « المفكرون » وقد أصبح « التفكير » مهنة خطرة مثل التعامل مع المتفجرات أو اقتلاع الألغام من الأرض بعد انتهاء الحرب . وقد تعرضت مثل الكثيرين غيرى من النساء والرجال من عامة الشعب إلى الوقوع تحت طائلة التفكير أو ما يسميه أهل قريتى « الفكر » يقولون فلان عنده فكر أو فلانه عندها فكر . بمعنى غياب العقل .

لاشك أن الإرهاب الفكرى فى عصرنا هذا لم يكن كله منتميًا إلى التيارات السياسية الدينية المسماة بالأصولية النصوصية ، المشتقة من كلمة « النص » وقد أصبح فى عصرنا أصوليات نصوصية متعددة تقلب المنطق والأوضاع الطبيعية ، بحيث تكون المعرفة الإنسانية نابعة من حروف المطبعة وليس من الحواس الستة للإنسان ومنها السمع والبصر والبصيرة والفؤاد يعنى القلب . أليس لهم أفئدة يفقهون بها ؟ وهذا يعنى إلغاء حواسنا وتجاربنا الذاتية فى الواقع الذى نعيشه لنكتسب المعرفة من الكتب أو كتابات الآخرين .

كثيرون تناولوا ما عرف باسم « التكفير الدينى » لبعض المفكرين من النساء والرجال فى بلادنا . قليلون الذين تناولوا ما يمكن أن يسمى « التكفير العقلانى » ، فالعقل المفصول عن الحواس والجسد والقلب والفؤاد قد يتحول إلى سيف أشد قسوة من السيوف المادية الحقيقية التى تقطع رأس من يفكر فى المقدسات العليا فى السماء أو فوق الأرض .

فى ربيع عام ١٩٩٤ فى جامعة ديوك الأمريكية بولاية نورث كارولينا جاءنا المفكر الفرنسى المشهور فى العالم « چاك ديريدا » ليلقى علينا محاضرة عن صراع الثقافات

(*) نشر فى جريدة الأهرام - القاهرة ٦ فبراير ١٩٩٧ ص ١٠ .

فى عصر ما بعد الحداثة، يمكن القول دون مبالغة أن لغة المحاضرة كانت معقدة شديدة التعقيد غامضة شديدة الغموض فلم يفهمها أحد من الأستاذة الكبار أو الصغار أو طلبة الجامعة وطالباتها . أحد زملائنا الأساتذة كان معارًا من الأرجنتين أصابه إحباط أو الشعور بالنقص أو الغباء فلم يملك الشجاعة ليسأل سؤالاً واحدًا أثناء المحاضرة . لكن بعض الأسئلة طرحت ولم تفعل إجابات چاك ديريدا شيئًا سوى زيادة التعقيد والغموض . تلك الليلة رأى زميلنا الأرچنتينى وهو نائم كابوسًا له أصابع چاك ديريدا تحوط عنقه وتخنقه . هب من النوم مفزوعًا وهو يصيح : هذا إرهاب فكرى !

سمعت العبارة ذاتها فى مصر منذ أيام قليلة ، فى إحدى الندوات الفكرية عن الكونية ، كان المحاضر من كبار المفكرين المصريين ، لم يقدم لنا فكرة واحدة نابعة من عقله أو من تجاربه المعاشة فى الواقع المصرى ، لكنه راح يردد علينا أقوال المفكرين فى أمريكا وأوروبا ابتداءً من أرسطو إلى كارل ماركس إلى فرانسيس فوكوياما وروبرت كابلان وبرنارد لويس وصامويل هانتنجتون بالطبع ، هذه الأسماء مع چاك ديريدا وميشيل فوكو وفردريك چيمسون وغيرهم ، أعطوا أنفسهم لقب « فلاسفة الكون » اعتبروا أنفسهم رأس العالم المفكر وبقية البشر لا يفكرون ، مجرد جسد بلا رأس ، تمامًا كما حدث للعبيد والنساء فى العصور القديمة ، إذ اعتبرهم فلاسفة العبودية (ومنهم أرسطو) الجسد بغير رأس .

وفى خريف ١٩٩٤ فى جامعة ديوك أيضًا شاركت فى مؤتمر دولى عن الكونية والثقافة ، شارك فيه فردريك جيمسون وعدد آخر من المفكرين المعروفين فى جامعات هارفارد وييل وستانفورد واكسفورد وكيمبردج والسوربون وغيرها . جلسوا بكبرياء شديد فوق المنصة العالية تفوح منهم رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة الحديثة ، يتحدثون عن عصر ما بعد الحداثة أو ما بعد الاستعمار ، كأنما الاستعمار انتهى من العالم ، وخلعوا على الشعوب فيما سموه العالم الثالث لقبًا جديدًا Subaltern وتعنى « الناس اللى تحت » . أصبحنا نحن سكان أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية فى نظرهم الغلابة الفقراء ماديًا وفكريًا ، وأنهم يقدمون المعونات لنا ، وينوبون عنا فى التفكير لنا، يضعون لنا الأسئلة والأجوبة لمشاكلنا المادية والفكرية، السياسية والاقتصادية والثقافية، ذلك لأنهم يملكون العقل المفكر ، أما نحن فلا نملك إلا الجسد الذى يشغل الكرسى فى صمت واستماع جيد ، أو الذى ينهض فى المهرجانات الثقافية يقدم

الرقصات الإفريقية على دقات الطبول ، ويرتدى الجلاليب أو الشخاليل أو الأحجبة المؤكدة للهوية الأصلية أو التى ترمز إلى الخصوصية الثقافية أو الدينية أو العرقية أو غيرها .

لاشك أن موضوعهم الأثيرى الحديث أو بعد الحديث هو « علاقة الذات بالآخر »، وهى علاقة بسيطة مفهومة بمنطق العدل « أخذًا وعطاء » فى العلاقات المادية والفكرية بين الدول أو الجماعات أو الأفراد نساءً ورجالاً ، بحيث لا تكون هناك يد عليا تعطى ويد سفلى تأخذ ، تعتمد كل « ذات » على نفسها لإعالة نفسها وللتفكير فى أمورها ومصالحها بالشكل الذى يحقق لها الكرامة والحرية والاستقلال المادى والفكرى عن « الآخر » .

٢ - مشكلة الفكر والمفكرون :

تكمن المشكلة فى رأيى فى سيادة النقل عن الكتب والنصوص أكثر من سيادة التجارب الذاتية فى الواقع المعاش ، لهذا السبب تغيب البديهيات أو الأسئلة الطفولية الذكية قبل الضرب بالعصا فى المدارس والبيوت ، أو العبارات الشعبية البسيطة التى سمعتها من جدتى الفلاحة مثل « ربنا هو العدل عرفوه بالعقل » إننا نفقد هذا الذكاء الفطرى من المهد إلى اللحد بسبب طغيان القيم الطبقية الأبوية على القيم الإنسانية العادلة فى حياتنا العامة والخاصة .

إن هذه القضايا التى تشغل المساحات فى الصحف والكتب من نوع الكونية والصراع بين الحضارات أو الثقافات أو الدفاع عن الهوية الأصلية أو التراث أو الثقافة القومية أو الوطنية هذه كلها قضايا فكرية مفروضة علينا من « الآخر » ، لا ينشغل بها الملايين من النساء والرجال العاملين والعاملات فى البيوت والحقول والمصانع والمتاجر والمستشفيات والطرق والمرافق الحيوية والإنتاجية .

ألهذا السبب يدور الحوار الفكرى دائمًا فى القاعات المغلقة على القلة القليلة ممن يطلق عليهم « المفكرون » ؟ أو الذين ينتمون إلى مهنة « التفكير » ؟

هل أصبح الفكر مهنة القلة أو سلعة للاستهلاك مثل السلع الكمالية الأجنبية التى تغرق أسواقنا ؟!

هل يؤكد هذا الفكر الانفصال بين الإنتاج والاستهلاك ويقسم البشر إلى قسمين :

(أ) أسياد يفكرون وينتجون الفكر .

(ب) تابعون لا يفكرون ويستهلكون فكر الآخرين .

تحدث هذه التقسيمة على المستوى الدولى الكونى بمثل ما تحدث على المستوى المحلى ، وبمثل ما تحدث أيضًا على مستوى العائلة .

وتذكرنا هذه القسمة بأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الذى قسم الموجودات فى المجتمع اليونانى القديم إلى قسمين :

(أ) الأشخاص . وهم الأسياد الذين يملكون الأرض والعقل والسلطة .

(ب) الأشياء . وهم العبيد العاملون فى الأرض والنساء والحيوانات .

ويعتبر أرسطو النموذج العقلانى لكثير من المفكرين حتى اليوم رغم أنه قال إن العبوية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة ، هكذا تم إحلال الطبيعى أو البيولوجى محل الاجتماعى والسياسى لتكريس الظلم والتفرقة على أساس الطبقة والجنس ، وأصبح الثائرون والثائرات ضد الظلم كأنما هم ثائرون أو ثائرات ضد الطبيعة أو القانون الإلهى .

ومن أجل التمويه وسيادة اللفظ على المعنى أو اللغة على الاقتصاد أو الثقافة على ضرورات الحياة المادية تحولت الفلسفة أو الفكر منذ نشوء الرق والعبودية إلى رياضة كلامية لغوية ذهنية منعزلة عن حياة الملايين من النساء والرجال المظلومين . وقد لجأ أحد هؤلاء المظلومين إلى أرسطو بعد أن استولى أحد السادة الكبار على قطعة أرضه الصغيرة ، لكن أرسطو لم يعبأ بهذا الظلم أو هذه القطعة الصغيرة من الأرض لأنه كان يفكر فى الكرة الأرضية كلها . وهكذا استمر الظلم فى العالم حتى يومنا هذا واستمر معه هذا التمويه الفكرى من أجل تزييف الوعى لدى الملايين من الناس وإقناعهم أن اللغة أو الحروف أو النصوص أهم فى حياتهم من لقمة العيش أو قطعة الأرض .

وفى مصر وبلادنا العربية تيارات فكرية متعددة كان يمكن أن تلعب دورها فى تطوير الفكر وتشجيع الإبداع والخيال المادى والفكرى إلا أن أغلبها أعتنق النصوص وتجمد عندها سواء كانت نصوصًا عقلانية ديكارتية ، أو ماركسية أو إسلامية أو قومية عربية اشتراكية أو رأسمالية حتى نصوص هانتنجتون أصبحت هى الدين الجديد لعدد غير قليل من المفكرين فى بلادنا ، ولهذا حديث آخر .

• • •

عن انتحار الكتاب والكاتبات(*)

انتحار كاتب واحد أو كاتبة واحدة فى أى بلد من العالم يصبح حدثًا كبيرًا يهز المجتمع والدولة والتاريخ . إنه حديث يرج ضمير الكتاب والنقاد وكبار رجال الحكم ، فهو إشارة ولمبة حمراء تشتعل وتنذر بالخطر ، تسطر بلغة الموت رسالة أخيرة بليغة هى : اكتبوا الحقيقة أو موتوا !

وقد قرأت عن انتحار الكاتبة الشابة « أروى صالح » ثم قرأت عن محاولة انتحار الكاتب « علاء حامد » (التى لم تنجح) وسوف نقرأ عن المزيد من هذه الانتحارات أو محاولات الانتحار التى لا تصل إلى ذوى النفوذ فى الأجهزة الحكومية أو غير الحكومية ، فقد أصبح الأدباء والأديبات مثل الأطباء والطبيبات مثل المدرسين والمدرسات وغيرهم من الكادحين والكادحات بعقولهم وليس بأموالهم ، أصبح هؤلاء أشبه ما يكون بقاع المجتمع ، بعد أن ارتفع إلى السطح التجار رجال الأموال . رجال الأعمال « البزنيس » الذين يكسبون فى الدقية الواحدة وبالتليفون فقط ما يكسبه الأديب أو الأديبة فى ستين عامًا ، وأنا أرى أمامى اليوم أدباء وأديبات بلا مورد رزق على الإطلاق ، بلا احترام من أحد فى الدولة ، وبلا أمان أيضًا ، لأنهم كتبوا فى يوم من الأيام كلمة صدق ، كلمة من القلب اخترقت حواجز النفاق ، والرياء السياسى الدينى الثقافى ، الذى أصبح كالجدار العالى من الأسمنت ، لا يمكن اختراقه إلا بالقفز من فوقه والانتحار .

قولوا ما تشاءون عن « أروى صالح » لكنها كاتبة امتلكت شجاعة الاحتجاج ودفعت حياتها كلها ثمنًا لهذه الكلمة الصادقة ، قولوا ما تشاءون عن « علاء حامد » لكنه كاتب

(*) أخبار الأدب ١٧ أغسطس ١٩٩٧ .

شجاع تعرض للسجن والمحاكمة السنة وراء السنة دون أن يسانده أحد بل تسابق الكثيرون لقذفه بالحجارة إرضاء لتيارات دينية وسياسية معينة .

أنا ضد الانتحار فهو قمة اليأس ، لكنى أيضًا ضد النفاق الدينى والرياء السياسى الذى يدفع الكتاب والكاتبات إلى الانتحار دون أن يهتز المجتمع ، دون أن ينشر الخبر فى الصفحات الأولى من الجرائد الكبرى والمجلات بدلاً من تلك الأخبار عن أحوال البورصة وسفر رجال الأعمال إلى مارينا لقضاء عطلة الصيف !

• • •

نقد موجه لجريدة الدستور(*)

ليلة ١٠ أكتوبر ١٩٩٧ على مسرح محكى القلعة شهدتُ بعينى رأسى عملية وأد « إيزيس » ودفنها بالحياة فى مقبرة قلعة صلاح الدين . هذه المرأة المصرية القديمة كانت إلهة المعرفة والفلسفة والحكمة والتسامح والرحمة ، إلا أن التاريخ الطبقى الأبوى أهملها عبر قرون الماضى ، وجعلها مجرد زوجة إله مقتول ، أعادت إليه الحياة ، فأصبح هو صاحب الفلسفة والحكمة والمعرفة ، وهى ليست إلا تابعًا له .

انتزعتُ من بين أنياب التاريخ بعض أجزاء من شخصية إيزيس ، وحاولت تجسيدها على المسرح ، إلا أن القوة المعادية لعقل المرأة وإنتاجها الفكرى وقفت ضد إيزيس ، وبقيت إيزيس راقدة فى الظلام ، ممنوعة من الظهور على مسارح الدولة ، أكثر من خمسة عشر عامًا ، ظلت مجرد حروف مطبوعة داخل النص المسرحى الذى كتبته ، والذى قرأه توفيق الحكيم فغضب ، كيف يمكن لكاتبة امرأة أن تنقد توفيق الحكيم ؟ إنه يحمل لقب كاتب كبير وتظهر صورته ومقالاته فى أكبر الصحف الحكومية اليومية والأسبوعية ، وهو على صلة طيبة برأس الحكم فى مصر ، وبالمسئولين فى الدولة عن المسرح والأدب والثقافة .

هكذا ظهرت « إيزيس » كما تصورها توفيق الحكيم على مسارح الدولة ، واحتجبت « إيزيس » كما تصورها الآخرون ، وأذكر حوارًا دار بينى وبين كرم مطاوع بعد أن قرأ مسرحيتى :

- مسرحية حلوة أوى يا دكتورة لكن ...
- لكن إيه يا أستاذ كرم ؟
- فيه رقابة على المسرح يا دكتورة !
- هو إنت عرضتها على الرقابة يا أستاذ ؟

(*) تفاصيل عرض مسرحية إيزيس وكواليس ما حدث لها .

- لا !

- طيب إعرضها وإذا الرقابة رفضت خلاص ...

إلا أن كبار رجال المسرح فى بلادنا لا يجازفون بعرض شىء يمكن أن يُرفض من المسئولين فى الدولة . ربما لهذا السبب فقدت الأمل فى الكبار ، واتجهت إلى الشباب الناشىء . وتحمستْ لمسرحيتى « إيزيس » إحدى فرق الهواة من الشباب ، وقالوا : هناك صندوق فى وزارة الثقافة اسمه صندوق التمنية الثقافية يشجع فرق الهواة والشباب ، فذهبت معهم إلى مسئول الصندوق ، « سمير غريب » ، ودهشت حين رحَّب بى وبالشباب ، وتفاءلت خيرًا ، وفعلاً حصلت فرقة الهواة على وعد يؤكد تدعيم الصندوق لإنتاج مسرحية « إيزيس » ، إلا أنها لم تحصل على المبلغ ذاته إلا على شكل أقساط ، وبعد إنتهاء البروفات ، وانتهاء الثلاثة ليالٍ التى عُرضت فيها المسرحية على مسرح محكى القلعة ، ولا أعرف حتى اليوم إن كانت فرقة الهواة قد حصلت على المبلغ كله ؟ وهل سددت كل ديونها التى دفعتها لتحقيق المسرحية : ولمدة ثلاثة عروض فقط، إذ لم تحصل الفرقة على تصريح باستخدام محكى القلعة إلا لمدة ثلاث ليالى فقط هى ٨ ، ٩ ، ١٠ أكتوبر ١٩٩٧ ، ورفض المسئولون عن المسارح التصريح باستخدام مسرح آخر . (أنا نفسى اتصلت بسامى خشبة فقال لى أن جميع المسارح مشغولة ، وسررت كثيرًا لهذا الخبر مما يدل على وجود نهضة مسرحية عظيمة فى بلادنا) .

وشهدت بعينى رأسى كيف تُهدر كرامة الشباب المبدع على أبواب المسئولين فى الدولة عن المسرح والأدب والثقافة . كيف يدوخون بحثًا عن مكان يعرضون فيه أعمالهم . كيف يدفعون من جيوبهم لبدء البروفات . كيف يجوعون من أجل تسديد ثمن قطعة ديكور يرونها ضرورية للمسرح . إحدى الممثلات فى فرقة الهواة (التى عرضت مسرحية إيزيس) كانت تقتطع من طعامها لتدفع ثمن الملابس الفرعونية التى سترتديها أثناء العرض . هذه المرأة الفنانة الشابة كانت تعمل بلا أجر على الإطلاق ، لأنها تحب الفن والمسرح ، وكانت تواظب على مواعيد البروفات بدقة شديدة وإحساس بالمسئولية يفتقدها كثير من كبار الممثلين والممثلات مما يطلق عليهم « النجوم » .

وكم أشفقت على هذه الفرقة من الشباب الفدائى المستعد للموت فى سبيل الفن، والذى لا يهتم به أحد ممن يملكون السلطة أو الأموال أو الإعلام أو الصحافة ، رغم الأحاديث الطويلة المنمقة عن الشباب رجال المستقبل .

يوم ٨ أكتوبر ١٩٩٧ كان هو يوم افتتاح مسرحية « إيزيس » التى عشت السنة وراء السنة أحلم برؤيتها تتحرك فوق المسرح . خمسة عشر عامًا يعيش الحلم فى أعماقى ، حتى ذلك اليوم الحزين التعس ٨ أكتوبر ، وأنا جالسة فى مقعدى ضمن المتفرجين الفدائيين الذين استطاعوا الحضور إلى محكى القلعة فى سياراتهم أو على أقدامهم ، وتاهوا [illegible] سراديب القلعة ، وبعضهم عاد أدراجه دون أن يرى المسرحية ، ولعل هؤلاء أسعد حظًا من الدين وصلوا إلى المسرح ، وشهدوا معى عملية الوأد والدفن بالحياة لهذه الإيزيس المحكوم عليها بعدم الظهور أبدًا .

كنت أنتفض فى مقعدى من شدة البرد رغم أننى ارتديت ملابس شتوية ، فالمسرح واسع ضخم فوق هضبة القلعة ، مفتوح على السماء ، والجو بارد فى نهاية الخريف ، والسماء غضبت على الإلهة إيزيس ، لأن الألوهية والأنوثة يجب ألا يجتمعا فى كيان واحد ، وإلا فلماذا هبَّت تلك العاصفة الهوائية الصاقعة فأسقطت الديكور فوق رؤوس الممثلين والممثلات ؟! صحيح أن الديكور فقير دفع الشباب ثمنه من جيوبهم وهو مجرد قماش رخيص ملزوق على الجدران الضخمة العالية لقلعة صلاح الدين ، أو مثبت بدبابيس من الصفيح فى الأعمدة الإسلامية القوية من الخرسانة والأسمنت المسلح . شهدت بعينى رأسى كيف تغضب الأعمدة أو الحيطان العالية أو المنارات الناطحة للسحب ، على هذه الإلهة الأنثى ، التى تتحرك وتنطق ، تحت قبة هذه السماء الإسلامية وقلعتها العتيدة ؟!

لم نسمع نحن الجمهور الفدائى الصامد فى المقاعد إلا قعقعة الريح تخبط جدران القلعة ، وضاع صوت الممثلين والممثلات فى الفضاء الجوى المحيط بالكرة الأرضية . إلى جوارى كانت تجلس ناقدة مسرحية شابة ، ناضلت ثلاث ساعات فى الطريق حتى وصلت إلى محكى القلعة ، كانت تحوط جسمها الصغير بشال خفيف وتنتفض من البرد ، ثم انصرفت بعد الفصل الثانى وهى تقول : ده حرام يا دكتورة ! خسارة النص المسرحى ده يضيع بالشكل ده ! دى عملية قتل !

وكانت مقاعد المتفرجين قد بدأت تخلو ، وهى مقاعد من القش ، أصبحت فى مهب الهواء ، تذروها الريح كالهشيم ، ولأننى أنا المؤلفة فقد حاولت الصمود فى وجه القدر ، إلا أننى لست شابة مثل الممثلين والممثلات فى فرقة الهواه ولست أيضًا

فدائية فيما يخص المسرح ، ولأننى كدت أموت من البرد والحزن أيضًا على عملية وأد إيزيس ، لهذا خرجت من محكى القلعة قبل نهاية الفصل الأخير ، ولم أعرف كيف صمد المتفرجون الآخرون حتى النهاية .

وكنت أتوقع أن تكتب الصحف (غير المدعمة من الحكومة أو الدولة) شيئًا عن هذه المسرحية يُلقى الضوء عما يعانيه شباب الفنانين فى فرقة الهواة . إلا أننى لم أقرأ شيئًا . لا فى الصحف الحكومية أو غير الحكومية ، بل العكس هو الصحيح ، قرأت ما يشبه اللوم لسمير غريب لأنه يدعم مسرحيات مثل إيزيس تعرضها فرق هواة لا جمهور لهم ، وفى جريدة الدستور الصادرة ١٢ نوفمبر ١٩٩٧ ، يرد سمير غريب مدافعًا عن نفسه ، ويقول بالحرف الواحد :

أنا يهمنى دعم الهواة بالأساس .. للأسف النقاد لا يحضرون عروض الهواة .. وأنا أناشد نقاد المسرح بأن يروا هذه العروض .. يا كبار تواضعوا قليلاً واخرجوا لفرق الهواة .. أجور الممثلين اليومية لاتزيد عن ٥ جنيهات .. مسرحية إيزيس تم دعمها بـ ٢٠ ألف جنيه .. العرض أقيم فى محكى القلعة ، وهو غير مناسب لأن جوه إسلامى والمسرحية جوها فرعونى .. لابد من إشراك آخرين فى الدعم لفرق الهواة .. لابد أن يقف معهم الصحفيون والنقاد وغيرهم .. فكرة تدعيم الهواة لا تعنى بعزقة الفلوس ... الإعلان الواحد لا يقل عن ٥ آلاف جنية ! إزاى أعمل إعلانات بـ ٦٠ الف جنيه ؟ بدل ما أقدم عرض يتكلف ١٠٠ ألف جنيه . أعمل ٥ أو ٦ عروض .. وقبل ما تهاجمونى يجب أن تفكروا قليلاً ..

هذا هو كلام سمير غريب فى جريدة الدستور ، وهى جريدة معظمها شباب ، وهى تنقد أحيانًا « الكبار » فى عالم السياسة أو الصحافة أو الفن أو الدين ، لكن هذا النقد لا يكفى ، ولابد أن يصاحبه عرض لأعمال الشباب ومشاكلهم ومعاناتهم ! لماذا لم تبحث جريدة الدستور عن هذه الفرقة من الشباب التى عرضت مسرحية إيزيس ؟ ولماذا لم تسألها رأيها كما سألت مسئول صندوق التنمية الثقافية ؟! وإذا لم تهتم الصحافة الشابة بالشباب ؟ فمن يهتم بهم ؟!

● ● ●

التخويف والترغيب والجوائز(*)

كم نستمتع حين نشهد عملاً بارعًا من إبداع الجسم الممشوق أو العقل الرشيق ، لا يقل استمتاعنا بقراءة رواية جميلة عن مشاهدتنا لإحدى الألعاب الرياضية يتبدى فيها إبداع الجسم الإنسانى .

لكن كيف ينقلب الجمال إلى قبح حين تتحول هذه الإبداعات الإنسانية إلى ساحات للمنافسة مثل القتال فى الحرب ، وينشغل الناس بالجوائز والميداليات عن الإبداع ذاته .

كنت أسمع أبى منذ طفولتى يقول : الجائزة كالهدية نوع مستتر من الرشوة . ألهذا لم يحمل فى حياته هدية ولم يهنىء أحدًا بجائزة ؟!

هذه الفكرة تراودنى دائمًا حين أشهد مواكب المهنئين بالجوائز أو حاملى الهدايا ، وحين أشهد مباريات كرة القدم وأتابع أخبار الفائزين أو الخاسرين فى الدورات الأوليمبية أو مهرجانات السينما أو المسرح أو القصة أو الأدب وجوائز الدولة وغيرها .

يدهشنى دائمًا هذا الاهتمام المبالغ فيه بمثل هذا التنافس إلى حد نشوب معارك لفظية أو عضلية بين الفرق المتصارعة فى الساحة الرياضية أو الثقافية . أهى محاولة لتحويل طاقات البشر عن الصراع الحقيقى فى حياتهم الواقعية ؟! أم أن الإنسان لا يبدع جسمًا وعقلاً دون ترغيب فى مكافأة أو ترهيب بالعقاب .

كان أبى من رواد التعليم فى الأربعينيات والخمسينيات، وكنت أسمعه يقول : إن فلسفة الترغيب والترهيب لا تؤدى إلى الإبداع فى شىء . لأن العمل المبدع هو جائزة الإنسان لنفسه ، منبعه الثقة بالنفس إلى حد القدرة على الاختلاف مع الآخرين ، وبالتالى عدم الحصول على رضاهم أو جوائزهم .

زرت بعض المدارس الابتدائية الجديدة فى أوروبا وأمريكا خلال السنين الماضية هناك محاولات متعددة لإلغاء الامتحانات أو المسابقات أو السقوط أو النجاح ، بحيث يتربى الطفل أو الطفلة على إتقان العمل الإبداعى لذاته وليس طمعًا فى النجاح

(*) القاهرة - الأهرام ١٩٩٦/٨/٢٤ ص ١٠ .

أو خوفًا من الفشل . لقد اتضح أن فلسفة الترغيب والتخويف لا تنتج مبدعين حقيقيين، وإنما أصحاب مهن تجارية أو أكاديمية أو فنية ، يكسبون أو يخسرون فى ساحات المنافسة على الجوائز المادية أو الأدبية .

إن الإبداع الحقيقى مثل الإيمان الحقيقى ، يحدث للإنسان بلا طمع فى شىء أو خوف من شىء ، وأصدق من عبرت عن ذلك هى رابعة العدوية فى إبداعها الإيمانى دون طمع فى الجنة أو خوف من نار الجحيم .

إن فلسفة الترغيب أو الترهيب تؤدى فى كثير من الأحيان إلى تشويه الإنسان . وكم رأيت تلاميذ وتلميذات تشوهوا بسبب الخوف من الامتحان أو الجرى وراء الجوائز ، وفى دورة أتلانتا الأوليمبية الأخيرة رأيت شبابًا وشابات ضمرت أجسامهم وعقولهم من جراء ذلك التنافس المجنون على الجوائز . بعضهم لا يعيش الحياة الطبيعية الصحية بل انحرافًا ومبالغة فى الحرمان من الطعام أو النوم إلى حد ابتلاع الأقراص المهدئة . إحدى الفتيات الفائزات بجائزة ذهبية قالت بعد أن صفق لها الملايين : عدت إلى بيتى وحيدة أشعر بالضعف والحزن . هذه الفتاة لم تحزن لأنها لم تجد العريس كما تصور بعض الناس ، أو لأن الرياضة الجسمية أفقدتها الأنوثة أو الأمومة أو القدرة على الحمل أو سهولة الولادة أيضًا ، بل إن آلام الولادة أصبحت تتلاشى تمامًا بالرياضة الجسمية والعقلية الصحيحة . أصبح هذا معروفًا فى علم الطب الحديث .

وقد أصبح أطباء الجسم والنفس فى العالم اليوم يقاومون هذه الظاهرة التنافسية الخطيرة الكامنة فى المدارس التعليمية ، والظاهرة فى المباريات الرياضية . ونحن فى أشد الحاجة إلى إعادة النظر أو نقد هذه السياسة القديمة القائمة على التخويف والترغيب . وقد أثبتت الدراسات العلمية النفسية عن الإبداع أن التربية القائمة على الخوف لا تنتج شيئًا مفيدًا ، كذلك أيضًا التربية القائمة على الترغيب فى المكافأة . إلا أن الأمر طويل وشاق ، يحتاج إلى جهود كثيرة فى جميع المجالات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية .

كلما شهدت مباراة من مباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون أقول لنفسى : كم تتحول هذه اللعبة الجميلة إلى معركة قبيحة . إلا أن المشكلة ليست فى المباريات الرياضية فحسب ، ولكنها أيضًا فى المباريات الأخرى فى أى مجال منذ نولد حتى نموت.

• • •

حديث مع توفيق الحكيم(*)

١ - حوار فكرى أم مونولوج داخلى ؟

درج القراء فى بلادنا على الإنصات « صامتين » إلى أحاديث الكتاب الكبار فى مجالات الفكر ، وبذلك يبدو الكاتب أو المتكلم وكأنه يتحدث مع نفسه (أو مع الله) . فالفرق الوحيد بين الحديث مع النفس (أو مع الله) ، والحديث مع القراء هو أنه فى الحالة الأولى لا يكون هناك « رد » . ويظل الحديث على شكل مونولوج دائم ، أما فى الحالة الثانية فلابد أن يكون هناك « رد » ليتحول المونولوج إلى « حديث مع » أو «حوار» بالمعنى الصحيح .

لكن علاقة الكاتب بالقارىء فى بلادنا لا تزال تأخذ شكل الكلام من جانب واحد . إنها تشبه العلاقة بين الفرد والإله . أو علاقة المحكوم بالحاكم .

والمفروض على الأقل فى مجال الفكر والكتابة أن يكون « التبادل » هو أصل العلاقة ، حتى يمكن أن يتحول القارىء من آلة استقبال إلى إنسان يتفاعل ثم يفكر ، ثم يشارك فى صياغة الفكر ، وتطويره .

بغير هذا التحول ؛بغير أن يصبح « الصامت » ناطقًا لا يمكن أن يحدث حوار فكرى فى بلادنا . هذا الشعار الذى نردده طوال الوقت ، مما يؤكد غيابه طوال الوقت .

لذلك فإنى مازلت أطلب من كبار الكتاب فى بلادنا أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم للقراء ، وأن يشجعوا القراء على أن يخرجوا من مجال الصمت إلى مجال النطق .

إنهم بذلك يسهمون فى زحزحة أكبر حجر تقوم عليه أزمة الفكر فى بلادنا . وربما لو فعل ذلك كاتب كبير مثل توفيق الحكيم منذ بدأ الكتابة فى الثلاثينيات

(*) مجلة أكتوبر - ٢٤ ديسمبر ١٩٩٥ ص ٧٢ .

لما اضـطر إلـى إعـادة نشـر ما كـتب منذ أربعين عـامًا . ذلك أن فكره كان لابد أن يتغير ويتطـور من خلال التفـاعل مع آلاف العقـول الأخـرى على مدى نصـف قرن أو أقل أو أكثر.

٢ - الثقوب الواسعة فى غربال العلم :

سوف أسهم بدورى كقارئة لما نشره الحكيم ، وسأحاول الرد على بعض أفكاره :

كتب الحكيم مؤيدًا نظرية أ . م . جود عن عجز العلم للتوصل إلى فهم شخصية الإنسان ، أو الصداقة ، والحب ، ويقول فى هذا الحديث :

« فالإنسان ليس هو مجموعة الدقائق التى يتكون منها تركيبه المادى والحيوى والنفسانى . إنه أكثر من هذه المجموعة . إنه شخصية ! .. الشخصية شىء يفلت دائمًا من غربال العلم ومن وسائله .. هى شىء لا تحسه إلا إذا كنت لهذا الإنسان صديقًا . والصداقة والحب من الأشياء التى لا يمكن أن يحسها العلم » .. ويستمر الحكيم قائلاً : « ويمضى « جود » بعدئذ يحدثنا عن نتائج التحليل العلمى لنكتة فكاهية فيقول إن السير « آرثر أونجتون » حاول أن يبحث فى طبيعة « النكتة » وقد رأى أنها قابلة للتحليل شأن أى مركب كيمائى . ففك أجزاءها . وقرر ما ينبغى أن يكون التركيب والنموذج لنكتة فكاهية . وكان المنطق يقضى أن نضحك لهذه النكتة . ولكننا لم نضحك . شىء فيها تبخر عند التحليل . هذا الشىء أسميه أنا « الروح » ..

كان يمكن لمثل هذا الكلام أن ينشر خلال الثلاثينيات ، أو قبل إدراكنا لحقائق العلوم الحديثة ، وخاصة علم الاجتماع الحديث وعلم النفس . لقد أدرك العلماء الجدد ومنهم « رونالد لينج » فى إنجلترا « وتوماس زاس » فى أمريكا (وغيرهما) خطأ السير آرثر أونجتون و أ . م. جود . ذلك أن الذى تبخر فى المعمل الاختبارى لم يكن هو « روح» النكتة ، ولكن شىء آخر أطلق عليه اسم « المناخ الثقافى والاجتماعى العام » .

فقد اتضح لهم أثناء البحث أن النكتة التى ضحك عليها الإنجليز فى سنة ١٩٣٢ ليست هى النكتة التى ضحكوا عليها سنة ١٩٤٢ كما وجدوا أيضًا أن النكتة التى ضحك

عليها الإنجليز سنة ١٩٤٢ اعتبرها غيرهم نكتة غير مضحكة أو باردة تمامًا (نكت الإنجليز تبدو لنا باردة) .

وبذلك اكتشف العلماء الجدد أن الذى غاب عن « وعى » السير أرثر أونجتون ليس هو « روح » النكتة ، وإنما هو المناخ الثقافى والاجتماعى العام الذى يلعب دورًا أساسيًا فى عملية فهم النكتة وبالتالى الضحك أو عدم الضحك .

وبالمثل أيضًا اكتشف هؤلاء العلماء الجدد ومنهم « رولو ماى » (فى جامعة هارفارد) وغيره من أساتذة علم النفس الحديث ، أن « الحب » ليس أعمى كما تصور العلماء السابقون . وأنه ليس هناك ما يسمى « الوقوع فى الحب من أول نظرة » . وأن ما يبدو فى « الوعى » النظرة الأولى ، ليس فى الحقيقة إلا عددًا يحصى أو لا يحصى من الصور المتشابهة والمتراكمة فى الذاكرة أو اللاوعى منذ الطفولة ومراحل العمر المختلفة . إن الثقوب فى غربال العلم الحديث أصبحت أضيق مما كانت منذ ثلاثين عامًا ، وهى تضيق على الدوام .

٣ - المرأة المصرية العاجزة عن التفكير !

كتب توفيق الحكيم تحت عنوان « المرأة ومواهبها » يقول : « هذان النوعان بالذات « التفكير والتركيز » لم أجد للمرأة فيها أثرًا بارزًا .. كل شىء قد برزت فيه وسادت فيه الرجل ... نعم كل شىء استطاعته المرأة خلا شيئين : أن تكون « فيلسوفة » وأن تكون «مؤلفة تمثيلية» . أترى التفكير والتركيز صفتين ناقصتين عند المرأة ؟ أما « الرواية » فالمرأة توشك أن ترفع عليها علم السيادة . فالمرأة تمسك « بالقلم » لتصنع قصة روائية كما تمسك « بالإبرة » لتصنع ثوبًا من « التريكو » » .

فالقصة النسوية بما فيها من تفاصيل لشئون الحياة اليومية ومن إسهاب لتفاهات الحياة المنزلية .. « كل هذا ليس فى حقيقة الأمر سوى نوع من شغل الإبرة » .

وماذا نفهم من هذا الكلام ؟ أيقول الحكيم إن التأليف الروائى لا يحتاج إلى تفكير ؟ أم يقول إن الرجل الروائى يفكر ، أما المرأة الروائية فهى عاجزة عن التفكير ،

وإنتاجها ليس إلا نشاطًا غير فكرى أو نشاطًا آليًا مثل « التريكو » وحياكة تفاهات الحياة المنزلية ؟ ومن هى المرأة العاجزة عن التفكير ؟

هل هى المرأة المصرية أو المرأة بصفة عامة فى العالم كله ؟

وهل قرأ الحكيم إنتاج النساء فى العالم ليصدر حكمًا عامًا على المرأة ؟ وإذا كان حكمه يخص المرأة المصرية فقط ، فهل قرأ الحكيم إنتاج المرأة المصرية من الروايات خلال نصف القرن الأخير ؟

ونفهم من الجزء الأخير فى مقال الحكيم أنه يخص المرأة المصرية فحسب بتلك الصفة « العجز عن التفكير » .

٤ - تمجيد المرأة الأوروبية !

فى ختام مقالة يقول الحكيم تحت عنوان أثر المرأة فى أدبائنا : « وهناك أدباء أثرت فى تكوين ثقافتهم نساء فضليات ، أن يجرى على أقلامهم وصف لامرأة .. من بين هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومنهم أيضًا « أحمد أمين » وقصته عجيبة . فإنى أسأل نفسى : كيف استطاع هذا الباحث الجاد فى تاريخ العقلية الإسلامية أن يكون أديبًا تنم كتاباته أحيانًا عن فهم للقلب والعواطف ؟ فتحريت منه فكشف لى الأمر عن حقيقة أدهشتنى . نعم هو أيضًا قد أثرت فى حياته امرأة .. استغفر الله ! بل امرأتان هما سيدتان إنجليزيتان ، إحداهما فى ذهنه وتفكيره بثقافتها الواسعة ، والثانية أثرت فى قلبه ومشاعره بجمالها ونبلها ! وأخيرًا أقول إن المرأة التى أثرت فى عمل أدبائنا المعاصرين هى فى أغلب الأحوال امرأة أوروبية فرنسية أو إنجليزية . ولنا أن نتساءل : أين المرأة المصرية ؟ مشغولة أين ؟ وبماذا عن صنع العقول وقيادة القلوب واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير .

وماذا نفهم من هذا الكلام ؟ ها هى ذى المرأة التى سبق أن وصفها الحكيم بالعجز عن التفكير تصبح هى التى تؤثر فى تفكير الرجل وفى ذهنه بثقافتها الواسعة .

لكنها هنا هى المرأة الأوروبية ، والرجل هنا هو الرجل المصرى وليس الرجل الأوروبى .

وماذا يقصد الحكيم ؟ هل يقصد أن المرأة المصرية لا تؤثر فى عقل الرجل المصرى لأنها أقل منه ثقافة وفكرًا ، وأن المرأة الأوروبية أكثر ثقافة وفكرًا من الرجل المصرى ، وبالتالى يمكنها التأثير فى عقله وذهنه ؟

وهل تؤثر المرأة الأوروبية فى عقل الرجل الأوروبى بمثل ما فعلته بالرجل المصرى ؟

من الحقائق المعروفة اليوم أن نساء أوروبا (وأمريكا أيضًا) قد بدأن الثورة على الرجل فى منتصف هذا القرن لسبب أساسى هو : عدم الاعتراف بعقل المرأة (واعتبارها جسدًا فحسب مثل حواء) . وبقراءتى لمعظم كتابات النساء (فى أوروبا وأمريكا) خلال العشرين عامًا الماضية وجدت أن المرأة الأوروبية (والأمريكية أيضًا) تنقد كتابات الرجل الأوروبى ، الذى اتهمها بالعجز عن التفكير ونقصان العقل والتركيز ، وأنه كان يهرب منها إلى بلاد أفريقيا وآسيا ، سعيًا وراء امرأة تؤثر فى عقله وقلبه ! يا ترى ما المشكلة ؟ أهى مشكلة الرجل ؟ أم المرأة ؟ أم كليهما ؟!

٥ - المفهوم الجديد للمرأة والإبداع الفكرى !

لم تعد الفروق البيولوجية أو الجنسية بين الرجل والمرأة هى التى تحدد مفهوم الإبداع الفكرى عند كل منهما . لقد وجد أن إنتاج النساء الأدبى فى أوروبا سنة ١٩٤٢ يختلف عن إنتاج النساء فى مصر فى العام نفسه . ولا يرجع ذلك إلى اختلافات بيولوجية بين المرأة الأوروبية والمرأة المصرية ، ولكنه يرجع إلى أن الضغوط الثقافية والأخلاقية على المرأة الأوروبية كانت أقل ، وكانت المرأة الأوروبية تمارس من الحريات الاجتماعية والشخصية ما يسمح لها بمخالطة الرجال الأجانب ، مصريين وغير مصريين ، وبالتالى القدرة على التأثير فى عقولهم وقلوبهم .

أما المرأة المصرية فى سنة ١٩٤٢ فكانت حريتها أقل ، ولم يكن فى إمكانها مخالطة الرجل المصرى ، فما بال الرجل الأجنبى .

لهذا فإنى أرى أن الحكم على المرأة المصرية دون مراعاة الظروف الاجتماعية والثقافية فى البيئة التى تعيشها يصبح حكمًا غير صحيح ، أو حكمًا خطأ . وبالتالى غير مفيد بل ضار .

لأنه يشعر المرأة المصرية بالنقص ، أو العجز عن التفكير والتركيز . ويبدو النقص لها كأنه صفة طبيعية خاصة بها وحدها ، أو بسبب عيب فيها هى بالذات ، وليس لأسباب ثقافية واجتماعية هى تعانى منها أصلاً ، وتحاول التخلص منها . فهل يساعدها الرجل المصرى على هذا ؟

ويحكم توفيق الحكيم على الرجل المصرى بالنقص فى التفكير بالنسبة للمرأة الأوروبية . بمثل ما يقول إن أوروبا هى « العقل » والشرق هو « النفس » أو الروح. وكأنما الشرق ليس له عقل . وهذا الحكم أيضًا غير مفيد لأنه يشعر الرجال فى بلادنا أن عقولهم أقل من عقول النساء فى أوروبا ، وأن العقل المصرى أو العقل العربى يعانى نقصًا بالطبيعة وليس بالضغوط الاجتماعية والثقافية والسياسية .

إن التشخيص الخطأ لأسباب أى مشكلة يقود بالضرورة إلى العلاج الخطأ . ولهذا لا نزال نعانى الأزمة الفكرية بين رجالنا ونسائنا معًا .

● ● ●

الفرق بين الراقصة الشقراء والراقصة المحجبة(*)

لا يمكن أن نرى الشيء . أى شيء ، إلا من مسافة ما .

نطبق هذا القانون العلمى على كل الأشياء . حتى النفس والوطن .

إذا أردنا أن نرى أنفسنا ، فلابد من وجود مسافة تفصلنا عن أنفسنا .. « العين لا ترى نفسها » .

هذه حقيقة علمية معروفة ، ولهذا كم رأيت الوطن أكثر وضوحًا وأنا بعيدة هناك فيما وراء البحر الأبيض المتوسط .

هناك فى أوروبا ، حيث يطلقون على بلادنا اليوم اسم « جنوب المتوسط » .

كانوا يطلقون علينا اسم الشرق الأوسط ، إنهم يغيرون أسماءنا حسب مصالحهم أو موقعهم فى خريطة العالم ، وليس حسب موقعنا نحن . وكم يتغير موقعنا حسب قوتنا ، أو ضعفنا ، وفى القاموس الجديد اليوم يعتبر « الشمال » هو السيد الأعلى و « الجنوب » هو التابع الفقير المطيع .

« التبعية » و « الطاعة » صفتان متلازمتان فى حياة الدول ، وفى حياة الأفراد ، إذا تمرد التابع ولم يطع الأوامر عوقب ، وتختلف درجات العقاب ابتداءً من قطع المعونة إلى الضرب بالقوة العسكرية .

كيف حدث أن أصبح طعامنا فى يد غيرنا ؟! لماذا لا ننتج ما نأكل فى بلادنا ؟!

كيف تحول اقتصادنا من إنتاج زراعى وصناعى إلى اقتصاد تابع يعيش على المعونات والقروض ، أو على ما يدفعه السياح الأجانب ؟! سؤال يجب أن يفكر فيه كل إنسان فى بلادنا .

(*) نشر بمجلة روزاليوسف ١٩٩٣/١/٤ .

تجولت فى بلاد أوروبا خلال الأربعة الشهور الماضية (سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢) . زرت عشرة بلاد هى : (إنجلترا - فرنسا - أسبانيا - إيطاليا - ألمانيا - السويد - النمسا - هولندا - بلچيكا - سويسرا) .

فماذا رأيت فى هذه البلاد العشرة ؟! رأيت سياحًا من كل بلاد العالم يزورون الأماكن التاريخية أو الآثار القديمة . متحف « اللوفر » وحده فى باريس يزوره فى اليوم الواحد أكثر من مليون شخص ، بل إن أكثر من عشرة آلاف سائح كل يوم يركبون قوارب الفرجة على معالم مدينة امستردام فى بلد أوروبى صغير جدًا هو هولندا ، لكن هولندا تعيش على إنتاجها الزراعى والصناعة الزراعية الغذائية ، وليس على السياحة ، مع أنها أقل من بلادنا خصوبة ، وأنهارها الصغيرة أقل من أنهارنا طولاً وعرضًا .

إن وادى نهر النيل مثلاً من أخصب الوديان ، ويعتبر نهر النيل أطول أنهار العالم بعد « المسيسبى » ، فكيف لا نعتمد على الإنتاج الزراعى ، وعلى الصناعة الغذائية الزراعية ، وكيف يهاجر الفلاحون تاركين الأرض ليعملوا فى الفنادق كطباخين للسياح الأجانب ؟!

لا أظن أن أحدًا عاقلاً يمكن أن يكون ضد السياحة ، فالسياحة مشروعة ، ليس فقط من أجل الحصول على المال أو العملة الصعبة ، ولكن أساسًا لتعريف العالم بحضارتنا وتاريخنا العريق القديم .

لكنى أعتقد أن العقلاء أيضًا لا يمكن أن يكونوا سعداء بتلك الحال التى وصلنا إليها ، وأننا نمد أيدينا للأجانب كى نحصل على طعامنا .

فى صحف أوروبا وحينما سافرت إلى أى بلد كنت أقرأ عن هذه السائحة الأجنبية التى قتلت فى مصر . وفى الصحف المصرية قرأت المقالات الطويلة عن هذا الموضوع ، بل رأيت مسئولاً كبيرًا يرتدى بدلة بابا نويل ، ويستقبل السياح فى مطار القاهرة ويوزع هدايا أعياد الميلاد على أطفالهم .

وعدد من المقالات بأقلام كبار الكتاب فى مصر تستشهد بأقوال بعض السياح الأجانب أو زوجاتهم ، (كأنما هى شهادة قدسية) على سلامة الوطن وعشق السياح لمصر ، ومقالات تفتق عنها ذهن كبار الكتاب عن كيفية جذب السياح إلى مصر ، ومنها أن يترك المسئولون والوزراء مكاتبهم ويزورون السياح حيث يكونون .

لا أظن أن أحدًا عاقلاً ضد تنشيط السياحة ، لكن لماذا يكون هذا التنشيط على حساب كرامة الوطن وصورته فى الخارج .

لا شىء يسىء إلى سمعة الوطن قدر هذا التهافت على إرضاء السياح الأجانب بأى شكل .

إن مقتل سائحة أجنبية فى مصر ، قد حظى بالاهتمام المحلى والعالمى أكثر من مقتل كاتب مصرى ، أو التهديد بقتل خمسين كاتبًا ، بل لو قُتل جميع الكتاب فى مصر والوطن العربى ، لما اهتمت الصحافة المحلية أو العالمية بالخبر ، كما اهتمت بخبر مقتل هذه السائحة الأجنبية .

وأنا كاتبة مصرية ، أشعر بالغربة فى وطنى لأن السائح الأجنبى يحظى باحترام واهتمام أكثر من أى مصرى أو مصرية ، وأشعر بالغربة أيضًا فى أوروبا .. لأن أى اوروبى يحظى بالاحترام والاهتمام من أى أجنبى أو أجنبية مثلى .

ما الفرق بين راقصة أجنبية وراقصة مصرية !؟ لماذا يصبح فن الراقصة المصرية رخيصًا غير محترم يحتاج إلى التوبة والندم ، على حين يصبح فن الراقصة الأجنبية فنًا عظيمًا يستحق الإشادة والإعجاب باعتبار أن (الرقص أقرب إلى الطبيعة وأول الفنون التى عرفها الإنسان وأقدرها على تحقيق الانسجام بين الجسم والنفس والعقل والقلب ، وأروعها فى إذابة فوارق اللون أو الطبقة أو الجنس أو الدين أو السن أو الجغرافيا أو التاريخ) ، (على حد قول أحد الكتاب المشجعين للسياحة ، والذى استشهد فى مقاله بأحد المفكرين الذى قال : أرنى الرقص فى أى بلد ، وأنا أعرف إن كان شعبًا صحيح الجسم سليم العقل محبًا للسلام أو الجمال أو الحرية) .

كيف يهبط الرقص من عليائه الفنية ليصبح خطيئة وعملاً لابد أن يندم عليه الإنسان لمجرد أنه امرأة مصرية أو عربية وليست ألمانية أو روسية أو امريكية !؟

فى محاضرة لى بجامعة برن فى سويسرا سألنى أحد الرجال : هل يمكن أن تكون المرأة مسلمة دون أن ترتدى الحجاب !؟ وقلت له : ما علاقة تحجيب النساء بالإسلام!؟ لقد كان أبى رجلاً مسلمًا درس فى الأزهر والقضاء الشرعى ودار العلوم ، ولم يطلب

منى فى يوم من الأيام أن أرتدى الحجاب ، بل أرسلنى إلى الجامعة ، حيث تعلمت وسط الطلبة وتخرجت طبيبة واشتغلت مع الرجال . أتظن أن المرأة المسلمة لا يشغل عقلها إلا عيون الرجال التى يمكن أن تتجه نحوها ؟!

المرأة المسلمة فى بلادنا مثل المرأة فى أى بلد من بلاد العالم مشغولة بأمور كثيرة فى حياتها الخاصة والعامة ، ابتداء من لقمة العيش اليومية إلى السياسة الدولية والديون الأجنبية والاستعمار الجديد والحب وعش الزوجية .. إلخ .. إلخ .

جوهر الأخلاق فى نظر أبى وأمى كان هو الصدق واستقلال الرأى وانشغال المرأة ببناء شخصيتها والمساهمة فى خلق مجتمع أفضل وأكثر عدلاً وحرية واستقلالاً .. هكذا علمنى أبى وأمى ، ولهذا فأنا لم انشغل فى حياتى بالرجل أو الأزياء أو الموضات أو الماكياج أو التبرج أو الحجاب ، وانشغلت بالطب والأدب ، والسياسة والتاريخ والفنون والعلوم ، وأصبحت إنسانة لها عقل ليس مجرد أنثى وظيفتها الوحيدة فى الحياة هى الجنس أو الزواج أو الطلاق أو الندم على فقدان الرجل أو عائلها الوحيد ..

المرأة ، مثل البلد ، إذا لم تطعم نفسها بنفسها أصبحت تابعة وعالة على غيرها بلا إرادة ولا كرامة . هكذا علمنى أبى وأمى ، وفى بلاد أوروبا المتعددة وقفت أمام السبورة فى الجامعات والمعاهد ، وقلت لهم : اسمعوا أيها الناس فى أوروبا . إنكم لا ترون فوق شاشتكم إلا صورتين اثنتين للمرأة العربية ، إما المحجبة أو نصف العارية ممن تسموهن راقصات البطن ، أو الرقص الشرقى فى ملاهى السياح الأجانب .

اسمعوا أيها الناس فى أوروبا : إن المرأة العربية لا تتعرى ، ولا تخفى وجهها .. أنا أكشف عن وجهى بكل فخر واعتزاز بنفسى وهويتى ، والمرأة العربية إنسانة ، وهى عقل وليست مجرد جسد يُعرى أو يغطى .

فى نهاية كل محاضرة كانت تأتينى النساء والفتيات العربيات المهاجرات إلى أوروبا ، يأتين رافعات رؤوسهن فى اعتزاز وفخر ، فخورات أنهن عربيات ، فخورات أنهن مسلمات ، يُقدمن لأوروبا نموذجًا مشرفًا للمرأة العربية والمرأة المسلمة ، يقدمن صورة إيجابية للإسلام ، إنه دين يحترم شخصية المرأة وعقلها ، لا ينشغل بالقشور عن جوهر الأخلاق .

● ● ●

الحنين إلى الدفء والعدل !(*)

فى أعماقى حنين إلى دفء العلاقات ، إلى الصدق فى الحب ، إلى جمال العدل بين البشر . أجلس خلف نافذتى الزجاجية أطل على أشجار غابة جامعة ديوك . غابة ضخمة من الشجر يختفى داخله أعداد من الباحثين فى علم الغابات ، والباحثين عن الحب أيضاً شباب كلهم وشابات .

منذ أيام عثروا على جثة فتاة ، قُتلت داخل الغابة منذ أسابيع دون أن يعرف البوليس . قالت لى فينيسا (إحدى طالباتى فى فصل المرأة والإبداع) : ربما اغتصبها رجل ثم قتلها . حوادث الاغتصاب تطفو على سطح الأحداث . هل زادت هذه الحوادث عن ذى قبل ؟ وترد فينيسا : لا ، ولكن التبليغ عنها أصبح أكثر . فينيسا تركب دراجتها وفوق ظهرها حقيبتها وتخترق الغابة فى النهار وفى الليل دون خوف تذكرنى بابنتى ملامحها ، وشجاعتها .

شمس يناير فى مدينة ديرهام قوية دافئة تذكرنى بالشمس فى الوطن . تذيب برودة الغربة والبعد عن الأهل والأصدقاء ، أشعر بالألفة مع هذه الأشعة الذهبية ذات الملمس القطيفى الدافىء . يسمونها فى أمريكا شمس الجنوب . ولاية نورث كارولينا تعتبر من الجنوب . بينى وبين كلمة « الجنوب » نوع من الود . الجنوب هو الوطن ، حيث الحرارة والحب والصداقة والبشرة السمراء مثل أهلى الفلاحين والفلاحات فى قريتى على شط النيل وسط الدلتا . الشمال هو الصقيع ، واحمرار الأنف ، والاستعمار ، امتداد الأنف للتدخل فى شئون الغير ، الاعتداء المسلح علينا لاغتصاب الأرض أو القطن أو البترول أو المواد الخام .

(*) نشر بمجلة روزاليوسف ١٥ أبريل ١٩٩٣ .

بالأمس رأيت الرئيس الأمريكى الجديد بيل كلينتون ، فوق شاشة التليفزيون يتكلم بصوت رقيق عن إسرائيل التى تخرق قرارات الأمم المتحدة ، فلا يعاقبها أحد ، بل تحاول الولايات المتحدة حمايتها . ويغضب واحد من الطلبة السود فى جامعة ديوك ويقول فى أحد الاجتماعات : صدام حسين يقذف بضع رصاصات فى الهواء لا تصيب أحد فإذا بالقنابل الأمريكية تدك بغداد ، وحاكم الصرب (سلوبودان) يقتل الآلاف من شعب البوسنة فلا يتحرك أحد . هكذا يتشكل النظام العالمى الجديد !

● راحة نفسية !

الجو هنا فى الجامعة يتيح للطلبة نوعًا من الحرية الفكرية . وكذلك يمكن للأساتذة أن يعبروا عن آرائهم فى محاضراتهم دون خوف من الطرد ، أشعر بنوع من الراحة (النفسية على الأقل) أننى أستطيع أن أنقد السياسة الأمريكية داخل جامعة أمريكية .

وتقول فينيسا : عندنا حرية فكرية بشرط عدم تهديد النظام السائد . من يهدد النظام قد يتعرض للقتل مثل مارتين لوثر كينج .

كان اليوم هو ١٥ يناير ١٩٩٣ . اليوم إجازة فى جميع الجامعات والمصالح فى الولايات المتحدة . إنه اليوم الذى ولد فيه مارتن لوثر كينج أصبح إجازة رسمية قومية ، للاحتفال بذكرى هذا الزعيم الأمريكى الأسود ، الذى دفع حياته ثمنًا لتحرير إخوانه من الأفارقة السود فى أمريكا . أصبح رمزًا من رموز النضال ضد العنصرية ومن أجل العدالة والحرية .

« هايدى » واحدة من طالباتى ، سوداء البشرة ، تكشف عن أسنانها البيضاء فى ابتسامة عريضة وتقول : أنا مدينة بحريتى لمارتن لوثر كينج . لولا نضاله ونضال غيره من الزعماء السود أمثال مالكولم إكس ما استطعت دخول جامعة ديوك . قبل خريف عام ١٩٦١ لم يكن بجامعة ديوك أى طالب أو طالبة من السود . كانت جامعة ديوك للطلاب البيض فقط . وفى خريف ١٩٦١ دخل أول طالب أسود فى هذه

الجامعـة يحصـل على الدكتوراه . وفى خريف ١٩٦٣ دخل أول طالب أسـود يحصل على الباكالوريوس . واليوم كم ترين من الوجوه السوداء بين الطلاب والطالبات ؟ رغم تزايد العدد إلا أن السود هنا فى الجامعة مازالوا أقلية بالنسبة للبيض ، ومازال أيضًا بعض الانفصـال ، على الأقـل النفسى أو الاجتماعى . لا توجد اليوم قوانين فى الجامعة (كما كانت) تفصل بين السود والبيض . لكن جذور العنصرية لاتزال عالقة بالتقاليد والثقافة ، تطفو على السطح أحيانًا ، بعد أحداث مثل تلك التى وقعت فى لوس أنجلوس منذ عامين .

● **ذكريات !**

اليوم الجمعة ١٥ يناير ١٩٩٣ . إجازة ذكرى مارتن لوثر كينج . أتمشى بين الأشجار داخل غابة جامعة ديوك . مساحات من الخضرة لا نهائية . أتوقف عند ملاعب التنس . أرى طالبة سوداء تلعب مع طالب أبيض. يتعانقان تحت أشعة الشمس . فى المساء دعتنى « هايدى » لمشاهدة مسرحية عن مارتن لوثر كينج وماكولم إكس ، كتبها چيف ستيتسون ، شاب مسرحى جديد ، استلهم فكرته من لقاء بين مارتن لوثر كينج ومالكولم إكس فى فبراير عام ١٩٦٥ ، قبل مقتل مالكولم إكس بأسبوع واحد . التقى الزعيمان السـودان فى غرفة فقيرة فى فندق بحى هارلم بمدينة نيويورك . (عشت فى هذا الحى بعض الوقت فى خريف ١٩٦٥ ، حين كنت أدرس فى جامعة كولومبيا) وبعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء قتل مارتن لوثر كينج . أطلق عليه الرصاص وهو يخطب . تمامًا مثلما أطلق الرصاص على مالكولم إكس وهو يخطب بين الناس .

فى اليوم التالى دعتنى فينيسا لمشاهدة فيلم مالكولم إكس ، من إخراج « سبايك لى » وهو مخرج أمريكى أسود ، اشتهر فى السنين الأخيرة . يتبنى أيضًا قضايا السود ويناضل عن طريق السينما ضد العنصرية والتفرقة بين البشر . جزء من الفيلم تم تصويره فى مصر ، شارك فيه بعض شباب المخرجين المصريين . قرأت اسم ابنى ، ضمن المشاركين فى الفيلم . ورأيت الأهرامات وشوارع الوطن . وحرارة الناس فى

بلادنا ، ودفء العلاقات ، ومالكولم إكس فى زيارته لمكة للحج بعد أن أصبح مسلمًا ، يناضل مع الأفارقة السود المسلمين فى أمريكا ضد الظلم والقهر . فى شبابه الأول كان مالكولم إكس ضائعًا مثل عدد كبير من الشباب السود من الطبقات الفقيرة فى أمريكا . أصبح مهرجًا فى البارات والحانات يتعاطى المخدرات إلى أن دخل السجن . وهناك بدأ يفيق ويدرك الظلم الواقع عليه وعلى أمثاله من السود الفقراء .

قاعة السينما كانت مليئة بالوجوه السوداء نساء ورجال وأطفال . رأيت طفلة تبكى حين انطلقت الرصاصات وسقط مالكولم إكس وانهمر دمه غزيرًا فوق الأرض وراء المنصة ، واندفعت نحوه زوجته وأطفاله ، ثم تجمع من حوله الناس الذى كان يخطب فيهم عن الحرية والعدل .

● ليس حزبنا !

فى اليوم التالى فوق شاشة التليفزيون رأيت امرأة سوداء تخاطب بيل كلينتون فى اجتماع عام . كانت تناديه باسمه عاريًا من الألقاب وتقول له : بيل ، ماذا ستفعل يا بيل من أجل أمثالى من الفقراء العاطلين بلا عمل ؟! إنك تحاول عدم التفرقة بين الشباب لدخول الجيش ، بصرف النظر عن ميولهم الجنسية ، فماذا ستفعل يا بيل لتلغى التفرقة بين الناس على أساس طبقاتهم الاجتماعية ؟!

يضحك بيل كلينتون . يحاول بالضحك إخفاء الحرج . ربما لأنه يبدو مرحبًا بالسؤال، ويسهب فى الإجابة : « أنا مشغول طول الوقت بالخطة الاقتصادية لأعالج هذه المشاكل الاقتصادية الحادة التى نتجت عن سياسة الحزب الجمهورى السابق ، وعلى رأسها البطالة ، ومشكلات الصحة والتعليم والمخدرات والإيدز » .

يغضب أحد أعضاء الحزب الجمهورى ويقول : ليس حزبنا هو سبب هذه المشاكل، ونحن فى انتظار ماذا ستفعله يا بيل كلينتون، فالمهم هو العمل وليس الكلام .

انتعشت « لورا » بهذا الحوار . إنها شابة بيضاء تنتمى إلى حزب الجمهوريين .

تعادى حزب الديمقراطيين وعلى رأسهم بيل كلينتون وتقول : تكلف حفل تتويج بيل كلينتون ليجلس على عرشه فى البيت الأبيض ٢٥ مليون دولار ، كان من الممكن إنفاقها لتوفير المساكن أو الوظائف أو الطعام للفقراء داخل الولايات المتحدة نفسها ولا أقول الصومال أو أثيوبيا أو غيرهما من بلاد أفريقيا أو آسيا أو حتى يوغوسلافيا فى أوروبا ، أو البرازيل فى قارتنا الأمريكية فى الجنوب . نحن نعيش تحت ضغط اقتصادى كبير ، وأصبح الناس فى أمريكا يعملون ساعات أكثر نظير أجور أقل فأقل .

- قلت لها : وهل كانت سياسة چورج بوش أفضل ؟

قالت : بالطبع .

- قلت : وماذا عن حرب الخليج ؟

قالت : كسبنا الحرب ولم نخسر شيئًا .

- قلت : قتلتم نصف مليون عربى فى الخليج من أجل السيطرة على البترول . أتسمين هذا مكسبًا ؟!

قالت : نعم ، مكسب لنا فى أمريكا ، وخسارة لكم فى بلادكم العربية ، لكن هذه هى الحرب .

إن « لورا » واحدة من أستاذات علم الچيولوچيا ، هى ضد حركات تحرير المرأة ، وترى أن المرأة (حسب الإنجيل ومبادىء المسيحية) يجب أن تكون زوجة مطيعة لزوجها متفرغة لشئون البيت والأطفال .

- قلت لها : ولماذا تعملين أستاذة چيولوچيا ؟

قالت : لأننى غير متزوجة وليس عندى أطفال .

تذكرنى « لورا » بزميلة لى مصرية تعمل أستاذة فى الطب الباطنى بجامعة القاهرة . تذكرنى بعدد غير قليل من النساء المتعلمات فى الجامعات ، واللائى لم يلعب التعليم دورًا كى يفتح عقولهن على الثقافة أو الوعى بحقوقهن الإنسانية .

وفى فصل المرأة والإبداع قالت فينيسا الشابة التى تجاوزت العشرين بقليل : الطاعة نقيض الإبداع لأنها تقتل القدرة العقلية على النقد . إذا تربت النساء على الطاعة فقدن الإبداع ، ولهذا يقل عدد النساء المبدعات أو العبقريات عن عدد الرجال العباقرة .

وصاح طالب جالس فى مؤخرة الفصل : لو كنت امرأة لفضلت أن أكون زوجة وأما عن أكون عبقرية . العبقرية تسلب من المرأة أنوثتها وتحولها إلى رجل !

وردة فينيسا : ولماذا تتكلم عن المرأة ؟ تكلم عن نفسك ودعنا نحن النساء نتكلم عن أنفسنا .

• • •

لماذا لا يكون فى بلادنا وزيرة للعدل ؟(*)

اليوم ١١ مارس ١٩٩٣ ، وغدًا تبدأ إجازة الربيع فى جامعة ديوك . شهر « مارس » له فى « ديرهام » شمس عبقرية ، هذه الشمس التى تصل أشعاتها إلى الرأس والجسم ، فتحدث الإنارة ، أو النور ، أو الضوء أو المعرفة . « مارس » بداية الربيع ، وتفتح الزهور للشمس والحب والخصوبة فى التاريخ القديم . قبل الإله « مارس » كانت الإلهة الأنثى « عشتار » تجلس على عرش الشمس والخصوبة . ومن قبلها كانت الإلهة « نون » ترمز إلى الأرض والسماء والكون كله قبل انقسام الكون إلى أرض وسماء ، أو جسد وروح ، فى مصر القديمة كانت الإلهة الأنثى « نوت » هى إلهة السماء ، وزوجها « جيب » كان إله الأرض . كانت المرأة ترمز إلى الروح أو العقل ، والرجل يرمز إلى الجسد . ثم انقلب الوضع ، تغير النظام فى مصر القديمة بعد الحرب بين الأسياد (الفراعنة) والعبيد (الشعب المصرى من النساء والرجال) ، وانتصر الأسياد بقوة السلاح واعتلى « فرعون » الإله الذكر العرش ، وأصبح الإله « رع » يرمز إلى الشمس ، وهبطت المرأة لترمز إلى الجسد ، ومن ثم أصبح الجسد يرمز إلى الخطيئة والغرائز الدنيا ، والشيطان .

هذه معلومات قديمة عرفتها منذ كنت فى المدرسة الابتدائية . لكن الأستاذة الدكتورة « مارى ميز » تصيح فيما يشبه الفرح أو النشوة : أوه ماى جوض ! وتدون فى مذكراتها اسم نون ، ونوت ، وأضيف إليهما « إيزيس » إلهة المعرفة ، و « معات » إلهة العدل ورئيسة القضاة فى مصر القديمة .

منذ أعلن « بيل كلينتون » عن تعيين امرأة وزيرة للعدل (چانيت رينو) ، وأنا أشهد

(*) نشر بمجلة روزاليوسف ١٩٩٣/٤/٢٢ .

تغيرًا ملحوظًا ، فى النساء والفتيات هنا فى جامعة ديوك . ارتفاع الرأس أو القامة أو ربما هو العنق أصبح أكثر طولاً . زميلتى الأستاذة الدكتورة « ميريام كوك » لها ابتسامة تذكرنى بدفء الابتسامات فى الوطن . ملامحها أيضًا تشبه ملامح النساء فى لبنان . لماذا لبنان ؟ لأنها تتكلم اللغة العربية بلكنة لبنانية ، حين قابلتها لأول مرة فى جامعة ديوك سألتها : لماذا تعلمت العربية وأنت امرأة أمريكية ؟! إنها قصة طويلة تبدأ فى الطفولة ربما أو الشباب ، أشبه ما تكون بعلاقة الحب . « أنا حبيت العربية ، وعشت فى لبنان » يا سلام أنا حبيت بحر بيروت ، أنا عشقت البحر والسماء ، والناس فى بيروت !

الدكتورة « ميريام كوك » تجاوزت الأربعين بعامين أو ثلاثة . لكنها تبدو كالفتاة العذراء . تجذب الطفلة داخلى ، لازلت أحتفظ بطفولتى (رغم كل شىء) وأضحك من كل قلبى ، وأقول لها : لابد أنك وقعت فى الحب وأنت فى لبنان ! وتضحك ميريام حتى يصعد الدم إلى وجهها وتقول : ربما لكن أكثر من أحببت من الكتاب العرب هو يحيى حقى . أجل ، كنت أعرف ذلك ، وقرأت كتابها عن أدب يحيى حقى ، تذكرت يحيى حقى ، كان يجمع (شأن الأدباء الفنانين) بين القوة والرقة ، أو بين الذكورة والأنوثة (أو ما درجنا على أن نعتبره ذكورة أو أنوثة) . تذكرت أن يحيى حقى قد كتب مقدمة لأول مجموعة قصص نشرت لى عام ١٩٥٧ . تذكرت أيضًا أنه أول من كتب عنى فى الصحف المصرية ، أذكر أنه كتب مقالاً طويلاً فى إحدى الصحف (لا أذكر الأخبار أو الجمهورية) عن روايتى الأولى «مذكرات طبيبة» عام ١٩٥٩ أو ١٩٦٠ لا أذكر تمامًا .

وقالت ميريام كوك : إنا اعتبر يحيى حقى من أعظم الأدباء الذين قرأت لهم ، ليس بين العرب فقط ، ولكن بين أدباء العالم .

إن الدكتورة ميريام كوك أستاذة متخصصة فى الأدب العربى ، وهى تدرس الأدب العربى فى جامعة ديوك ، وتقدم لقراء اللغة الإنجليزية الأدباء والأديبات من عالمنا العربى ، ومن مختلف الأجيال ابتدأ من يحيى حقى إلى حنان الشيخ وفادية فقير

وغيرهم . تذكرت « فادية فقير » شابة أردنية فرضوا عليها العزلة والحجاب فى عمان، لكنها استطاعت أن تثور وتكتب ، قابلتها عدة مرات فى الأردن ، وفى أكسفورد ، إنها تدرس الأدب العربى فى أكسفورد ، وصدرت لها رواية بعنوان « نيسانيت » ، تقول عنها ميريام كوك : إنها من أجمل الروايات التى قرأتها بالعربية ، رواية تصف حياة شاب فلسطينى اسمه « شهيد » يتعرض للتعذيب داخل أحد السجون الإسرئيلية .

قرأت رواية « فادية فقير » وبكيت وأنا أقرأها . رغم عدم براعتها إلا أنها تمس الأحاسيس وهذا هو الفن .

الفن ليس البراعة وليس العبقرية فى الأداء ، ولكن الفن هو اللا براعة إلى حد الوصول إلى شغاف القلب . تذكرت بعض كلمات يحيى حقى حين التقيت به لأول مرة عام ١٩٥٦ ، قصة قصيرة نشرت لى لأول مرة فى مجلة روز اليوسف ، كان قد دعانى يحيى حقى إلى فنجان قهوة ، وقال لى : قرأت قصتك وتأثرت بها كثيرًا لأنها مكتوبة بذلك السهل الممتنع دون براعة !

لم أكن فى مصر حين مات يحيى حقى . ولم أحزن حين مات . لأنه فى رأيى لم يمت . فالموت لا يعرف طريقة إلى الفنان الحقيقى ، لكن حزنت لأنى لم أكن فى الوطن لأمشى مع الشعب المصرى فى جنازته ، وأنا لا أمشى فى الجنازات إلا نادرًا ، حين أدرك أن المحمول فوق الأعناق لم يمت . هكذا مشيت فى جنازة أبى ، وأمى ، وجدتى أم أبى « مبروكة » ، التى رأيتها وأنا طفلة تشوح بيديها المشققتين فى وجه عمدة « كفر طحلة » وتقول له غاضبة : إحنا مش عبيد ! ، والتى سمعتها تغنى ضد الملك والإنجليز وتقول : « يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الإنجليز » .

وضحكت « ميريام كوك » حين تذكرت جدتى الفلاحة الفقيرة ، وقالت لى : «جدتك لا تزال تعيش داخلك» قلت لها : « مهما ابتعدت فالأهل والوطن داخل القلب » . ودب صمت طويل أشبه بالحزن . لماذا يرتبط الوطن دائمًا بالحزن ؟!

فوق الشاشة الأمريكية رأيت صورة المقهى فى ميدان التحرير فى القاهرة ، ورأيت حطام القنبلة التى انفجرت ، والدم الذى فوق الأرض ، وتساءلت : « من يفجر القنابل فى الوطن ؟! » . تذكرت وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية (عام ١٩٤٩) حين انفجرت قنبلة فى سينما مترو . ولم يعرف أحد من وضع القنبلة . بعض الصحف قالت: « الإنجليز » وبعض آخر قال « السراى » أو « الحكومة » أو « المباحث » . وبعض قال « الإخوان المسلمون » .. إلخ .

واليوم أيضًا لم يعرف أحد من وضع القنبلة ، بعض الصحف قالت : إسرائيل ، وبعض آخر قال : الحكومة أو المباحث، وغيرها قال « الأصوليون الإسلاميون ».. إلخ .

فى اليوم نفسه رأيت على الشاشة الأمريكية مشهد حطام القنبلة التى انفجرت فى نيويورك ، فى المبنى الضخم المسمى () وحتى الآن رغم انقضاء الأيام والأسابيع لم يكتشف بعد من وضع القنبلة ، لكن أصابع الاتهام تتجه إلى بعض الأشخاص ،أسماؤهم ترن فى أذنى بصوت المذيع الأمريكى ، أسماء عربية أو باكستانية، أو أسماء مسلمة بوجه عام .

وتقول إحدى زميلاتى الأستاذة فى جامعة ديوك : « هذه هجمة جديدة ضد العرب والمسلمين . بعد سقوط الشيوعية (البعبع القديم) أصبح « الإسلام » أو العرب هو «البعبع الجديد» . اسمها كاترين وهى متزوجة من فلسطينى ، وهى ترى أن التيارات الأصولية الدينية مثل « حماس » فى إسرائيل ، لم تنشأ إلا بتشجيع من الحكومة الإسرائيلية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، ومع ذلك هى تشترك فى الحملة من أجل إعادة هؤلاء المبعدين الفسطينيين وتقول : نعم ، كلهم أعضاء فى حماس ، لكنى ضد طردهم بهذا الشكل !

وتنبرى لها امرأة أمريكية ترتدى الحجاب ، (متزوجة من رجل سودانى) ، وتقول لها : لماذا لا ترتدين الحجاب وأنت متزوجة من رجل مسلم ، ألست مسلمة ؟! تبتسم كاترين فى هدوء وتقول لها : أنا فهمت الإسلام على أنه كفاح ضد الظلم وضد الاحتلال الأجنبى ، وليس قطعة قماش أغطى بها شعرى !

كنت أستمع إلى حوار بين امرأتين أمريكيتين وكأننى أستمع إلى حوار بين امرأتين عربيتين . واحدة تفهم الدين وجوهره ، وأخرى لا تهتم إلا بالقشور . كلتاهما حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة نورث كارولينا ، لكن « التعليم الأكاديمى » لا يقود إلى المعرفة أو « الإنارة » هكذا تقول كاترين .

أعجبتنى كلمة « الإنارة » إحدى طالباتى فى فصل « المرأة والإبداع » اسمها «إنارة» () . أهو اسم أمريكى أم عربى ؟ أهى كلمة مشتقة من النور ؟ لكن إنارا أكدت لى أنها أمريكية مائة فى المائة واسم « إنارا» أمريكى مائة فى المائة .

لكن ليس هناك شىء اسمه مائة فى المائة خاصة فى اللغات . وفى كل لغة هناك كلمات مأخوذة من لغة أخرى ، فى الهند ، حين سمعت لأول مرة اللغة الإردية أدركت أذناى الكلمات والحروف العربية ، ثم عرفت أن ١٢٪ من الحروف فى اللغة الإردية عربية ، وفى إيران أيضًا تعرفت أذناى على الحروف العربية ، وفى اليونان ، وفى أسبانيا وفى تركيا ، بل فى اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية هناك حروف وكلمات مأخوذة عن العربية ، وعن اللغة العبرية آيضًا . تعتبر اللغة العبرية من أقدم اللغات ، لأنها لغة التوراة ، وتعتبر اللغة العربية أيضًا من أقدم اللغات ، لأنها لغة القرآن ، أما اللغة الهيروغليفية (لغة المصريين القدماء) ، فهى أقدم اللغات جميعًا ، لكن أستاذة اللغويات فى جامعة ديوك تقول : إن اللغة السومرية فى العراق وسوريا وفلسطين سبقت اللغة الهيروغلوفية فى التاريخ، والتى اكتشفت هذه اللغة امرأة اسمها « نيدابا ».

أجل ، كنت أعرف « نيدابا » من قبل ، وكتبت عنها فى أحد كتبى . كنت أفخر دائمًا بأن امرأة فى التاريخ البشرى هى التى اكتشفت اللغة ، وهى امرأة مصرية أو عراقية أو سورية أو فلسطينية ، سيان ، فهى امرأة عربية ، تلك التى يصورونها اليوم على أنها امرأة بلا وجه. مجرد كتلة سوداء تتحرك فوق قدمين أثنين وليس أربعة أرجل.

أرى وزيرة العدل الأمريكية « جانيت رينو » لا تختلف فى شخصيتها القوية وعقلها اليقظ عن أى امرأة مصرية . لماذا لا يكون فى بلادنا وزيرة للعدل ؟ لا يوجد فى بلادنا قاضية واحدة !؟

لقد اختار « بيل كلينتون » خمس وزيرات فى الوزارة الجديدة ، وزوجته هيلارى ترأس لجنة الصحة . إنه يتحدث عن أهمية دور المرأة الأمريكية فى بناء المجتمع الجديد . إنه (على خلاف ريجان وبوش) ، لا يشجع التيارات المسيحية الأصولية ، إنه يساند حقوق المرأة ، وعلى رأسها حق الإجهاض . إنه يحاول علاج الأزمة الاقتصادية ، وخلق نصف مليون فرصة عمل جديدة للعاطلين . إنه يحاول أن يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء !؟ فهل هو مخلص فيما يقول ربما لا ، سيكشف المستقبل عن الحقيقة .

● ● ●

خمسمائة رسالة إلى النخبة الثقافية !(*)

أصبحت الكتابة فى الصحف بالنسبة لى مثل شربة زيت الخروع ، لكنى مدفوعة لكتابة هذا المقال بسبب ما هو أشد مرارة ، وهى أزمة النخبة الثقافية فى بلادنا . وفى رأيى أن هذه النخبة (أو ما تسمى النخبة) هى أحد الأسباب الرئيسية وراء أزمة الفكر أو الصحافة أو الإعلام أو الثقافة ، أو الاقتصاد أو السياسة أو الديقمراطية ، لأن هذه المجالات كلها مترابطة ، ولا يمكن الفصل بينها . ومنذ نشوء الدولة المصرية القديمة ، مرورًا بالعهود الملكية إلى عهد عبد الناصر والسادات ومبارك ، تلعب هذه النخبة المثقفة دورًا مزدوجًا بحكم كونها الطبقة العازلة بين الحكم والشعب . ولا يمكن أن ننكر أن هناك أفرادًا من هذه النخبة المثقفة لا يلعبون هذا الدور المزدوج ، لكن هؤلاء يعيشون فى معظم الأحوال بعيدًا عن منابر الإعلام والصحافة ، وبالتالى لا ينطبق عليهم تعبير « النخبة » إن كلمة « النخبة » هنا تعنى هؤلاء المعترف بهم من قبل السلطة القائمة كرموز للفكر والثقافة فى بلادنا ، تتردد أسماؤهم .

هؤلاء فى رأيى هم السبب الرئيسى وراء الأزمة الثقافية والصحفية التى نعيشها وليس السبب ارتفاع نسبة الأمية ، أو الناس البسطاء العاديون . إن هذه النخبة هى السبب وراء ظهور قوانين معادية للفكر وحرية الصحافة مثل قانون ١٤٨ لعام ١٩٨٠ الذى ينظم الصحافة فى مصر ، أو غيرها من القوانين المقيدة للحريات ، هذه النخبة شاركت فى صنع هذه القوانين بسكوتها ، وصمتها ، أو هروبها من التصدى أو النقد الصحيح وليس بعد موت الحاكم أو فوات الأوان ، هذه النخبة هم الكهنة القدامى فى عهد الفراعنة الذين كانوا يمثلون الطبقة العازلة أو الوسيطة بين الشعب والإله . هؤلاء

(*) نشر بجريدة الأهالى فى ١٤ مارس ١٩٩٠ .

أنصاف الآلهة الذين رأيتهم بعينى خلال الثلاثين عامًا الماضية . هم هم لا تتغير الوجوه إلا قليلاً حين يفتح الباب قليلاً لبعض الوجوه المحتجبة . رأيتهم جالسين فى هذه الاجتماعات فما أن ينطق حاكم مصر بكلمة ما حتى تتحول إلى نظرية عظيمة ، وفلسفة جديدة ، اسمها الناصرية أو الساداتية أو المباركية .

ينكفئون فوق وجوههم حتى يحظى الواحد منهم على المصافحة أو مجرد ملامسة أطراف الأصابع ، رأيتهم يتبارون فى الكلام وإلقاء قصائد المدح ، أو قصائد النقد ، لكن أى نقد ؟ إنه النقد الذى يدغدغ الأذن دون أن يؤلم ، أو النقد الذى يصيب أحدًا من الوزراء الذين لا حول لهم ولا قوة .

إن الملك يشعر بالحرج حين يرى أمامه ملكيين أكثر منه . كذلك يشعر بالحرج أى رئيس حين يرى أن كل ما يقوله وإن كان خاطرًا عابرًا يتحول هكذا بقدرة قادر إلى نظرية فلسفية ، وأى قرار عادل يصدره ، وإن كان نقل موظف يصبح معجزة من المعجزات تستحق الإشادة والإطناب والنفخ فى الأبواق والمزامير ، ويحدث الشيء نفسه فيما يتعلق بحرم رئيس الدولة ، أو أى شخص آخر له علاقة وثيقة بالرئاسة أو يعمل بالقرب من رئيس الدولة ، هذه النخبة من أنصاف الآلهة لا يعتبرون هذا السلوك نفاقًا ولهم تبريراتهم الفلسفية العميقة لموضوع النفاق هذا . يقولون لابد من حماية الحكم القائم ، أو رئيس الدولة الحالى . لأن البديل غير موجود أو أسوأ . فى كل عهد يكررون هذه الفلسفة ، وهم يدركون تمامًا أن النفاق لا يحمى الحاكم أبدًا . بل العكس هو الصحيح .

وهناك أربعة أضرار رئيسية لهذه النخبة الثقافية .

أولاً : أنهم يضربون مثلاً سيئًا للأجيال الجديدة القادمة . سواء من الحكام أو المحكومين . يصبح النفاق كالدم يتوارثه الصغار عن الكبار .

ثانيًا : إنهم يروجون القيم الازدواجية فى السلوك ، التى تتمثل فى الخضوع أو الطاعة أو امتهان النفس مع الأقوى ، والغطرسة أو التسلط أو الإهمال مع الأقل قوة. وهكذا تضيع حقوق الناس .

ثالثًا : إنهم باحتلالهم معظم المنابر الفكرية والصحفية والثقافية والإعلامية فى بلادنا يحجبون الآخرين ذوى العقول الأعمق والأكثر فكرًا وإبداعًا ، حيث إن مثل هؤلاء يفضلون حياة العزلة مع العمل الهادىء .

رابعًا : هذه النخبة من أنصاف الألهة لا يحتملون النقد ، وإذا نقدهم أحد أخرجوا أظافرهم وأنيابهم وملأوا الصحف والإعلام صراخًا ودفاعًا عن أنفسهم ، وفى ظل هذه الضوضاء يختلط الحابل بالنابل ، ولا يبقى إلا صوتهم العالى يطن فى آذان الناس .

ماذا يفعل الآخرون بعقولهم التى تفكر وتبدع ، ومع ذلك عاجزون عن السير فى موكب النفاق ؟ ليس أمامهم إلا إصدار منابرهم الخاصة ، وهنا يقف لهم قانون الصحافة يسد الطريق . قانون أصدره السادات منذ عشرة أعوام مع قوانين أخرى تقيد الحريات . فى ظل قانون الصحافة منعت مجلات وحرمت من الترخيص ، ومنها مجلتنا « نون » وأرسلنا خمسمائة رسالة إلى هذه النخبة المثقفة فى مصر ليتكلموا وكان ردهم كالعادة هو الصمت والسكوت . بعضهم قال لنا أذهبوا إلى قبرص وخذوا التر خيص من هناك ثم تعالوا واطبعوها فى مصر ، كما تفعل بعض المجلات . تعتبر مكتبها فى القاهرة ممثلاً لشركة أجنبية .

وقال آخرون : إذهبوا إلى أحد الأحزاب وادفعوا مبلغًا من المال أو أعطوهم نسبة من إيرادات الإعلانات على أن تنشروا أخبار الحزب فى مجلتكم . وبالطبع لم نقبل كل هذه الحلول . لأنها ليست حلولاً وإنما نوعًا من التحايل والالتواء والمشاركة فى الإبقاء على قانون الصحافة الذى كان يمكن أن يتغير بالمواجهة بدلاً من التحايل والدخول من نافذة وليس الباب الصحيح .

فى هذا الخضم من النفاق هناك أقلام نادرة شجاعة وقفت وكتبت وهاجمت قانون الصحافة من جذوره ، لكن كل ذلك يتم على نطاق ضيق ، وفى مجالات محدوده ، ذلك أن المجالات الواسعة والطرق المفتوحة على الجماهير العريضة كلهم محتكرة بواسطة هذه النخبة .

• • •

التمرد وثقافة الصابون (*)

١ - القيم الإيجابية منذ الطفولة :

فى طفولتى وأنا فى السادسة من عمرى رأيت أبى يمزق ورقة كتبها أحد جيراننا يتعهد برد مبلغ من المال (أظنه كان عشرة جنيهات) أخذه من أبى على سبيل السلفة . وسمعت أبى يقول لهذا الجار الفقير العجوز : عيب يا عمى ، كلمتك عندى أكبر من أى كمبيالة وأنت جارنا ، وقد أوصانا النبى بسابع جار . ورد الجار قائلاً لأبى : ولكنى رجل فقير عجوز وقد لا أستطيع أن أرد لك المبلغ أول الشهر ولهذا كتبت لك الكمبيالة لأفرض على نفسى السداد فى الوقت المحدد . وقال له أبى هو يربت على كتفه : لا تقلق يا عمى ، إنى واثق من أنك سوف ترد المبلغ حين تستطيع ، وإن لم تستطيع فما بين الخيرين حساب ، وأنت عندى أهم من أى مال !

وفى طفولتى كنت أسمع أمى تقول لى : اسمعى يا ابنتى . الغنى غنى النفس ، فكونى غنية بنفسك وليس بجيبك . وكانت جدتى الفلاحة الفقيرة شامخة عزيزة النفس رغم قلة المال .

انحفرت هذه القيم فى أعماق الوعى واللاوعى منذ طفولتى وأصبحت أؤمن أن قيمة الإنسان تعلو على قيمة المال ، وأن العلاقات الإنسانية تعلو على العقود والأوراق والكمبيالات .

ولم يكن فى طفولتى « تليفزيون » ينقل إلىّ ثقافة الصابون الشائعة اليوم التى تقلب هذه القيم رأسًا على عقب وتضع الدولار أو الدينار فوق الإنسان ، وقطعة من الورق المختومة فوق الصداقة والحب .

حين دخل التليفزيون إلى مصر عام ١٩٦٠ كنت قد أصبحت شابة ناضجة محصنة ضد ثقافة الصابون الواردة إلينا من الخارج . وعلى مدى ثلاثين عامًا ورغم الإعلانات

(*) القاهرة فى ٢١ سبتمبر ١٩٩٠ .

المتكررة فى التليفزيون عن البضائع المستوردة من الغرب ، وغسول الشعر الأمريكى ، لم أستخدم إلا الصابون المصرى الذى أحببته منذ طفولتى ، والذى أشم فى رائحته نكهة أمى حين كانت تضحك ، وصوت أبى حين كان ينادينى ، ورائحة النيل حين كنا نتمشى على شاطئه فى قريتى كفر طلحة . وأنا لست ممن يقدسون ما يسمى بالثقافة التقليدية ولست ممن يتغاضون عن السلبيات فى القيم التى توارثناها من الماضى . بل إننى استطعت أن أنقد تراثنا دون خوف ، وأن أسقط منه فى حياتى ما هو متخلف أو عنصرى أو غير إنسانى ، أو تلك القيم التى جاءتنا منذ نشوء العبودية والغزو الاستعمارى وسيطرة الملكية والطبقة المالكة على الأغلبية الساحقة من الشعب، وسيطرة الذكور على النساء .

لكن فى تراثنا أيضًا إيجابيات توارثناها منذ عصور ما قبل العبودية وما قبل الاستعمار ، حين كانت المرأة فى بلادنا إنسانة كاملة الأهلية ، وحين ارتفعت قيمة الإنسان على قيمة المال والأشياء ، وكانت علاقات الصداقة والحب والتعاون تعلو على علاقات الحروب والقتل والجشع والطمع من أجل الاستعمار وتراكم رؤوس الأموال .

لكن ثقافة الصابون خلال النصف الأخير من هذا القرن وعبر هذا الجهاز الإعلامى الثقافى الخطير استطاعت أن تشوه الثقافات والقيم الإيجابية ، وتبرز على السطح الموروثات السلبية ، وتضيف إليها القيم الجديدة غير الإنسانية القائمة على عبادة المال والسلاح وتشجيع الاستهلاك لدى الطبقات الأدنى المسحوقة ..

٢ - استهلاك العقل :

جهاز خطير فى العالم أصبح يهدد عقل الإنسان وقدراته الإبداعية الخلاقة ، جهاز يستهلك عقول البشر ويصيبها بالشلل والتوقف عن النمو ، جهاز يطلق عليه اسم « التليفزيون » ، جذاب شديد الجاذبية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال والشباب والأطفال ، خاصة هؤلاء الذين لا يقرأون لأنهم لا يعرفون القراءة ، أو لا يقدرون على شراء الكتب أو لا يجدون الوقت أو الجهد للقراءة . مجهدون طوال النهار فى العمل المضنى من أجل لقمة العيش وتوفير ضرورات الحياة ، وليس أمامهم وسيلة للترفيه أو التسلية آخر النهار أو الليل إلا هذا الجهاز الذى ينقل إليهم وهم راقدون فى غرف

النوم مسلسلات وأفلام وحلقات تمثيلية من وراء البحار والمحيطات من الولايات المتحدة الأمريكية أو تلك البلاد البعيدة ، التى تسمى بالعالم الجديد ، والتى سيطرت على العالم بالدولار وتكنولوچيا السلاح والإعلام .

استطعت من خلال رحلاتى المتعددة إلى بلاد كثيرة فى الغرب والشرق أو الشمال والجنوب إن أدرك خطورة جهاز التليفزيون وغيره من أجهزة الإعلام على عقول الناس .

سيطرة الثقافة الأمريكية السطحية السريعة من خلال الشاشة الصغيرة والأجهزة الإلكترونية الأخرى على الثقافات المحلية فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية واستراليا .

ويزداد هذا الأثر فى بلادنا العربية ، وخاصة البلاد التى ترتبط سياسيًا واقتصاديًا بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد أصبح معروفًا أن السيطرة السياسية من أجل الاستغلال الاقتصادى لا تكون بغير سيطرة على العقول من خلال الإعلام . لقد حل الإعلام محل السلاح .

لكن أزمة الخليج العربى التى بدأت أوائل أغسطس ١٩٩٠ وتبعها نقل القوات الأمريكية المسلحة إلى الخليج العربى والقوات المتعددة الجنسيات فرنسية وبريطانية وغيرها أثبتت أن الاستعمار الغربى الاقتصادى لثروات العالم الثالث (ومنها البترول العربى) لايزال يحتاج إلى السلاح العسكرى ولا يكفيه سلاح الإعلام . وإن كان سلاح الإعلام يخدم على الدوام مصالح الغرب مدعمًا النظام الاقتصادى العالمى بنظام إعلامى عالمى قائم على الاستغلال والتجهيل لأغلب سكان الكرة الأرضية الذين لا يملكون إلا القليل من تكنولوچيا الإعلام أو السلاح العسكرى .

يلعب الإعلام والثقافة العالمية السطحية المسماه Soap Culture دورًا حاسمًا فى تجهيل الشعوب بحقوقها أو غسيل مخها بالصابون ، ليصبح مخًا أملس يستهلك ما يعطى له غير قادر على إنتاج الفكر . يردد ما يقدم له مثل الببغاء يستسلم بلا مقاومة لهذه المعلومات والثقافة التى تسقى له بالملعقة ، ثقافة مرة كالعلقم ، معادية للإنسان فى جوهرها ، لكنها تزين نفسها بالقشور البراقة ، والألوان الزاهية ، وبعض المشهيات الجنسية التى تحول فيها جسد المرأة إلى أداة للإعلان والإغراء الجنسى .

٣ - الجنـــــس :

يلعب « الجنس » الرخيص غير الإنسانى القائم على التجارة والربح دورًا كبيرًا فى ثقافة الصابون . يدرك خبراء هذه الثقافة فى الغرب أن الملايين من الشباب فى ذلك العالم المسمى بالعالم الثالث أو فقراء العالم محرومين من ضرورات الحياة المادية والمعنوية ومنها « الجنس » والحرية أو الديموقراطية . يقدمون لهم هذا « الجنس » على شكل أحلام مستحيلة أو مخدرات تجعل العقل يعيش فى الوهم وليس الحقيقة ، أو حرية فردية زائفة تشجع فيهم الأثرة والأنانية على العلاقات الإنسانية أو التعاون فيما بينهم أو الحب الصحيح القائم على التبادل المتساوى أخذًا وعطاءً .

٤ - الجريمة والعنف :

وتلعب « الجريمة » دورًا كبيرًا فى ثقافة الصابون ، يدرك خبراء هذه الثقافة فى الغرب أن « العنف » أو « الاغتصاب » أو « القتل » الذى يراه الشباب فوق الشاشة ينفس الغضب الكامن فى أعماقهم بسبب الظلم الواقع عليهم ، ويعطيهم إحساسًا مزيفًا بالمشاركة فى هذا العنف عن طريق الانفعال .

يصبح الانفعال بديلاً عن الفعل ، ويعيش الشباب حالة من اللافعل والسلبية رغم إحساسهم الموهوم بالفعل .

٥ - الإعلانات والاستهلاك :

من أهم مقومات ثقافة الصابون تلك الإعلانات المتكررة الجذابة عن البضائع الكمالية المستوردة من الغرب التى تؤجج خيال رجال ونساء محرومين من ضروريات الحياة . وتدفعهم إلى شراء ما لا يحتاجون إليه . وتخلق عندهم حاجات وهمية لأشياء غير ضرورية . مثلاً فى قريتى كفر طحلة على شاطىء النيل فى الدلتا رأيت امرأة فلاحة تحمل فوق رأسها غسالة كهربية أمريكية وتسير بها نحو الترعة لتغسل ملابسها ، ورأيت شابة ترتدى رموشًا صناعية وتصبغ شفتيها « بروج » أحمر ، فى الوقت الذى ترتدى فيه حجابًا يخفى شعرها عن أعين الرجال منعًا للفتنة ! لقد شاهدت هذه المرأة فى التليفزيون إعلانًا أمريكيًا عن رموش صناعية وروج أحمر

للشفين ، وشاهدت أيضًا أحد المشايخ الإسلاميين ينصح النساء المسلمات بارتداء الحجاب . واستطاعت أن تطيع الاثنين دون أن تشعر بالتناقض .

رأيتها تمشى بخطوة تقلد بها إحدى بطلات مسلسل دالاس وتحلم بالزواج من رجل ثرى يملك بئر بترول فى الخليج العربى .

إن ثقافة الصابون السائدة تخلق هذا النمط التفكيرى السطحى القائم على الرغبة فى الاقتناء والامتلاك والخضوع لسطوة المال ، وعدم الوعى بالتناقضات الصارخة ، والفصل بين الظواهر وأسبابها .

يصبح العقل مثل العين العمياء لا يرى التناقض الواضح وضوح الشمس . وهذه هى عملية التجهيل العالمية التى تبثها وسائل الإعلام وثقافة الصابون الدولية . ثقافة مزدوجة تناقضية تخدم النظام الطبقى الأبوى المزدوج المتناقض ، يعرى جسد المرأة باسم القيم التجارية وترويج البضائع ، ويغطى رأسها باسم القيم الأخلاقية والدينية .

يلهب خيال الشباب بمشاهد الجنس والجريمة والاغتصاب فيصرفه عن التفكير فى مشاكل البطالة والفقر ، ويشجعه على الحياة الوهمية فى ضباب المخدرات . يشتت ذهنه بثقافة استهلاكية رخيصة ، يعطيه إحساسًا وهميًا بأن الحياة تخلو من المشاكل . يضيع وقته بالساعات مبحلقًا فى الشاشة المضيئة .

تلعب ثقافة الصابون دورًا فى طمس الإيجابيات ، والحكم الموروثة من التراث الشعبى ، وتفرض على الناس قيمًا مصطنعة مشوهة لبيئتهم وحضارتهم الأصلية .

كان الرقص فى قريتى كفر طحلة على إيقاع الطبلة والرق وغناء النساء بتلك الألحان الشعبية نوعًا من الجمال والفن العريق الممتد فى التاريخ المصرى القديم . لكن ثقافة الصابون الأمريكية عبر التليفزيون شوهت هذا الفن الفلكلورى الشعبى الجميل ومسخته ، فلم نعد نرى رقصًا وغناء شعبيًا حقيقيًا وإنما مزيجًا مختلطًا غير أصيل وغير أخاذ ، رقصًا ركيكًا وغناء أشد ركاكة ، مثل فلاح مصرى ينسى لغته العربية الأصيلة ويتكم بلغة إنجليزية ركيكة .

كانت العروس فى القرى فى بلادنا ترتدى جلبابًا من القطن المصرى الناعم المزين بالألوان البديعة الزاهية وتركب جوادًا . فإذا بها اليوم تركب عربة نقل وترتدى ثوبًا من النايلون المستورد الذى يجعلها تتصبب عرقًا ، وترتدى حذاء له كعب عال رفيع يدخل فى حفرات الشوارع والحوارى ويجعل خطواتها بطيئة متعرجة .

امتلأت القرى المصرية بضجيج الميكروفونات المركبة فوق الجوامع وأجهزة التلفزيون التى تذيع الأغانى التافهة والألحان السطحية والأفلام والمسلسلات الأمريكية من نوع دالاس وفالكون كريست ونشرات الأخبار التى تنقلها وكالات الأنباء العالمية وتشوه الحقائق الدينية السياسية وتبترها بما يدعم مصالح الغرب الاقتصادية ، وتفصل بين الفقر وأسبابه الكامنة فى سوء توزيع الثورة محليًا وعالميًا .

كنت ألجأ إلى قريتى الهادئة لأكتب وأفكر بعيدًا عن ثقافة الصابون التى تنتشر فى العاصمة . فإذا بالقرية أيضًا تصبح ضحية هذه الثقافة الصاخبة الضحلة بعد دخول أجهزة التليفزيون والفيديو إلى القرى .

٦ - طمس الإيجابيات :

تتجسد خطورة ثقافة الصابون فى أنها تحاول طمس الإيجابيات العريقة فى الثقافات المحلية الأصلية ، فى الوقت التى تشجع فيه التقاليد البالية التى تؤخر الشعوب ، إنها تقضى على الأصالة المناسبة لكل شعب ، فى الوقت الذى تحافظ فيه على التقاليد المزدوجة ، والقيم المتناقضة النابعة من العبوية القديمة ، وخضوع المرأة للرجل وارتفاع قيمة المال على قيمة الإنسان ، وتبرير الاعتداء والحرب ، وإخفاء الظلم الكامن فى النظام المحلى والعالمى .

إنها ثقافة مزدوجة وسطحية فى آن واحد . تسمى نفسها ثقافة مع أنها محاولة للتجهيل وإبطال عمل العقل .

تزداد خطورة هذه الثقافة فى بلادنا العربية حيث ترتفع نسبة الأمية بين النساء وحيث لا توجد ديموقراطية تساعد الناس على التفكير ، وحيث يكون الرأى العام ضعيفًا غير مؤثر ، وحيث تكون المنظمات الشعبية والأحزاب السياسية والمعارضة هزيلة بلا قدرة على الحركة والامتداد وسط الجماهير ، حيث يسود حكم الفرد الواحد،

والسلطة المستبدة ، وتحول القوانين غير الديموقراطية دون إنشاء الأحزاب أو المنظمات أو إصدار الصحف والمجلات الحرة المستقلة غير التابعة للسلطة القائمة.

تصبح ثقافة الصابون عبر أجهزة الإعلام المركزية هى الوسيلة الوحيدة للثقافة فى البلاد ، يتحول أغلب الناس إلى مستهلكين لهذه الثقافة لا يشاركون فى إنتاجها .. يجلسون أمام جهاز التليفزيون وهم بلا حول ولا قوة . يشعرون أنهم مجرد أجهزة استقبال ، ولا حيلة لهم إزاء هذه الإخطبوط العالمى الذى يدخل إلى غرف نومهم ويستولى على عقولهم ، دون أن يكون لديهم أى وسيلة للمقاومة أو المشاركة .

خلقت ثقافة الصابون جماهير من النساء والرجال سلبية عاجزة عن تذوق الفن الرفيع والأدب العميق ، ولهذا انعزل المفكرون والأدباء والأديبات ممن ينشدون العمق والجودة ، وساد الكتاب والكاتبات الذين ينشدون السرعة والسطحية والكسب السريع .

فى بلادنا العربية لعب النفط أو البترول دوراً فى تشجيع ثقافة الصابون والمسلسلات الأمريكية . ساد الفكر النفطى الاستهلاكى الكسول الأكول على الفكر الإنتاجى النشط الأصيل . سادت مسلسلات الخيانة الزوجية ، الاغتصاب ، حفلات ملكات الجمال ، جرائم سياسية وجنسية ، صفقات ومؤامرات ومقالب وقصص غارقة فى خيال مريض سقيم . سيطر برميل البترول المحكوم بالقوة العسكرية للاستعمار العالمى الجديد على الفكر والكلمة المكتوبة والصورة المرئية فى السينما والتليفزيون ، وتزاوجت الثقافة البدوية الصحراوية النفطية المتخلفة مع الثقافة الأمريكية السطحية من رعاة البقر ، ونتج عن هذا التزاوج فى بلادنا العربية هذه الثقافة السائدة التى يتغذى بها الجماهير ليل نهار . فإذا بهم عاجزون عن التمرد أو الثورة فى وجه أعدائهم الذين يسلبون منهم لقمة العيش ويفرضون عليهم الفقر والبطالة والمرض والجهل ، إذا بهم كالمخدرين ، شبه غائبين عن الوعى ، عقلهم شبه مشلول ، لا يعرفون العدو من الصديق ، ولا الخير من الشر .. يتصورون أن أمريكا التى تقتلهم بسلاحها هى الصديقة والأم الحنون ، وراعية حقوق الإنسان ، تتجسد ثقافة الصابون وإعلامها فيما يذاع علينا منذ نشوب أزمة الخليج .

تلعب ثقافة الصابون فى بلادنا دورًا فى أن تقلب الحقائق رأسًا على عقب . فلا تعرف الشعوب ماذا تفعل إزاء ما يواجهها من أزمات حادة . تستسلم بلا مقاومة ، تحملق بالساعات فى الشاشة المضيئة بأفواه مفتوحة وعيون ناعسة وعقول متوقفة عن العمل ثم ينامون برؤوس مهدودة تعانى الصداع والإحباط واليأس .

ويصبح العدو داخل الإنسان ذاته . داخل عقل الإنسان ذاته . يصبح الإنسان عدو نفسه فلا يعرف حقوقه ولا يعرف كيف يتمرد وضد من ؟

يتصور أن التمرد ضد الفقر والمرض إنما هو تمرد ضد الله .

وهكذا يصبح « الله » فى هذه الثقافة الصابونية هو النظام السياسى العالمى وما ينتجه من إعلام وثقافة .

ولهذا ليس غريبًا أن تنتشر التيارات السياسية الدينية المتطرفة . سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو بوذية أو هندوكية .. إلخ .

وبمثل ما تلعب ثقافة الصابون بورقة السياسة تلعب أيضًا بورقة الدين ، ولا تعدم أى وسيلة لغسل مخ البشر من أى فكر منطقى يبحث عن الأسباب الحقيقية لأى أزمة دون أن يلقى بالمسئولية على الله أو الشيطان .

فى هذه الأيام الأخيرة ومنذ احتشاد القوات العسكرية الأمريكية (والمتعددة الجنسية) على أرض السعودية تقوم ثقافة الصابون والإعلام التابع لها بإيهام الشعوب العربية أن هذه القوات الأجنبية جاءت من أجل حمايتها ومن أجل تأكيد الديموقراطية وحقوق الإنسان . وهكذا تعيش الشعوب العربية الوهم بأن أعداءها هم حماتها وحين يصبح العدو هو الحامى يتأكد معنى الاستعمار ، ألم تحتل بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ تحت اسم الحماية البريطانية ؟!

● ● ●

التناسب العكسى(*)

إن الوصول إلى قمة الشهرة فى الصحافة أو الأدب أو الفكر أو الفن لا يعنى دائمًا الكفاءة النادرة والعبقرية الخارقة للعادة . خاصة فى بلادنا العربية حيث تهيمن السلطة على معظم منابر الصحافة والأدب والفكر والفن . ويتمتع الشعب المصرى رغم مشاكله المتعددة بذاكرة لا بأس بها ، وهو يعرف الرجال والنساء الذين حملوا القلم فى أشد الأزمات وعبروا عن رأيهم وفكرهم غير هيابين وغير خائفين من تشريد أو فصل أو سجن ، ويعرف أيضًا الذين تراجعوا أو صمتوا وآثروا السلامة داخل الوطن أو خارجه .

بالطبع لسنا فى زمن البطولات الفردية ، ولابد من أحزاب سياسية قوية لها قواعد شعبية قادرة على حماية أصحاب الرأى والقلم ، لكن هناك فرقًا بين مَنْ يواجه العاصفة وبين الذى ينتظر حتى يهدأ الجو . هناك فرق بين من يواجه الخطر وبين الذى ينتظر الأمان .

هناك فرق بين من لا يكتب إلا إذا أعطته السلطة الضوء الأخضر وبين من يكتب تحت أى ضوء من أجل أن يعبر عن رأيه وبصرف النظر عن النتائج .

ولأن زمن البطولات الفردية لم يعد موجودًا ، ولأن الأحزاب السياسية عندنا ضعيفة وبغير قواعد شعبية قوية قادرة على حماية أصحاب الرأى . لذلك يشفق الشعب المصرى على الذين يحملون القلم ويرحلون إلى الداخل أو الخارج فى عز الأزمات ، يشفق على الذين يتراجعون سواء بالصمت أو بالكلام ، ويقول : « لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها » .

(*) القاهرة فى ١٩٩٠ .

الإشفاق مطلوب ومرغوب ، ولا يمكن لأى إنسان أن يخلو من نواحى الضعف . لكن ما هو غير مطلوب وغير مرغوب هو ذلك التباهى والزهو المبالغ فيه إلى حد الغرور وتعظيم النفس . إن الشخص العظيم لا يقول عن نفسه إنه عظيم . لكن الناس هى التى تقول عنه . وعلى الذى يتحدث عن نفسه كثيرًا أن يحذر شيئًا هامًا هو أن هناك تناسبًا عكسيًا بين الثقة بالنفس وكثرة الحديث عنها .

هذا تعليق عام على ما أقرأه هذه الأيام من مساجلات ومعارك على صفحات الصحف والمجلات . وقد قرأت أخيرًا لأحد كبار الكتاب كتب عما سماهم « جيله » من الكتاب والأدباء والفنانين ، وذكر ثلاثة عشر اسمًا من الرجال . ومن النساء ذكر امرأتين فقط وكلاهما من أهل الغناء . وقال عن نفسه وعن جيله هؤلاء إنهم : « أثروا حياة مصر ثقافيًا وسياسيًا وفنيًا وصنعوا إحدى مراحل الإشعاع الباهر فى العالم العربى .. وشكلوا عقل مصر وفؤادها ووجدانها لأجيال طويلة آتية .. » .

أردت أن أتوقف قليلاً عند هذه الكلمات لأنها تعبر عن إحدى مشاكل الفكر والثقافة فى بلادنا ، وتكشف عن الطريقة التى يفكر بها معظم رجالنا الذين حققوا شيئًا من النجاح والشهرة . ولست بصدد تقييم الأعمال الفكرية أو السياسية أو الفنية التى قدمها كل أو بعض هؤلاء الأسماء من ذلك الجيل . فلكل منهم ما قدمه من أعمال ولكل منهم إيجابياته ومواقفه الوطنية المعروفة أو غير المعروفة ، وهناك أيضًا السلبيات والمواقف الضعيفة المتراجعة ..

إلا أننى لم أكن أتصور أن يكتب كاتب عن نفسه وأصدقائه بهذا الأسلوب المتعالى. بحيث يعتبر أن الإشعاع الباهر فى العالم العربى من صنع أفراد قلائل هو أحدهم .

من المعروف أن الإنسان كلما عظم قدره زادت ثقته فى نفسه وقل غروره . بالإضافة إلى أن الإشعاع الباهر فى العالم العربى إن كان هناك إشعاع باهر يرجع إلى عدد من العوامل وجهود أجيال وأجيال وليس جيلاً واحد أو مجموعة قليلة فى جيل واحد .

وهناك أيضًا من يتساءل عن ذلك الإشعاع الباهر فى العالم العربى . أين هو ؟ وهل هو إشعاع ثقافى فقط ؟ وهل هناك إشعاع ثقافى بدون إشعاع ديموقراطى ؟ وإذا كان الجميع يتكلمون عن التدهور الثقافى فهل معنى ذلك أن هذا الجيل العظيم المشع قد توقف عن الإشعاع ؟ ولماذا ؟ وإذا كان قد توقف عن الإشعاع فلماذا التباهى بالماضى والهروب من الحاضر ؟ .

ولماذا يفتقر هذا الجيل العظيم المشع إلى النساء المشعات إلا امرأتان من عالم الغناء . كأنما المرأة المصرية لم يكن لها نصيب فى الإشعاع إلا عن طريق الغناء . فالرجل يكتب ويؤلف ويشع فكريًا لكن المرأة تغنى وترقص . وهذا يكشف لنا عن نوع التفكير الذى يسود ويعبر عن الأزمة الثقافية والفكرية التى يعانى منها بعض أصحاب القلم فى مصر . إنهم لا يتابعون إنتاج المرأة أو الثقافة ولكنهم يتابعون الأغانى والرقصات . إنهم لم يتعودوا بعد على تذوق أو تفهم إنتاج المرأة الفكرى ، وقد درجوا على ألا يعرفوا من المرأة إلا الغلاف الخارجى ، الصوت المسموع فى الغناء أو الحركات المرئية فى الرقص أو التمثيل .

لاشك أن الغناء والرقص والتمثيل فنون عظيمة مثل الأدب والصحافة والسياسة ، لكنى ألاحظ أن بعض رجال الفكر والثقافة فى بلادنا لازالوا واقفين فى نظرتهم للمرأة عند مرحلة التذوق الحسى ، أى تذوق ما يُسمع بالأذن من صوتها وما يُرى بالعين من حركات جسمها .

• • •

على موسيقى الشعر.. ترقص الخيول (*)

بدأ الأدباء والفنانون والصحفيون فى بلادنا يناقشون موضوعات لم تكن محل نقاش مثل : هل الموسيقى حرام ؟ ومنذ خمسين عامًا حين كنت طفلة فى الخامسة كان أبى (وهو أستاذ دين وفقه ولغة) يقرأ لى أبيات الشعر ويهز رأسه على أنغام موسيقى الشعر . والناس جميعًا وعلى رأسهم الشعراء يعرفون أن الكلمات حين ترتب بشكل متسق منسجم العبارات الصحيحة لها موسيقى تطرب لها آذان الناس . وآذان الخيول أيضًا تطربها الموسيقى ، فتهز رؤوسها وتحرك أرجلها بحركات راقصة متسقة مع النغم . وقرأ لى أبى وأنا طفلة من كتاب الأغانى للأصفهانى ، وقال لى إن أجود الخيول كانت تعرف عند العرب والمسلمين بقدرتها على تذوق الموسيقى والرقص على الأنغام بحركة متقنة ليس فيها حركة نشاز .

وإذا كان أسلافنا القدامى قد حكموا على الجواد الجيد بقدرته على تذوق الموسيقى والرقص على أنغامها فهل نحكم اليوم على الإنسان الذى يتذوق الموسيقى بأنه إنسان فاسد أو خليع .

لقد اتضح لأسلافنا أن الجواد الذى يتذوق الموسيقى أكثر تهذيبًا من الجياد الأخرى ، بمعنى أنه قادر على التحكم فى حركة جسمه العشوائية الفوضوية لتصبح حركة محكومة بإيقاع الموسيقى وهى حركة عقلية تمامًا ، فإن خلايا المخ هى التى تتحكم فى حركة الجسم حين تصلها الموسيقى عن طريق الأذن ، ويتحول النغم فى خلايا المخ إلى إحساس بالسعادة، وترسل هذه الخلايا الشفرة عبر الأعصاب وتبدأ عضلات الجسم فى التعبير عن السعادة بتلك الحركات المنسجمة مع إيقاع الموسيقى.

منذ ولدنا من بطون أمهاتنا ونحن نطرب لسماع الموسيقى . بل إن الجنين فى بطن أمه يطرب للصوت المنغوم . فالأصوات تمشى مع دم الأم إلى جسم الجنين وأذنيه

(*) نشر بجريدة الأهرام فى ١٩٨٨/٥/١٩ - ص ١٢ .

الناشئتين ويولد الطفل من بطن أمه عاشقًا للموسيقى ، حاملاً فى خلاياه الإحساس بالطرب كشفرات إلكترونية داخل الجينات والكروموسومات . وكشفت الأبحاث الأخيرة عن الغموض الذى كان سائدًا حول عبقرية بعض الأطفال . إن جزءًا من القدرة الإبداعية أو العبقرية تورث مع الجينات فى خلايا الجسم ، والجزء الآخر يكتسب عن طريق التعليم والتدريب والشجاعة والحرية فى الكشف عن الإبداع الجديد .

وقد نجح أسلافنا فى تدريب الخيول على تذوق الموسيقى والرقص على أنغامها . وفى التجارب الحديثة استطاعت بعض أنواع القرود العزف على البيانو ، والتمييز بين النغمة الموسيقية والنغمة النشاز . ويمكن للإنسان المدرب على سماع الموسيقى أن يفرق بين اللحن الموسيقى وبين اللحن النشاز بصرف النظر عن الآلة التى يعزف عليها اللحن . طبلة كانت أو مزمارًا أو بيانو أو جيتارًا أو كمنجة . فاللحن الموسيقى الجميل لا يفرق بين آلة شرقة أو آلة غربية ، والأذن الإنسانية الفنانة تعلو فوق الآلة وفوق تضاريس الجبال والحدود الجغرافية التى تقسم البشر إلى شرق وغرب أو شمال وجنوب أو يسار أو يمين . فهل نتهم فنانًا بالعمل لحساب الغرب إذا تذوق لحنًا يعزفه البيانو أو الجيتار ؟ أو نتهمه بالعمل لحساب المعسكر الشرقى لأنه تذوق لحنًا تعزفه آلة شرقية من هناك ؟

إننا نعرف الله فى جمال الطبيعة . لم ير أحد منا الله بعينه ، ولا سمعه بأذنه . ولكننا عرفنا الله بعيوننا حين رأينا جمال الزرع الأخضر تحت أشعة الشمس . وعرفنا الله بآذاننا حين سمعنا موسيقى المياه فى النهر وغناء العصافير فى الصبح ..

● ● ●

حــول جـائزة نوبــل(*)

لا يمكن لأحد أن يتجاهل القيمة الأدبية لبعض الأدباء الذين فازوا بجائزة نوبل أمثال نجيب محفوظ وبابلو نيرودا وجابريل جارسا ماركيز إلا أن مثل هذه الاختيارات الصائبة أحيانًا لا تجعلنا ننسى أن هذه الجائزة تبتعد عن الصواب فى معظم الأحيان ، فهى مؤسسة يتحكم فيها مجموعة قليلة من الرجال لا يزيد عددهم عن مجموع أصابع اليد ، وكلهم من بلد أوروبى صغير هو السويد ، ولهم بالطبع ميولهم الخاصة التى تؤثر على اختياراتهم ، ولهذا السبب لم ينل هذه الجائزة أعظم كتاب العالم أمثال ليون تولستوى وإميل زولا وأنطوان تشيكوف وجيمس جويس وبيرتولت بريخت ومارسيل بروست وتوماس هاردى وجراهام جرين وغيرهم من قدموا أكثر الأعمال الأدبية قيمة إنسانية . لكن جائزة نوبل تجاهلتهم لأسباب سياسية مختلفة .

إن هذه القلة من الرجال التى تسيطر على جائزة نوبل داخل الأكاديمية السويدية لهم فلسفتهم ومزاجهم السياسى فى الحكم على الأدب . إنهم رجال ، ولذلك لا يقدرون إبداع النساء ، إلا نادرًا ، ولأسباب أغلبها سياسى ومنذ إنشاء جائزة نوبل (١٩٠١) لم يفز بها من الأديبات إلا كاتبات العالم الأول : هن من السويد والنرويج وإيطاليا وأمريكا وألمانيا ، وفى عام ١٩٤٥ حصلت عليها الكاتبة التشيلية جابرييلا ميسترال ، وفى عام ١٩٦٦ حصلت عليها كاتبة تعيش فى السويد اسمها نيللى ساكسن ، وشاركها الجائزة كاتب آخر اسمه أجنون المقيم بالقدس ، وجاء فى حيثيات منحهما الجائزة هذه العبارة : « إنهما يمثلان رسالة إسرائيل فى عصرنا هذا » .

أول أديب عالمى رُشح لهذه الجائزة عام ١٩٠١ هو إميل زولا . لكن « ألفريد نوبل» لم يكن يحب أميل زولا . أو لم يفهمه . كان الأدب عند ألفريد نوبل (مخترع الديناميت) نوعًا من التحليق فى الخيال والأحلام الرومانتيكية بعيدًا عن الواقع المادى الذى يعيشه

(*) القاهرة فى ١٩٨٨ .

الفقراء . كان ألفريد نوبل يعيش فى مجتمع طبقى أبوى (رأسمالى) ورث الفلسفة المثالية المغرقة فى الخيال والغيبيات ، تلك الفلسفة الموروثة عن فلاسفة اليونان القدامى الذين تصوروا العبودية والفقر نظامًا سماويًا . ولهذا السبب لم يشعر ألفريدنوبل بآلام أبطال إميل زولا المادية ، ولم يدرك إنسانية هذا الأديب الفرنسى العظيم . ومُنحت الجائزة إلى شاعر حالم محلق فى سماء بلا أرض اسمه سولى برودوم . لقد اندثر اسم سولى برودوم ولم يعد أحد يذكره اليوم رغم أنه حصل على جائزة نوبل ، لكن إميل زولا وأعماله لا تزال تعيش حتى يومنا هذا .

إن الأدب العظيم فى غير حاجة إلى جائزة نوبل ، بل إن جائزة نوبل هى التى فى حاجة إلى أدب عظيم (من حين إلى حين) كى تبقى وتحافظ على كيانها .

وفى عام ١٩٠٢ . كان تولستوى مرشحًا للجائزة لكن لم يحصل عليها مثل إميل زولا ، وحصل عليها فى ذلك العام مؤرخ يسمى « مومسن » على كتابه « تاريخ روما » . هل يذكر أحد منا اسم مومسن ؟

وفى ذلك العام خاض رئيس لجنة جائزة نوبل حربًا ضارية ضد تولستوى ووصف أبطاله بأنهم منحطون ينتمون إلى الدرجات الدنيا فى الحياة الاجتماعية .

وقد اشتهرت جائزة نوبل وأصبح لها قيمة كبيرة وخاصة فى البلاد الرأسمالية الصناعية ، فهى تؤكد فلسفة هذه البلاد ، ومن خلفها تقف أموالها وسياستها تدعمها وتكسبها قوة عالمية .

وأغلب الذين حصلوا على الجائزة ينتمون إلى هذه البلاد (فيما يسمى اليوم بالعالم الأول) أما عالمنا الثالث فلا يحظى بها إلا القليل النادر ممن لا تتعارض أفكاره وفلسفته مع أفكارهم وفلسفتهم . وهذا أمر طبيعى ، فهل يمكن أن تمنح أكاديمية سويدية جائزة أدبية لمن يعارضها ويختلف معها اختلافًا جذريًا !؟

وهكذا فإن حصول نجيب محفوظ هذا العام (١٩٨٨) على جائزة نوبل ليس مكسبًا له ولبلادنا بقدر ما هو مكسب للجائزة وللأكاديمية السويدية ومحاولة لإضفاء نوع من العدل أو الموضوعية على حكمها .

ولهذا شعرت بالنفور من تلك المبالغة فى الاحتفالات بفوز نجيب محفوظ بالجائزة، واعتبارها نصرًا باهرًا للأدب العربى وعبورًا لهذا الأدب من المحلية إلى العالمية .

إن الأدب العربى فى غير حاجة إلى جائزة سويدية ليصبح عالميًا . إننا نبالغ فى تمجيد الجائزة السويدية بقدر ما نبالغ فى تحقير أنفسنا . لم أسمع عن أديب سويدى يسعى إلى الفوز بجائزة عربية ليصبح عالميًا ! فلماذا نسعى إلى مثل هذه الجائزة لنصبح عالميين ؟!

إن الأدب المحلى الصادق الجيد المعبر عن آلام الناس فى الواقع هو أدب عالمى بالضرورة ، لأن إنسانية الأدب هى عالميته .

فى جريدة الأهرام يوم ٢٤ فبراير (١٩٩٩) فى الصفحة الأولى نُشرت هذه الفقرة تحت عنوان « شبهات حول جائزة نوبل » تقول الآتى :

« كشفت مجلة ماريان الفرنسية للمرة الأولى عن أسرار من ملفات مؤسسة نوبل.. ألفريد نوبل الذى تحمل الجائزة إسمه اقتراح على الحكومة الفرنسية إنشاء المؤسسة لمساعدة المرضى (الميئوس من شفائهم) على الموت دون ألم ، ولكن الحكومة رفضت الاقتراح مما دفع نوبل إلى تخصيص جزء من ثروته لإنشاء الجائزة ... اختيارات اللجنة للفائزين شابها بعض الغموض ، فلم تمنح لعالم مثل « فرويد » أو الأديب « مارسيل بروست » ... من أخطاء اللجنة منحها الجائزة للعالم ألبرت اينشتاين لملاحظاته عن الطاقة المحركة للكهرباء وليس على نظرية النسبية ... وسرت شائعات بأن اللجنة لم تفهم فكر اينشتاين ... والغريب أيضًا أن بعض العلماء حصلوا على الجائزة دون أن يكون لهم جهد فى مجال الجائزة ، مثل الجائزة التى منحت عام ١٩٢٣ لكل من فريد ريك بانتينج وچون ماكليود لاكتشاف الأنسيولين ، وظهر بعدها أن چون ماكليود لم يشارك فى التجارب الأخيرة على الإنسيولين . (جريدة الأهرام ٩٩/٢/٢٤ ص ١) .

• • •

الكاتب الكبير والكاتب الحر(*)

كتب الأستاذ بدر الديب فى الأهرام (١٩٨٧/٩/٢٥) ما معناه أن ليس هناك « مفكر حر » فى تاريخنا الحديث ، وأن ما قدمه المفكرون من أول رفاعة حتى الحكيم ولويس عوض سلسلة من التراجعات عن الدعوات الفكرية الحرة . وأرجع السبب فى هذا إلى أن المؤسسات تُبنى دائمًا من السلطة ، ولم نعرف المؤسسات التى يملكها الرأى العام القادرة على حماية الفكر الحر .

وكنت أتوقع من بدر الديب أن يتطرق إلى مكمن الداء الحقيقى . فلماذا يتراجع كبار الكتاب فى بلادنا أمام السلطة ؟ ولماذا لم تنشأ هذه المؤسسات الشعبية البعيدةعن السلطة ؟ وهل يمكن أن نعتبر النقابات المهنية ومجالس التمثيل الشعبى والجامعات والإدارة الحكومية والتعليم ضمن هذه المؤسسات كما كتب بدر الديب ؟ هل يملك هذه المؤسسات الرأى العام . أم أن السلطة هى التى تبنيها ؟! لقد عشت تجربة العمل النقابى داخل نقابة الأطباء واشتغلت فى وزارة الصحة ، ولم أجد أى فارق يذكر بين الاثنين فى علاقتهما بالسلطة . وأعتقد أن هذا القول ينطبق على معظم النقابات والجامعات ومجالس التمثيل الشعبى وغيرها .

أما الجمعيات غير الحكومية الأهلية فهى تابعة لوزارة الشئون الاجتماعية . ويمكن لمن يشاء أن يخوض بنفسه تجربة إنشاء جمعية ثقافية أو اجتماعية ليدرك العلاقة الوثيقة بين السلطة والجمعيات الأهلية . والأحزاب السياسية فى بلادنا هل هى مستقلة عن السلطة ؟

أما السؤال الثانى فهو خاص بتراجع كبار الكتاب أمام السلطة . أنا أتساءل : هل يمكن لكاتب فى بلادنا أن يحصل على لقب « كاتب كبير » دون أن تكون له علاقة بالسلطة أو إحدى مؤسساتها الصحفية ؟!

(*) سبتمبر ١٩٨٧ .

يقول بدر الديب أن الازدواجية كانت دائمًا الطابع العام لكبار المفكرين والكتاب فى بلادنا ، فهم يعبرون عن جزء فقط مما يعتقدون ، وإذا حدث وعبروا بصراحة كاملة فإنهم يتراجعون بسرعة . والسؤال المهم : لماذا يحدث ذلك ؟

والإجابة بسيطة . فإذا كان الكاتب فى بلادنا لا يصبح « كاتبًا كبيرًا » إلا إذا باركته السلطة أو جلس على مقعد فى إحدى مؤسساتها فكيف يمكن له أن يصطدم بالسلطة دون أن يفقد مقعده أو المساحة التى ينشر فيها . ويدرك الكاتب أنه لا يستطيع أن يكون « كاتبًا كبيرًا » و « كاتبًا حرًا » فى الوقت ذاته .

ويفضل معظم الكتاب فى بلادنا أن يكونوا « كبارًا » على أن يكونوا « أحرارًا » ذلك أن حرية الفكر فى بلادنا ثمنها باهظ ، ابتداء من السجن والفصل والتشريد والنفى . إلى الإهمال والتجاهل والصمت، والمشكلة أن معظم الكتاب الكبار فى بلادنا لا يحتملون الصمت . لا يحتمل الواحد منهم أن يقرأ الصحف والمجلات فلا يجد شيئًا عنه . كأن السكوت عنه نوع من القتل . هكذا كتب يوسف إدريس عن توفيق الحكيم . وكتب عنه أيضًا أنه كان يتقن لعبة الإفلات من الموقف الصعب الحرج ، فلا هو مع التقدم ولا ضده ، ولا هو مع الديموقراطية ولا ضدها ، ولا هو مع الثورة ولا ضدها . ورد فتحى العشرى على يوسف إدريس فى الأهرام (١٩٨٧/٩/٢٠) قائلاً : إن الحكيم ليس وحده فى هذا ، وأن يوسف إدريس شبيه بالحكيم .

ورغم اتفاقى مع بدر الديب فى كثير مما جاء فى مقاله إلا أننى أختلف معه فى إنكاره التام لأى دعوة للتفكير الحر فى تاريخ الدين أو اللغة أو مؤسسات مجتمعنا الأساسية . وقد أشار فى هذا الصدد إلى محاولة لويس عوض فى فقه اللغة واعتبرها محاولة مكبوتة قاصرة .

ولا أدرى لماذا لم يبحث بد الديب عن المفكرين الأحرار خارج « كبار الكتاب » الذين حكم عليهم من قبل بالتراجع السريع أمام السلطة !؟ لقد قرأت فى السنين الأخيرة عددًا من الكتب بأقلام رجال ونساء من ذوى الفكر الحر . لكن هذه الكتب لم تسلط عليها الأضواء (فالأضواء تملكها السلطة) ولم يحصل أصحاب هذه الكتب

على لقب « كاتب كبير » . لكن هذه الكتب موجودة . ويقرأها الناس ويتحدثون عنها فى البيوت .. والمشكلة أن أحدًا لا يحاول دراسة مثل هذه الأفكار الحرة ، لأن أصحابها من المغمورين الذين لا تتحدث عنهم الصحف ، أو لأن أصحابها من المغضوب عليهم الذين لا علاقة لهم بالسلطة .

إن أعظم الكتاب والمفكرين فى العالم ماتوا وهم مغمورون مسكوت عنهم طوال الوقت . ومع ذلك عاشوا ولم يقتلهم السكوت عنهم . أما فى بلادنا فإن « كبار الكتّاب » يموتون إذا سكتت عنهم الصحف والمجلات بضعة أيام متتالية . وربما لهذا السبب يقل إنتاج الواحد منهم بإزدياد الحديث عنه ، ولم يستطع أى كاتب من هؤلاء الكبار أن ينشىء مؤسسة فكرية جديدة غير تابعة للسلطة ، أو يكوّن جمعية ثقافية أو اجتماعية تشجع الأفكار الجديدة أو المواهب الشابة .

إن الشباب فى بلادنا يفتقد القدوة والنموذج لدى كبار الكتاب . فإذا أصبحوا هم القدوة والنموذج جاءت الأجيال الجديدة كالقديمة وتكرر هذا النمط الذى يتقن لعبة الإفلات من الموقف الصعب الحرج . فلا هو مع التقدم ولا ضده ، ولا هو مع الحق ولا ضده . وبالتالى يفلت من كل الأزمات ولا تصيبه الضربات ، ويظل طافيًا فوق السطح مستمتعًا بمكانه العالى ولقب « الكاتب الكبير » .

● ● ●

تعليق على مقال الدكتور يوسف إدريس

الكاتب المبدع والفصل بين السلطة والمسئولية(*)

فى مقاله « ليس الفتور ولكنه الغضب » (الأهرام ١٢ يناير ١٩٨٧) كتب الدكتور يوسف إدريس عن دور الكاتب فى بلادنا . قال إن الكاتب يضع إصبعه على مكان الألم فى جسم المجتمع . وإذا صرخ الناس فى وجهه فهذا دليل على أنه كشف عن نوع ومكان المرض . مثل الطبيب الذى يعمل « المجسات » محاولاً تشخيص الداء . لكن دور الكاتب فى رأيى أكبر بكثير من دور الطبيب المعملى أو طبيب الفحوص والاختبارات . بل هو أكبر من دور الطبيب الذى يعالج . فالطب العلاجى لا يهتم إلا بالأعراض .

أما أسباب الأمراض فنحن لم ندرسها فى كلية الطب . لأن التعليم قائم على فصل الأسباب عن النتائج . إن كلمة لماذا ؟ من الكلمات المحرمة فى طفولتنا وشبابنا وكهولتنا . كلمة لماذا تعنى البحث العميق عن الأسباب الحقيقية لأى مشكلة . وهذا يعنى العودة إلى التاريخ ودراسة الماضى . وهذا أمر يقتضى الكثير من الجهد والتعب والصبر . ويقتضى أيضًا تجاوز حرمة الماضى .

إن دراسة التاريخ عندنا شبه محرمة ويطلق عليها نبش الماضى . كما أن التاريخ فى جامعاتنا مفصول عن العلوم الأخرى . الذين يدرسون الأسباب لا يدرسون النتائج والعكس صحيح . ثم إن التاريخ الرسمى هو الذى يدرس فحسب . وفى هذا التاريخ الرسمى تختفى الأسباب الحقيقية للأزمات والأمراض والهزائم . بل إن الهزيمة تتحول إلى نصر وقرارات الملوك والرؤساء الخاطئة تتحول إلى قرارات صائبة شبه إلهية .

كتب الدكتور يوسف إدريس عن ظاهرة الوساطة والمحسوبية والكوسة وغياب العدل . لم يكتب لنا لماذا يغيب العدل ؟ كتب عن عجز الدخول التقليدية عن مواجهة الأعباء وغلاء الأسعار . عن غياب استراتيجية متكاملة أو خطة شاملة للعمل السياسى

(*) هذا المقال أُرسل إلى جريدة الأهرام فى ١٤ يناير ١٩٨٧ لكنه لم يُنشر .

والتعليمى والدفاعى والصحى والتطبيق الاشتراكى والديمقراطية . ولم يكتب لنا لماذا يغيب كل هذا ؟ قال إن الأطباء الاجتماعيين التقليديين ينشغلون بمشاكل فرعية مثل مشكلة الانفجار السكانى التى لا تشغل بال إلا ١٪ من السكان فى مصر .. إلخ .

وينسى الدكتور يوسف إدريس أن الأطباء الاجتماعيين التقليديين يركزون دائمًا على المشاكل التى يركز عليها رئيس الدولة فى مصر . إذا تحدث رئيس الدولة فى خطبته عن المشكلة السكانية اختفت كل المشاكل ولم نقرأ أو نسمع إلا عن المشكلة السكانية . إذا تحدث الرئيس عن الصحوة الكبرى تبارت الأقلام فى الحديث عن الصحوة الكبرى .. إلخ .

مَنْ ذلك الكاتب الذى يقول لرئيس الدولة فى بلادنا أنت أخطأت . يقولها فى حياته وليس بعد موته ؟ إن رئيس الشركة قد يحاسب والوزير قد يحاسب ورئيس الوزراء أيضًا قد يحاسب على خطئه ويعزل من منصبه . لكن رئيس الدولة عندنا لا يحاسب ولا يعزل إلا بالموت . مع أن الواجب هو أن المسئول الأول يحاسب أولاً . ورئيس الدولة عندنا هو المسئول الأول لأنه يمسك فى يده على السلطة . فهو ليس كالملك يملك ولا يحكم . إنه يحكم كل شىء . ويصدر جميع القرارات ابتداءً من قرار الحرب إلى قرار نشر خبر فى جريدة . أو إيقاف كاتب أو كاتبة عن النشر . وفى يده إصدار القوانين ابتداءً من قانون الانتخاب إلى قانون الزواج والطلاق إلى قوانين الاعتقال والسجن . رغم هذه السلطة شبه المطلقة فهو لا يحاسب . وبالتالى فهو غير مسئول عن الهزيمة العسكرية مع أنها نتيجة قراره . وهو غير مسئول عن الديون أو التبعية للرأسمالية العالمية مع أنها النتيجة الطبيعية لقراره الاقتصادى ، إنه غير مسئول عن الشر مع أن هذا الشر وقع بإرادته وقراره .

الرئيس عندنا مثل الإله مسئول عن الخير فقط . مَنْ المسئول إذن عن الشر ؟ عن الخلل فى ميزان المدفوعات ؟ عن الفساد والكوسة والاختلاس ؟ عن الردة وتعديل القوانين إلى الوراء ؟ عن اعتقال الناس بلا جريمة ؟!

المسئول ليس هو صاحب السلطة والقرار . وإنما شخص آخر أصغر . كبش فداء. لا يملك السلطة ولا القرار . يقدم إلينا على أنه الشيطان . يطرد أو يلعن . ويظل الإله فوق عرشه بعيدًا عن المساءلة . فوق الحساب . إلا أمام الله بعد الموت .

هذه هى الحقيقة التى لا يقول الدكتور يوسف إدريس إنها مطلوبة لحل مشاكلنا ابتداءً من الاحتلال حتى مشكلة الديموقراطية والعدل وحقوق المرأة والطفل والديون والتبعية .. إلخ .

هل يمكن الفصل بين مشاكلنا العامة والخاصة ؟ هل يمكن الفصل بين الدولة والأسرة ؟ هل يمكن أن يمارس الأب الدكتاتورية فى بيته ثم يفتح الباب ويخرج فينقلب ديمقراطيًا ؟!

إن أسس العدل والديمقراطية تقوم على عدم الفصل بين السلطة والمسئولية . لكن السلطة عندنا منفصلة عن المسئولية فى الدولة وفى الأسرة . الأب فى العائلة يملك السلطة لكنه غير مسئول إذا طلق زوجته بلا سبب أو تزوج أربع نساء بلا سبب إلا للنزوة الشخصية . والرئيس فى الدولة يملك السلطة لكنه غير مسئول إلا بعد موته.

لماذا لم يقدم مجلس الشعب على عزل أحد الرؤساء فى الدولة المصرية ؟! ألم يتسبب واحد منهم فى هزيمة أو ديون أو تبعية ؟ لماذا يكون نقد الرئيس صعبًا ؟ والأسهل منه نقد الناس والفقراء الذين لا يملكون إلا الفتور أو اليأس أو الغضب اليائس بلا فعل .

ويقول الدكتور يوسف إدريس : إن المصرى أصبح يحارب المصرى وإن الأحقاد الشخصية تفصل بين الزميلين فى حزب واحد . وهذه ظاهرة مرضية فعلاً . لكن لم يقل لنا لماذا يحدث ذلك ؟

ثم ما الفرق بين الغضب والحقد ؟ إذا كان صاحب الكفاءة الأدبية لا يستطيع النشر . والموظفون فى الدولة يشغلون معظم الصفحات فى الجرائد والمجلات . فهل إذا غضب صاحب الكفاءة من هؤلاء نقول إنه حاقد عليهم لأنهم يملكون الصحف وهو لا يملك ؟ إذا امتلكت امرأة عاطلة بلا عمل أربعة سيارات وافتقدت امرأة عاملة مقعدًا فى الأتوبيس فهل إذا غضبت المرأة الثانية نقول إنها حاقدة ؟

إن الظلم يؤدى إلى الغضب . والغضب المكتوم بغير فعل يؤدى إلى الإحباط

والشعور بالفشل . والإحباط إذا استمر طويلاً يؤدى إلى الحقد . وهذه كلها مشاعر إنسانية لها أسبابها . وقد يحقد كاتب فاشل بلا مواهب على كاتب ناجح موهوب . لكن إذا حقد الكاتب الموهوب على كاتب بلا موهبة يملك سلطة النشر أو عدم النشر . فهل يكون الحقد الأول مثل الحقد الثانى ؟

إن المقاييس عندنا عكسية مزدوجة ومتناقضة . كلما ازداد الإنسان صدقًا وعمقًا فى التفكير وموهبة فى الإبداع ازدادت المشاكل من حوله والمصاعب . النجاح فى بلادنا لا يعتمد على العمل والجهد والخلق والصدق . وإنما يعتمد على الصلات بذوى السلطة وأصحاب الصحف .

النشر فى الصحف سلطة . ويتبارى الناس للكتابة والنشر . لماذا يترك أساتذة الجامعات الطلبة والمحاضرات ويدورون على الصحف لنشر مقالاتهم ؟ لأن النشر فى الصحف سلطة تقرب الكاتب من السلطة . سواء السلطة فى الحكومة أو السلطة فى الحزب الحاكم أو الحزب المعارض . ولهذا لم يعد الناس يقرأون ما يكتب فى الصحف. فالكتابات مكررة مملة خالية من الأفكار الجديدة . خالية من الصدق والإبداع . كتابات هدفها السلطة وأصحاب النفوذ فى الدولة أو الحزب .

ولهذا تختفى الكتابات الحقيقية المبدعة سواء فى صحف الحكومة أو المعارضة. إن الكتاب المبدعون الحقيقيون لا ينشر لهم أحد . فلا أحد مستعد للتضحية بصلاته الطيبة بأصحاب السلطة فما بال إغضابهم ؟!

إن دور الكاتب هو الإبداع وتقديم الفكر الجديد الذى يضىء الطريق للناس . دور الكاتب هو تفتيح عيون الناس على أسباب الظلم وغياب العدل . هذا الضوء هو السبيل الوحيد لتحويل الغضب أو الحقد أو اليأس إلى طاقة جديدة نحو العمل لإزالة أسباب الظلم . هنا يصبح للكلمة الصادقة دوى يهز القلوب والعقول فتسقط عنها الغشاوة والسحابة وترى المشاكل فى ضوء جديد . وهذا لا يحدث فى بلادنا . لماذا ؟ وندور فى الحلقة المفرغة .

• • •

ماذا يقول هؤلاء الكتاب ؟ (*)

[فى الأسبوع الماضى قال الأديب مصطفى محمود إن الوقت قد حان لأن تعود المرأة إلى البيت .. وإن المرأة عندما خرجت للعمل دمرت بيتها ونفسها .. اثارت آراء د. مصطفى محمود ردود فعل كثيرة ومتباينة خاصة بين المثقفات .. وينشر هذا الأسبوع المقال الذى ترد فيه د. نوال السعداى على آراء د. مصطفى محمود] .

فى هذه الفترة العصيبة التى يحاول فيها العقل المصرى المتحضر مواجهة التيار السلفى الذى حاول العودة بنا إلى ما قبل ظهور البوصلة أو الساعة الشمسية وإلى عصر الحريم لتكون المرأة إما جارية أو غانية . يخرج علينا كاتب مثل د. مصطفى محمود ليعلن فى صفحة شبه كاملة بأخبار اليوم (٢٤ أغسطس ١٩٨٥) أن عمل المرأة إهانة وإن كانت وزيرة . وما الذى تعنيه الوزيرة ؟ .. كانت المرأة تحكم العالم من غرفة النوم ! لم يعد للرجل سلطات .. وأصبحت المرأة تحكمه بالإيراد .. وعليها أن تعود إلى البيت لينفق عليها الرجل ..

وهكذا يستمر مصطفى محمود فى حديثه الطويل يتحسر على العصر الذهبى القديم لملوك القرن السادس عشر حين كانت المرأة تحكم الملوك من غرف النوم .. والمشكلة عند مصطفى محمود ليس أن تحكم المرأة العالم ولكن من أين تحكمه ؟..

ويعترض مصطفى محمود على أن تحكم المرأة من مكتب فى وزارة أو من علم فى رأسها ، وإنما مجالها الوحيد هو الفراش .

ولا يستخف مصطفى محمود بعقل المرأة وحدها ولكنه يستخف بعقل الرجل ، ثم إنه يدعو المرأة والفتاة المصرية إلى الفساد . بدلاً من أن يقول لها إقنعى العالم بعقلك

(*) أخبار اليوم ١٩٨٥/٨/٣١ .

وأفكارك يقول لها : تدربى فى الفراش وكونى غانية .. لا تخرجى من غرفة النوم إلى العمل ، فالعمل إهانة . وإذا خرجت فاعلمى أن عيون الرجال تحاصرك ولابد من الاختباء وراء حجاب .

وليس غريبًا أن تتخبط الفتاة بين التناقضات ، فنراها تلف شعرها بحجاب وتكشف خصرها تحت حزام ضيق مشدود وتترك دراسة الماجستير لتتفرغ لعرض أزياء المحجبات (جريدة الجمهورية ٨ أغسطس ١٩٨٥) .

● هل تعود زينب إلى البيت ؟

زينب هى ابنة عمتى فى كفر طحلة وهى تخرج من بيتها فجر كل يوم إلى الحقل لتزرع وتقلع ثم تعود عند غروب الشمس لتطبخ وتغسل وتعجن وتخبز . وحين ينادى مصطفى محمود بعودة المرأة إلى البيت فهل يوجه دعوته إلى زينب ومثيلاتها ؟

إن أغلب النساء المصريات فلاحات يخرجن من بيوتهن كل يوم للعمل بالزراعة والتجارة فى السوق ، ويعتمد دخل الدولة المصرية فى جزء كبير منه على الإنتاج الزراعى للفلاحات حيث أن نسبتهن فى قوة العمل الزراعية ٤٥٪ .

كما أن مسئولية الإنفاق على الأسرة والأطفال فى الريف المصرى اليوم تقع على عاتق النساء فى كثير من العائلات وفى المدن أيضًا . لم تعد هناك أسرة مصرية قادرة على مواجهة الغلاء دون مشاركة النساء . بل الأطفال أيضًا اللهم إلا فى محيط الأثرياء الذين يقبضون رواتب ومكافآت بالدولار أو الدينار أو البترو دولار .

● الحاجة إلى الطعام والخضوع الجنسى :

ويعترض د. مصطفى محمود على عمل المرأة خارج البيت لأن سلطة الرجل تسلب منه لأنه لا ينفق على المرأة ، والمرأة حين تعمل تكون لها « الغلبة » وعلى المرأة أن تعود إلى البيت لينفق عليها الرجل .

وهكذا فإن المشكلة عند مصطفى محمود تتلخص فى عبارة واحدة : من يحكم من؟ والعلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ليست إلا علاقة حاكم بمحكوم ، وغالب

ومغلوب ، والغلبة للرجل لا تكون إلا بفلوسه ، وإنفاقه على المرأة ، وفى هذا المعنى عودة بمفهوم الزواج إلى عصور الانحطاط وهبوط بالعلاقة الزوجية إلى علاقة أشبه بالبيع والشراء . وبدلاً من أن تتطلع المرأة إلى رأس الرجل وعقله تهبط عيناها إلى جيبه ، وبدلاً من أن ترتفع عين الرجل إلى رأس المرأة وعقلها تهبط إلى نهديها وساقيها .

وتؤدى مثل هذه الأفكار إلى الربط بين الفلوس والجنس فى عقول النساء والفتيات ، أو الربط بين الحاجة إلى الطعام والحاجة الجنسية . وأن تخضع المرأة للرجل لأنه ينفق عليها ويطعمها . وهذا يناقض القيم الأخلاقية والإسلامية التى يرددها مصطفى محمود . لأنه يحول الرجل إلى كيس نقود ويحول المرأة إلى جسد فى الفراش .

وبذلك يحرم مصطفى محمود المرأة والرجل من الشرف الحقيقى الإنسانى ، وهو يشجع الرجل على إغواء المرأة بنقوده ، ويشجع المرأة على أن تأكل عن طريق الجنس وبذلك يناقض الفكرة السائدة فى تراثنا الأخلاقى : تموت الحرة ولا تأكل بثدييها !

• الأمهات الأحرار يلدن أطفالاً أحراراً :

ويحاول مصطفى محمود أن يجعل من الأم التى تشقى لتطعم أطفالها أو لتطعم نفسها السبب الرئيسى لجميع المظالم فى العالم بما فيها الحرب والقتل ويقول : إن الناس يقتلون لأنهم حرموا فى طفولتهم من حنان الأم (لخروجها إلى العمل) .

ومثل هذا الكلام لا يساعد الناس على فهم الأسباب الحقيقة للحرب والقتل أو العنف المتزايد فى بلادنا وفى العالم كله . إن القتل والعنف ينبع من إحساس الناس بالظلم والاستعمار . أن تستولى دولة على دولة بالسلاح ،بالقوة والعنف . وأن يمرض بالتخمة قلة من الناس وأن يمرض بالجوع أغلبية ساحقة . أن يتخرج الشاب فلا يجد العمل . أن يبحث الإنسان عن سكن فلا يجد ، وهناك مثل يقول إن الجوع كافر ، وقد يتحول الإنسان إلى قاتل بسبب الجوع ، والجوع قد يكون ماديًا أو فكريًا ، أزمة الطعام فى عالم غير عادل تؤدى إلى ازدياد معدلات القتل . وأزمة الفكر تؤدى إلى القتل أيضًا فى العالم وتقدم له بدل العدو الحقيقى كبش فداء بريئًا . ثم إن أخطر أنواع القتل والعنف فى عالمنا تقوم به القوى الاستعمارية دوليًا ، والحكومات المحلية التابعة لها .

● وماذا يقول يوسف إدريس ؟

وبالرغم من الاختلاف الفكرى بين رؤية مصطفى محمود ويوسف إدريس للعالم والدولة والكون ، ورغم أن مصطفى محمود يستعين فى الحكم على العالم بالقانون الدينى الإسلامى ، ويوسف إدريس يستخدم القانون الاجتماعى والسياسى والاقتصادى إلا أنهما فى حكمهما على المرأة يستخدمان قانونًا واحدًا وهو القانون البيولوچى .

وبالرغم من أن يوسف إدريس لا ينادى بعودة المرأة إلى البيت بل يطالبها أحيانًا بتكوين حزب سياسى إلا أن نظرته للمرأة لا تختلف كثيرًا فى أساسها عن نظرة مصطفى محمود .

يقول يوسف إدريس (فى مجلة صباح الخير ١٥ أغسطس ١٩٨٥) : « المرأة التى تبدع وتخلق فنًا فهى تخلقه بالجزء الرجالى الموجود فيها .. قضيب ضامر ، والرجل أيضًا فيه رحم صغير جدًا يكتب به الأدب والفن .. » .

وأساس هذه الفكرة النظرية العلمية القائلة بأن الإنسان مزدوج الجنس . وإن الفنان الخلاق هو الذى يستطيع أن يتجاوز القيود الاجتماعية ويتعامل مع الحياة بكيانه الكلى ، ويلغى ذلك الانفصام الموروث على مدى القرون بين الجسم والعقل والوجدان أو الشعور ، ويتجاوز بذلك أيضًا التناقض المفروض بين ما عرف بالرجولة والأنوثة .

وقد ساعدت هذه الفكرة على إلغاء كثير من الفروق الاجتماعية بين الرجل والمرأة والتى كانت تغلف بالفروق البيولوچية .

لكن يوسف إدريس لا يأخذ من هذه الفكرة إلا خارجها . ولا يسوقها لتشجيع المرأة المصرية على الإبداع بكيانها الكلى ، وإنما ليحدد إنتاجها الأدبى والفكرى ويجعل مصدره الوحيد الجزء الذكرى فيها . والرجل أيضًا لا يكتب إلا بالجزء الأنثوى فيه ، الرحم والمبايض . وهكذا يتحول الفكر الخلاق إلى مجرد إفرازات الأعضاء الجنسية .

ولا أحد ينكر أن الهرمونات الجنسية لها تأثير على بعض مراكز المخ . لكن يوسف إدريس يحاول أن يفرض على الأعضاء الجنسية وظيفة فكرية ، ولا يقول كلمة واحدة

عن علاقة الفكر والأدب بذلك العضو فى الجسم الذى يسمى « المخ » وهكذا وقع فى الخطأ الذى وقع فيه « فرويد » فى أواخر القرن التاسع عشر حين تصور أن لا شىء يحرك الإنسان إلا الجنس ، وأن « الأنا العليا » عند المرأة أو إبداعها الأدبى ليس له من مصدر فى كيانها إلا العضو الذكرى الضامر وهو البظر . حسب مفهوم فرويد .

● الذئب والحمل :

وبرغم أن « فرويد » غير أفكاره فى بداية القرن العشرين وأعلن عن شكوكه فى كل ما كتبه عن المرأة إلا أن يوسف إدريس لا يشك ولا يعرف الشك ، وهو يؤكد ويكاد يقسم بالله العظيم قائلاً : لا توجد صداقة بين الرجل والمرأة إطلاقًا .. إطلاقًا ، مفيش صداقة بين الرجل والمرأة .. وهل هناك صداقة بين ذئب وحمل .. الصداقة دائمًا بين النوع الواحد .. الذى ينعدم فيه الفارق الجنسى .

وهل هناك اختزال لعلاقة المرأة والرجل أكثر من هذا الاختزال ؟ وكأنما الرجل حين يقابل امرأة يتحول فجأة إلى عضو واحد هو العضو الجنسى . والمرأة حين تقابل رجلاً تتحول بقدرة قادر إلى مجرد رحم أو مبيض .

وهكذا يلتقى يوسف إدريس مع مصطفى محمود فى النهاية .. وندرك سبب الأزمة الفكرية فى بلادنا . فإذا كانت هذه الأفكار هى التى تفرض علينا كل يوم ، وتحتل الصفحات تلو الصفحات فهل يمكن أن تكون هناك فرصة لأفكار أخرى . وإذا كانت العقول المستنيرة أو المتقدمة تلتقى مع الفكر السلفى فهل نلوم الشباب على تخبطهم الفكرى .

● ● ●

طفل الأنبوبة وصراع العصر(*)

فى كل عصر من العصور البشرية كان هناك صراع بين علماء الطبيعة والكيمياء والبيولوچى والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية وبين علماء الفلسفة والأخلاق والاجتماع وغيرها مما تسمى الآن بالعلوم الإنسانية .

حيما اكتشف علماء الطبيعة أن الأرض كروية ثار علماء الفلسفة لأنهم كانوا يتصورون أن الأرض مسطحة. لكن التصور الفلسفى شىء والحقيقة الموضوعية المجسدة شىء آخر . وفى كل العصور انتصرت الحقيقة الموضوعية المجسدة على التصورات الفلسفية .

ويحدث الصراع دائمًا عقب أى اكتشاف علمى جديد ينقل البشرية من مرحلة إلى مرحلة . ويكمن الصراع فى أن العلوم الطبيعية تتطور وتتغير وتكتشف الجديد بأسرع وأجرأ من العلوم الإنسانية . فالعلوم الطبيعية دوافعها للتقدم أكثر إلحاحًا لأنها تلبى الحاجات الضرورية عند الإنسان وتعوضه عن نقصه أو ضعفه البيولوجى فى مواجهة الحياة واحتياجاتها .

إن الإنسان من الناحية البيولچية أضعف من بعض الحيوانات مثلاً فى الجرى أو السمع . الغزال مثلاً يجرى أسرع من الإنسان ، ولتعويض هذا النقص فى ضعف عضلات الساقين اكتشفت العجلة والسيارة والقطار . والإنسان لا يطير كالطيور ، وقد عوض عن هذا النقص البيولوچى أو عدم وجود الجناحين باكتشافه الطائرة والإنسان له قدرة محدودة جدًا على السمع أو الرؤية . وعوض عن هذا النقص البيولوچى باكتشاف الأجهزة السمعية والبصرية كالتليسكوب والميكروسكوب .

ولعل أهم قصور اعترض الإنسان هو قصوره البيولوچى فيما يخص الحمل والإنجاب . منذ فترة غير بعيدة كان الإنسان لا يستطيع أن يحدد نسله . وبسبب ذلك

(*) أخبار اليوم ١٩٨٢/٧/٢ .

كان يمكن أن ينجب عددًا من الأطفال أكثر من طاقته واحتياجاته يمثلون عليه عبئًا نفسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا لا يعرف كيف التخلص منه . كذلك مثلت الزيادة السكانية فى بعض المجتمعات مشكلة ملحة . لذلك سعت العلوم الطبيعية ومنها علم البيولوجى حتى اكتشفت حبوب منع الحمل التى نقلت البشرية من مرحلة العبودية البيولوچية للنسل المفروض على الإنسان أو المجتمع إلى مرحلة أكثر تحررًا وتقدمًا .

فكرة « التبنى »

وبالمثل أيضًا كان الإنسان منذ فترة قريبة لا يستطيع أن يعالج عقمه ، ظل الرجل أو المرأة العاقر أسيرًا لقصوره البيولوچى ، يمنعه هذا القصور من ممارسة عواطف الأبوة أو الأمومة . إن عواطف الأبوة أو الأمومة في الإنسان عواطف طبيعية تحتاج إلى إشباع ، ولهذا جاءت فكرة « التبنى » كحل اجتماعى لمشكلة نفسية إنسانية وهى الرغبة فى إشباع عواطف الأبوة أو الأمومة . ثم نجحت العلوم الطبيعية أخيرًا فى علاج عقم الرجال والنساء بواسطة طفل الأنبوبة وإنشاء بنوك الأجنة ، وأصبح فى مقدور أى رجل أو امرأة عاقر أن يكون لهما طفل .

لكن العلوم الإنسانية وأهمها علم الفلسفة والأخلاق والأديان كانت دائمًا تصارع أى اكتشاف جديد . لكنها كانت دائمًا تنهزم وتضطر إلى تطوير نفسها لتواكب التقدم السريع فى العلوم الطبيعية . والسبب فى ذلك أن العلوم الإنسانية علوم نظرية تعتمد على الفكر النظرى أو الكلمة المجردة . لكن العلوم الطبيعية تلبى حاجة الإنسان اليومية العملية .

صراع حول الحبوب

لم يحدث فى تاريخ البشرية أن تراجع علم بيولوچى أمام علم الفلسفة أو الدين . مثلاً فيما تخص حبوب منع الحمل حدث صراع شديد وحاولت العلوم الإنسانية ومنها علم الفلسفة والأخلاق سد الطريق أمام حبوب منع الحمل . لكن سرعان ما انتشرت الحبوب فى جميع الدول والبلاد حتى تلك البلاد الشديدة التزمت والتى رفضت الحبوب وصارعت طويلاً كالبلاد الكاثوليكية . أيضًا حينما أنشئت بنوك الدم وبنوك اللبن ، ثم

أخيرًا بنوك العيون وبنوك القلوب وغيرها من أعضاء الإنسان التى نجح الطب الحديث فى تخزينها فى البنوك ونقلها من إنسان إلى إنسان حدث الصراع نفسه وثار علماء الفلسفة والأخلاق والدين . لكن الصراع انتهى كما كان ينتهى دائمًا بانتصار العلوم الطبيعية التى تلبى حاجة الإنسان الصحية الكاملة جسمًا ونفسًا وعقلاً ، ومازالت العلوم الطبيعية تسعى لإنشاء بنوك لمخ الإنسان بأمل نقل المخ أيضًا . وأحدثت هذه الفكرة أيضًا صراعًا فلسفيًا وأخلاقيًا ودينيًا إلا أنه لم يكن فى مثل ضراوة هذا الصراع القائم الأن حول طفل الأنبوبة وبنوك الأجنة .

كان من المنطقى فلسفيًا أن يثير إنشاء بنوك القلوب أو بنوك المخ صراعًا أشد من إنشاء بنوك الأجنة، وذلك أن المخ أو القلب أهم عضو فى جسم الإنسان وليس له بديل . أما البويضة أو الحيوان المنوى فهى تفرز فى جسم الإنسان بأعداد كبيرة جدًا . لكن نقل القلب مثلاً من إنسان إلى إنسان لن يؤدى إلى تكوين إنسان آخر أو جنين أو طفل . مشكلة بنوك الأجنة أنها تقود إلى ولادة أطفال جدد من غير طريق رحم المرأة وعن غير الطريق البيولوچى المعتاد . وقد سبق لحبوب منع الحمل أن فصلت بين الممارسة الجنسية أو البيولوچية وبين الإنجاب . لم يعد من الضرورى أن كل ممارسة بيولوچية تقود إلى ولادة طفل . كذلك بعد بنوك الأجنة وطفل الأنبوبة لم يعد من الضرورى أن كل ولادة طفل تنتج عن ممارسة بيولوچية أو جنسية .

انتصار إنسانى

إن فصل الإنجاب أو التناسل عن العلاقات البيولوچية والجنسية انتصار إنسانى على كثير من المشاكل النفسية والبيولوچية والعاطفية ، كما أنه يحرر الرجل والمرأة أحيانًا من كثير من المشاق أو المخاطر البيولوچية من أجل الحصول على طفل وإشباع عواطف الأبوة أو الأمومة .

لكن علماء الفلسفة والأخلاق والدين لا يصارعون من أجل هذا . إن الصراع الأساسى الدائر فى العالم الأن حول مشكلة « النسب » . إن طفل الأنبوبة لا ينتسب بيولوچيًا لأب معين أو أم معينة . بمعنى أنه نتج عن اتحاد بويضة امرأة مجهولة بحيوان منوى لرجل مجهول . إذ يستطيع أى رجل عاقر أو امرأة عاقر أن يذهب إلى بنك

الأجنة . ويحصل على طفل من سلالة ممتازة . ينمو بشكل طبيعى وصحى ، مثل الأطفال االآخرين الذين تلدهم الأمهات فى ظل العلاقات الزوجية الطبيعية والمصابون بالعقم لا يهمهم معرفة النسب البيولوچى ، ولكن كل ما يهمهم هو أن يكون لهم طفل وأن يمارسوا عواطف الأبوة أو الأمومة . فالأبوة والأمومة الإنسانية ليست مجرد بيولوچيًا فقط أو نسب بيولوچى ولكنها مشاعر نفسية وعاطفية . وكم رأينا كثيرًا من الأسر العواقر تتبنى أطفالاً تحبهم وترعاهم بحنان أكثر من آبائهم أو أمهاتهم البيولوچيين . وكم رأينا زوج الأم مثلاً الذى أحب أطفال زوجته بمثل ما أحب أطفاله البيولوچيين .

الأبوة والأمومة

الصراع الدائر بين علم البيولوچى وعلم الفلسفة والأخلاق والدين ليس صراعًا من أجل العواطف الإنسانية أو المحبة الأبوية أو الأمومة وذلك أن إنشاء بنوك الأجنة أو طفل الأنبوبة لن يقضى بحال من الأحوال على عواطف الأب أو الأم . بل بالعكس إنه سيجردهما من الأنانية البيولوچية ، ويتدرب الإنسان على أن يرعى ويحب أطفالاً لم يلدهم بيولوچيًا .

لكن المشكلة الفلسفية والأخلاقية تدور حول « التوريث » فالنسب البيولوچى أبويًا كان أو أمويًا كان مطلوبًا فى التاريخ البشرى من أجل الميراث . وكانت الأنانية البيولوچية البدائية تمنع الإنسان من أن يورث أطفالاً لم يلدهم بيولوچيًا . لكن التطور الإنسانى وازدياد درجة الإنسانية فى الإنسان جعلت بعض الناس قادرين على توريث أطفال لم يلدوهم ، مثلاً زوج الأم الذى يورث أطفاله بمثل ما يورث أطفال زوجته . وأنا شهدت حالات من هذا النوع فى بلادنا وفى بلاد أخرى . ثم هؤلاء الأباء أو الأمهات الذين ليس عندهم ما يورثونه هل يمثل لهم طفل الأنبوبة مشكلة ؟

إن التقدم البيولوچى دائمًا فى صف الإنسان والإنسانية . أى تقدم علمى لابد أن يكون فى صف الإنسان والتقدم بما فى ذلك اكتشاف الذرة . إن الذرة فى مجتمع إنسانى عادل تصبح فى خدمة الإنسان ، ومن أجل صحته وعلاجه وتلبية حاجاته .

لكن الذرة فى مجتمع غير عادل تصبح وسيلة للحرب والقتل . كذلك أيضًا إن حبوب منع الحمل أو بنوك الأجنة يمكن أن تكون فى المجتمع الإنسانى العادل من أجل الإنسان المرأة والرجل ، ومن أجل صحته وعلاجه وتلبية حاجاته النفسية والعاطفية والبيولوچية . لكنها فى المجتمع غير العادل يمكن أن يساء استخدامها .

الوراثة البيولوچية

لاشك أن العالم البشرى يتقدم نحو الإنسانية سواء على مستوى الفرد أو مستوى المجتمع . فى الأنظمة الملكية القديمة (وفى بعض البلاد اليوم) كان العرش يورث بيولوچيًا . بمعنى أن الأولاد البيولوچيين هم الذين يرثون آباءهم أو أمهاتهم فى الحكم لكن العالم تقدم وأصبح الحكم فى النظام الجمهورى مثلاً لا يورث عن طريق الأبناء أو البنات ، وإنما عن طريق الانتخاب ويصل إلى الحكم الشخص الأكفأ وليس الابن البيولوچى .

وإذا كانت الدولة فى النظام الجمهورى قد تخلصت من الأنانية البيولوچية فمن الطبيعى أيضًا أن يتخلص الإنسان الفرد من أنانيته البيولجية . فى الأسرة ويشعر بالحب والأبوة أو الأمومة للأطفال جميعًا . إلا أن نشوء النسب الأبوى فى التاريخ قد جفف العواطف الإنسانية وربطها بالجنس والتناسل البيولوچى فقط .

• • •

أيتها السنة .. كونى جديدة (*)

أنا أضحك .. فقد ملأ نفسى الغم والحزن .

أنا آكل .. فقد كرهت اللحم والخبز .

أنا أفكر .. فقد تهاوى عقلى وانهار .

أنا أحب .. فقد خنقت عاطفتى خنقًا .

أقول هذا الكلام وأنا أتمتع بلا وعى كامل يعرف ما يقول ولا يعرفه .

أقول هذا الكلام للعالم المجنون الذى لا يزيد جنونًا على جنونى ، وعلى جنون أى إنسان يريد أن يكون مجنونًا .

ولكن العالم يريد أن يصنع من الجنون معجزة ، كأنما المجانين هم الذين يفهمون الحياة ويحسونها ، أما العقلاء - إذا كانت هذه التسمية واقعية - فليسوا إلا حثالة ، مكانهم الوحيد هو صفيحة الزبالة (ولا أقصد صفيحة زبالة صمويل بيكيت) أو كأنما أصبح الجنون شيئًا صعبًا عسير المنال ، لا يبلغه إلا الصفوة القليلة النادرة الممتازة من الفنانين والأدباء .. وأصبح العقل صفة الدهماء .. مع أن الجنون كما يقول أطباء العالم النفسيون إنما هو نوع من التدهور يصيب العقل الواعى فينطلق العقل الباطن من عقالة ليفعل ما يشاء ، وأنى شاء . يخلع ملابسه ويمشى عاريًا فى الطريق كما كان يفعل إنسان الغابة الأول ، ويغتصب كل امرأة يقابلها على قارعة الطريق ..

ولكن الفن الحديث يحاول أن يثبت لنا أن الجنون هو نوع من الارتفاع فوق منطقة الوعى .. فوق جاذبية المنطق .. سمو فوق المعقول إلى اللامعقول ، اللاوعى ، الجاذبية اللامنطق ، اللامفهوم . اللاشىء .

(*) مجلة الجيل ١٩٦٢/١٢/٣١ .

وما هو هذا اللاشيء ؟ لا أحد يدرى .. كل منهم يمصمص شفتيه ويقول لك : لا أدرى .. وقد كنا قديمًا نعتقد أن الذى يقول لا أدرى لا يدرى حقًا ، ولكنا أصبحنا اليوم نعتقد أن الذى يقول لا أدرى هو الذى يدرى ، والذى يقول أدرى هو الذى لا يدرى ..

إن صفة الثقافة الرفيعة والفن الرفيع فى يومنا هذا هى أن تكتب كلامًا لا معنى له ، فتقول مثلاً : أنا أمشى على راسى ، وأنا أفكر بقدمى . أنا اشم بأذنى ، وأنا أسمع بشفتى .

وإذا سألك سائل : ماذا تقصد بذلك ؟ قلت له لا أدرى .. إنك بذلك قد وصلت إلى صفوف أدباء العالم .. وإنى أهنئك على نبوغك .

وإذا تثاقل عليك ثقيل وقال لك أنا لا أفهم ماذا تقول فانظر إليه نظرة مرحة حزينة وقل له : وهل من الضرورى أن تفهم ؟ .. وإنك بهذا الرد قد قفزت إلى قمة الفن والأدب الرفيع ، وإنى أهنئك مرة أخرى على عبقريتك .

أما إذا كنت لا تجد بينك وبين كلمة أديب تجاوبًا وتفضل عليها كلمة ناقد فعليك أن تظهر فهمك وعدم فهمك بما تقرأ من أدب رفيع .. وإذا سألك سائل رأيك فانظر إليه نظرة واسعة ضيقة وقل له : إنه شىء جميل قبيح ، إنه شىء لذيذ شنيع ، إنه شىء بديع مقرف ..

إنك بذلك تثبت قدراتك فى النقد التى تفوق كل وعى وإدراك . وإذا تثاقل عليك الثقيل وسألك مزيدًا من التفاصيل فقل له فى شجاعة وخوف : إن الكاتب على ما أظن يريد أن يصور تلك الأعجوبة العجيبة التى لا يعرفها أحد .

– وما هى ؟

– أن الإنسان يولد ثم يموت .

– ولكن هذه ليست عجيبة . لقد كنت أعرف أن الإنسان يولد ثم يموت .

– هل كنت تعرف ذلك حقًا ؟ هذا شىء عجيب .. غير معقول .. لقد كنت أظن أن أحدًا لا يعرف ذلك .

قل له ذلك فى منتهى البساطة والتعقيد ثم أخرج منديلاً من جيبك وامسح دموعك التى بدأت تسيل من عينيك وأنت تدرى أو لا تدرى ثم قل لنفسك فى تفاؤل وتشاؤم .

أنا أبكى ؟ إذن فأنا موجود . وافرحتاه ! وامصيبتاه !

ثم حرك ذراعيك وساقيك فى الهواء وقل لنفسك :

أنا أرقص ؟ إذن فأنا موجود .

أنا مجنون ؟ إذن فأنا موجود .

أنا أنا ؟ إذن فأنا موجود .

- ماذا تقول ؟

- تسألنى ماذا أعنى بأنا أنا ؟

- لا تسأل .

- لماذا تريد أن تفهم ؟

- عليك أن تستمع فقط .

- هل تعرف ما معنى كلمة تستمع ؟

- وهل لابد أن يكون لها معنى يا أخى ؟

- استمع بلا معنى .

- ماذا تقول ؟

- لا تستطيع أن تستمع بلا معنى ؟

- إذن فأنت لست فنانًا .

- إذن فأنت لست مجنونًا .

- إذن فأنت لست موجودًا .

معلهش .. عوضك على الله فى الوجود .

أنا لا أكتب هذا الكلام لأقلل من قيمة الأدب اللامعقول ، فإن السخرية بمعناها اللامعقول هى اللاسخرية .. أنا أسخر من شىء .. إذن فأنا لا أسخر منه ..

- ماذا تقول ؟

- هذا عبث ؟

- براڤوا ! وجدتها .. وجدتها .. وجدتها ..

- ما هذا الذى وجدتها ؟

- عبث يعبث عبثًا فهو عابث .

- ما معنى العبث ..

- العبث معناه العبث .

- ولماذا تعبث بى يا حبيبى ؟

- ولماذا لا أعبث بك ؟

- يادمك ! ياسم !

- هل تحبنى ؟

- لا تسألينى شيئًا أرجوك .

- ولكنى أريد أن أعرف هل تحبنى أو لا .. ؟

- لا داعى لأن تعرفى ..

- ولماذا ؟

- لا أحد يعرف .

- كيف ؟

- لا تتكلمى كثيرًا ، أعطنى شفتيك .. اقتربنى منى أكثر ..

- ولكن ..

- لا تفكرى .. لا تتكلمى ..

- ولكن ماذا بعد هذا الحب ؟

- لا أدرى ! ..

- ما نهاية هذه العلاقة التى بينى وبينك ؟ .

- وما نهاية أى شىء ؟

- أخبرنى ! أخبرنى !

- لا أدرى ! لا أدرى !

- لماذا لا تتزوجنى ؟

- ولماذا أتزوجك ؟

- أنت مخادع ! مخادع !

- أنا مفكر ! مفكر !

ثم يتزوج هذا المفكر ...

- لماذا تزوجت يا عزيزى ؟

- ولماذا لا أتزوج ؟

- ولكنك أخترت فتاة فى السادسة عشرة وأنت فى الخامسة والأربعين ؟

- ولم لا ؟ ..

- ولكنك كنت تنادى بتعليم المرأة وتحريرها .. فكيف تتزوج فتاة لا تعرف القراءة والكتابة ؟

- ولم لا ؟

- لماذا تتزوج - أنت المفكر الذى كان يفكر للناس جميعًا - هذه الطفلة الأمية ؟

- حتى أكون على يقين من أنها لن تقرأ أفكارى التى أكتبها لكم أيها المغفلون !

- أنا منافق ؟ إذن فأنا موجود ..

هذا هو العالم الذى نعيش فيه .. وهؤلاء هم الناس الذين يعيشون فيه ..

لقد أصبحت صفة التناقض هى صفة الكمال والفن والنضوج ..

أنا متناقض ؟ إذن فأنا موجود .

أنا لا أفهم ؟ إذن فأنا مفكر .

أنا أحب ؟ إذن فأنا لا أتزوج .

أنا أتزوج ؟ إذن فأنا لا أحب .

أنا أعيش ؟ إذن فأنا أموت .

إلا فليذهب إلى الجحيم أو إلى الفردوس هذا العالم الجميل القبيح . ما أقبحه ! وما أجمله !

بل ما أسخفه !

سخف يسخف سخفًا فهو سخيف . أنا سخيف ؟ إذن فأنا موجود .

واحسرتاه !

أيتها السنة المقبلة .. ماذا عندك ؟ أهو مزيد من هذا الجمال القبيح السخيف اللذيم المؤلم ؟ أم عندك شيء آخر ؟ وما هو هذا الشيء الآخر ؟

أملي أن يكون عندك شيء آخر !

كفى .. كفى .. لا تكررى السنة الماضية .. لا تكرريها ! فقد قتل التكرار عقل العالم حتى هرب إلى اللاعقل .. وخنق التكرار عاطفة العالم حتى أصبح ترسًا فى آلة تدور بلا وعى ..

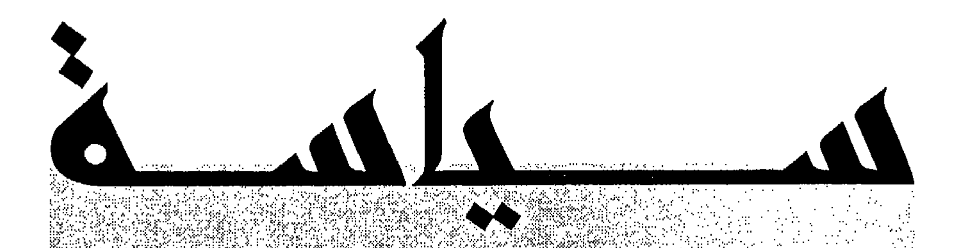
أيتها السنة القادمة .. أرجوك غيرى طعم الأكل فى فمى .. غيرى رائحة الهواء فى أنفى .. غيرية ولو إلى أسوأ .. ولكن غيريه ! كونى جديدة .. ولا تكونى لاجديدة فقد قتلتنى كلمة لا ..

أيتها السنة الجديدة ارحمينا من ذلك الشقاء الممتع .. ارحمينا من ذلك المورفين المعنوى الذى يطيح بعقلنا الواعى .. ارحمينا من ذلك المخدر . بل ذلك المنبه الذى ينبهنا إلى حد التحذير .. ارحمينا من ذلك العذاب اللذيذ ..

ارحمينا ! هل ترحميننا ؟ .

أنا أطلب الرحمة ؟ إذن أنا موجود ..

• • •



٢٨ مقالاً

عولمة من قاعدة الهرم .. والوعى النسائى العربى (*)

خلال النصف الأخير من القرن العشرين كسرت المرأة العربية حواجز فكرية كثيرة ، وناقشت قضايا لم يكن من الممكن النطق بها فى بداية القرن . ربطت الباحثات والكاتبات العربيات بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية ، أزلن الحواجز بين علم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة والدين والطب ،والأدب والتاريخ .

لعل أهم مساهمة قدمها الخطاب النسائى العربى هو محاولة القضاء على الأحادية الفكرية التى ترى الأشياء بعين واحدة (عين الرجل) أو تتكفىء على الذات دون رؤية الآخر ، أو تلك الثنائية الفلسفية التى تفصل ما هو شخصى عما هو اجتماعى او سياسى .

تجاوزت قضية المرأة العربية حدود الأحوال الشخصية أو الشئون الاجتماعية لتشمل الشئون السياسية . على رأسها تحرير الأرض والاقتصاد والتاريخ والعقل والجسم . كان أغلب المؤرخين رجال لم يروا مساهمات النساء الفكرية منذ نشوء الحضارة ، وكان للمرأة دور رائد فيها ليس كزوجة وأم فقط وإنما كفيلسوفة وكاتبة وشاعرة وباحثة وطبيبة وقائدة سياسية ، نذكر منهم « سخمت » المصرية التى كانت نقيبة للأطباء فى مصر القديمة ، و « نيدابا » العراقية مكتشفة الحروف فى الحضارة السومرية ، ورئيسة القضاة « معات » إلهة العدل المصرية ، وصاحبة الفكر الفلسفى « إزيس » الذى امتد أثرها من مصر إلى أوروبا وعاش حتى القرن السادس الميلادى .

وقد ظهرت مؤرخات عربيات أعدن قراءة التاريخ وكشفن النقاب عن أفكار النساء التى اندثرت تحت سطوة النظام الهرمى (الطبقى الأبوى) خلال الألفية الأولى والألفية الثانية حتى منتصف القرن العشرين .

(*) نُشر بجريدة الأهرام ١٠ يناير ٢٠٠٠ .

الاستشراق النسائى الجديد :

منذ أيام قليلة وجهت إلىَّ مذيعة أمريكية هذا السؤال : ألا يوجد فى الإسلام ما يعوق تحرير المرأة ؟ وجاءت إجابتى عليها بسؤال آخر : ألا يوجد فى المسيحية ما يعوق تحرير المرأة ؟

لم تعرف المذيعة الإجابة على سؤالى لأنه لم يخطر ببالها من قبل ، ولأنها قرأت كثيرًا عن علاقة المرأة والإسلام ، ولم تقرأ شيئًا عن علاقة المرأة والمسيحية .

لقد انتشرت فى السنين الأخيرة ظاهرة انتشار الكتب عن المرأة العربية والإسلام بأقلام النساء الأمريكيات المستشرقات ، وكلها باللغة الإنجليزية أغلبها يحبس موضوع المرأة العربية داخل إطار الثقافة ، أو الدين أو اللغة ، دون أن يربطها بالاقتصاد أو السياسة الدولية أو المحلية .

يعتمد هذا الخطاب الاستشراقى الجديد على الفكر الليبرالى الرأسمالى الذى اشتهر فى الثلث الأخير من القرن باسم فكر ما بعد الحداثة ، تبرز فيه أسماء أمريكية وفرنسية (ميشيل فوكو ، چاك ديريدا ، چوليا كريستيڤا ، صمويل هانتنجتون ، فرانسيس فوكاياما وغيرهم) .

ويقوم هذا الفكر على دعامتين أساسيتين هما :

١ - الفصل بين الثقافة والاقتصاد ، وبين الشكل والجوهر ، واعتبار أن الشكل هو الأساس (أو لا يوجد جوهر) .

٢ - الصراعات الدولية والمحلية تقوم بسبب الاختلافات الثقافية والدينية والأثنية ، (وليس الاقتصاد والسياسة) .

إشتد انتشار هذا الفكر فى الغرب كرد فعل ضد الفكر الماركسى التقليدى الجامد الذى جعل الاقتصاد كل شىء وأهمل الثقافة ، ومع سقوط حائط برلين والاتحاد السوفياتى خلال العقد الماضى طغى هذا الفكر على العالم ، وعلى المفكرين فى بلادنا العربية . سواء فيما يخص القضايا العامة أو قضية المرأة ، إلى حد أن قامت حملة نشطة لترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية ومنها كتب النساء الأمريكيات عن المرأة والإسلام .

خطاب الهيمنة الأمريكية

يتبنى الخطاب الاستشراقى النسائى الجديد الأفكار التى تشجع النساء العربيات على العودة إلى البيت والأمومة تحت اسم التمسك بالقيم الدينية أو الثقافية المحلية أو الهوية الأصلية ، وهو نفسه خطاب الهيمنة الأمريكية الذى رفع الشعارات الدينية فى العالم كله (سواء الشعارات المسيحية أو الإسلامية أو الهندوكية أو اليهودية أو البوذية أو غيرها) كرمز لمقاومة الغرب . هكذا تصورت أعداد متزايدة من النساء فى العالم أن مجرد تغيير الزى أو غطاء الرأس يجعل المرأة منهم مناضلة ضد الغرب والتغريب . وهذه هى المقاومة الوهمية أو النضال الشكلى الذى وضع قواعده المفكرون فى الغرب (من الرجال والنساء) ووجدوا فيه القدرة المستمدة من الروحانيات الغامضة على تحويل المقاومة الشعبية من الجوهر إلى الشكل .

إن تصاعد التيارات الدينية فى العالم (التى أطلق عليها اسم التيارات الأصولية) لم تكن إلا الوجه الآخر للفكر الليبرالى الرأسمالى الحديث وما بعد الحديث ، وهو فكر الاستعمار الأمريكى الجديد ، لهذا لم تنجح هذه التيارات الدينية الأصولية إلا فى قتل الأبرياء من النساء والرجال ، على حين انطلقت قوى الاستعمار العسكرية والاقتصادية تفتك بأرواح الشعوب ومواردهم ، سواء بالحروب الواضحة السافرة ، أو القوانين التجارية السرية أو المعلنة داخل منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات المسيطرة ، بل أصبحت قيادات هذه التيارات الدينية جزءًا من هذه المؤسسات الاقتصادية رغم غضبها الشديد على الغرب ، ورغم نضالها تحت عباءة الدين ، ولم تثمر عن شىء إلا المزيد من التبعية للتفوق الغربى والعولمة .

ربما كانت خطابات الإصلاح الدينى فى بداية القرن العشرين أكثر تقدمًا فيما يخص قضية المرأة عن الخطابات الدينية فى نهاية القرن العشرين .

يكفى أن نقارن الافغانى والشيخ محمد عبده بما نقرأه اليوم لبعض المفكرين الدينيين ، رغم ما يقال عن أنها رغم اختلافها كانت جزءًا من الخطابات الاستشراقية التى تؤمن بالتفوق الغربى ولم تربط بين الثقافة والاقتصاد .

بالطبع ليس فى العالم خطاب يقوم على النقاء الثقافى الخالى من الشوائب ، لأن الثقافات الإنسانية كلها متداخلة مخلوطة رغم الحواجز الجغرافية والتاريخية ، والمشكلة ليست فى النقاء أو الاختلاط ، أو ما يسمى الأصالة والحداثة ، أو التغريب والتشريق ، لكن المشكلة هى التناقض فى الخطاب الاستشراقى الجديد ، خاصة الخطاب الاستشراقى النسائى الذى يحاول العودة بالمرأة العربية إلى الوراء تحت اسم احترام ثقافة الآخر .

حين كنت فى لندن مؤخرًا فتحت جريدة الجارديان يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩ لأقرأ مقالاً لإحدى المناضلات البريطانيات لتحرير المرأة فى الغرب ، وهى جيرمان جرير ، كتبت فى مقالها تؤيد ختان البنات كجزء من الهوية الأصيلة أو الثقافة المحلية التى يجب احترامها فى عصر ما بعد الحداثة الذى يتميز بالتعددية الثقافية والخصوصية والاختلافات الدينية والإثنية .

لم يكن غريبًا أن العالم فى ظل هذا العصر ما بعد الحداثة قد شهد حروبًا ومذابح فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، وأوروبا الشرقية تحت اسم الصراعات الإثنية أو الدينية رغم أن الصراع الحقيقى هو الصراع الاقتصادى الناتج عن تزايد الفقر والجوع مع تزايد الثراء فى يد القلة القليلة التى تسيطر على السلاح والتجارة فى العالم .

سقوط العمل السياسى التقليدى

حين كنت أستاذة زائرة فى جامعة فلوريدا خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين شاهدت وتابعت ما حدث فى مدينة سياتل من مظاهرات شعبية ضد منظمة التجارة الدولية خلال اجتماعها فى نهاية نوفمبر وبداية ديسمبر ١٩٩٩ . وقد اشتركت فى المظاهرات بعض طالباتى فى جامعة فلوريدا من الأمريكيات ، اللائى سافرن إلى سياتل ، كما اشتركت فى المظاهرات أيضًا بعض النساء العربيات اللائى يعشن فى مدينة سياتل أو المدن القريبة منها فى ولاية كليفورنيا ، وبعض طالباتى منذ عام ١٩٩٥ حين كنت أستاذة فى جامعة وشنطن بمدينة سياتل ، لقد ساعدت أجهزة الاتصال الحديثة وما بعد الحديثة (ومنها الإنترنيت والويب) على سرعة الاتصال بين الناس ،

وأصبح العالم الضخم كأنما قرية صغيرة ، وكنت أتلقى كل ساعة تقريبًا الأخبار من سياتل كأنما أعيش فى المدينة رغم أننى فى فلوريدا ، بل قبل قيام المظاهرات جاءتنى رسائل الإنترنيت والبريد الإلكترونى من النساء العربيات فى سياتل اللائى اشتركن في التنظيم والتخطيط لهذه المظاهرات . بعضهن تركن العمل أو الدراسة وشاركن فى غرفة العمليات متفرغات لهذا العمل الكبير أكثر من ثمانية شهور .

وقد نجحت مظاهرات سياتل ١٩٩٩ فى أشياء متعددة إلا أن أهم ما نجحت فيه هو كشفها للصراع الحقيقى فى العالم ، وأنه صراع ضد القوانين الاقتصادية والتجارية غير العادلة ، ضد قوانين منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات .

إنه صراع اقتصادى أساسًا وليس صراعًا ثقافيًا أو دينيًا أو إثنيًا ، لأن المظاهرات جمعت النساء والرجال والشباب والشابات من مختلف البلاد والثقافات واللغات والأديان والألوان ، تجمعت كلها فى مسيرة واحدة ضد عدو واحد هو النظام الاقتصادى العالمى أو العولمة من أعلى من القمة حيث يتربع الفرد أو قلة من الأفراد ، ينهبون عرق الملايين تحت اسم حرية السوق أو الديمقراطية أو الليبرالية الرأسمالية .

كانت نسبة النساء فى المظاهرات تبلغ نسبة الرجال ، ونسبة العمال تبلغ نسبة المهن الأخرى فى مجالات العلم أو التعليم أو الثقافة ، لم يتخلف عن هذه المظاهرات الشعبية الدولية إلا الأحزاب التقليدية التى فوجئت بما يحدث ، فهى مظاهرة تكسر الحواجز التى جعلت الأحزاب السياسية التقليدية شبه معزولة عن الناس ، يجلس على قمتها الهرمية فرد واحد أو أفراد قلة ، يتوارثون السلطة المطلقة (الأبوية الطبقية) فى ظل انتخابات شكلية أو ديمقراطية زائفة ، تحت اسم اليسار أو اليمين ، تحمل اسم المعارضة مع أنها جزء من النظام ، وتكاد لا تفعل شيئًا إلا الكلام تحت قبة البرلمان .

الوعى النسائى العربى

بعد عودتى إلى مصر فى منتصف ديسمبر ١٩٩٩ جاءتنى الدعوة من النساء العربيات الطالبات فى جامعة كليفورنيا (جامعة ديفيز) ، جاءتنى عبر شاشة الإنترنيت ، وقد أصبح لهن قناة خاصة فى الويب / الإنترنيت ، تحمل اسم تضامن النساء العربيات فى أمريكا الشمالية ، إنهن ينظمن مؤتمرًا نسائيًا عربيًا فى أبريل القادم سنة ٢٠٠٠ ،

يحرصن فيه على دعوة الباحثات والكاتبات العربيات اللائى يعشن فى الوطن العربى ويكتبن باللغة العربية ، ويعرفن الواقع والحقيقة التى تعيشها النساء فى بلادنا أكثر من النساء المستشرقات الأمريكيات . فى أحد هذه الرسائل تقول طالبة أردنية تدرس فى سان فرانسيسكو : « كيف يمكن أن تكون مراجعنا عن المرأة العربية هى كتابات الباحثات الأمريكيات ، لم أسمع عن امرأة عربية أو نساء عربيات أصبحن هن المرجع لحياة النساء الأمريكيات ! أليس هذا هو المنطق الاستشراقى القديم يعود إلينا فى ثوب جديد تحت اسم الاستشراق النسائى ؟

لقد شاركت الشابات العربيات فى مظاهرات سياتل وأدركن أن الشعوب المقهورة نساءً ورجالاً ، داخل أمريكا وأوروبا أو خارجهما فى القارات الأخرى ، قد بدأت تدرك أهمية الاتحاد والتضامن بصرف النظر عن الحدود التى تضعها القلة الحاكمة فى كل مكان ، بدأت الشعوب تكسر الحواجز المصنوعة بين البشر حسب اللون والعرق والجنس والجنسية والعقيدة والإثنية وغيرها . بدأت تدرك أن هذه الفروق بين البشر مصيرها إلى الزوال ، وسوف تبقى القيم الإنسانية الكبرى القائمة على العدالة والمساواة والحرية والوعى .

أصبح النضال العالمى أكثر نضجًا ووعيًا بأهمية التضامن رغم الاختلافات ، وفى بلادنا العربية أيضًا هناك حركة نسائية ذات وعى جديد تتجمع وتتضامن وتدرك أن التضامن العربى الشعبى جزء لا يتجزأ من التضامن العالمى الشعبى ، ربما تحاول قوى سلطوية متعددة ضرب هذا التضامن النسائى الشعبى إلا أن التاريخ يعلمنا أن الفوز فى النهاية لهؤلاء المدافعين والمدافعات عن الحرية والعدالة .

• • •

تأملات على شاطيء فلوريدا(*)

كان أبى يقول للسفر فوائد لا يراها إلا المحرومون من السفر ، كالصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى . لهذا السبب أحببت السفر منذ الطفولة . كنت أحلم بالسفر منذ ولدتنى أمى . فى النوم أرانى أطير بدون طائرة ، أحرك ذراعى فإذا بى أطير فى الجو ، وأندهش فى الحلم من قدرتى على الطيران ، والسباحة فى السماء مثل العصافير والحمام .

أكتب الآن وأنا أتمدد على شاطىء النخيل تحت شمس الخريف الذهبية فى الجنوب الشرقى لولاية فلوريدا بأمريكا الشمالية . غادرت القاهرة فى نهاية أغسطس وسط غارة صحفية قادها بعض المسئولين فى وزارة الشئون الاجتماعية ضد الاجتماع التمهيدى الكبير الذى عقد فى ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ للإعداد لتكوين الاتحاد النسائى المصرى . ما الذى أفزع الحكومة فجأة من تكوين اتحاد نسائى ؟! رغم أن وزيرة الشئون سبق أن تحمست وأيدت وأرسلت إلينا قائمة بأسماء وعناوين الجمعيات الأساسية التى تعمل فى ميدان المرأة ، عددها ٢٢ جمعية ، وقالت إنه حسب القانون الجديد يكفى أن تتجمع عشرة جمعيات عاملة فى ميدان المرأة لتكوين اتحاد نسائى ، يطلق عليه اسم اتحاد نوعى . حضر اجتماعنا مع الوزيرة وكيل وزارتها الأول ، بالطبع لم يتكلم كثيرًا فى حضور الوزيرة ، إلا أنه لم يعترض على شىء ، ولم يقل لنا أن ليس هناك شىء اسمه ميدان المرأة ، ولم يقل لنا أن ٢٠٠ جمعية تعمل فى ميدان المرأة تفكر فى إنشاء اتحاد نسائى وبالتالى يستحيل علينا إنشاء اتحاد آخر . كان موافقًا على كل ما تقوله الوزيرة ، وخرجنا إلى ساحة العمل والنشاط العملى وسط الجمعيات العاملة فى ميدان النهوض بالمرأة والأسرة ، وتحمس الجميع لإنشاء الاتحاد النسائى المصرى من محافظة أسوان إلى الإسكندرية وبورسعيد وتزايد عدد الجمعيات النسائية التى طالبت بالانضمام إلى الاتحاد النسائى إلى أكثر من سبعة وعشرين جمعية فى أقل

(*) ولاية فلوريدا ، أكتوبر ١٩٩٩ .
نشر بالأهالى ١٧ نوفمبر ١٩٩٩ تحت عنوان « قبل أن تغرب الشمس » .

من شهرين ، ووصلتنا رسائل أخرى وفاكسات من هيئات وجمعيات تعمل فى مجال المرأة تطلب الانضمام ، ونشرت الصحف الحكومية وغير الحكومية أخبارًا عن تكوين الاتحاد النسائى المصرى وعن الاجتماع الذى سيعقد يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ وتحضره مندوبات ومندوبو الجمعيات وأعضاء وعضوات اللجنة التحضيرية التى تشكلت للإعداد لإنشاء هذا الاتحاد النسائى .

خرق القانون

فجأة ، قبل أن يحل موعد الاجتماع ببضعة أيام قرأنا فى الصحف (على لسان وكيل وزارة الشئون الأول عن لسان الوزيرة) تصريحات رسمية أشبه ما تكون بقرارات اتهام لهذا الاتحاد النسائى المزمع إنشاؤه ، وهذا الاجتماع يوم ٢٢ أغسطس غير القانونى الذى تدعو له امرأة من عامة الشعب اسمها نوال السعداوى ، ليس لها كيان ولا منصب ولا شىء ، لها سجل تاريخى حافل بخرق القانون ، وقد تسللت إلى مكتب الوزيرة مع شخصيات هامة ، وقد استغلت الفترة الحرجة هذه الأيام لتنشر الفوضى فى البلاد وتحرض النساء على تكوين اتحاد نسائى غير شرعى وغير قانونى !

ثم دق جرس التليفون فى بيتى وجاء صوت رجل يقول إنه أحد المسئولين الكبار فى الحفاظ على أمن البلاد ، وسألنى عن اجتماع ٢٢ أغسطس ، ثم دق جرس التليفون وجاءنى صوت أحد المسئولين عن القاعة التى استأجرناها لنعقد فيها اجتماع ٢٢ أغسطس وقال إنه اجتماع غير قانونى حسب ما قال له المسئولون عن الأمن . تكررت الأجراس المنذرة بالخطر المتحدثة تارة باسم الأمن وتارة باسم عدم إثارة مشاكل ، وتارة باسم الصداقة ، قالت لى إحدى الصحفيات الكبيرات بإحدى الصحف الحكومية الكبرى : ما دام الحكومة مش عاوزة اتحاد نسائى لا يمكن تقدروا تعملوا اتحاد ! وقلت لها : لكن الحكومة كانت تعرف وكانت متحمسة ومؤيدة . فما الذى حدث ؟! ثم مَنْ قال إن الاتحاد النسائى لابد أن ينشأ بأمر الحكومة ؟ ألا يمكن أن ينشأ الاتحاد النسائى بمبادرات شعبية ؟! أليست هذه هى ألف باء الديمقراطية ؟! أم أن الديمقراطية مجرد خطب فى الهواء وحبر على ورق ؟!

مبادرة شعبية

من أجل الديمقراطية التى نسمع عنها كل يوم فى الإذاعات قررنا أن اجتماع ٢٢ أغسطس هو اجتماع شرعى وقانونى رغم كل ما يحدث ، وأن هذا الاجتماع لابد أن ينعقد فى المكان نفسه وفى الموعد نفسه الذى تقرر ، وأننا لن نخضع أبدًا لهذا المنطق غير الديمقراطى ، وإن أغلقت القاعة أبوابها أمامنا فسوف نجتمع فى الشارع . لم يكن هذا قرارى وحدى وإنما قرار ١٠٩ من النساء والرجال الذين حضروا الاجتماع يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ بقاعة النادى الثقافى المصرى بمدينة القاهرة . حضر الاجتماع مائة وتسعة من النساء والرجال ، والمندوبات والمندوبين عن الجمعيات التى أرادت الانضمام إلى الاتحاد النسائى ، جاء بعضهن من أسوان وأسيوط والمنيا وبنى سويف والإسكندرية وبورسعيد وغيرها من المحافظات . دفعت بعضهن تذاكر السفر فى قطار الصعيد وبحثت بعضهن عن أماكن للمبيت فى القاهرة بعد انتهاء الاجتماع . طالبت بعضهن بعمل مظاهرة فى الشارع ضد وزارة الشئون . كان الاجتماع أشبه ما يكون بمظاهرة تأييد لتكوين اتحاد نسائى مصرى بمبادرة شعبية وليس اتحادًا نسائيًا حكوميًا .

نشرت بعض الصحف ما حدث فى اجتماع ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ بأمانة وصدق . بعض الصحف تجاهلت الحدث تمامًا . بعض الصحف نشرت أن الاجتماع كان فوضى ولم يحضره إلا قلة منحرفة لاتزيد عن خمسين شخصًا .

استعيد هذه الذكريات وأنا أسبح فى المحيط الأطلسى تحت الأشعة الذهبية فى جنوب ولاية فلوريدا . نحن فى شهر أكتوبر أجمل شهر فى السنة ، فهو الربيع فى نظرى وليس الخريف ، أشعر فى شهر أكتوبر بنشاط جديد لا يحدث فى أى شهر آخر. هل لأننى وُلدت فى هذا الشهر ؟ أم لأن حرارة الصيف تذهب وبرد الشتاء لم يأت بعد ؟ أنا أحب هذا الدفء الناعم الرقيق ورائحة الماء تشبه بحر الإسكندرية ، وطفلة تصرخ بالفرح تذكرنى بطفولتى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وكنا نسميه فى طفولتنا البحر المالح .

العودة للجذور

أحرك ذراعى وقدمى فى الماء وأسبح كالسمكة ، أستعيد الفرحة بالعودة إلى الجذور الأولى للبشرية حين كنا نعيش فى البحر ، كيف تحولنا إلى كائنات برمائية

تستلقى فوق الشاطىء تحت الشمس ، ثم كيف فقدنا الزعانف وأصبحنا كائنات أرضية لا تعيش إلا فوق الأرض الصلبة .

حين وصلت إلى فلوريدا فى ٢٥ أغسطس ١٩٩٩ كان الناس يتحدثون عن الهوريكين القادمة فى شهر سبتمبر . يسمونها هوريكين « فلويد » ، الخطر الغامض كالشيطان القادم من المحيط . الناس يعيشون فى فزع كأنما ينتظرون عزرائيل الموت. قلت لنفسى ، ربما كانت القاهرة أكثر أمانًا . بدت الكوارث السياسية والاجتماعية أقل خطرًا من الكوارث الطبيعية كالهوريكين والبراكين والزلازل . على شاشة التليفزيون الأمريكى أشهد كل يوم أشلاء الجثث تحت ركام الزلازل والفيضانات وما يسمونه هنا فى جنوب فلوريدا « غضب الله » .

حين كنت فى الهند منذ أكثر من عشرين عامًا رأيت الناس يؤدون صلاة الاستسقاء يطلبون من الإله شيفا أو الإلهة برافاتى أن تسقط عليهم الأمطار وتنقذهم من الجفاف . هنا فى أمريكا فى خريف عام ١٩٩٩ رأيت الناس يؤدون الصلاة لابن الله « المسيح » لينقذهم من الهوريكين فلويد . أما جنوب ولاية فلوريدا حيث أكون الآن فهى المنطقة التى تدخل ضمن ما يسمى « البايبل بيلت » أو « حزام الكتاب المقدس » . إنها تخضع للقوى الدينية السياسية التى تصاعدت فى أمريكا منذ حكم رونالد ريجان وجورج بوش ، يسمونها « الجبهة المسيحية » تجمع تحت لوائها الأثرياء ورجال الأعمال وكبار الرأسماليين الذين يطلق عليهم سياسيًا اسم « اليمين الأمريكى » ، يتزعمهم بعض القساوسة ورجال الدين .

بعد أن لامست الهوريكين فلويد شاطىء فلوريدا من بعيد دون أن تمسه بسوء أعلن حاكم جنوب فلوريدا فى العاصمة ميامى (اسمه أليكس بينلاس) على شاشة التليفزيون « إن الذى أنقذ فلوريدا من الهوريكين هو الله ، فالله فى سمائه العليا هو المايسترو الأكبر للطقس الجوى ، ويجب على أهل فلوريدا أن يشكروا الله فى صلواتهم لأنه أبعد عنهم الهوريكين فلويد وأرسلها إلى البشر الآخرين فى ولاية نورث كارولينا » .

سمعت هذه الكلمات بأذنى على شاشة التليفزيون ورأيت وجه حاكم فلوريدا وقلت له وأنا جالسة فى بيتى فى بوكاراتون « لكن لماذا يغضب الله يا سيدى على الناس فى ولاية نورث كارولينا ؟! » إن لى أصدقاء وصديقات فى ولاية نورث كارولينا حيث عشت أربعة سنوات أقوم بتدريس مادة الإبداع والتمرد فى جامعة ديوك .

طلبت إحدى الصديقات فى نورث كارولينا أطمئن عليها ، وقالت لى عبر أسلاك التليفون : « ماذا نفعل مع الهوريكين ، مصيرنا فى يد الله ، ولا شىء أمامنا إلا الصلاة » .

تعصب أعمى

كانت أنباء الهوريكين فلويد فى العالم كله ، لابد أنها وصلت بلادنا فى أفريقيا والشرق الأوسط ، الذى كان يسمى « العالم العربى » أيام الوحدة العربية أو الحلم بالوحدة العربية ، أصابتنى غفوة وأنا جالسة أمام شاشة التليفزيون ووجدتنى أمشى فى مظاهرة كبيرة فى شوارع القاهرة تهتف بالوحدة العربية ، ثم أفقت على صوت المذيع فى التليفزيون يتحدث باللهجة الإنجليزية الأمريكية الجنوبية تخرج بعض الكلمات من الأنف : نحن الآن أيها المشاهدون والمشاهدات مع الزعيم المسيحى لولاية فلوريدا ، وظهر أمامى وجه رجل غريب الشكل ، له أنف مقوس يشبه المرأة ، شفتاه رفيعتان مشدودتان صوته أخنف ، يقول عن نفسه المندوب السماوى على الأرض ، يرفع يديه نحو السماوات العليا بين يديه الكتاب المقدس : « يا إله السماوات لا تجعل الهوريكين فلويد تحطم أسقف بيوتنا أو تقطع عنا مياه الشرب أو تزود الحزب الديمقراطى بقصة جديدة يكذبون بها على الناس ، لكن يارب إذا شئت أن تنزل غضبك علينا فأرجو أن تبث الرعب فى قلوب الكفرة من اليهود والمسلمين والبوذيين والهندوكيين حتى يعرفوا الله ويؤمنوا بالمسيح » .

وضحكت زميلتى « چين » الأستاذة فى جامعة فلوريدا وقالت ، هذا الرجل يخرف، لكن يتبعه الآلاف هنا فى الجنوب ، معهم أموال طائلة ، يدفعون الملايين من الدولارات لكسب الحملة الانتخابية وإنجاح مندوبيهم من اليمين الأمريكى ، أليس مضحكًا أن إله السماء الذى يؤمنون به قد قرر أن يغرق سكان ولاية نورث كارولينا ؟! لماذا هُم يغرقون وليس نَحنُ ؟! ربما هو اختيار إلهى عشوائى حسب المزاج مثل دار النشر فى ميامى ، رفضوا نشر كتابى ووافقوا على كتاب سوزان كلارك زميلتنا فى الجامعة ، كم هى غبية ولا تعرف شيئًا عن الكتابة ، لكن رئيس دار النشر هو الإله الذى يقرر ، أو ربما كان الإله هو رئيس فريق كرة القدم فى فلوريدا الذى قرر تأجيل المباراة فى ميامى ، ولماذا

يعاقب الإله سكان ولاية كارولينا ؟ ربما لأنهم يزرعون الدخان ويصنعون السجائر ، وهذا شيء معقول إلى حد ما ، إلا أن أغلب سكان ولاية كارولينا لا علاقة لهم بمصانع الدخان ، وقد أغرقت الهوريكين الفقراء منهم فقط ، أما أصحاب مصانع الدخان الأثرياء فقد نجوا جميعًا لأن بيوتهم قوية مبنية بالأسمنت المسلح والحديد السميك الذى لا تقدر عليه الهوريكين فلويد ! لسوء الحظ أن العقلية هنا لا تختلف عن عقلية المرحوم جدى الأكبر أبو جدى الأصغر والد أبى الذى كان يؤمن أن المطر لا يهبط من السماء إلا بقرار من الإله ، وأن النهر لا يفيض إلا بمنشور إلهى .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الزلزال فى تركيا قرار إلهى أراد الله به أن يعاقب الأتراك . والقتلى فى تيمور الشرقية قتلوا بأمر إلهى ، وملايين الأطفال الذين يموتون من الجوع فى أفريقيا وآسيا إنما هو أمر إلهى أيضًا ، وإذا أغرقتنا الهوريكين فلويد فإن رجال الدين هؤلاء سوف يقولون « لأن الله يعاقبنا لأننا لا نواظب على الذهاب إلى الكنيسة فى أيام الأحد ، أو لأننا آثمون ، وقد أراد الله أن يعاقبنا لأننا تمنينا أن تذهب الهوريكين عنا وتتجة شمالاً نحو ولاية كارولينا . آه كم يشعر أهل فلوريدا بالذنب لأنهم فرحوا بالنجاة من الهوريكين على حين كان إخوتهم فى ولاية كارولينا يغرقون تحت مياه المحيط !

تنهدت الزميلة الدكتورة چين وقالت : إنها شيزوفرنيا ! وهل يمكن أن تشتغل الآلهة فى السماوات على هذا النحو الشيزوفرينى ؟! ربما لهذا السبب اكتشف الناس العلم ودرسوا الفيزياء والذرة والكون والطب والهندسة وغيرها من العلوم ، من أجل حماية الناس (خاصة الفقراء) من عشوائية القرارات الإلهية ، لكن القساوسة فى جنوب فلوريدا يريدون العودة بنا إلى الوراء ، أتعرفين أن بعض المدارس هنا أدخلت « الدين » كمادة إجبارية وفرضت الصلاة على التلاميذ ، ومنعت تدريس نظرية « داروين » عن تطور الإنسان لأنها تتعارض مع نظرية الخلق الواردة فى الكتاب المقدس ! وسألتنى چين قائلة : خطأ مَنْ هذا ؟ قلت لها : خطؤنا نحن لأننا نجلس أمام شاشة التليفزيون ، هيا بنا إلى الشاطىء نسبح فى المحيط تحت الأشعة الذهبية قبل أن تغرب الشمس .

• • •

رحلة الصيف إلى الجنوب الإفريقى (*)

اندهشتْ صديقتى الكاتبة المصرية البارزة حين قلت لها إننى مسافرة إلى الجنوب الإفريقى ، كانت هى تعد حقائبها للسفر إلى الساحل الشمالى حيث الفيلا الكبيرة على بحيرة مارينا . إن الحر فى القاهرة لا يطاق فى شهر أغسطس مع زيادة الرطوبة . لم تكن الكاتبة البارزة (الحاصلة على درجة الدكتوراه فى الجغرافيا أو التاريخ) تعرف أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس ، كما اعتقد بعض الآلهة القدماء ، وأن المدار الذى تدور فيه الأرض له شكل بيضاوى مائل ، وحين تكون الشمس رأسية حامية فوق أرض مصر خلال شهر أغسطس فإنها تصبح فوق الجنوب الإفريقى مائلة حانية حنان الأم أو الأب الذى يفهم معنى الأبوة الحديثة ، قلت لصديقتى الكاتبة البارزة التى تُدرِّس لطلاب الجامعة الجغرافيا أو التارسخ : « أغسطس هو شهر الشتاء فى الجنوب الإفريقى وليس الصيف » ، اندهشت الكاتبة وقالت : « أهكذا تنقلب فصول السنة فوق القارة الواحدة ؟ » .

كانت الدعوة قد جاءتنى لحضور معرض الكتاب الدولى الذى يعقد فى زيمبابوى كل عام خلال أجمل الشهور فى الشتاء وهما يوليو وأغسطس ، لم تكن صديقتى (الأستاذة الجامعية والكاتبة المعروفة) تعرف أن « هارارى » هى عاصمة زيمبابوى ، وأنها تقع فى أقصى الجنوب الإفريقى شمال مدينة جوهانسبرج . نطقت كلمة هارارى بطرف لسانها وقلبت الراء إلى غين (مثل بنات الأرستقراطية المصرية الفرنسية القديمة) وقالت : يا عزيزتى لن يكون لإفريقيا وجود فوق خريطة العالم فى القرن الواحد والعشرين ، إنها تغرق فى الجهل والمرض والحروب الأهلية » . قلت لها : « وماذا عن مصر ؟ » ، انتفضت وصاحت : « لأ ! مصر حاجة تانية ! مصر ليست فى إفريقيا يا عزيزتى ! مصر فى الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط ! » .

(*) هارارى - زيمبابوى ١٩٩٩/٨/٣ .

قلت لها : « مصر فى إفريقيا ، فى شمال إفريقيا أنظرى إلى الخريطة !! » . إلا أن صديقتى الكاتبة البارزة والأستاذة الجامعية لم تكن تريد الاعتراف بالجغرافيا والواقع والحقيقة ، وظلت تقول مصر ليست من البلاد الإفريقية .

علاقتى بأفريقيا أشبه ما تكون بالعلاقة العضوية ، تجذبنى إلى منابع النيل رائحة الأرض والماء والزرع ، كأنما ولدتنى أمى فى قلب أدغال أوغندة على أحد شواطىء بحيرة فيكتوريا ، وقد عشت فى قلب أفريقيا حين اشتغلت بالأمم المتحدة فى اللجنة الاقتصادية لإفريقيا عام ١٩٧٩ وكان مقرى أديس أبابا ، واقتضى العمل أن أسافر فى جميع البلاد الإفريقية شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، وكان الانتقال من بلد أفريقى إلى بلد أفريقى آخر لابد وأن يمر بإحدى العواصم الأوروبية . ولكى أصل من أديس أبابا إلى السنغال أو النيجر وساحل العاج لابد أن أطير شمالاً إلى القاهرة ثم أجتاز البحر الأبيض المتوسط إلى باريس ، ومن باريس أركب الطائرة إلى داكار فى السنغال أو إلى هرارى فى زيمبابوى أو غيرها ، لكن اليوم وبفضل مصر للطيران أصبحنا نطير مباشرة من القاهرة إلى هارارى دون المرور على أوروبا .

أول مرة سافرت إلى هارارى عاصمة زيمبابوى كان فى شهر يوليو ١٩٨٥ ، بعد انتهاء المؤتمر الدولى للمرأة الذى عقد فى نيروبى ، كنا مجموعة من الكاتبات الأفريقيات تزيد عن الثلاثين كاتبة وأديبة وشاعرة ، قررنا أن نؤسس معًا جمعية للكاتبات الأفريقيات ، وتم اختيار مدينة هارارى لتكون مقر اللقاء الأول ، وسافرنا معًا من نيروبى إلى هارارى ، وفى فندق « مونو موتابا » (باسم إحدى الإلهات الأفريقيات القديمات) جلسنا فى قاعة « إندابا » وأعلنا إنشاء جمعية الكاتبات الإفريقيات ، وقد مضى على هذا اليوم أربعة عشر عامًا ، وحين وجدنا أنفسنا مرة أخرى فى القاعة ذاتها والفندق ذاته ، وربما الوجوه والأسماء ذاتها ، زاد علينا بعض الشابات الكاتبات من الكاميرون ، وناميبيا ، وبوتسوانا ، وغانا ، ومالى ، وتنزانيا وزامبيا وأوغندة والصومال ، وغيرها بلغ عددنا أكثر من خمسين كاتبة ، وبحثنا عن الجمعية القديمة التى أقمناها عام ١٩٨٥ فلم نجد لها أثرا ، أين راحت !؟

قالت الكاتبة الأفريقية من غانا واسمها « آما أتا أودو » ، « لقد تفرقنا يا نوال وتبعثرنا في القارات من أمريكا الشمالية إلى استراليا ، وكندا ، هربًا من الحكومات الدكتاتورية فى بلادنا الإفريقية » . إنها « آما أتا أودو » إحدى الكاتبات الشهيرات الأفريقيات التى كانت وزيرة للثقافة فى غانا ، وبانقلاب الحكم اضطرت إلى الرحيل إلى أمريكا الشمالية حيث أصبحت أستاذة زائرة فى جامعة بولاية نيويورك . وأيضًا الكاتبة الأفريقية من كينيا واسمها « ميشيرى موجو » التى هربت من الاضطهاد فى كينيا وبحثت عن عمل خارج وطنها فى كندا واستراليا ثم استقر بها الحال فى جامعة سيراكيوس بالولايات المتحدة ، والكاتبة « سينديو ماجونا » من جنوب إفريقيا التى هربت من حكومة الأبارثايد العنصرية وحصلت على وظيفة بالأمم المتحدة فى چنيف ، وغيرهن الكثيرات من الأديبات المبدعات فى أفريقيا اللائى أنقذن حياتهن من براثن الاضطهاد فى أوطانهن ، وهاجرن إلى بلاد العالم ، حيث أثبتن كفاءتهن الأدبية أو العلمية وحققن شهرة عالمية أو مكانة بارزة فى العالم ، لم يحظ بها بعض حكامهن .

قلت لآما أتا أودو ومشيرى موجو وسينديو ماجونا : « لماذا لا نعيد تأسيس جمعيتنا القديمة للكاتبات الأفريقيات ؟ » ، وفعلاً جلسنا فى القاعة ذاتها التى جلسنا فيها منذ أربعة عشر عامًا وأعلنا قيام جمعية الكاتبات الأفريقيات ، عدد المشاركات فى التأسيس الجديد خمسة وستون كاتبة والتاريخ ٢ أغسطس ١٩٩٩ .

تلفت حولى أبحث عن كاتبات من أفريقيا الشمالية فلم أجد كاتبة من المغرب أو تونس أو ليبيا أو الجزائر ، ومن مصر لم يكن هناك إلا أنا .

وقلت : « أين الكاتبات فى الشمال الأفريقى ؟! » ، وقالت ميشيرى موجو : « المشكلة أن الكاتبات فى شمال أفريقيا يكتبن باللغة العربية وقليل جدًا منهم مَنْ تترجم أعمالهن إلى الإنجليزية أو الفرنسية » .

كانت الكاتبة « تسى تسى داجاريمبو » (من زيمبابوى) قد قدمت بحثًا فى إحدى الندوات عن « مشكلة اللغة فى التواصل بين الكاتبات الإفريقيات » . إن معظم الكاتبات من إفريقيا اللائى يشتهرن عالميًا يكتبن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، أما اللائى يكتبن باللغات الإفريقية المحلية فلا مكان لهن فوق خريطة العالم . بعض آثار الاستعمار القديم والجديد .

لهذا كان أول هدف من الأهداف التى وضعناها لجمعية الكاتبات الأفريقيات هو :

١ - العمل على ترجمة أعمال الكاتبات من اللغات المحلية إلى اللغات العالمية .

٢ - تشجيع الكاتبات على الكتابة باللغة المحلية حتى لا تنعزل الكاتبة عن أهل بلادها ، ومن بعد الكتابة باللغات المحلية يمكن الترجمة بعد ذلك لمن تشاء .

٣ - عقد الندوات الأدبية المشتركة بين الكاتبات الأفريقيات على الأرض الأفريقية وليس فى أوروبا وأمريكا .

٤ - مناقشة الأعمال الأدبية التى تنتجها الكاتبات الإفريقيات والتى يتجاهلها النقاد الرجال .

إحدى الندوات فى معرض الكتاب الدولى ٩٩ فى زيمبابوى ناقشت سيرتى الذاتية « أوراقى حياتى » التى تُرجمت إلى الإنجليزية بعنوان « ابنة إزيس » ، وقد دُهشت حين علمت أن هذه السيرة الذاتية قد نالت الاهتمام الأدبى من معظم النقاد فى القارة الإفريقية (والأوروبية والأمريكية) إلا الأصدقاء النقاد فى مصر ، رغم أنها صدرت باللغة العربية منذ ٣ سنوات عن دار الهلال ، وصدر الجزء الثانى منها العام الماضى عن دار المستقبل العربى . مع ذلك لم يهتم بها فى بلدنا إلا النادر القليل . بل إن جمعية الكاتبات المصريات رفضت عقد ندوة أدبية لمناقشة هذه السيرة الذاتية ، وقالت إحدى المسئولات بها : « يا خبر إسود ! دى سيرة ذاتية خطيرة ! » .

منذ ثلاثين عامًا (وبالضبط عام ١٩٦٩) ، طرأت لى فكرة إنشاء جمعية للكاتبات المصريات ، عرضت الفكرة على بعض الصديقات الكاتبات ، وبدأنا تسجيل الجمعية بوزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٧٠ ، وفعلاً وُلدت الجمعية إلا أن إنقلاب السياسة فى عهد السادات قد أدى إلى تجميد نشاط هذه الجمعية لأكثر من عشرين عامًا ولم تستأنف عملها إلا فى السنين الأخيرة .

تذكرت هذا التاريخ وأنا أشارك في ندوة معرض الكتاب الدولى فى زيمبابوى ، وأستمع إلى كبار النقاد في العالم يناقشون سيرتى الذاتية . تذكرت أيضًا أن معرض الكتاب الدولى الذى يعقد بالقاهرة (كل عام فى بداية الشتاء) لم يعقد ندوة واحدة

لمناقشة أى كتاب من كتبى ، ولم يسمع شيئًا عن سيرتى الذاتية أو غيرها من مؤلفاتى ، وقد رفض عقد ندوة أتحدث فيها لرواد معرض الكتاب من الشباب والشابات ، وقال أحد المسئولين عن إقامة المعرض : ياخبر إسود ندوة لنوال السعداوى ؟! دى كاتبة خطيرة !

أجمل ما شهدت فى مدينة هاراري هذا العام هم أطفال المدارس الذين تجمعوا فى مسرح « شيباوو » الإفريقى يوم ٣ أغسطس ١٩٩٩ ، فوق خشبة المسرح صعدت طفلة فى الثانية عشر من عمرها وراحت تقرأ بعض الفقرات من أحد كتبى المترجم إلى اللغة الإنجليزية ، ثم شاركها بعض الأطفال من البنات والأولاد وراحوا يقدمون مسرحيات قصيرة مأخوذة من روايات الأديبات الإفريقيات ومنها بعض رواياتى .

وسط التصفيق الذى ملأ القاعة الفسيحة التى تضم أكثر من ألف طفل وطفلة وقفت وقلت : « هذا يوم من أجمل أيام حياتى ، لأنه يقع فوق أرض إفريقية ، ولأنى أرى أمامى وجوهًا نضرة سمراء البشرة عيونها تلمع بالفرح وتذكرنى بطفولتى فى قريتى على ضفاف النيل » .

• • •

أشياء صغيرة .. مفسدة للفرح(*)

توقفت سيارتى ذات يوم فوقفت فى الشارع لأركب « تاكسى » إلى الجيزة .. كنت أعرف أن الأجرة خمسة جنيهات إلا أن صاحب التاكسى أراد أن يأخذ عشرة جنيهات . رفضت الركوب وجاء تاكسى آخر ، قال لى السائق ادفعى ما تشائين . حين ناولته الجنيهات الخمسة رفض وقال أريد ثمانية جنيهات . ضيعت وقتًا فى الجدل مع السائق الذى كان غليظ الصوت يستخدم لغة غير لائقة مما أصابنى بالغضب . لم يكن عندى وقت ولا طاقة نفسية لأواصل الجدل فأعطيته الجنيهات الثمانية . كنت أعلم أنه يستغل كونى امرأة مثقفة ووقتى ثمين وكرامتى أثمن ، لا أريد أن أهدرها فى الشارع مع سائقى التاكسيات . لهذا حصل منى على مبلغ لا يستحقه . رغم أن هذا المبلغ ثلاثة جنيهات فقط إلا أن يومى كله تعكر ، وسؤال ظل يلح علىّ : « كيف تركت هذا السائق يستغلنى رغم ثقافتى ودفاعى الدائم عن العدل ؟! » تضايقت من نفسى لأنى تنازلت عن حقى . كنت أعرف أن الاستغلال لا يمكن أن يحدث دون أن يتنازل الإنسان عن حقوقه ، سواء كان فردًا أن جماعة .

خطوة نحو الاستبداد

الشعب الذى يتنازل عن حقوقه يخلق الحاكم المستبد الظالم فى الدولة . المرأة التى تتنازل عن حقوقها تخلق الزوج المستبد الظالم فى الأسرة . الراكبة التى تتنازل عن حقها تخلق صاحب التاكسى المستبد الظالم فى شوارع المدينة .

تعكر اليوم بسبب هذه الأفكار التى تزاحمت فى رأسى . كنت أحضر اجتماعًا فى جامعة القاهرة أتحدث فيه عن الديمقراطية ، ووجدتنى أبدأ الحديث بأن أقول إن الإنسان أو الشعب الذى يتنازل عن حقه فى الحرية لا يمكن أن يعيش الديمقراطية ،

(*) جريدة الأهالى ٢٣ يونيو ١٩٩٩ .

لأن الديمقراطية سلوك يومى فى الحياة . فى البيت ، وفى الشارع ، وفى مكان العمل ، وفى الحزب السياسى ، وفى البرلمان وكل مكان . وحكيت ما حدث بينى وبين صاحب التاكسى ، وبدأ الحاضرون جميعًا نساءً ورجالاً يحكون تجاربهم الشخصية وكيف أنهم يتنازلون عن حقوقهم كل يوم وكل لحظة من أجل أن يهرولوا إلى مواعيدهم وأعمالهم التى لا تحتمل التأجيل .

فى طريق العودة إلى بيتى قررت ألا أتنازل عن حقى ولن أدفع أكثر من خمسة جنيهات ، وإن اضطررت إلى العودة سيرًا على القدمين . وفعلاً بدأت السير ، وكنت متحمسة لهذه الحركة المتحدية لأصحاب التاكسيات ، وأصابتنى الحركة مع الحماس بشحنة من السعادة ، وكانت الشمس مشرقة وهواء مايو منعشًا ، إلا أن المسافة بين الجيزة وحدائق شبرا بدت أمامى طويلة ، وفجأة رأيت محطة « المترو » كانت المرة الأولى فى حياتى التى أرى فيها محطة مترو فى القاهرة ، لقد رأيت الكثير من محطات المترو فى العالم ، وركبت القطارات تحت الأرض (داخل الأنفاق) فى معظم العواصم والمدن ، توقفت لحظة وقلت لنفسى : ولماذا لا أركب المترو تحت الأرض ؟! كنت أرى العمال يحفرون شوارع القاهرة منذ سنوات ، وأسمع عن أن مدينة القاهرة سوف يكون بها قطارات تحت الأرض أو « مترو الأنفاق » .

هواجس مشروعة

لم يكن لى أن أصدق أن هذا سوف يحدث ، وإن حدث فلن أركب مترو الأنفاق فى مدينة القاهرة ! لماذا سيطرت علىّ الفكرة أن هذا المترو لن يسير ، وإن سار فسوف يتوقف أو يتعطل مثلما تتعطل كل الأشياء فى المدينة ، ومنها المصعد الذى يأخذنى إلى شقتى فى العمارة الجديدة فى الدور السادس والعشرين ، وكم توقف بى المصعد حيث كدت أموت فى يوم من الأيام ، وتدربت على الصعود على القدمين ستة وعشرين دورًا ، تصورت أن مترو الأنفاق لن يكون أحسن حالاً من المصاعد الكهربية . وقد ينقطع التيار فى أى لحظة ، بل قد يسقط النفق فوق القطار ، أو يحدث حريق ، أو تتسرب مياه المجارى إلى تحت الأرض أو يهمل أحدهم وينسى شيئًا فإذا بقطار يصطدم بالقطار الآخر ، وكم من حوادث قطارات فوق الأرض فما بال تحت الأرض ؟!.

إلا أن الشمس قد بدأت تشتد حرارتها وبدا الطريق من الجيزة إلى شبرا طويلاً . وجمعت شجاعتى وهبطت إلى مترو الأنفاق .

أصابتني ما يمكن أن يسمى « صدمة حضارية » كأنما أصبحت فى أجمل المدن وأنظفها وأكثرها احترامًا للشعب ، ربما هى مدينة فى سويسرا أو السويد ، ليست أبدًا هى مدينة نيويورك أو لندن حيث أصبحت القطارات تحت الأرض ومحطاتها من أقذر الأمكنة وأكثرها خطورة ، أذكر أن قطارًا احترق بى فى نيويورك ، وقطارًا فى لندن اصطدم بقطار آخر واشتعل الحريق حتى كدت أختنق مع الآلاف تحت الأرض لولا حضور بوليس النجدة والإسعاف .

تصورت أننى أصبحت خارج مصر ، لكنى تذكرت أننى داخل محطة مترو الأنفاق ، وأننى واقفة على الرصيف النظيف أتطلع إلى الأسهم والعلامات التى ترشدنى إلى حيث أذهب .

من حسن حظى أن خط الجيزة يذهب مباشرة إلى شبرا ، رأيت فوق الرصيف زحامًا من طلبة الجامعة والطالبات ، وفلاحات وخادمات منازل يحملن سبت الخضار ، وموظفين وربات بيوت ، فقراء ومن الطبقة الوسطى وفوق الوسطى ، رأيت بعض أساتذة الجامعة ، بعض السيدات الأنيقات من الطبقة العليا ، ونساء بالطرح والحجاب والنقاب ، ورجال بالجلاليب وملابس العمال .. كل طبقات الشعب المصرى واقفة فوق الرصيف الطويل تنتظر القطار ، فوق رأسي رأيت جهاز تليفزيون مصرى يتحدث باللغة الإنجليزية . اندهشت لماذا الإنجليزية مع أن جميع الركاب من المصريين والمصريات؟! جاء القطار وهبط الناس وصعد الناس فى طابور منظم جميل ذكرنى بأوربا ، عيون الشباب تتطلع إلى المحطة والقطار بفرح وزهو ، أو ربما هى عيونى التى ملأها الفرح والزهو فتصورت أن كل العيون مثل عيونى. أجمل شىء أن إحدى الطالبات فتحت كتابًا وراحت تقرأ رغم أنها كانت واقفة وليست جالسة فى مقعد . تذكرت كم كنت أعجب بالناس في أوربا حين أراهم يقرأون في القطارات ولا يضيعون الوقت . قلبى يخفق بالفرح والحب لهذه الوجوه المصرية الحميمة ، البشرة السمراء بلون بشرتى ، العيون السوداء بلون عيونى، إلا أن الفرح والفخر يملأها وليس الحزن القديم أو الهوان المزمن.

امـرأة واحـدة

انطلق القطار بالسرعة التى تنطلق بها القطارات فى أوربا وأمريكا ، يحملنى القطار على جناح السرعة إلى شبرا فى دقائق ، وأنا أتطلع فى سعادة إلى جدران المحطات المتعاقبة النظيفة الجديدة ، وكل شيء يبدو مفرحًا إلا بعض أسماء المحطات ، التى بدت كلها أسماء رجال حكموا مصر ، كأنما مدينة القاهرة تحت الأرض يملكها الحكام الرجال كما ملكوها فوق الأرض .. ما هذا التقديس الموروث منذ الفراعنة لحكام مصر ؟!

كان يمكن أن تكون هناك محطة واحدة باسم حاكم فى التاريخ حرر بلادنا من الاحتلال الأجنبى مثلاً ، لكن أن نضع أسماء كل الحكام ، هذا الذى حرّر مع هذا الذى لم يحرِّر ، فهذا مؤلم فعلاً لمشاعر الشعب المصرى ، الذى يدرك تمامًا أن ليس كل حاكم يستحق أن يمتلك محطة تحت الأرض ، ألا تكفى المحطات فوق الأرض ؟!

فى أوربا كنت أقرأ أسماء كبار العلماء أو الأدباء أو الفلاسفة الكبار الذين غيروا مسار الفكر البشرى ليصبح أكثر إنسانية وعدلاً وحرية وجمالاً . أغلبهم رجال بالطبع وقليل جدًا من أسماء النساء الفيلسوفات أو الأديبات المرموقات . إلا أن مدينة القاهرة تحت الأرض لم أقرأ اسم امرأة مصرية واحدة فوق إحدى المحطات ! إلا اسم « سانت تيريزا » .

ألا توجد امرأة واحدة فى تاريخ مصر القديم أو الحديث تستحق أن يضع اسمها فوق إحدى المحطات ؟! وكم تفخر أوربا بنسائها المشاركات فى تحرير بلادهن أمثال جان دارك ، ألا توجد فى مصر واحدة شاركت فى تحرير بلادنا خلال القرون الماضية؟ أو شاركت فى الفكر والأدب والعلم ؟

وهل ينتقل العالم الذكورى الطبقى من فوق الأرض إلى تحت الأرض بهذا الشكل المؤلم ؟! كأنما بلادنا مسكونة بالذكور فقط وأصحاب السلطة يركبون على أنفاسنا تحت الأرض أيضًا ! .

النقط السوداء

هبطت فى محطة شبرا القريبة من بيتى ، قبل أن أصعد إلى الشارع ذهبت إلى ناظر المحطة لأطلب خريطة لخطوط القطارات .

لا يمكن لأحد أن يعرف طريقه تحت الأرض دون خريطة . وفى كل مدن العالم يمكن الحصول على هذه الخريطة من شباك التذاكر .

فوجئت بأن ناظر المحطة ليس لديه خريطة ، وأن شبابيك التذاكر ليس بها خرائط . لماذا ؟ لم يكن لى أن أعود إلى بيتى دون خريطة استرشد بها فى رحلاتى القادمة داخل مترو الأنفاق . بعد نصف ساعة تقريبًا وبعد أن قلت : إننى كاتبة مهمة جدًا استطاع ناظر المحطة أن يحصل لى على خريطة . إنها مطبوعة بالألوان فوق ورق مصقول لامع ثمين . اندهشت كثيرًا ، لأن خريطة مترو الأنفاق فى أغنى بلاد العالم تطبع على ورق عادى ، لتكون فى متناول الناس دون ثمن .

سألت ناظر المحطة فقال لى ما أدهشنى .. قال : نحن لا نعطى هذه الخريطة إلا للسياح الأجانب ، ولذلك لابد أن يكون مظهرها براق جميل . قلت له : هذا المشروع « مترو الأنفاق » للشعب المصرى وليس للسياح الأجانب ، جميع الركاب والراكبات من المصريين والمصريات فكيف تطبع الخريطة ، فقط للأجانب ؟

وكيف تكون الإذاعة فى التليفزيون على الأرصفة باللغة الإنجليزية ؟!

ابتسم الناظر برقة وقال : والله مش عارف !

أشياء صغيرة قد تفسد جمال الأشياء ، مثل النقط السوداء فوق القلب الأبيض المملوء بالفرح ، قاومت هذه السلبيات القليلة التى يمكن أن تعالج عن طريق الكتابة والنقد من أجل أن يفرح الشعب المصرى بمشروع جديد يحرره من عبودية المواصلات فوق الأرض ومنها التاكسيات .

وبدلاً من أن أدفع ثمانية جنيهات لصاحب التاكسى دفعت خمسين قرشًا (نصف جنيه فقط) ثمن التذكرة من الجيزة إلى بيتى فى شبرا .

أدخلت سيارتى الجراج وأخرجت أصحاب التاكسيات من حياتى وقررت ركوب المترو تحت الأرض كل يوم .

• • •

في ذكرى مرور نصف قرن على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان

حق الحياة(*)

كنت تلميذة صغيرة فى المدرسة الثانوية حين صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ بمدينة باريس . لم أسمع شيئًا عن هذا الإعلان فى مدرستى . لم يحدثنا أحد من المدرسين أو المدرسات عنه . ربما كتبت الصحف الصادرة من القاهرة شيئًا عنه . إلا أننا لم نكن نقرأ الصحف فى المدرسة . وهى مدرسة داخلية للبنات فى مدينة صغيرة جنوب القاهرة اسمها « حلوان » ، ومن نافذة عنبر النوم كنت أطل على الصحراء وتلال من الرمال ، ومن الناحية الأخرى كانت ثكنات الإنجليز العسكرية ، تبدو فى الليل كالأشباح السوداء ، تنطلق منها كشافات الضوء ، تفحص السماء والأرض ، وتستقر على وجوهنا نحن البنات الواقفات فى النافذة مثل السجينات وراء القضبان ، ونختفى منها وراء الشيش ، إلا أنها تنفذ إلينا من الشقوق أو الفتحات في النوافذ ، وإن اختبأنا تحت الأسرة تسرى إلينا ومعها أصوات العساكر الإنجليز العالية ، وضحكاتهم الساخرة وكلمات غزل باللغة الإنجليزية لا نفهمها . إلا أننا ندرك أنها كلمات نابية قبيحة المعنى ، من الطريقة التي ينطقونها بها ، وقهقهاتهم الخشنة الفجة ، تهتك سكون الليل ، فى مدينة حلوان الصغيرة الراقدة فى حضن الصحراء ، الممدودة كبحر من الرمال حتى نهر النيل .

لم يحدثنا أحد فى المدرسة عن حقوق الإنسان ، سواء كان هذا الإنسان رجلاً أو امرأة ، شابًا أو طفلاً أو تلميذًا أو تلميذة ، وفى طابور الصباح قبل أن ندخل إلى الفصول كانت الناظرة تمر علينا بوجه غاضب منقبض العضلات ، من خلفها وكيلاتها أو ضابطات الداخلية مثل العساكر الإنجليز ، يدبون فوق الأرض بكعوب حديدية ، فوق

(*) القاهرة فى : ديسمبر ١٩٩٧ .

وجه كل منهم تكشيرة أكبر من تلك التى فوق وجه الناظرة ، فى يد كل منهم مسطرة طويلة حادة كالسيف ، قد تهبط فجأة فوق أصابعنا ونحن واقفات فى الطابور نرتعد من الخوف .

فى طفولتى لم أعرف أننى « إنسان » ولى « حقوق » يمكن أن أطالب بها . فى المدرسة كنا نغنى فى طابور الصباح كل يوم « الله . الملك . الوطن » فى الفصل نسمع المدرسون والمدرسات يقولون أن الطاعة واجبة لله والملك والوطن ، وأن الموت فى سبيل الله والملك والوطن ليس موتًا وإنما هو المجد العظيم والدخول إلى جنة الخلد فى السموات العليا . بالطبع كنا نصدق كل ما نسمعه فى المدرسة خاصة من الرئيسة أو الناظرة ، بدت بوجهها الصارم وكأنها مندوبة الله والملك والوطن ، وأن عصيان أوامرها معناه عصيان أوامر الله والملك والوطن . هؤلاء الثلاثة لم نكن نراهم ، فالله مجرد كلمة نسمعها أو نقرأها ، والوطن أيضًا مجرد كلمة ، والملك لانراه إلا فى الصور المنشورة فى الصحف ، لكن الناظرة كانت تتجسد أمامنا على شكل امرأة جاحظة العينين من وراء نظارة زجاجية ويد سميكة أصابعها قوية تمسك بعصا طويلة لها شكل المسطرة .

كنت وصديقاتى البنات نحب الجرى واللعب فى فناء المدرسة مثل الأطفال فى هذا العمر . كنا نحب أيضًا الغناء والرقص ، والعزف على العود أو البيانو أو الطبلة أو الرق أو الكمنجة أو غيرها من الآلات الموسيقية القديمة والحديثة . لم نكن نمارس هذه الهوايات إلا فى الأجازات أو فى أوقات الفراغ بعد الدراسة . إلا أن أوامر الناظرة كانت صارمة تمنع كل هذه الهوايات وتقول أنها مفسدة لأخلاق البنات .

الأجازة الصيفية الطويلة كنت أقضيها فى البيت مع أسرتى فى المدينة الصغيرة تشبه القرية اسمها منوف ، فى وسط الدلتا . لم يكن مسموحًا للبنات المراهقات أن يخرجن إلى الشارع أو الحقول ليلعبن أو يركبن الدراجة مثل الأولاد الصبيان . كان أخى « طلعت » وهو يكبرنى بعام واحد يلعب طوال الأجازة الصيفية ويستمتع بالخروج إلى الشارع والحقول وركوب الدراجة والسهر مع أصدقائه فى دار السينما أو المسرح . وسألت أمى : لماذا يستمتع أخى بهذه الحقوق رغم أنه راسب فى المدرسة بينما أنا أحرم منها وأقضى الأجازة فى المطبخ رغم أننى ناجحة فى المدرسة بامتياز ؟ وكان رد

أمى الوحيد هو : « لأنه ولد وأنت بنت » وسألت أبى السؤال نفسه ، وكان رده مشابهًا لرد أمى ، وأضاف عليه قائلاً : هذا هو أمر الله وعليك الطاعة دون مناقشة . إلا أن عقلى لم يكن يقتنع بالطاعة العمياء ، خاصة إذا كان الأمر ليس عادلاً . فكيف اجتهد فى المدرسة طوال السنة الدراسية ثم أعمل فى الأجازة فى المطبخ وتنظيف البيت ، اما أخى فهو يلعب فى المدرسة ويلعب فى الأجازة ولا يعمل فى البيت مثلى ، بل لا يرتب سريره ولا ينظف غرفته ولا يغسل الصحن الذى أكل فيه ، وأقوم أنا بكل هذه الأعمال بدلاً منه ! هل يمكن أن يأمر الله بالظلم ؟!

سألت الله هذا السؤال فى أحلامى وصلواتى إليه ، إلا أن الله لم يرد علىّ . وقال ابى إن الله ليس له لسان ، وليس له أذن ، وليس له جسد . وسألت أبى : بلسان من يتحدث الله حتى نسمعه عن البشر ؟

وقال أبى : يتحدث الله بلسان الأنبياء والرسل وأولى الأمر .

وفى المدرسة عرفت أن أولى الأمر هم الآباء ، أولياء أمور التلميذات ، وعرفت الصلة بين الله وأبى ، فإن أبى هو الذى يتحدث بلسان الله فى البيت ، مثل ما تتحدث الناظرة فى المدرسة ، وأن عصيان الأب يعنى عصيان الله ، يعنى عصيان الناظرة ، وهذا كله يعنى عصيان الملك والوطن .

بعد أن بلغت سن الرشد وتخرجت من المدرسة الثانوية وأصبحت طالبة فى كلية الطب بدأت أفهم العلاقة التاريخية بين هذه القوى فى السماء ، وفوق الأرض ، فى المدرسة أو البيت أو الوطن .

ولأن أبى مسلم يؤمن بكتب الله الثلاثة (القرآن والإنجيل والتوراة) فقد ورثت عنه هذا الإيمان وقرأت كتب الله الثلاثة ، ودهشت للتشابه الكبير بينها ، خاصة فيما يتعلق بحقوق النساء والرجال واكتشفت أن حقوق المرأة أقل من حقوق الرجل فى الأديان الثلاثة ، إلا أن كتاب التوراة أشد ظلمًا منه للنساء من كتاب الإنجيل ومن كتاب القرآن . مثلاً هناك آية فى التوراة تقول أن نجاسة « دم الأم » التى تلد أنثى تكون ٦٤ يومًا يعنى ضعف نجاسة « دم الأم » التى تلد الذكر ، وهى ٣٢ يومًا فقط ، وتؤكد آيات التوراة

على أن أمنا حواء هى أول من أقترف الخطيئة الكبرى وأكل من شجرة المعرفة التى حرمها الله .

إلا أن الله فى كتابه الثالث « القرآن » لم يظلم حواء كل هذا الظلم فالآية تقول أن آدم وحواء كلاهما أزلهما الشيطان إبليس وأكلا من الشجرة ، والشجرة فى القرآن بلا اسم ، ولا نعرف إن كانت شجرة المعرفة أو شجرة أخرى . كما أن الله فى القرآن لم يوجه الإدانة أو الخطيئة لحواء وحدها بل شمل آدم أيضًا . أما فى الآية ٣٧ من سورة البقرة وهى آية الغفران أو التوبة ، فقد تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . كلمة « عليه » فى القرآن بالمفرد وليس المثنى كما جاءت الآية السابقة الخاصة بالعصيان ، هكذا نفهم التوبة كانت من نصيب آدم بالمفرد أى وحده أما حواء فقد حرمت من التوبة فهى لم تتلق كلمات من ربها ، كلمة « تلقى » جاءت بالمفرد فى القرآن وليس بالمثنى كما فى الآية السابقة « وأزلهما الشيطان » .

لماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لحواء رغم أنهما اشتركا معًا فى الإثم ؟! أليس للمرأة حقوق الإنسان مثل الرجل ؟ أم أن الرجل هو الإنسان ، والمرأة ليست الإنسان ؟!

فى عام ١٩٥٦ قرأت لأول مرة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان . وأصابتنى صدمة تشبه الصدمة فى طفولتى حين قرأت لأول مرة كتب الله الثلاثة . فى ديسمبر ١٩٥٦ كنت طبيبة ناشئة فى الوحدة الصحية بقرية طحلة بدلتا النيل . كنت قد تدربت على السلاح فى معسكر القرية لأتطوع فى الحرب والدفاع عن الوطن أو مدينة بورسعيد التى ضربت بالقنابل الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية فى آن واحد ، وأصبح الواجب الوطنى الأول هو صد هذا العدوان الثلاثى ، الذى اتضح فيما بعد أنه عدوان رباعى (اشتركت فيه الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا على نحو غير مباشر أو غير معلن) ، كنت أتصور فى هذا العمر من أول الشباب أن البند الأول في الإعلان العالمى لحقوق الإنسان سوف يحرِّم اعتداء دولة كبرى على دولة صغرى بالقنابل ، أو اعتداء مجموعة من الدول الكبيرة على دولة صغيرة فى أفريقيا لا تملك جيشًا مسلحًا تسليحًا حديثًا . وكنت أتصور أن البند الثانى سوف يحرِّم الاستعمار الاقتصادى بمثل ما يحرِّم الاحتلال

العسكرى لأى بلد فى العالم . وكنت أعرف منذ الطفولة أن بريطانيا العظمى قد احتلت مصر عسكريًا عام ١٨٨٢ ، وأنها حوّلت مصر إلى مزرعة للقطن لحساب بريطانيا وضد مصالح الشعب المصرى ، خاصة الفلاحين الفقراء ، وكنت منذ الطفولة أسمع جدتى الفلاحة الفقيرة تغنى مع نساء القرية : « يا عزيز يا عزيز كُبَّة تاخد الإنجليز » وكنت أتصور أن البند الثالث من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان سوف يحرِّم المقاييس المزدوجة التى تحكم عالميًا بين الدول المختلفة ، والتى تحكم محليًا داخل الدولة الواحدة ، والتى تحكم عائليًا داخل الأسرة الصغيرة .

فى مقدمة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان قرأت كلامًا عامًا عن المساواة بين البشر بصرف النظر عن اللون أو العرق أو الجنس أو الجنسية أو الدين .. إلخ . إلا أن هذا الكلام العام لم يُترجم إلى بنود وحقوق واضحة محددة ، وجاء كلامًا مرسلاً عامًا مثل الآيات فى الكتب الدينية أو الدساتير الحكومية .

رغم النص الذى يؤكد المساواة بين الرجل والمرأة إلا أن لغة الإعلان ذكورية تستخدم كلمة الإنسان بالمذكر كأنما الإنسان هو الرجل فقط . وهناك نص واضح يؤكد أن الأسرة هى الوحدة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع ولابد من حمايتها بواسطة المجتمع والدولة . إلا أن كلمة الأسرة تعنى الأسرة الأبوية السائدة فى العالم ، حيث يسيطر الرجال على النساء ، وحيث تحرم المرأة من حقوق الإنسان الأساسية وأولها أنها إنسان كالرجل ولابد أن يكون لها الحقوق نفسها داخل الأسرة .

ولم أجد فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان أى شىء يرد لى حقوقى الإنسانية المسلوبة كزوجة وأم ، وكنت فى نهاية عام ١٩٥٦ قد عشت تجربتى الأولى فى الزواج والأمومة .

أدركت أن « الأم » محرومة من حقوق كثيرة يتمتع بها « الأب » لمجرد أنه ذكر . يكفى أن الأطفال لا يحملون اسم الأم ، ولا يحق لهم الحصول على جنسية الأم . يتمتع الزوج بحق الطلاق المطلق وحق الزواج بأكثر من امرأة ، وحق حضانة الأطفال بعد سن

معينة ، وحق الولاية على هؤلاء الأطفال بعد طلاق أمهم ، ولا يحق للأم الولاية على أطفالها وإن مات أبوهم لأنها أنثى ، والولاية للذكور فقط بل إن للزوج حق الولاية والوصاية على زوجته فلا تسافر إلا بإذنه مع أنه يسافر بدون إذنها .

لقد عانيت من هذا القانون فى مصر ، بعد طلاقى من الزوج الأول . لقد حصلت على حق الوصاية على طفلتى وحضانتها حتى تبلغ السن القانونية فتصبح من حق أبيها . وفى عام ١٩٧١ بلغت ابنتى سن الخامسة عشر ، وكانت فى المدرسة الثانوية ، وتم اختيارها ضمن فريق التنس للسفر إلى الجزائر فى إحدى المباريات الخاصة بالبنات ، إلا أن ابنتى حُرمت من السفر . لأن ولى الأمر وهو الأب ، هو الوحيد الذى يملك الولاية عليها ، وهو الذى يصرح بسفرها خارج مصر أو لا يصرح . لم تكن ابنتى تعيش مع أبيها منذ الطلاق ، كانت تعيش معى، وكنت أتولى الإنفاق عليها كاملاً ، حتى بلغت سن الرشد ، ولم نكن نعرف عنوان أبيها منذ سنوات، ولم يكن من حقى كأم أن أصرح لها بالسفر لأننى امرأة وليس من حقى الولاية رغم أننى أتولى الإنفاق وأشتغل طبيبة مسئولة عن أرواح الناس .

أيضًا بعد موت أبى عام ١٩٥٩ حصلت على حق الوصابة على إخواتى البنات القاصرات . إلا أن الولاية عليهن لم تكن من حقى لمجرد أنى امرأة ، وكان علىّ أن أبحث عن أى رجل فى الأسرة ليكون وليًا عليهن رغم أنه لا يعيش معهن وأنا التى أعيش معهن وأتولى مسئولية الإنفاق عليهن والسهر على راحتهم .

إن القوانين الخاصة بالأسرة فى مصر (أو فى غيرها من كثير من بلاد العالم) ، تحرم الزوجة والأم من بعض الحقوق الأساسية للإنسان ، ومنها حق التنقل والسفر بحرية .

القانون فى مصر حتى اليوم لايزال يحرم المرأة من هذا الحق الإنسانى الهام . مثلاً أنا لا أستطيع السفر أو أن أجدد جواز سفرى دون موافقة زوجى ، ولكن زوجى يستطيع أن يجدد جواز سفره دون موافقتى . هذا القانون فى مصر يسمى « قانون الاحتباس » ، بمعنى أن من حق الزوج أن يحبس زوجته .

وفى أوروبا وأمريكا حتى وقت قريب لم يكن للنساء الحقوق الإنسانية داخل مؤسسة الأسرة أو الزواج ، ولم يشمل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ حقوق المرأة فى حياتها العامة أو الخاصة .

وقد أعدت قراءة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى مراحل مختلفة من عمرى ، حتى كتابة هذه السطور فى شهر ديسمبر ١٩٩٧ ، وقد مضى على الإعلان نصف قرن من الزمان . وأعتقد أن هذا الإعلان فى حاجة إلى تطوير يواكب حركات تحرير الشعوب والنساء ، وأن تضاف بنود جديدة تعكس حقوق الشعوب فى مواجهة الحكومات والدول كما تعكس أيضًا حقوق الأطفال والنساء داخل أسرة متطورة أكثر عدالة وأكثر سعادة .

لابد أن يشمل الإعلان على بند أساسى يمنع ازدواجية المقاييس بين الدول أو بين الأفراد ، وأن يكون « الحق » هو الأساس وليس « القوة » وأن تلتزم جميع الدول فى العالم بنزع السلاح النووى والكيميائى وسائر أسلحة الدمار الشامل بما فيها سلاح الحصار الاقتصادى ، أو العقوبات الاقتصادية ، التى تنفذها الدول الكبرى ضد الدول الصغرى ، والتى يروح ضحيتها الأطفال والنساء والفقراء وليس الأقوياء فى الدولة أو الحكومات .

مثلاً لماذا تفرض الولايات المتحدة الأمريكية على مصر وغيرها من الدول العربية والإفريقية نزع السلاح النووى والتوقيع على الاتفاقيات الخاصة بذلك ، على حين لا يُفرض على دولة إسرائيل أن تنزع سلاحها النووى ، ولا يفرض عليها التوقيع على المعاهدة ذاتها ؟ ولماذا لا تنزع الولايات المتحدة الأمريكية سلاحها النووى فتكون قدوة لغيرها ؟

مثل آخر لماذا يُفرض على دولة العراق الحصار الاقتصادى كعقوبة لأنها لم تنفذ قرارات الأمم المتحدة ، وتُترك دولة إسرائيل دون عقوبات على الإطلاق ، رغم أنها لا تنفذ قرارات الأمم المتحدة ؟

ومن المعروف أن فى العراق اليوم يموت ٥٠٠ طفل يوميًا بسبب هذا الحصار الاقتصادى ومع ذلك يحتفل العالم بمرور نصف قرن على صدور الإعلان العالمى لحقوق الإنسان .

فهل هذا الإنسان فى نظر العالم هو الرجل الأبيض فى الشمال وحده ؟!

ألا يحق للشعوب من الأطفال والنساء فى عالم الجنوب أن يكون لهم حقوق الإنسان ؟! أن يكون لهم حق الحياة وعدم الموت ؟!

● ● ●

اختلاف الآراء ضرورة(*)

قرأت ما كتبه الأستاذ صلاح منتصر (فى الأهرام ١٩٩٨/٦/١٥) عن كتاب مكسيم رودنسون (محمد) ، وما سبق أن كتبه عن هذا الموضوع ، وقرأت أيضًا ما كتبه الأستاذ سلامة أحمد سلامة ، وله رأى يختلف عن رأى صلاح منتصر ، ولاشك أن اختلاف الآراء ظاهرة صحية وإيجابية ، بل ضرورة لظهور الحقيقة أو الاتجاه الأقرب إلى الصالح العام وتقدم المجتمع ، بالإضافة إلى تشجيع الناس على إبداء آرائهم حتى تتحول الأغلبية الصامتة فى بلادنا إلى قوة متحركة مُشاركة فى الحوار الدائر بين عدد قليل من أصحاب الأعمدة فى الصحف .

لهذا أعتقد أن كل إنسان وكل إنسانة فى مصر من حقها (أو من حقه) أن يعبر عن رأيه (أو رأيها) فى كل ما ينشر فى الصحف وأجهزة الإعلام ، بهذا يشمل الحوار الجميع وليس فقط عددًا محدودًا من الصحفيين .

وأنا أتفق فى الرأى مع ما كتبه سلامه أحد سلامة ، وأعتقد أن القرار الذى صدر بوقف تدريس الكتاب لم يكن مفيدًا ، ولم يكسب منه إلا التيار السياسى الدينى الذى يستخدم عبارة « إهانة الدين » وسيلة لتخويف ذوى الأفكار المختلفة، وهى عبارة مطاطة تتحول إلى سيف يسلط على رقاب بعض الناس دون البعض الآخر ، والحُكم يكون دائمًا للأقوى ، فالقوة هى التى تحدد كل شىء وليس المنطق ، يكفى أن يكتب صحفى له نفوذ كلمة صغيرة ضد كتاب ما حتى تسرع السلطة بمنعه أو تحويل الكاتب إلى المحاكمة ، وربما يدخل السجن ، ولا أنسى هذا الكاتب المصرى (علاء حامد) الذى قضى فترة غير قصيرة فى السجن وبين المحاكم لأن أحد الصحفيين من ذوى النفوذ كتب فى عموده اليومى أنه أهان الدين ، وقد تم تكفير عدد من الأدباء والمفكرين

(*) الأهرام ١٩٩٨/٦/١٦ .

من الرجال والنساء بتهمة إهانة الدين أو تشويه صورة الإسلام ، وتم تنفيذ الحكم بالإعدام عليه (جسديًا مثل فرج فودة) واجتماعيًا وإعلاميًا مثل آخرين كثيرين وأنا منهم .

وإذا كان كتاب مكسيم رودنسون قد مضى عليه أكثر من سبعة وعشرين عامًا وهو موجود فى المكتبات المصرية وفى مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ ١٩٧١ ، أى أنه فى متناول أيدى الطلبة بل والشباب العادى من خارج الجامعات . فما الذى حدث فجأة حتى يصبح هذا الكتاب خطرًا على الدين الإسلامى ؟!

يقول صلاح منتصر إن المشكلة هى تحول هذا الكتاب من قراءة اختيارية إلى مرجع عليه ٣٠٪ من درجات المادة لبعض الطلاب فى الجامعة الأمريكية ، فهل هذه مشكلة تستحق أن يصدر الوزير قرارًا بمنع الكتاب ؟ وهل المنع هو الحل ؟! ألا نعرف أن كل ممنوع مرغوب ، وكم من كتب انتشرت وتنافس على شرائها الناس لمجرد أنها ممنوعة .

وهذا بالضبط هو ما حدث بالنسبة لكتاب مكسيم رودنسون ، الذى كان كتابًا مجهولاً لا يعرف عنه إلا قلة من الأساتذة فى الجامعات وبعض طلابهم ممن يدرسون الفلسفة أو نقد الفكر الدينى ، فأصبح هذا الكتاب اليوم مثل حبوب « الفياجرا » يباع فى السوق السوداء ، وكان فى مكتبى نسخة منه باللغة الإنجليزية قرأتها منذ عشرين عامًا ، فأخذت أبحث عنها بين مئات الكتب عدة أيام حتى عثرت عليها ، وما أن عثرت عليها حتى سرقها منى أحد الأصدقاء ، لأن النسخة اختفت تمامًا بعد أن جاءنى فى زيارة قصيرة . وحدث الشىء نفسه بالنسبة لرواية علاء حامد الممنوعة ، والكتب الأخرى التى مُنعت إلى حد أن أصبح الإعلان عن منع كتاب هو أنجح الوسائل للدعاية له . وإنى أعتقد أن القرار الحكومى بمنع أى كتاب (جيد أو ردىء) لا يفيد أحدًا إلا مؤلف الكتاب وناشره .

أما الضرر الناتج عن مثل هذا القرار فهو كبير ، لأنه ينسف فكرة الحرية أو الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو التنمية أو الإصلاح أو غيرها من الكلمات الكثيرة المتداولة فى بلادنا اليوم .

ويتساءل صلاح منتصر فى مقاله عن العلاقة بين قرار منع كتاب رودنسون وانخفاض مستوى التعليم الجامعى أو انهيار تقاليد البحث العلمى ، ويؤكد أن لا علاقة بينهما . وأنا أختلف معه فى هذا . لأن التعليم الجامعى أو البحث العلمى إن لم يقم على حرية التفكير وحرية نقد أى شىء بما فيها الموروثات العلمية أو الدينية فإنه لا يكون تعليمًا صحيحًا ولا بحثًا صحيحًا . لعل آفة التعليم فى بلادنا أنه يقوم على الخوف أو التخويف من السلطة الأعلى سياسيًا ودينيًا . ربما لهذا السبب تخلفت بلادنا فى مجال الاختراعات العلمية والإبداعات الحضارية والأدبية ، وقد قمت بالتدريس فى بعض الجامعات خارج الوطن وأدركت لماذا تفتقر بلادنا إلى المخترعين من الرجال والنساء فى مجالات الحياة بما فيها العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية ومنها علوم الدين والفقه والفلسفة ، خاصة الفلسفة فهى علم العلوم ، وهى مفتاح العقل للتفكير ، لأنها تعلم الإنسان كيف يفكر ، ونحن فى بلادنا لا نتعلم كيف نفكر ، بل نتعلم كيف نتفادى التفكير حتى لا نقع فى الخطأ أو الخطيئة ، وحتى لا يتهمنا أحد أننا مسسنا المقدسات .

فى طفولتى قال لى أبى : جادلى فى كل شىء وتشككى فى كل شىء حتى الدين ، فالإيمان بالوراثة لا يكون إيمانًا . وقد تخرج أبى من الأزهر ودار العلوم إلا أنه كان ناقدًا للتعليم فى الأزهر ودار العلوم ، وكان يردد دائمًا هذا المثل القديم : « علمنى كيف أصطاد ولا تعطينى سمكًا » . كان يقول : « علمنى كيف أفكر ولا تعطينى معلومات » .

إن العقل الذى يعرف كيف يفكر يخلق المعلومات ويصبح ثريًا بالأفكار الجديدة ، أما العقل الذى لا يعرف كيف يفكر فإنه يظل فقيرًا وإن تم حشوه بالمعلومات الكثيرة .

طلاب الجامعات فى العالم اليوم يناقشون بحرية وشجاعة بعض الاختراعات العلمية التى تناقض كثيرًا من الأفكار الدينية التى وردت عن نظرية خلق الكون والإنسان ، وفى أيديهم كثير من الكتب الجديدة التى يقول عنها « التيار المسيحى اليمينى » إنها إهانة للدين أو هدم للإنجيل ، إلا أن أحدًا لا يمنع هذه الكتب بقرار حكومى ، ويتعلم الإنسان هكذا كيف يفرز الغث من السمين وكيف يخترع ويُقدم على الابتكار والخلق .

• • •

ثلاث رحلات إلى بغداد(*)

« إذا تحمس ذوو السلطة لعمل شيء أفقد حماسي » هذه العبارة سمعتها من أبى وأنا فى السابعة من العمر . ألهذا السبب انسحبت من المبادرة الشعبية لمناصرة الشعب العراقى بعد أن تنافس من حولها أصحاب المال والسلطة ؟! منذ عشرين عامًا كانت زيارتى الأولى للعراق . كنت فى طريقي من الهند إلى مصر . قررت الهبوط من الطائرة فى بغداد . أردت أن ألقى نظرة على الأرض التى خرجت منها إلهة اللغة والكتابة ، امرأة سومرية اسمها « نيدابا » (هى قرينة الإلهة إيزيس فى مصر) ، اكتشفت الحروف الأبجدية منذ سبعة آلاف عام .

نقلت البشرية من حدود الاتصال عبر الإشارات الجسدية والهمهمات ، إلى حرية الانطلاق اللا محدود عبر اللغة والكلمات . « فى البدء كانت الكلمة » ولولا الكلمة ما وصلت إليكم فى بيوتكم الآن عبر هذا المقال .

مع ذلك اختفى اسم « نيدابا » فى التاريخ المكتوب ، فهو تاريخ طبقى أبوى ديكتاتورى يحذف اسم الرائدات من النساء كما يحذف المبادرات الشعبية ، ولا يسلط الضوء إلا على الأباطرة والفراعنة من الرجال ، وزوجاتهم المصونات الحُرمات فى بيوت الزوجية ، أو عشيقاتهم الراقصات والمطربات فى بيوت الهوى والبغاء . أما « نيدابا » وغيرها من النساء المبدعات فى مجال الفكر أو الكتابة فقد اختفت أسماؤهن تمامًا من التاريخ المكتوب ، واختفى « اسم الأم » فى المؤسسات الجديدة التى نشأت مع النظام الطبقى الأبوى ، أنها مؤسسة الدولة والعائلة ، فقدت المرأة الأم أهليتها وحقها فى منح اسمها لأطفالها أو جنسيتها أو دينها أو لغتها . تحولت المرأة إلى أجيرة بلا أجر تعمل فى البيت أو فى الأعمال الجسدية التى لا تتطلب الفكر أو الكتابة . فرض عليها الصمت ، وإن تكلمت فهى لا تتكلم بلسانها وإنما بلسان الرجل ، أصبح

(*) نشر بجريدة الأهالى ، ١٣ فبراير ١٩٩٨ .

المذكر فى اللغة يشمل الذكر والأنثى معًا ، أما المؤنث فهو مقصور على الأنثى ولا يصح أن يشمل الذكر ، وإذا اجتمعت ألف امرأة فى قاعة ومعهن ذكر واحد (وإن كان طفلاً) فإن صيغة المذكر تتغلب على صيغة المؤنث .

وفى عصرنا الحاضر لاتزال القيم الطبقية الأبوية تسود المجتمع والتعليم والصحافة والإعلام . يكفى أن نفتح مجلة لنرى فوق غلافها صورة راقصة مشهورة ، إلى جوارها صورة الرئيس الأمريكى، أو السيدة هيلارى كلينتون أو الأميرة ديانا .. إلخ.

فى زيارتى الأولى للعراق ورغم مرور أكثر من عشرين عامًا لا أنسى حرارة اللقاء مع النساء والرجال ، دهشت لأنهم يقرأون كتبى ويعرفوننى أكثر مما يعرفنى الناس فى مصر ، وكان الإعلام الحكومى المصرى خلال السبعينيات يحجب أعمالى عن الناس ، بل يشوهها إرضاء للحاكم (السادات) واتباعه من ذوى المال والسلطة .

الزيارة الثانية

كانت الزيارة الثانية لبغداد منذ سبع سنوات ، فى يناير ١٩٩١ ، كان جورج بوش قد أعد جيشه الأمريكى لضرب العراق مع ثلاثين جيشًا تابعًا . سافرت إلى بغداد ضمن الوفد النسائى العالمى لمنع الحرب . كنت أمثل جمعية تضامن المرأة العربية مع زميلة فلسطينية أردنية اسمها الدكتورة فتحية سعودى ، واشتركنا فى مظاهرة شعبية طافت شوارع بغداد ، كان شعارنا « حرب الخليج ليست لتحرير الكويت بل للسيطرة على بترول العرب وتقوية نفوذ إسرائيل فى المنطقة » .

وفعلاً حققت الحرب هذه الأهداف ، وأصبحت إسرائيل هى القوة النووية الوحيدة فى المنطقة ، تضرب من تشاء وفى أى وقت ، بل امتد ذراعها الطويل القوى ليضرب مفكرين فرنسيين – أمثال « جارودى » – يناصرون القضية العربية ويكشفون أطماع دولة إسرائيل « من النيل إلى الفرات » !

حين عدت من بغداد فى يناير ١٩٩١ أوقفنى البوليس فى مطار القاهرة ، فتشوا حقيبتى وأخذوا كل شىء حتى مفكرتى الشخصية .

وصدر القرار الحكومى بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية فى مصر ، وتطوع للدفاع عنها ثلاثة عشر محاميًا ، رفعوا قضية عاجلة بمجلس الدولة ، إلا أنها لم تخرج من سراديب المحكمة حتى اليوم ورغم مرور سبعة أعوام كاملة !

الزيارة الثالثة

كانت الزيارة الثالثة لبغداد فى الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٩٧ . كانت جزءًا من الحملة الشعبية للتضامن مع الشعب العراقى ضد الحصار الأمريكى المفروض عليه باسم تطبيق الشرعية الدولية وخلف واجهة الأمم المتحدة رغم أنه يخالف ميثاقها .

بدأت الحملة بعرض فيلم يصور مآسى الأطفال العراقيين تحت الحصار . كان ذلك يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٧ أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الخامس لجمعية تضامن المرأة العربية ، والذى عقد فى مكتبة القاهرة الكبرى من ١١ - ١٣ أكتوبر الماضى . أثار الفيلم غضب المشاركين والمشاركات في المؤتمر ضد هذا الحصار اللا إنسانى الذى يقتل ألف طفل كل يوم وأكثر .

فى اليوم الأخير من المؤتمر تكونت اللجنة الشعبية لمناصرة الشعب العراقى ورفع الحصار عنه . كانت اللجنة مبادرة شعبية تمامًا انضم إليها الكثيرون من الأفراد والهيئات غير الحكومية ، ونجحت خلال أربعة شهور فى جمع مليون توقيع لرفع الحصار ، وفى تنظيم سفر الوفد الشعبى إلى بغداد فى الفترة من ٢٧ حتى ٣١ ديسمبر ١٩٩٧ .

لم يكن الهدف من السفر إرسال مساعدات أو معونات . فهذه المعونات ليست إلا قطرة فى بحر احتياجات اثنين وعشرين مليونًا من الأطفال والأمهات والآباء المحرومين من أبسط الأشياء الضرورية للحياة ، ولأن الشعب العراقى شديد الاعتزاز بكرامته ، لا يريد أن يتحول إلى شعب يعيش على المعونات ، بل هو شعب يناضل ضد السياسة الأمريكية الإسرائيلية فى المنطقة .

كان الهدف من الحملة الشعبية والسفر هو إثبات أن الشعوب العربية ليست شعوبًا ميتة تمامًا ، وأنها رغم انقسام الحكومات فهى قادرة على المبادرة والحركة والتضامن .

سيطرة أصحاب المال والسلطة

كانت تجربة هذه الحملة والوفد الشعبى الذى سافر إلى بغداد من أكثر التجارب ثراء ، من الناحية الأدبية . فقد أوحت لى بكتابة مسرحية أو رواية جديدة تحت عنوان « ثلاث نساء وعشرون رجلاً » .

كان أكثر المتحدثين عن التضامن العربى أقلهم تضامنًا مع الوفد المسافر معه ، مع الذين بدأوا العمل وتحملوا أعباءه منذ السفر حتى العودة .

وانقسم الوفد قبل أن يغادر مطار القاهرة إلى قسمين :

ركاب الدرجة الأولى من الطبقة العليا ذوى المال والشهرة والصداقة بأصحاب السلطة فى القاهرة وبغداد ، والأغلبية من الوفد من الطبقة الأدنى الذين تكدسوا فى الأتوبيس من عمان إلى بغداد ، سبع عشرة ساعة قضوها فى مقاعدهم على الطريق الصحراوى الطويل .

أما القلة القليلة من الطبقة العليا فقد استقلوا سيارة خاصة صغيرة قوية مثل النفاثة اختصرت المسافة إلى النصف .

كانوا ينظرون إلينا شذرًا من عليائهم ، يترفعون عن الحديث إلينا ، كأنما نحن العبيد وهم الفراعنة .

فى طفولتى سمعت جدتى الفلاحة تقول : سألوا فرعون مين فرعنك ؟ قال مالقتش حد يصدنى .. ربما لهذا السبب كنت أتصدى للفراعنة ، فى بلادنا ما أن يرأس أحد مؤسسة وإن كانت مؤسسة دواجن تحول إلى فرعون .

ثمن الحرية الغالى

لأن الحرية تؤخذ ولا تعطى فإن المدافعين والمدافعات عن الحرية والكرامة يدفعون ثمنًا باهظًا من حياتهم ومن سمعتهم . بعد عودتى من بغداد فى الرحلة الأخيرة ، وقبل أن يجف عرق السفر والإجهاد بدأت حملة صحفية لتشويه صورتى وقلب المبادرة الشعبية التى بدأتها للتضامن مع الشعب العراقى إلى محاولة تطبيع مع

الصحف الإسرائيلية ! هكذا تنقلب الأشياء رأسًا على عقب فى بعض الصحف المصرية كما انقلبت فى التاريخ ، وبعد أن كانت « نيدابا » هى رائدة اللغة والكتابة والمعروفة أصبحت هى رائدة الجهل والشر ترمز إلى الشيطان وتستحق العقاب .

تصدرت إحدى المجلات الأسبوعية هذه الحملة ، ونشرت خبرًا مكذوبًا فى ١٢ يناير ١٩٩٨ يدعى أننى أعطيت حديثًا صحفيًا (عن الختان) لصحيفة إسرائيلية لا أعرف اسمها ولم أقابلها فى حياتى ، وفى الصفحة المقابلة نشرت خبرًا آخر عن الوفد الشعبى الذى سافر إلى بغداد ، حذفت اسمى من الوفد ، ووضعت اسم نائب رئيس التحرير مع أنه لم يسافر معنا إلى بغداد ، ثم فوجئت بجريدة حزبية تردد الخبر نفسه فى عمود لأحد الكتاب .

هكذا لجأت إلى القضاء ووكلت أحد المحامين لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد هؤلاء الذين نشروا هذا الخبر الكاذب .

وانتهت رحلتى الأخيرة إلى بغداد ، وحزنت على غياب الضمير عند بعض الناس ، وتحولت الحملة الشعبية للتضامن مع الشعب العراقى إلى تبرعات من رجال المال والأعمال وتسابق أصحاب الشركات والأفلام .

• • •

تحت عيون الجميع (*)

- كانت لى طفلة اسمها شجاعة .

- تركتها مريضة فى بغداد .

- ترتجف فى برد الشتاء .

- بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء .

- فتحت الصحف بالأمس .

- رأيت الأمريكى المريض بالجنس .

- يتهمها بعدم الطاعة .

- لقانون الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ولجنة التفتيش .

- ضربها بصواريخ كروز .

- تحت عيون الجميع .

- يتابعون المشهد بقلق أو غير قلق .

- وأنا مربوطة فى سريرى بالقيود .

- منزوعة السلاح مكتومة الصوت .

- وطفلتى شجاعة تموت .

- تحت عيون الجميع .

• • •

(*) الأهالى ٢٣/١٢/١٩٩٨ .

حول الحوار الفكرى مع الرئيس (*)

كانت هى المرة الأولى التى أحضر فيها هذا اللقاء الفكرى مع السيد رئيس الجمهورية (يوم السبت ١٨ يناير ١٩٩٧ بأرض المعارض) . دهشت حين دخلت القاعة فوجدت الصفوف الأمامية قد حجزت معظم مقاعدها للوزراء وكبار رجال الدولة وكبار الموظفين فى المؤسسات الثقافية والصحفية ، وهى مقاعد حمراء كبيرة تشبه مقاعد الدرجة الأولى فى الطائرات .

بعد ذلك تأتى مقاعد الدرجة الثانية والتى حجزت لعدد كبير من الأدباء والأديبات الذين يشغلون مناصب كبيرة فى المؤسسات الصحفية من درجة رئيس تحرير أو نائب رئيس تحرير أو مدير تحرير . بعد ذلك تأتى مقاعد الدرجة الثالثة وهى للأدباء والمفكرين الذين بلا منصب فى الدولة أو أى مؤسسة صحفية ومنهم أساتذة كبار لهم مؤلفات فكرية ذات قيمة محليًا وعربيًا وعالميًا .

كان المفروض (حسب التنظيم) أن أجلس فى هذه الصفوف الخلفية ، إلا أننى رأيت أن اللقاء الفكرى يستوجب جلوس المفكرين والأدباء والعلماء فى الصفوف الأولى حتى يدور الحوار بينهم وبين السيد الرئيس ، لأن الحوار معهم وليس مع الوزراء أو كبار رجال الدولة . كما حدث فى المؤتمر الاقتصادى فى الخريف الماضى ، فقد جلس رجال الأعمال فى الصفوف الأولى على حين جلس رئيس الوزراء والوزراء فى الصفوف الخلفية ، حينما سألوا الأستاذ « أحمد عز » أحد رجال الأعمال عن انطباعه عن المؤتمر أشار إلى أن رجال الأعمال أصبح لهم احترامهم والدليل على ذلك جلوسهم فى الصفوف الأمامية - وجلوس الوزراء فى الصفوف الخلفية .

لا أدرى لماذا لم يطبق هذا المبدأ الوجيه على المفكرين والأدباء والعلماء فى الاجتماع الفكرى مع السيد الرئيس ؟ وهل رجال الأعمال أكثر احترامًا من المفكرين والأدباء والعلماء والمبدعين ؟!

(*) الأهالى الأربعاء ٢٩ / ١ / ١٩٩٧ .

ربما لهذا السبب ، ولأننى أعتقد أن الإبداع الفكرى أهم من النشاط التجارى أو « البزنيس » فقد رفضت الجلوس فى المقاعد الخلفية وجلست فى مقعد أحد الوزراء فى الصفوف الأمامية . واقتنع المسئولون عن التنظيم بوجهة نظرى ، إلا أننى كنت أود أن يكون ذلك هو القاعدة وليس الاستثناء .

وقد توقعت أن يكون الحوار مفتوحًا بيننا وبين الرئيس إلا أن المسئولين عن التنظيم طلبوا منى أن أكتب سؤالاً على ورقة / وقد تم تجميع هذه الأوراق عند المسئولين ولا أعرف هل فرزوا هذه الأوراق وقدموا للرئيس ما شاءوا من الأسئلة ، لأن الاجتماع انتهى دون أن يحدث أى حوار فكرى مع الرئيس ، وتركزت معظم الأسئلة التى أجاب عنها فى الأمور السياسية الجارية حول السودان وإسرائيل وأمريكا ولم يكن هناك سؤال واحد حول الفكر أو الإبداع الفكرى ، وكنت قد قدمت سؤالاً من هذا النوع ، يتناول مشكلة مهمة للغاية ، كنت أود أن يدور جزء من الحوار حولها ، فهل عندنا مشكلة تتعلق بالفكر والمفكرين أم لا ؟ هل يمكن للنظام التعليمى الحالى أو التربوى أو الثقافى أو الإعلامى أن ينتج المفكرين ؟ وما الفرق بين المفكرين والموظفين ورجال الأعمال إلى آخر هذه الأسئلة أو الجدل الذى كنت أنتظره فى هذا اللقاء الفكرى مع السيد الرئيس إلا أن الاجتماع دار وكأنه مؤتمر صحفى .

هل يمكن أن يبدأ حوار فى الصحف من هذا النوع يشترك فيه الجميع وليس فقط الأسماء التى دُعيت للاجتماع ، وإنما جميع الذين يفكرون فى بلادنا وتؤرقهم مشكلة الفكر والمفكرين والذين لا يُدعون إلى اللقاء الفكرى مع الرئيس ؟

• • •

رسالة مفتوحة إلى رئيس الدولة(*)

تاريخ اليوم هو ٢٣ نوفمبر ١٩٩٧ . وأنا واحدة من الشعب المصرى ومن حقى أن أخاطب رئيس الدولة مباشرة دون المرور بالطبقة العازلة التى تحوطه من الوزراء وكبار المسئولين إو رؤساء التحرير .

وهذه هى الرسالة الثانية فى حياتى كلها التى أبعث بها إلى رئيس الدولة . كانت الرسالة الأولى منذ ستة عشر عامًا بالضبط ، يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٨١ ، كتبتها فى زنزانة سجن النساء بالقناطر الخيرية ، وطلبت فيها التحقيق فى جريمة اعتقالى واعتقال الأدباء والمفكرين من الرجال والنساء دون تحقيق ودون ذنب فعلوه . خرجنا من السجن ذلك اليوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ إلى بيت رئيس الدولة فى اجتماع طويل معه ، خرجنا بعده إلى بيوتنا ، بعد أن وعدنا بأن بابه مفتوح للشعب ، ولا يمكن للطبقة العازلة أن تسد هذا الباب . إلا أن هذا سرعان ما أصبح مسدودا .

وقد انقضت ستة عشر سنة كاملة لم أحاول فيها اختراق الطبقة العازلة ، ولم أكتب رسالة ثانية إلى رئيس الدولة مفتوحة أو غير مفتوحة حتى وقعت مذبحة الأقصر المروعة فى معبد الدير البحرى منذ أيام قليلة . رأيت أن الأمر جد خطير ، وأن المذبحة هى مذبحة لنا نحن الشعب المصرى قبل أن تكون مذبحة للسياح الأجانب . إنها ليست مذبحة ستين شخصًا جاءوا إلى مصر فى سياحة عابرة ، لكنها مذبحة ستين مليونًا من البشر داخل مصر كلها ، تنزف قلوبهم ألمًا وحزنًا ، ليس على دولارات السياحة التى يمكن أن تضيع ، ولكن على الإنسانية والكرامة والأخلاق والرحمة بالنساء والأطفال والشباب والرجال الأبرياء ، على هذه الأرواح البريئة والدماء التى لطخت قلوبنا وليس فقط أعمدة المعبد الفرعونى والتماثيل من الحجر . إن القلوب التى تنزف الدم وتتألم أهم من الأحجار وإن كانت أحجار كريمة أو آثارًا نفيسة . فلا شىء يعلو على حياة الإنسان ودمه وجسده وكرامته .

(*) القاهرة ١٩٩٧/١١/٢٣ .

وقد أصدر رئيس الدولة أمره بتغيير وزير الداخلية ، وهو المسئول الأول عن الأمن فى مصر ، ولابد أن تزداد المسئولية بازدياد المنصب . وقد تعودنا على أن الصغير أو الضحية هو الذى يعاقب وليس المسئول الأكبر .

وبدأت التحقيقات تكشف عن قصور الأمن ، خاصة لدى كبار المسئولين فى مدينة الأقصر ، وأحدهم كان مديرًا لأمن الجيزة حين وقعت مجزرة السياح أمام فندق أوروبا وتم إيقافه عن العمل ، ثم عاد إلى الخدمة ، وكوفىء بترقيته مساعدًا أول لوزير الداخلية لمنطقة جنوب الصعيد ومقره مدينة الأقصر . (مجلة روزاليوسف ١٩٩٧/١١/١٤ ص ١٩) .

ليس هذا جديدًا علينا ، فالمحسوبية والقرابة والعلاقات الشخصية هى التى تسود ، وليس الكفاءة أو النزاهة أو طهارة اليد أو اللسان ، هذه هى القاعدة فى دواليب الحكومة والوزارات والمؤسسات جميعًا وليس فى وزارة الداخلية فقط .

إن الأسباب وراء مذبحة الأقصر ليست قاصرة على الأمن ، فالذين أمسكوا السلاح وبقروا بطون السياح ، وخرقوا عيون الرجال ، وقطعوا أثداء البنات . ومشوا بالسكاكين بين أفخاذ النساء ، لقد فعلوا كل ذلك هاتفين اسم الله رافعين شعار الإسلام .

إن القتلة نوعان : نوع فدائى يقتل عن إيمان ، ونوع آخر هم المرتزقة يقتل نظير الأجر ، وهؤلاء لا يهمهم إلا الأجر ويمكن أن يقتلوا فى أى بلد فى العالم وأى شخص ، أبيض . أسود ، مسلم ، مسيحى ، يهودى ، بوذى ، لا يهمهم إلا الفلوس .

فهل الإرهابيون فى بلادنا كلهم من هذا النوع الأخير ؟ أليس هناك شباب يقتل عن إيمان وتدين شديد بعد أن امتلأت أدمغتهم بالأفكار الخاطئة عن الدين والتدين ؟!

إن الخطر وراء مذبحة الأقصر وغيرها من المذابح المتعددة السابقة ليس هم المرتزقة ، أو أفراد قلائل خرجوا من مستشفى المجانين ثم ثبت أنهم عقلاء ، كما نشرت بعض الصحف فهؤلاء ومعهم المرتزقة يمكن القضاء عليهم بإصلاح الجهاز الأمنى فقط ، لكن الخطورة الأكبر ليست فى هؤلاء ، الخطورة ليست فى « الجهاز الأمنى » ولكن فى « الجهاز العقلى » الذى يُفرخ الفكر الإرهابى الدينى ، ويحوّل الشباب المؤمن إلى سفاكى دماء .

إن عملية سفك الدماء قد تكون باليد التى تمسك السكين وتذبح ، وقد تكون باليد التى تصفق لمن يسفك الدم ، وقد تكون باليد التى تمسك القلم وتحكم بالكفر أو الفساد على غيرها ممن يؤمن بعقيدة أخرى ، أو دين آخر ، وربما لا يختلف فى الدين ذاته وإنما فى بعض التفسيرات له ، أو يندرج تحت بند « العلمانيين » ، اللقب الغامض ، لا أحد يعرف التعريف الصحيح له ، ولا يساويه فى الغموض إلا كلمة « الهوية » .

لقد عرف الصعيد فى بلادنا ما يسمى « الإعدام حسب الهوية » . وكانت كمائن الإرهابيين توقف سيارات الميكروباس وتفتش فى بطاقات الركاب عن الهوية ثم تطلق الرصاص على غير المسلمين ، فهل هوية الشخص هى الدين الذى يعتنقه ؟ هل نحكم على الأقباط فى بلادنا أنهم بلا هوية مصرية ؟ ولماذا يحدث هذا الخلط بين الهوية والدين ؟! لصالح مَنْ ؟

لقد لاحظت فى السنين الأخيرة أن كثيرًا من كبار الأساتذة فى بلادنا قد تأسلموا وادعوا أن الهوية هى الدين ، وأصبح كل شىء عندهم إسلامى حتى أباريق الفضة والذهب فى بيوتهم على الشكل الإسلامى ، وأعمدة غرف الصالون والمصحف المذهَّب الموضوع فوق المائدة الإسلامية المحلاة بنقوش من الحجاز ، والأثاث الفاخر الموزاييك المستورد ، والشبابيك والمشربيات ذات الخروم المطرزة المطعمة بخيوط ذهبية مقدسة ، وأصبح الدفاع عن ترميم المساجد الأثرية وتغطية رؤوس النساء بالطرحة أو «البونيه » أهم من ترميم عقول البنات والأولاد والمراهقين والشباب .

وأصبح كثير من القيادات الفكرية فى بلادنا تخلط الوطنية بالدين ، وتخلط الضمير النقى أو الأخلاق الحميدة بالهوية الدينية أو العرق أو العقيدة أو الجنس أو الجنسية أو اللون أو النسب . أصبح صاحب الهوية الصحيحة كل من ارتدى الزى الإسلامى أو أمسك فى يده سبحته ، أو كل من لفَّت حول رأسها طرحة . ويندرج تحت بند الكفرة الفاسدين أو العلمانيين كل من لا يبسمل أو يحوقل أو لا يعلن أن الإسلام هو الحل أو لا يؤمن بالمطلق الثابت .

والسؤال الهام هو : مَنْ المسئول عن هذا الفكر فى بلادنا ؟ مَنْ الذى يملأ أدمغة الشباب فى بلادنا بهذا الفكر الذى يقسم البشر إلى كفرة ومؤمنين ، ويحكم عليهم بأغطية رؤوسهم أو شكل ذقونهم ؟ أليسوا هم نجوم الفكر الدينى فى الصحف وأجهزة الإعلام . على رأسها التليفزيون ؟!

هل هؤلاء النجوم هم المفكرون ؟! أم أنه طغى على سطح الإعلام والصحافة والثقافة فى بلادنا هؤلاء الذين لا يفكرون ؟ لقد انقلبت مقولة ديكارت من « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا لا أفكر إذن أنا موجود » .

لقد شهدت فى حياتى كلها اجتماعًا واحدًا للمفكرين مع رئيس الدولة (يناير الماضى فى معرض الكتاب) خرجت منه حزينة وغاضبة ، فقد رأيت المفكرين يتوارون فى الصفوف الخلفية (أو فى بيوتهم لا يدعوهم أحد إلى هذه الاجتماعات) على حين يحتل الصفوف الأمامية الوزراء وكبار الموظفين فى المصالح الحكومية ، وهكذا ارتفعت كل الأصوات إلا أصوات المفكرين .

وكم أشعر بالحزن والإشفاق على شبابنا الذى يروح ضحية كل هذا ، وأصبحتُ كلما التقيت بالشباب فى أى جامعة أو معهد يسألوننى أول سؤال : ما هى هويتك ؟ هل أنت مسلمة أو غير مسلمة ؟! .

منذ أربعين عامًا حين كنت طالبة بالجامعة لم يكن أحد يسألنى هذا السؤال ، وكان معى زملاء غير مسلمين فى كلية الطب ولا أحد يتعرض لهم بالسؤال عن دينهم أو هويتهم ، فما الذى حدث لنعود إلى الوراء أكثر من نصف قرن ؟! ولماذا نحاسب المسئولين عن الأمن ولا نحاسب المسئولين عن الفكر والإعلام والصحافة ؟!

إنى أكتب هذه الرسالة المفتوحة إلى رئيس الدولة ، وقد حالت الطبقة العازلة السميكة دون وصول صوتى إليه فى اجتماع المفكرين الوحيد الذى حضرته ولم أحاول اختراق هذه الطبقة العازلة على مدى الأربعين عامًا الماضية . لكن مذبحة الأقصر قد فجَّرت فىَّ كوامن الغضب المكبوت والحزن . ولأن رئيس الدولة هو المسئول الأول قبل وزير الداخلية عن سلامة الناس فى بلادنا والمفروض أن تزداد المسئولية بازدياد المنصب .

لهذا أكتب هذه الرسالة إليه لتكون شهادة علنية يقرأها الناس فى الصحف وليس ورقة تُطوى فى الدُّرج !

• • •

كيف يحدث التزوير فى التاريخ(*)

منذ عشر سنوات تقريبًا دُعيت إلى مؤتمر أدبى دولى فى جنوب أسبانيا (قرطبة) حضره عدد من الأدباء والنقاد فى العالم . لم يكن هناك من المصريين إلا الدكتور لويس عوض وأنا . سررت لوجود الدكتور لويس عوض رغم اختلاف وجهات النظر الأدبية أو النقدية . ألقيت كلمتى فى المؤتمر ورأست إحدى الجلسات . ألقى الدكتور لويس عوض كلمته ورأس جلسة أخرى . حظيت مشاركتى بالتقدير وكذلك أيضًا مشاركة الدكتور لويس عوض .

بعد أن عدنا إلى الوطن ، بينما أتصفح إحدى الصحف غالبًا جريدة الأهرام وجدت مقالاً كبيرًا عن مؤتمر أسبانيا بقلم الدكتور لويس عوض . أدهشنى أنه ذكر جميع المشاركين فى المؤتمر إلا أنا . لم يشر بكلمة واحدة إلى المشاركة التى قدمتها ولا الجلسة التى رأستها ، وأصبح هو المصرى الوحيد الذى دُعى إلى المؤتمر أو شارك فيه .

أرسلت إلى الصحيفة مقالاً أرد به على الدكتور لويس عوض إلا أن هذا المقال لم ينشر ، وكان مقالى تحت عنوان : كيف يحدث التزوير فى التاريخ ؟

حين كنت تلميذة بالمدرسة الابتدائية كنت أصدق ما أقرأه فى الصحف أو كتب التاريخ . لكن أبى كان يحذرنى دائمًا ويقول لى إن الصحافة تكتب عن الملك فاروق اليوم لأنه يملك الحكم ، وحين يزول الحكم تتغير الحقائق وتظهر حقائق أخرى ، وفى كتب التاريخ أيضًا هناك بطولات كثيرة تنقلب إلى العكس بعد فترة طويلة أو قصيرة .

جاءتنى مجلة الهلال (عدد نوفمبر ١٩٩٦) من أيام قليلة ، إذ كنت خارج الوطن حين صدرت وأدهشنى مقال بقلم الأستاذة صافيناز كاظم عن زميلاتها بالسجن خلال

(*) نُشر بمجلة الهلال / القاهرة ١٩٩٧/٢/١٩ .

سبتمبر ١٩٨١ ، كيف يحدث التزوير في التاريخ وكيف تغيرت الحقائق بمثل هذه السهولة ؟ مثلا حين دخلت العنبر لأول مرة لم أكن فى حالة ذهول كما حاولت أن تصوّرنى ، بل ابْتهجت كثيرًا لرؤيتها ورؤية زميلات وصديقات أخريات ، ومددت يدى لها لأصافحها كما صاحفت الأخريات فى سعادة وود كثير ، إلا أنها رفضت أن تمد يدها بالمصافحة وقالت : أنا لا أصافح الكافرين والكافرات ! هذه العبارة كانت أشد قسوة من قضبان السجن لا تختلف فى نبرتها عن صوت السادات وهو يهدد فى الإذاعات : سأضربهم ! سأفرمهم فى السجون لأنهم خانوا الوطن .

هكذا عشت فى السجن عذاب النارين : الإدانة بالكفر أو الإلحاد والإدانة بالخيانة الوطنية . إلا أن الإدانة بالكفر كانت أشد إيلامًا لأنها تأتينى من داخل العنبر ذاته من داخل السجن ذاته من داخل الزميلات اللاتى يعانين مثلى آلام السجن وآلام الإدانة بالخيانة الوطنية .

صديقتى عواطف عبد الرحمن قالت لى : يا نوال أنت طبيبة نفسية / وصافيناز كاظم لا تعنى ما تقول ، فهى تمر بأزمة نفسية وتتناول أقراص التربتيزول ، وبدأت ابتسم فى وجه صافينتا كاظم وأقول لها « صباح الخير » إلا أنها كانت تكشر فى وجهى ولا ترد .

وفى يوم رأيتها توجه لعواطف عبد الرحمن من عبارات السباب والاتهامات ما لا يمكن السكوت عنه أو اللامبالاة ، وكانت صافيناز كاظم تتمادى فى إهانتها لنا باعتبارها مؤمنة بالله والرسول وتقرأ القرآن ، أما نحن فقد حكمت علينا بالكفر والزندقة . هكذا قررت مقاطعتها ، ولم أعد أقول لها صباح الخير ، والغريب أنها اعتبرت ذلك عدوانًا عليها أو تآزرًا مع عواطف عبد الرحمن ، فى حين أننى وجدت أن التسامح أو الود لا ينفع معها ، وقد جعلت الحياة بالنسبة لنا جميعًا نوعًا من الجحيم ، وبالإضافة إلى السباب والإهانات والاتهامات بالكفر فهى تفرض علينا الصمت حين تقرأ القرآن بصوت عال ، ونحن نحترم قراءة القرآن بالطبع ، إلا أنها اتخذت من القرآن وسيلة لإرهابنا ، وفرض الصمت علينا طوال النهار ، وفى الليل هى تصحو فى أى وقت

يحلو لها وتقرأ القرآن بصوت عال يوقظ الجميع ، وهى تفرض علينا أن ننام ونور الكهرباء مضاء فى العنبر ، لأنها تخاف من الصراصير ، وإذا اعترضت واحدة منا وضعتها فى القائمة السوداء . لقد خلقت صافيناز كاظم جوًا إرهابيًا داخل السجن لجميع الزميلات ، حتى هؤلاء المنقبات والمحجبات مثلها ضاقوا منها حين كانت تفرض عليهم الطريقة التى تصلى بها والطريقة التى تفسر بها الإسلام والطريقة التى تحكم بها على الأخريات . إلى حد أننى طلبت من إدارة السجن أن يضعونى فى زنزانة منفردة بعيدًا عن جحيم العنبر ، عن المشاجرات اليومية (بل كل ساعة) بين صافيناز كاظم وإحدى المسجونات .

بالطبع رفضت إدارة السجن طلبى ، وعشت فى العنبر عدة أيام أو أسابيع ، حتى أصيبت إحدى الزميلات بانهيار عصبى حاد إثر مشاجرة بينها وبين صافيناز ، مما أجبر إدارة السجن على نقل صافيناز كاظم من العنبر .

تألمت كثيرًا وأنا أقرأ في مجلة الهلال ما كتبته صافيناز كاظم فى مقالها ، حاولت أن تقلب الحقائق رأسًا على عقب ، وهى تتهم زميلات بالأنانية لمجرد أنهن كن يعترضن على الاستبداد أو السلطة المطلقة التى حاولت أن تفرضها علينا باعتبار أنها الوحيدة فينا التى تعرف الله والباقيات مارقات فى الكفر أو جاهلات بالدين .

وهى تمزج الجدية بالسخرية حتى لا يحاسبها أحد ، وتتلاعب بالكلمات ، وأى اختلاف فى الرأى بين الزميلات لا تفهمه إلا أنه نوع من الحقد أو الغيرة ، وإن بكت لطيفة الزيات حزنًا على أخيها المريض المحبوس (فى طره) فهى لا تفهم هذا البكاء ، تتهكم عليه بأغنية سطحية ، وإن أخطأت أمينة رشيد فى نطق العربية الصحيحة قالت عنها « غرانكوفونية » وأنها تحب نفسها فى السر ، أما الأستاذة صافيناز كاظم فكانت الإله الذى لا يخطىء أو يبكى أو يحب ذاته !

حين مرضت صافيناز كاظم بمرض الجرب الجلدى كنت أنا التى شخَّصت المرض ، وهو تشخيص سهل لأى طبيب ، وكان يتردد علينا طبيب السجن وهو شاب وإنسان صادق ، قلت له : هذا جرب يا دكتور ؟ ! قال : نعم يا دكتورة نوال وسوف أبلغ

إدارة السجن فوراً ، وفعلاً حدث ذلك إلا أن هذا الطبيب الشاب اختفى لا نعرف كيف ، وجاءنا طبيب آخر أنكر تماماً أنه مرض الجرب وقال إنه هرش عادى . كانت إدارة السجن تخشى من تسرب هذا الخبر إلى الخارج . وقد سعينا إلى تسريب الخبر خارج السجن ، وحين خرجت لأول جلسة لأدلى بأقوالى أمام المدعى الاشتراكى طلبت تسجيل حادث مرض الجرب فى التحقيق ووجهت الإدانة إلى طبيب السجن الذى خرق ميثاق نقابة الأطباء وخالف ضميره الإنسانى ، كما وجهت الإدانة لإدارة السجن والنظام بأسره .

لم تذكر صافيناز كاظم كل ذلك بل ساقت واقعة أخرى حين أصابها الإسهال ذات يوم فأعلنت أنه الكوليرا ، ولأننى لم أجاريها فى هذه التمثيلية حاولت تصويرى كأنما أنا أهملت مرضها الخطير هذا . أسأل الله لها التوبة والمغفرة وما هو خير وأبقى .

• • •

الصمت جريمة.. ومعًا نكسر باب السجن (*)

قضيت ليلة الثلاثاء أول يوليو ١٩٩٧ جالسة فى مقعد خلفى داخل الطائرة النفاثة . تجتاز المحيط الأطلسى ، تمر الساعة وراء الساعة ، اثنتا عشرة ساعة ، رأسى يسقط فوق صدرى حين يغلبنى سلطان النوم ، قدماى تتورمان تؤلمان ، لا أستطيع أن أمدهما أمامى ، فليس هناك مساحة ، حين كنت شابة لم يكن السفر مرهقًا بل إنه المتعة ، وإن ركبت فوق ظهر قطار ، أو فوق ظهر سفينة أو حتى فوق الطائرة ، وكان الأمل كبيرًا فى تغيير العالم بحيث يختفى الظلم ، ويصبح الناس سواسية كأسنان المشط ، بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو العرق أو العقيدة .

وأنا فى العشرين من عمرى تصورت أن الثورة ستقوم بعد أيام قليلة ، وفى الثلاثين من العمر تصور أنها ستأخذ عدة شهور ، وفى الأربعين تصورت أنها تحتاج إلى بضع سنين ، وبعد أن تجاوزت الستين عامًا أصبحت الثورة بعيدة تحتاج إلى قرن من الزمان أو قرون .

مع ذلك ، أجد نفسى داخل الطائرة المتجهة إلى نيويورك ، فقد وصلتنى دعوة للمشاركة فى مظاهرة يقودها أطفال العالم ، للاحتجاج على الظلم الواقع على ملايين الأطفال من الشعوب المقهورة ، (وعلى رأسها شعب العراق)المحاصرة اقتصاديًا ، لأسباب سياسية ، يحكمها مبدأ واحد هو البطش بالضعفاء ، وأولهم الأطفال وثانيهم الأمهات .

الإرهاق الجسدى يضاعف حالة اليأس من حدوث أى ثورة تغير النظام العالمى الجديد القديم ، فما بال ثورة أطفال ؟

تحركت فى مقعدى كأنما أفك حزام المقعد ، كأنما أهم بالنزول من الطائرة والعودة من حيث أتيت ، لقد قبلت هذه الدعوة الطفولية فى لحظة طفولية من لحظات

(*) الأهالى - ١٩٩٧/٨/٢٧ .

الأمل الخارق لطبقات اليأس ، فالطفلة فى أعماقى لم تمت بعد ، قد تصحو فجأة وتدفع جسدى المرهق اليائس إلى الاندفاع نحو مجالات الأمل الجنونية ، والتحليق فى السماء حتى الهبوط فوق المريخ .

حينئذ أحبها رغم جنونها ، هذه الطفلة العنيدة غير القابلة لمنطق الكهولة ، وآلام العمود الفقرى ، فهي تأخذنى بعيدًا (ولو مؤقتًا) عن العيون الذابلة والأجسام البطيئة الحركة والعقول الملفوفة بالحجاب أو الوجوه المغطاة بالمساحيق وأقنعة التنكر .

وصلت إلى نيويورك الساعة ١١,٥ صباحًا ، مطار كيندى هو أفضل مكان يفقد الإنسان فيه نفسه ، لا يكاد يلتقط أنفاسه حتى يجد نفسه داخل ما يسمى بالسيارة الصفراء تنطلق مثل نحلة مجنونة نزع عنها ذنبها ، وكل شىء يلهث ، وأنا ألهث وأقول للسائق الهندى :

بسرعة جدًا جدًا إلى المظاهرة أرجوك لأنها ستبدأ الساعة ١٢ ظهرًا ، أمامك نصف ساعة فقط تصل إلى تقاطع شارع ٤٧ مع الأفينيو الأول ، رصيف أمام مبنى الأمم المتحدة ، أرجوك أسرع إلى المظاهرة !

صوتى يلهث . يتهدج بالانفعال ، يشتد الانفعال العاطفى والحماس الثورى حين يكون الجسد مرهقًا ، والرجل الهندى ذو الوجه الناحل الشاحب رمقنى بلا انفعال ، مثل جميع سائقى التاكسى فى نيويورك صوت هادىء تمامًا لا تهمة ثورة ولا تغيير العالم ، وسمعته يقول بلكنة أمريكية هندية إنجليزية : (إيه ؟ مظاهرة إيه ؟!) .

صوته بارد مثل دش الماء الصاقع ينزل فوق رأسى الساخنة الملتهبة بالتعب ، وعدم النوم ، الحماس الطفولى ، الذى صور لى مظاهرة الأطفال كأنما تشمل جميع أطفال العالم ، بمن فيهم الأطفال الهنود الذين يعيشون فى الهند وأمريكا وكل البلاد ، تصورت أن شوارع نيويورك من مطار كينيدى حتى مبنى الأمم المتحدة سوف تمتلىء بالأطفال ، يهتفون ضد الحصار الاقتصادى ، وضد الأمم المتحدة ، التى أصبحت خاضعة للولايات المتحدة الأمريكية ونطلق عليها اليوم اسم « الأمم المتحدة الأمريكية».

إلا أن هذا السائق الهندى الأمريكى لم يسمع عن المظاهرة ورمقنى بإشفاق كمن يرمق شخصًا هبط من المريخ ولا يعرف شيًا عن النظام العالمى الجديد فوق الكرة الأرضية ، ودفعه الإشفاق إلى الإسراع بى إلى مكان المظاهرة ، فوصلت فى الساعة ١١,٥ ظهرًا ، قبل موعد المظاهرة بنصف ساعة ، وكانت هناك مظاهرة أخرى من المهاجرين المقهورين فى أمريكا وبعض الزنوج وبعض النساء وبعض الرجال والأطفال أيضًا ، فهذا المكان فوق الرصيف أمام مبنى الأمم المتحدة هو ساحة المظاهرات الشعبية ، وعلى كل فئة مقهورة أن تحجز المكان فوق الرصيف بالساعة أو الساعة والنصف ، فإذا انقضى وقتها لمت عزالها من المنشورات والكراسى والمنصة والميكرفون وانصرفت لتخلى المكان لمظاهرة أخرى. لا تكف المظاهرات الشعبية فى أمريكا ، يحرسها البوليس لإعطاء صورة ديمقراطية فالمطلوب هو الصورة فقط ، نحن نعيش فى عالم من الصور ، أما العالم الحقيقى فهو يمضى فى طريقه دون أن يهتز له جفن .

ونكسر معًا باب السجن

بدأت الوجوه العربية تتدفق على الساحة ، نساء وأطفال ورجال ، يحملون اللافتات ضد الحصار ، بدأت استرد الحماس والأمل ، اللغة العربية تسرى فى أذنى مثل الموسيقى ، الأطفال يتجمعون على شكل صفوف حاملين اللافتات : أنقذوا الأطفال من الموت ..

- اكسروا الحصار فهو جريمة ..
- أوقفوا بطش الولايات المتحدة الأمريكية بالشعب العراقى .
- حرروا الأمم المتحدة من النفوذ الأمريكى ..

ثم انطلق الأطفال يغنون فوق المنصة ، والجميع يغنى معهم ، حتى المارة فى الشوارع توقفوا يستمعون إلى الغناء ، ثم انخرطوا فى المظاهرة ، رجال ونساء وأطفال ، من مختلف الجنسيات والألوان واللهجات ، يغنون بصوت واحد دون أن يفهموا الكلمات لكن اللحن الموسيقى مفهوم بصرف النظر عن اللغات :

- يد واحدة لا يمكن أن تكسر باب السجن .
- يدان اثنتان لا يمكن أن تكسرا باب السجن .
- لكن إذا جمعنا الاثنتين مع الاثنتين مع الخمسين .
- أصبحنا الملايين .
- وسوف يأتى هذا اليوم .
- سوف نرى جميعًا هذا اليوم .
ونكسر معًا باب السجن .

فوق المنصة تعاقب المتحدثون من النساء والرجال والأطفال . كلمات قصيرة كلها قوية معبرة ، شعارها واحد : الحصار جريمة لابد أن تنتهى ! أصوات مختلفة اللهجات ، بعضها مصرى ، بعضها عراقى ، بعضها ليبى ، بعضها سورى ، بعضها جزائرى ، لهجات البلاد العربية بما فيها فلسطين ، يدرك الفلسطينيون أكثر من غيرهم معنى الحصار ، رأيت الوحدة العربية فوق الرصيف دون حاجة إلى الحكومات العربية ، تتآلف الشعوب العربية رجالاً ونساءً وأطفالاً بعيدًا عن حكوماتهم ، إذا ما جاءت الحكومات انفضت الوحدة وتلاشت .

بعد الكلمات فوق المنصة المنصوبة فوق الرصيف ، بدأت المظاهرات تجوب شوارع نيويورك ، يتقدمها موكب من عربة تجرها الخيول تحمل نعش الطفل المجهول ، تمشى المظاهرة على إيقاع طبول اللحن الجنائزى ، يتقدمها الأطفال من مختلف الجنسيات يهتفون ضد الحصار الذى يقتل الأطفال جوعًا فى العراق ، وليبيا ، وكوبا ، والبوسنة ، وزائير ،ورواندا ، وغيرها من بلاد العالم .

- نادوا باعتبار الحصار جريمة فى حق الشعوب .
- أوقفوا الموت البطىء للأبرياء تحت اسم العقوبات .

هذه المظاهرة فى أول يوليو توجت المظاهرات الشعبية فى مائة مدينة من بلاد العالم، وفى ٦٧ مدينة فى الولايات المتحدة خلال الأسبوع الأخير من يونيو ١٩٩٧ ، وهو أسبوع التضامن مع الشعب العراقى لرفع الحظر غير القانونى والذى راح ضحيته حتى الآن ٤٥٠٠٠٠ طفل ، نقلت وسائل الإعلام الأمريكية أجزاء من هذه المسيرة فى

برامجها عبر محطات التليفزيون لأول مرة منذ ٧ سنوات ، إلا أن شرطة نيويورك قبضت أثناء المظاهرة على بعض النساء والرجال والشباب ، أحد الشباب رقد فوق أسفلت الشارع أمام سيارة البوليس ليوقف تحركها بالمعتقلين والمعتقلات ، إنه شاب أمريكى اشترك فى المظاهرة ، وراح يهتف ضد الحكومة الأمريكية ، ورجل عربى عجوز يتقدم نحو الشرطة ويقول لهم فى غضب :

- اعتقلونى معهم يا مجرمون ! يمسكه رجال الشرطة ويحملونه فى الهواء ثم يلقون به داخل السيارة البوكس .

كل هذا رأيته بعينى وشهدته أكذوبة الديمقراطية ، وازدواجية المقاييس ، وقد حصل المسئولون عن المظاهرة على تصريح من الأمن بعمل المظاهرة ، إلا أن الأمن الأمريكى لم يأبه بهذا التصريح ، واعتقل بعض النساء والرجال دون أن يخرجوا عن حدود القانون .

فى لقائنا مع الأمين العام المساعد للأمم المتحدة (كان الأمين العام خارج نيويورك) قدمنا احتجاجًا رسميًا على هذا الاعتقال غير القانونى ، والذى لم يحدث إلا لهذه المظاهرة دون غيرها من المظاهرات ، لمجرد أنها مظاهرة عربية ، يتصاعد العداء للعرب فى الولايات المتحدة الأمريكية .

دام اللقاء مع الأمين العام المساعد حوالى الساعة ، اسمه « إبراهيم فال » وهو سنغالى ، استمع جيدًا لكل أعضاء وعضوات الوفد العالمى الذى قابله ، كانت مطالبتنا الأساسية للأمم المتحدة كالآتى :

أولاً : أن تتحمل الأمم المتحدة مسئوليتها أمام الشعوب التى أنشأتها ، وأن تمنع الدول الأعضاء فرادى أو مجتمعين من اتخاذ أى قرار لا يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة أو الاتفاقات المودعة فى أمانتها مثل اتفاقية جنيف وغيرها .

ثانيًا : على الأمم المتحدة أن تمنع استخدام الحصار كسلاح ضد الشعوب بسبب قرارات سياسية اتخذتها حكوماتهم ، هذا الحصار جريمة ، وخرق للقانون الدولى ، لا يدفع ثمنه إلا الأبرياء من الشعوب . خاصة الأطفال الذين لا يشاركون فى أى قرار سياسى .

ثالثًا : اعتبار سلاح الحصار أحد أسلحة الدمار الشامل ويجب حظره ومنع استخدامه تمامًا فى أى بلد فى المستقبل .

ضمن المشاركين فى المظاهرة وزير العدل الأمريكى السابق (رمزى كلارك) الذى تدخل لدى الشرطة الأمريكية للإفراج عن المعتقلين والمعتقلات أثناء المظاهرة ، وفعلاً تم الإفراج عنهم فى اليوم ذاته .

كانت إحدى المعتقلات امرأة مصرية كانت تمشى إلى جوارى . رأيت ثلاثة من رجال الشرطة ينقضون عليها أحدهم يضع ذراعيها خلف ظهرها ويكبل يديها بالحديد ، ويدفعها زميلاه إلى سيارة البوكس .

مشهد همجى عنيف غليظ يعامل بالغلظة نفسها المرأة كالرجل والطفل والعجوز والعربى والأمريكى والهندى لا فرق .

هذه هى المساواة الوحيدة التى شهدتها فى نيويورك فى اليوم الأول من يوليو ١٩٩٧ ، وقد هجم رجال الشرطة على شابة أمريكية قيدوها بالحديد والقوا بها فى العربة إلى جوار زميلتها المصرية وفعلوا ذلك بالشاب والعجوز والأسود والأبيض ، هكذا تحققت المساواة تحت يد الشرطة الأمريكية .

لم يحدث فى التاريخ البشرى أن يجرى قتل شعب كامل مثل الشعب العراقى بأطفاله ونسائه ورجاله ، عن عمد وسبق إصرار ، بحجة تطبيق الشرعية الدولية التى تتذرع بها الأمم المتحدة على اقتراف هذه الجريمة منذ حرب الخليج عام ١٩٩٠ .

على حين تداس هذه الشرعية الدولية كل يوم من جانب دول أخرى على رأسها إسرائيل . والصمت هو اشتراك فى الجريمة .

العودة إلى الوطن

عند عودتى إلى الوطن شهدت الصراع بين القيادات الفكرية والدينية والطبية حول موضوع ختان الإناث ، وهذه جريمة أخرى ترتكب فى حق النساء والبنات والأطفال الإناث ، جريمة ارتكبت فى صمت كبير ، على مدى سنين وقرون ، كتمت أصوات النساء

خوفًا من الاتهام بالفساد أو انعدام الأخلاق أو انعدام الكرامة أو تأييد الغرب أو الولايات المتحدة الأمريكية . أغرب ما قرأت فى الصحف هو التهديد الأمريكى بقطع المعونة عن مصر إن لم يصدر قانون يمنع ختان الإناث !!

شر البلية ما يضحك . إن الولايات المتحدة الأمريكية تتعاطف مع الأطفال البنات المصريات ضحايا الختان ، لكنها لا تتعاطف مع الأطفال فى بلاد أخرى الذين يموتون جوعًا بسبب الحصار الأمريكى لهم ! تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية سياسة إسرائيل التى تسفك الدماء فى فلسطين كل يوم منذ تسعة وأربعين عامًا .

أمر مضحك مؤلم لا يدفع ثمنه إلا الأطفال الذكور والبنات اللائى يتخلى عنهن الكبار لمجرد إثبات الوطنية أو الهوية فى ساحة الصراعات السياسية .

عالم السياسة لا تحكمة المبادئ أو القيم الإنسانية بل تحكمه القوى المهيمنة والمصالح الآنية وغير الآنية ، يروح ضحية هذه الصراعات الدولية والمحلية الشرائح الضعيفة فى المجتمع وعلى رأسهما الأطفال البنات .

إلا أن هؤلاء النساء والرجال الواثقون فى وطنيتهم والواثقات فى وطنيتهن لا يأبهون ولا يأبهن لهذه المناورات السياسية ويرفضون الصمت . لأن الصمت اشتراك فى الجريمة سواء كانت حصارًا اقتصاديًا أم ختانًا جسديًا أو عقليًا .

• • •

الاستخراب وليس الاستعمار(*)

فى جريدة الأهرام الصادرة ١٨ أبريل ١٩٩٧ قرأت مقالاً بقلم الأستاذ/ فهمى هويدى تحت عنوان « لا سلام مع الاستيطان » ، وأتفق معه فى أن من واجبنا أن نسقط القناع من على فكرة الاستيطان والمستوطنات وأن نصحح اللغة السياسية والمصطلحات المستخدمة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، ويقول فهمى هويدى عن لسان إحدى الباحثات الألمانيات (فيكتوريا فالس) إن كلمة مستوطنة ليست سوى بدعة صهيونية تعطى انطباعًا بأن المسألة لا تخرج عن محاولة إعمار أراض خالية ، بينما الأمر عكس ذلك تمامًا ، فهذه المستوطنات تقام فوق حيازات مصادرات الأهالى ، وعلى أنقاض بيوت الفلسطينيين أو زراعات يملكونها .

كثيرون من الناس فى الشرق والغرب يؤيدون هذا القول . فهذه باحثة ألمانية تكشف المشروع الصهيونى السياسى والعسكرى ، إلا أنها تستبدل كلمة مستوطنات بكلمة أخرى هى مستعمرات ، ويقول الأستاذ/ فهمى هويدى فى مقاله على لسانها : المستوطنات فى حقيقتها ليست سوى مستعمرات ، إذ هى نوع من الاستعمار ، وهنا نتوقف قليلاً لندرك أن كلمة « استعمار » أيضًا لا تصلح لكشف الخراب أو الاستخراب الذى قام به الاستعمار القديم ويقوم به الاستعمار الجديد بمختلف أشكاله العسكرية والاقتصادية والثقافية والإعلامية ، إن كلمة استعمار ليست إلا بدعة أوربية (بريطانية فرنسية وغيرها) أعطت انطباعًا بأن الاحتلال العسكرى الأجنبى هو نوع من الحماية والدفاع عنا ، ونوع من الإعمار والتنمية والتقدم لبلاد من الهمج والبرابرة ، بينما الأمر عكس ذلك تمامًا ، فقد تم إفقار البلاد التى احتلتها الجيوش الأجنبية فى مصر والهند وجميع البلاد الأسيوية والأفريقية والعربية وغيرها ، لقد تم استنزاف موارد هذه الشعوب الاقتصادية والحضارية لتنمية البلاد الأوربية وتطويرها .

لماذا إذن لا نغير كلمة « استعمار » أيضًا مادمنا بصدد تغيير اللغة السياسية والمصطلحات المستخدمة فى الصراعات الدولية ، إن كلمة « استخراب » تكشف أكثر عن المشروعات الاستعمارية القديمة والجديدة .

(*) أبريل ١٩٩٧ .

قد يقول بعض الناس : هذه مجرد قشور لا تمس جوهر المشاكل ، إلا أن « اللغة » هامة فى عملية الفهم والمعرفة ، خاصة ونحن نعيش اليوم عصر ما يسمى عصر المعلومات ، تلعب فيه اللغة دورًا أساسيًا فى الإعلام السياسى الذى أصبح أخطر من السلاح العسكرى فى الحرب والسلم معًا ، مثلاً فى حرب الخليج عام ١٩٩١ كان الإعلام الأمريكي يسبق السلاح الأمريكى فى الضرب والتمويه وإطلاق الدخان لإخفاء الحقائق ، إن التمويه وخداع العدو من أهم وسائل الحرب العسكرية ، وفى الحروب الاقتصادية تصبح اللغة السياسية والإعلامية هى السلاح الأكبر فى عمليات التمويه وقلب الحقائق .

المشكلة فى كل هذا الصراع اللغوى والإعلامى أننا لا نكتشف الحقائق إلا بعد الهزائم ، وها نحن نكتشف أن كلمة الاستيطان تخفى الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه الصراع العربى الإسرائيلى ، ومَنْ كشف ذلك ؟! باحثة ألمانية فى الندوة العالمية لشئون القدس التى عقدت فى روما تحت رعاية الحكومة الإيطالية على حد قول الأستاذ/فهمى هويدى فى مقاله ، بالطبع أنا لست ضد أن نتعلم من الآخرين فى الشرق والغرب ، فالنضال ضد الظلم ليس قاصرًا على بلاد معينة أو جنسيات معينة أو أديان معينة ، أذكر أننى التقيت بمناضلة أمريكية من أصل يهودى اسمها « سالما چيمز » كانت أكثر من النساء العربيات كشفًا للمشروع الصهيونى فى إسرائيل، وقفت « سالما جيمز » فى المؤتمر الدولى للمرأة فى نيروبى عام ١٩٨٥ وهاجمت الحكومة الإسرائيلية وقالت بالحرف الواحد : إن المشروع الصهيونى هو مشروع استعمارى بريطانى أمريكى ، إلا أن بعض النساء الإسلاميات رفضن مصافحة سالما چيمز باعتبارها يهودية ، وبعض النساء العربيات رفضن الاستماع إليها أو الجلوس بجوارها .

نحن فى أشد الحاجة إلى إعادة النظر فى أشياء كثيرة ورثناها فى اللغة والقيم والسلوك نتصور أنها صحيحة على حين هى خاطئة وضارة بنا وقد تسللت إلينا عبر الإعلام المضلل والنظم التعليمية القاصرة .

نحن أيضًا فى حاجة إلى أن نكتشف بأنفسنا نواحى النقص فى اللغة السياسية والثقافية والإعلامية التى نستخدمها كل يوم ولا ننتظر حتى نسافر إلى مؤتمر دولى فى روما أو باريس أو نيروبى لنسمع الباحثين والباحثات الألمان أو الأمريكان ثم نبدأ نكتشف الحقائق ، لماذا نكون دائمًا رد فعل للآخرين ولا نبادر نحن بتغيير اللغة والكلمات التى نستخدمها دون أن ندرى مثل كلمة الاستعمار ؟!

• • •

آلهة ورجال (*)

منذ نشوء النظام العبودى أو ما يسمى النظام الطبقى الأبوى أصبح الحاكم يتنكر فى زى الإله . لم تنفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية فى التاريخ حتى يومنا هذا . وإلا فلماذا يتحدث بابا الفاتيكان فى أمور السياسة ويعقد الاجتماعات مع الملوك والرؤساء فى جميع أنحاء العالم ؟ وفى بلادنا لماذا يفعل شيخ الأزهر أو مفتى الديار أو كبار المشايخ ورجال الدين الإسلامى ما يفعله البابا في العالم المسيحى ؟

وفى حرب الخليج أو حرب البترول الأخيرة فى يناير ١٩٩١ لماذا تمتم الرئيس الأمريكى (چورچ بوش) بآيات من الإنجليل وهو يعلن الحرب على شيطان العراق (صدام حسين) ؟! ولماذا يردد حتى اليوم رئيس الحكومة الإسرائيلية (بنيامين نيتانياهو) آيات التوراة عن الأرض الموعودة وهو يطلق النيران على الشعب الفلسطينى الأعزل ويستولى على أرضه وخيرات بلاده ؟ ولماذا تنتشر الحركات المسيحية الأصولية فى الغرب وتحمل فى الولايات المتحدة اسم التحالف المسيحى ، الذى يقف مع أقصى اليمين فى الحزب الجمهورى ، ويشجع العودة إلى القيم الطبقية الأبوية أو القيم العائلية التقليدية والتراجع عن حقوق المرأة وضرب عيادات الإجهاض وإطلاق الرصاص على من يعملون فيها ، مع المطالبة بإعادة الصلوات والتعليم الدينى فى المدارس ؟

ولماذا تصعد أكثر الأحزاب الهندوكية رجعية إلى السلطة فى الهند ، وتنتشر الاضطرابات الطائفية والمذابح فى كثير من الولايات ؟ وفى أوروبا فى ظل ما يسمى العلمانية أو فصل الدين عن الدولة (secularism) تبقى الكاتدرائيات وقبات الكنائس شامخة فى السماء تصلصل أجراسها كأحد الأعمدة الأساسية التى تقوم عليها الأنظمة الرأسمالية الحاكمة .

(*) من محاضرة فى لندن / ٤ نوفمبر ١٩٩٧ .

وفى بلادنا العربية والإسلامية لماذا ترتفع منارات الجوامع ، وتعلق عليها الميكروفونات ومكبرات الصوت لتدوى آلاف الأصوات خمس مرات فى اليوم وقت الأذان ؟

ولماذا هذه اللقاءات المستمرة المعلنة وغير المعلنة مع القيادات السياسية فى العالم الأول المسمى اليوم بالشمال وبين القيادات الدينية الأصولية فى العالم الثالث أو ما يسمى الجنوب . أهناك ترابط بين القوى الرأسمالية الدولية فى عصر ما بعد الحداثة وبين تصاعد التيارات الأصولية الدينية فى جميع أنحاء العالم . سواء كانت مسيحية أو يهودية أو إسلامية أو بوذية أو هندوكية أو غيرها ؟ وما أثر هذه التيارات الدينية السياسية على حياتنا فى الشرق الأوسط ، خاصة نحن النساء ؟ وهل يكون القرن الواحد والعشرين أفضل من هذا القرن ؟ ولماذا نفعل نحن الشعوب المقهورة نساء ورجالاً فى عصر العولمة وما بعد الحداثة ؟!

مشاهد متناقضة

خلال سبتمبر الماضى ١٩٩٧ أمضيت بضعة أيام على شاطىء البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية ، سبحت فى المياه الزرقاء الدافئة لأغسل متاعب القاهرة . مدينتى التى عشت فيها أغلب عمرى ، وعدت إليها فى بداية هذا العام بعد غياب خمسة أعوام فيما يشبه المنفى ، لقد وقفت ضد حرب الخليج أو حرب البترول عام ١٩٩١ فإذا بالضربات تنهال علىَّ . أصدرت الحكومة المصرية قرارًا فى ١٥ مايو ١٩٩١ بإغلاق الجمعية التى أنشأتها والمجلة التى أصدرتها ، وتحويل أموالها إلى جمعية أخرى تحمل اسم « نساء الإسلام » ، وفى ليلة ٩ يونيو ١٩٩٢ وضعت الحكومة حراسة مسلحة على بيتى فى شارع مراد بالجيزة ، وبودى جارد يرافقنى فى جميع حركاتى . لماذا ؟ لأن حياتى مهددة واسمى وضع فى قائمة الموتى الصادرة عن بعض التيارات الأصولية الإسلامية فى مصر والمملكة العربية السعودية ! هكذا وجدت نفسى تحت حماية القوى ذاتها التى تبغى إزالتى من الوجود ، بعضها يحمل وجهًا سياسيًا والبعض الآخر يحمل وجهًا دينيًا ، وكلاهما مترابط متحالف معًا رغم بعض التناقضات العارضة أو الصراعات المؤقتة .

قد يختفى الترابط أو التحالف لأهداف سياسية قريبة أو بعيدة ، إلا أن التناقضات قد تظهر ، خاصة فى حياة النساء ، هذا القطاع من البشر المحروم من القوة السياسية والاقتصادية والدينية ، إنه أول قطاع يضرب فى الأزمات فى الحرب وفى السلم ، ويعيش كبش فداء للازدواجية الثقافية والأخلاقية التى تقوم عليها الأنظمة السياسية والدينية علي حد سواء .

على شاطىء البحر فى بلادنا أصبح مألوفًا أن ترى نساء مرتديات الحجاب أو النقاب يتمشين على البلاج ، وإلى جوارهن نساء عاريات داخل البكينى . بل إننى رأيت امرأة تسبح فى البحر وهى مرتدية نقابًا أسود حول وجهها وعباءة سوداء وحذاء جلديًا أسود . كانت تقاوم الأمواج المتكسرة على الشاطىء، تثبت كعبيها فى الرمال حتى لا تغرق ، وإلى جوارها زوجها يسبح بحرية داخل المايوه الكاشف عن جسده كله ما عدا جزء صغير أسفل البطن وما بين الفخذين .

وفى شوارع القاهرة أصبح مألوفًا أن ترى النساء المحجبات لا يظهر منهن إلا الوجه والكفان ، والنساء السافرات المرتديات الميكروچيب أو الفستان ما بعد الحديث الكاشف عن مساحات أكثر فأكثر من الصدر أو الظهر أو الفخدين .

وعلى شاشة التليفزيون المصرى (مثل غيره فى منطقة الشرق الأوسط) أصبح مألوفًا أن تري الشيخ الإسلامى الوقور الذى يشجع النساء على التحجب درءًا للفتنة ، يعقبة على الفور راقصة شبه عارية يتلوى جسدها فى إعلان عن بضاعة أمريكية جديدة أو سلعة مستحدثة من منتجات الشركات المتعددة الجنسيات .

لهذا لم يعد غريبًا أن ترى فى الشوارع نساء وفتيات يخفين شعورهن تحت الحجاب على حين يرتدين الرموش الصناعية ويلون وجوهن بالمساحيق وشفاهن بإصبع الروج وعيونهن بالكحل وأجسادهن داخل الثوب الإسلامى الطويل تتلوى فى مشية مغرية فوق الكعوب العالية الرفيعة .

هذه المشاهد تبدو متناقضة ، وهى كذلك بالفعل ، إلا أنها مترابطة تمثل الوجهين أو الوجه المزدوج للنظام العالمى الجديد وما يسمى العولمة أو الكوكبة ما بعد الحداثة.

إنها رغم شعارها ما بعد الحديث لاتزال فى جوهرها نظامًا طبقيًا أبويًا فى حاجة إلى الدين كسلاح سياسى وثقافى فى صراعها ضد الشعوب .

لماذا تحتاج العولمة إلى التيارات الأصولية الدينية ؟

أصبحت كلمة العولمة هى الشكل ما بعد الحديث للاستعمار الجديد ، وهى كلمة معقدة ، تزداد تعقيدًا مع تعقد الحياة وتطور أساليب الاستغلال الاقتصادى فى عالم سريع التغير تحت وطأة الاكتشافات العلمية والتكنولوچية الحديثة . سأحاول تبسيط هذه العولمة وحاجتها إلى الأديان فى هذه النقاط التالية :

١ - تعنى العولمة أن الثروة والقدرات الإنتاجية والتجارية والعسكرية تتركز أكثر وأكثر فى يد القلة الأقل فالأقل من الأفراد والشركات ، مثلاً يوجد اليوم فى العالم ٤٣٥ فردًا يملكون نصف الثروة فى العالم ، ويوجد ٥٠٠ شركة متعددة الجنسيات تسيطر على ٨٠٪ من التجارة العالمية و ٧٥٪ من الاستثمارات .

٢ - لا يمكن للقلة القليلة أن تواصل جنى أرباحها واحتكاراتها إلا عن طريق السيطرة بالعنف ، بالحروب العسكرية ، أو بالضغوط السياسية والاقتصادية التى تتخفى تحت اتفاقات دولية أو شعارات حرية السوق والليبرالية والديموقراطية .

٣ - لكن هذا كله لا ينجح دون السيطرة على العقول وإفراغها من المعرفة وحشوها بالمعلومات الكاذبة المضللة ، لهذا أصبحت الوسائل الإعلامية والثقافية أهم من أى وقت مضى فى هذا العصر الذى يشهد ما يسمى الثورة المعلوماتية ، وهنا يأتى دور الأديان والحاجة إلى إحيائها وتفسيرها على نحو يخدم مصالح الأقلية الحاكمة .

٤ - رغم الاختلافات بين الأديان إلا أنها تتفق فى فرض الطاعة المطلقة للرب فى السماء ومندوبه فوق الأرض . سواء كان الحاكم فى الدولة أو رب العائلة الكبيرة ، أو الأب فى الأسرة الصغيرة التى هى نواة المجتمع شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا . فى مصر مثلاً كان رئيس الدولة أنور السادات يعطى نفسه لقب رب العائلة الكبيرة، ولقب آخر هو الرئيس المؤمن ، إن سلطة الأبوة مع الإيمان الدينى يشكلان الدعامة

الأساسية للنظام الطبقى الأبوى الذى بدأ فى العهود العبودية واستمر فى قهر النساء والفقراء ، ولايزال حتى اليوم يحكمنا دوليًا ومحليًا بأشكال سياسية واقتصادية وثقافية ودينية مختلفة . لهذا السبب تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية أنظمة دينية أصولية مثل تلك السائدة فى المملكة العربية السعودية وبلاد الخليج ، ولذلك أيضًا ساندت الولايات المتحدة حكومة السادات فى مصر وساعدته على تقوية التيارات الأصولية الدينية لضرب القوى العلمانية المصرية الناصرية والاشتراكية والوطنية الديمقراطية ، كما تعاونت الولايات المتحدة الأمريكية مع بعض الحركات الأصولية الإسلامية فى حرب أفغانستان ضد النظام المحلي المتحالف مع الاتحاد السوفياتى . ومن المعروف أن منظمة حماس (وهى تيار إسلامى أصولى) قد لقيت التشجيع من الحكومة الإسرائيلية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، وما أن تحقق لها ذلك حتى بدأت حربها ضد حماس والرغبة فى القضاء عليها .

٥ - تعنى العولمة أن تسيطر القلة الثرية الحاكمة دوليًا على السوق العالمية ، يتم ذلك عن طريق إلغاء الحدود بين البلاد أو إلغاء حماية الدول للإنتاج المحلى مثل رسوم الجمارك أو الضرائب . إن العولمة في جوهرها نوع من الاستعمار الاقتصادى المباشر وغير المباشر وضرب الإنتاج المحلى الزراعى والصناعى والثقافى والفنى.

٦ - تحاول الدول والشعوب فى عالمنا الذى يسمونه العالم الثالث أن تدافع عن استقلالها الاقتصادى لتخرج من قبضة القوى الدولية إلا أنها تفشل فى هذه المهمة، لأسباب متعددة ، منها فساد الحكومات المحلية وتعاونها المعلن أو غير المعلن مع القوى الرأسمالية العالمية ، وبطشها بالشعوب إن حاولت المقاومة بشكل منظم فعال ، لهذا لا يبقى أمام هذه الشعوب المقهورة محليًا وعالميًا من سبل المقاومة إلا الانغلاق على الذات ، والعودة إلى الماضى ، والتمسك بالتراث القديم بسلبياته وإيجابياته ، ومن هنا الردة الثقافية والفكرية التى نشهدها فى بلادنا اليوم ، والأصوات المتزايدة التى تطالب بالعودة إلى الهوية الأصلية أو الخصوصية الثقافية أو الدينية أو القومية أو العرقية . إنه نوع من الدفاع عن

النفس ، وهى حركة شعبية تقاوم قوى عالمية ومحلية أكبر منها ، لهذا يغلب عليها اليأس الذى يزيد من انغلاقها على الذات والارتداد إلى الماضى .

٧ - تشجيع القوى الرأسمالية العالمية هذه الردة الثقافية فى بلادنا ، لأنها تجرد الشعوب من قدرتها على المقاومة الحقيقية لتحقيق الاستقلال الاقتصادى ، وتحرفها إلى معارك ثانوية فرعية فى مجال الروحانيات والأديان والصراعات الثقافية أو الحضارية ، توهمها أن الصراع الحقيقى هو الصراع الثقافى ، وترفع شعارات من نوع التعددية الثقافية ، أو احترام الخصوصيات الثقافية والدينية والعرقية والطائفية ، وتنجح عن هذا الطريق فى تقسيم الشعوب وتمزيقها إلى ملل وطوائف متناحرة ، كما تنجح فى تشجيع الفكر المتخلف والخرافات الروحانية . بالإضافة إلى أن الصراع الثقافى أو الدينى أو العرقى لا يمثل خطرًا حقيقيًا على المصالح الاقتصادية الدولية طالما أن القدرات الاقتصادية لهذه الشعوب مكرسة لخدمة الشركات المتعددة الجنسيات .

٨ - الدليل على ذلك أنه رغم الخلافات التى تنشأ أحيانًا بين التيارات الإسلامية الأصولية والدول الغربية إلا أن شبكة الشركات والبنوك الإسلامية ترتبط تمامًا بالاستعمار العالمى الجديد . بل إن الجزء الأساسى من أموال الطبقات الحاكمة فى بلادنا العربية يتواجد فى البنوك والشركات والبورصات فى الدول الغربية ويخضع لأهدافها ومصالحها ضد مصالح الشعوب العربية .

٩ - إن تصاعد التيارات الأصولية الإسلامية في المنطقة العربية بعملياتها الإرهابية وقتل الأبرياء من الرجال والنساء والسياح تسهل على الاستعمار الجديد أن يستبدل الإسلام كعدو جديد بعد سقوط الاتحاد السوفياتى ، هكذا يبرر تصاعد التسليح وتشكيل الأهداف العسكرية والتدخل فى شئون البلاد الداخلية وغير ذلك من وسائل السياسة الدولية المعاصرة .

١٠ - يكشف كل ذلك أسباب انتشار شعارات من نوع الصراع بين الثقافات أو بين الحضارات التى ظهرت فى السنين الأخيرة ، سعى لوضع نظرياتها شخصيات

أمريكية فى الجامعات والمعاهد مثل صمويل هانتنجتون وبرنار لويس وفراسيس نوكوياما وغيرهم ، وانتقال هذه الأفكار عن طريق العدوى أو التقليد إلى عدد من المثقفين فى بلادنا .

١١ - تحتاج عمليات العولمة الاقتصادية إلى عولمة ثقافية وإعلامية من أجل تصريف بضائعها وسط الشعوب الفقيرة ذات القيم الثقافية والدينية المتخلفة ، لذلك تسعى القوى العالمية لخلق أنماط استهلاك موحدة عالميًا ، وقيم شرائية وأخلاقية ونفسية واحدة ، وقيم جمالية للنساء متشابهة ، وهى تسعى لتشجيع الاستهلاك ، وخلق حاجات مزيفة غير ضرورية لدى البشر ، فهى تثير غرائز الشباب عن طريق أفلام الجنس والجريمة والتنافس ، وتشعل غيرة النساء بالإعلانات التجارية وتدفعهن لشراء الرموش الصناعية ، والمساحيق ، والحلقان فى الآذان ، وأدوات الزينة ، والكعوب العالية ، وتنتشر الفلسفة الاستهلاكية القائمة على الشراء النهم للكماليات وسط شعوب محرومة من الضرورات .

فى قريتى كفر طحلة فى دلتا النيل أصبح مألوفًا أن تتأرجح الفتاة الريفية الفقيرة على الكعب العالى الذى ينغرز فى حفر الشوارع الزراعية أو أكوام السباخ ، وتشترى زجاجة عطر مستورد تخفى به رائحة العرق بدلاً من قطعة صابون محلى تستحم به .

لقد نجحت العولمة الثقافية فى تخريب العقول وتخريب الاقتصاد المحلى سواء بسواء .

١٢ - إلا أن الشعوب تقاوم هذا الاعتداء على مواردها المادية والفكرية ، إنها مقاومة طبيعية إنسانية من أجل البقاء ، وهى ترى أمامها الآلاف من الأطفال يموتون جوعًا أو مرضًا ، والآلاف من الشباب يعيشون حياة أشبه بالموت فى ظل البطالة واليأس والمخدرات ، إلا أن المقاومة الشعبية فى غيبة الوعى أو التنظيم السياسى الواعى تنحرف فى أحيان كثيرة عن الطرق الكفيلة بإنجاحها ودفعها إلى الأمام ، فإذا بها تقاوم ثقافة العولمة السوقية الاستهلاكية بالعودة إلى الماضى أو تراثها القديم

بسلبياته وإيجابياته ، ولكل تراث قديم سلبيات وإيجابيات سواء فى الشرق أو الغرب، إلا أن رد الفعل الشعبى غير الصحيح فى بلادنا (حتى المثقفين منهم) يرى أن الحضارة الغربية ليس فيها إلا الإباحية والفساد الأخلاقى والاستغراق فى ملذات الدنيا والماديات ، وأن الحضارة الشرقية أو الحضارة الإسلامية ليس فيها إلا النقاء والطهر والروحانيات والفضيلة ، هكذا ترتفع الأصوات تنادي بالعودة إلى الإسلام والتمسك بالقيم الروحانية ، وارتداء الزى الإسلامى للنساء (الحجاب مثلاً) أو اللحية والجلباب للرجال ، والعودة إلى قيم العائلة القديمة ، واللغات المحلية ، وكتاتيب القرية ، والزراعات والحرف التقليدية وغير ذلك مما قد يكون مفيداً أحيانًا فى إحياء بعض إيجابيات حضارتنا المصرية والعربية والإسلامية والقبطية ، إلا أن القوى العالمية والمحلية المسيطرة لا تشجع هذا النوع الإيجابى من المقاومة الشعبية ، وتسعى للقضاء عليه لحساب القوى الأصولية الدينية ، إسلامية كانت أو قبطية ، التى تشعل نيران الفتنة الطائفية وتحوّل المعركة الشعبية عن مسارها الطبيعى ضد الاستعمار العالمى والحكومات المحلية المتعاونة معه إلى معارك بين المسلمين والأقباط ، فإذا بالرصاص ينطلق فى صدر رجل لمجرد أنه قبطى ، أو فى صدر امرأة لأنها لا ترتدى الحجاب ، أو لأنها سائحة أجنبية جاءت من الغرب لتزور بلادنا .

لقد عشنا فى مصر السنين العشر الأخيرة فى ظل هذا الإرهاب الذى أطلقوا عليه اسم الإرهاب الأصولى الإسلامى . تحقق للاستعمار الجديد وقوى العولمة كل أهدافها ، وعثرت على عدوها الجديد الذى تدخل به إلى القرن الواحد والعشرين ، وتوهم العالم أن الحرب ضده ضرورية ضرورة الحرب ضد الشيطان ، فالعالم المحكوم بإله طاغ أو قلة من الآلهة الطغاة لا يمكن أن يبقى ويستمر دون وجود الشيطان . وإن اختفى الشيطان من الكون فسوف لا يكون هناك شر وبالتالى يصبح العالم فى غير حاجة إلى إله .

إن الفلسفة الدينية الثنائية تخدم إلى حد كبير فلسفة الاستعمار الجديد كما خدمت فلسفة الاستعمار القديم ، فهى الثنائية القديمة التى على أكتافها قام

النظام العبودى ثم الإقطاعى حتى الرأسمالى الحديث ومابعد الحديث . لهذا السبب كان الدين سلاحًا سياسيًا فى جميع العصور حتى اليوم ، فالدين فى جوهره إيديولوجيه سياسية بالإضافة إلى تعاليمه الخاصة بالحياة الشخصية للرجال والنساء وقيوده الجنسية على النساء فحسب ، تأكيدًا للسلطة الأبوية وسيطرة الذكر فى العائلة ، فوق الأرض ، وفى السماء .

١٢ - إلا أن الدين سلاح ذو حدين ، قد يخدم الآلهة والقلة الحاكمة فى استبدادها وظلمها ، وقد ينقلب ضدها إلى سلاح فى يد المقهورين من الفقراء والمقهورات من النساء . ذلك لأن الكتب الإلهية تحتاج دائمًا إلى البشر كى يفسروها ، وإلا تتعطل عن العمل أو التأثير فى حياة الملايين الذين لا يقرأون هذه الكتب السماوية. فما بال أن يفهموا ما بها من طلاسم أو رموز ترمز إلي حياة بشر عاشوا منذ آلاف السنين فى الصحراء يركبون الإبل ويشربون من الآبار ليس عندهم ثلاجات ولا سيارات ولا طائرات ولا كمبيوتر وإنترنيت !

من هنا المشكلة الرئيسية فى الدين ، وهى التفسير ، مَنْ يفسر آيات الله للشعوب ؟ وقد مرت ببلادنا مراحل متقدمة سياسيًا ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وانهزام القوى النازية والفاشستية ، وضعف الاستعمار البريطانى ، بدأت الحركة الوطنية الشعبية فى مصر تزدهر ، يحدوها أمل جديد فى التخلص من الاحتلال البريطانى والحكم الملكى المحمى بهذا الاحتلال . انتشرت حينئذ التفسيرات المتقدمة المستنيرة للإسلام ، والتى بدأها من قبل الرواد الإسلاميين فى أوائل هذا القرن مثل الشيخ جمال الدين الأفغانى ومصطفى عبد الرازق والشيخ محمد عبده وغيرهم ممن فسروا الإسلام على نحو يدعو إلى إعمال العقل والاجتهاد والسعى إلى الحرية والعدالة واستقلال الوطن ، كما أنهم دافعوا عن حقوق المرأة واعتبارها إنسانًا كالرجل حسب آية القرآن التى تقول ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (الأعراف - ١٨٩) ، كما حاربوا تعدد الزوجات . واعتباره ممنوعًا فى الإسلام حسب آية القرآن التى

تشترط العدالة بين الزوجات كأساس لحق التعدد ، وأن هذه العدالة مستحيلة . لذلك لابد من الاكتفاء بزوجة واحدة فقط ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ (النساء - ٣) هكذا قال الله فى القرآن .

١٤ - إلا أن هذا الاتجاه الوطنى الإسلامى المتقدم كثيرًا ما يضرب من القوى الحاكمة دوليًا ومحليًا ، فهو خطر عليهما معًا . لأنه يحول الإسلام من سلاح للاستبداد والاستغلال وتقسيم الشعوب إلى سلاح للعدالة والوحدة والاستقلال فى يد الشعوب .

ويحاول الإعلام العالمى فى ظل العولمة أن يطمس الفروق بين هذا الاتجاه الوطنى الإسلامى المستنير والتيارات الأخرى الأصولية الإسلامية ، كما أنه يشجع الأخيرة ويصورها على أنها هى الإسلام وهى العرب ، وأنهم ليسوا إلا عصابات إرهابية تطلق الرصاص على الأبرياء وتفرض الحجاب والختان على النساء .

لاشك أن هذه العصابات الإرهابية موجودة فى بلادنا وهى تعمل تحت اسم الإسلام ، وتفسره تفسيرًا يخدم أغراض التخلف والتمزق ، وتنشغل بحجاب المرأة وعزلها عن الحياة العامة أكثر مما تنشغل بالنهب الاستعمارى الاقتصادى ، وتقتل المفكرين المستنيرين أو تضع أسماءهم فى قوائم الموتى ، ويرتفع صوتها ضد القلة من الأقباط ، وتصمت صمتًا كاملاً عن عمليات التخريب الاقتصادى التى تتم تحت اسم مشروعات التنمية التى يفرضها البنك الدولى وصندوق النقد العالمى ، وما يندرج تحت اسم الإصلاح الاقتصادى أو التكامل أو التعاون أو التكيف الهيكلى وغيرها من المشروعات التى أثقلت بلادنا بالديون الأجنبية ، وأدت إلى مزيد من الفقر والبطالة والجوع للفقراء والنساء والشباب .

الطريق إلى مستقبل أفضل

رغم أن القوى العالمية الاستعمارية تزداد ضراوة وسلاحًا ، وأن إمكاناتها العلمية تتطور بسرعة فى المجال العسكرى النووى والاقتصادى والإعلامى ، إلا أننى أعتقد أن قوة الشعوب هى الباقية وهى التى هزمت فى الماضى العبودية والإقطاع والاستعمار

القديم ، وسوف تهزم فى المستقبل الاستعمار الجديد والعولمة الاستغلالية من أعلى الهرم وتستبدلها بعولمة أخرى شعبية إنسانية من أسفل الهرم ، تسعى إلى العدل والحرية والسلام والمساواة بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو الدين أو غيرها .

إن وجودى هنا فى لندن اليوم وإسماع صوتى هذا للعالم كواحدة من الشعب المصرى يؤكد أن أصوات النساء والرجال والشباب والأطفال المنادين بالحرية والعدالة الحقيقية سوف تسمع أكثر وأكثر ، وأن الوعى الجديد كالضوء يمكن أن يقضى على الظلام ، وسوف تتجمع هذه القوى الشعبية المتقدمة فى كل بلد من بلاد العالم شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، تشكل قوة عالمية جديدة أو عولمة شعبيةتقاوم العولمة من أعلى التى تفرضها القلة الحاكمة عالميا ومحليًا .

لقد بدأت أصوات جديدة تنطلق من بلادنا العربية والإفريقية تطالب بعدالة التجارة العالمية ، وترفض المعونات . انطلق هذا الشعار : « تجارة عادلة وليس معونات (Fair Trade and not Aid) وفى مصر بدأت الأصوات ترتفع أكثر وأكثر ضد المعونة الأمريكية ، التى اتضح أن فوائدها تعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية وليس إلى مصر ، وقد أشاعت الولايات المتحدة أن مصر وغيرها من البلاد التى تتلقى هذه المعونات لا يمكن أن تعيش دون هذه المعونات الاقتصادية والعسكرية ، وراحت تهدد بقطعها لفرض الضغوط السياسية والاقتصادية ضد مصالحنا ، ولصالح الاستعمار الرأسمالى عالميًا ودولة إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط ، هذه الضغوط تتخفى احيانًا تحت شعارات إنسانية نبيلة مثل حقوق الإنسان أو حقوق المرأة ، وفى هذا العام ١٩٩٧ تحمست الولايات المتحدة الأمريكية فجأة لموضوع ختان البنات فى مصر واشترطت تحريمة قانونًا لصرف المعونة الأمريكية لمصر ، مما أضر ضررًا بليغًا بالحركة النسائية المصرية المطالبة بتحريم الختان ، الذى أصبح فجأة كأنما هو لصالح الاستعمار الأمريكى أكثر مما هو لصالح النساء المصريات بل المجتمع المصرى كله .

إن قضية التحرير الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى منطقة الشرق الأوسط قد أصبحت قضية معقدة صعبة بسبب تزايد القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية للاستعمار الجديد وحليفته فى المنطقة دولة إسرائيل ، ومما أدى إلى هذه الأزمات الاقتصادية والثقافية والدينية التى نعانى منها ، والتى يروح ضحيتها أضعف شرائح المجتمع وهن النساء والفقراء .

وليس أمامنا نحن الشعوب نساء ورجالاً داخل مصر أو خارجها فى بلاد العالم أجمع إلا أن نوحد صفوفنا وأن نسلح أنفسنا بالحقوق والوعى والتنظيمات السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية لخلق قوة عالمية شعبية جديدة يكمن دورها الفعال فى التصدى لهذه القوى العالمية الاستعمارية الجديدة وكشف طرقها الحديثة ومابعد الحديثة لتضليل العقول ونهب الموارد .

• • •

عـودة إلى الوطـن (*)

إذا كانت فكرة إخلاء عالمنا الإنسانى من الأسلحة المدمرة فكرة عظيمة حقًا ، فلماذا لا تسبقنا الدول النووية فى نزع سلاحها ؟! وكيف نسبق نحن مع أننا لا نملك أى سلاح نووى ؟

إن الخطر النووى لا يأتى من داخل بلادنا وإنما من الخارج ، لأننا لا نملك السلاح والآخرون فى الخارج هم الذين يملكونه !

رائحة الوطن تعيدنى إلى طفولتى ، فإذا بى أدندن بأغنية أم كلثوم « على بلد المحبوب ودينى » .. أهز رأسى مع اللحن كطفلة السابعة من العمر ، يخفق قلبى بالحنين ، قدمى تدق الأرض بالإيقاع الجميل ، ينتبه الرجل الأمريكى الجالس إلى يمينى فى الطائرة النفاثة المتجهة جنوبًا من نيويورك إلى القاهرة ، يرمقنى باندهاش ، امرأة شعرها الكثيف الأبيض بلون الثلج يوحى بالكهولة . لكن هزات رأسها مع صوت غنائها يكشفان عن الطفولة .

الرجل الفرنسى الجالس إلى يسارى يمد أذنه ليلتقط كلمة الأغنية . ويسألنى الأمريكى فى استطلاع : بأى لغة تغنين ؟ وقلت : بلغة الأم « العربية » . منذ طفولتى أزهو بها . سمعت من الناس أنها إلهية خلقها الله . أما اللغات الأخرى ، ومنها الإنجليزية ، فهى لغات بشرية ، من صنع بنى آدم ، أو الأصح بنى حواء ، وإلا فلماذا يقولون دائمًا لغة الأم ، وليس لغة الأب ؟!

ومددت عنقى كالعنقاء أتباهى بانتمائى إلى الأم حواء ، ولأننى أعرف أكثر من لغة ، لكن الرجل الأمريكى لا يعرف إلا الإنجليزية ، ينطقها بلكنة أمريكية تؤذى آذان الأساتذة الإنجليز ، من ذوى الثقافة العالية ، يقولون عن الأمريكيين إنهم أفسدوا كل

(*) الأهالى ١٩٩٦/٥/١٥ .

شىء من الإبرة إلى الصاروخ ، وأشد ما أفسدوه هو اللغة . لا أحد مثل الإنجليز يكره الأمريكيين . لا يمكن لبريطانيا أن تغفر لأمريكا الإثم الأكبر ، ألا وهو مساعدة حركات التحرير فى أفريقيا وآسيا على الاستقلال ، ليس حبًا فى الاستقلال ، وإنما سعيًا لإحلال أمريكا محل بريطانيا فى إرث الاستعمار الكبير .

الفرنسيون أيضًا يكرهون الأمريكيين ، التنافس على امتلاك المستعمرات هو سبب الصراع ، وتعود فرنسا إلى مستعمراتها القديمة المفقودة ، تحاول استردادها تحت شعارات ثقافية براقة .

كان الرجل الفرنسى يتابع الحوار باهتمام وسألنى بلهجة باريسية : من أى بلد عربى أنت ؟ وقلت : أنا من مصر . اتسعت عينا الرجل الأمريكى متسائلاً : هل مصر من البلاد العربية ؟! وأدركت أنه لا يمكن أن يكون من الأساتذة الأمريكيين ، فهؤلاء (رغم إحلالهم لكلمة « الشرق الأوسط » فى القاموس السياسى محل كلمة « العالم العربى ») ، يعلمون تمامًا أن مصر من البلاد العربية . وقال الفرنسى إنه قادم إلى مصر فى مشروع ثقافى جديد لترجمة أعمال أدبية من العربية إلى الفرنسية . وقال الأمريكى إنه يأتى فى مشروع استثمارى ولشراء إحدى الشركات المصرية المعروضة للبيع .

أصابنى كلامهما بالاكتئاب ، ولست من المصابين بعداوة الأجانب أو « الآخر » ، أو ما يسمى بالإنجليزية « الزينوفوبيا » ولكنى ضد جميع أشكال الاستغلال ، وإن تنكرت فى ثياب ثقافية أو اقتصادية بريئة . وارتطمت عجلات الأرض بأرض المطار ، وانفتح الباب على الوطن ، رأيت الوجوه المشرقة بضوء الشمس ، الأصوات الحانية بالدفء ، اللهجة الناعمة منذ نعومة الأظافر .

حمدلله ع السلامة .. أهلا وسهلاً .. الدنيا نورت !

الفرحة بالعودة إلى أحضان الوطن لا تساويها فرحة . والحزن أيضًا لما يعانيه الوطن لا يساويه حزن . عشت فى جامعة « ديوك » السنوات الأربع الماضية . على الساحل الشرقى الجنوبى للمحيط الأطلنطى ، أستاذة زائرة ، أقوم بتدريس مادة جديدة

اسميتها « الإبداع والتمرد » ، فالإبداع هو القدرة على التمرد منذ الطفولة ضد الظلم أو القهر أو التفرقة بين البشر بسبب الجنس أو العرق أو العقيدة أو الطبقة أو اللون . حقيقة بديهية لا تحتاج إلى عبقرية .. فالعبقرية هى القدرة على الاحتفاظ بالحقائق البديهية أو الأسئلة الطفولية .

فى السابعة من عمرى كنت أسأل أمى كلما تطلعت إلى السماء فى الليل : مين اللى خلق النجوم يا ماما ؟ ربنا يا بنتى . ومين اللى خلق ربنا يا ماما ؟! سؤال بديهى يسأله الأطفال جميعًا ذكورًا وإناثًا ، سودًا وبيضًا ، من الطبقات العليا أو الدنيا ، لا فرق .

يكبر الأطفال ويُفرض عليهم النسيان ، نسيان هذه الأسئلة البديهية البسيطة بساطة الإبداع أو العبقرية ، يولد بها جميع البشر ، يعيش بها الإنسان الطبيعى مبدعًا متجددًا أو يموت بها الإنسان المكبوت عاجزًا متجمدًا .

بعد الغربة تصبح العين حساسة لكل جديد في الوطن تلتقط الجميل والقبيح معًا، تنسى القبيح لتحتفظ بالفرح والتفاؤل . ربما هو التفاؤل الطفولى الساذج لا يفارقني ، أردد لنفسى المثل الشائع : رُبَّ ضارة نافعة ، وأقرأ فى الصحف عن منافع بيع الشركات المصرية ، قرأت فى السنين الماضية كثيرًا فى علم الاقتصاد والقطاع العام والخصخصة والسوق الحرة ، لكن عقلى عاجز عن طرد السؤال الطفولى : لماذا يحدث هذا البيع للشركات فى بلادنا ولا يحدث فى أمريكا ؟ ويشهق الناس كيف تقارنين مصر بأمريكا ؟

كنت أسأل نفسى فى السابعة من عمرى : لماذا تظهر صورة الملك فى الصحف ولا تظهر صورة أمى ؟ ولماذا يكتبون عن الشاعر أحمد شوقى ولا يكتبون عن أبى الشاعر السيد السعداوى ؟ وينقضى أكثر من نصف قرن والأسئلة نفسها تراودنى . لا يقبل عقلى هذه التفرقة بين الأفراد أو الدول بسبب النفوذ أو الفلوس .

وأصابتنى الدهشة الطفولية حين وقعت مصر على اتفاقية نزع السلاح النووى ، وتساءلت : لماذا لم توقع أمريكا أيضًا ؟ وضحك الناس : ياه أمريكا كلها ! دى إسرائيل رفضت التوقيع ! يملأنى الغضب الطفولى الجامح أقوى غضب وأنقى غضب هو غضب

الأطفال . فين العدل يا ناس ؟ عدل إيه ياطفلتى ؟ العالم تديره المصالح والقوة وليس العدل !

ويشتد غضبى حين تسارع ٤٢ دولة إفريقية للتوقيع على نزع السلاح ، ومن قبلهم وقعت بلاد أمريكا اللاتينية ، وبلاد البحر الكاريبى ، ومنطقة جنوب المحيط الهادى ، بمعنى أن معظم بلاد النصف الجنوبى من الكرة الأرضية أصبحت بلادًا غير نووية أو خالية من السلاح النووى ، على حين تظل بلاد الشمال (وعلى رأسها أمريكا وفرنسا وبريطانيا) تحتكر السلاح النووى لنفسها (ومعها إسرائيل بالطبع) ، وقد عرفنا عن خطورة الترسانة النووية الإسرائيلية ومفاعل ديمونة فى صحراء النقب (صحراؤنا) !!

يهدئون غضبى . يربتون على كتفى : معلهش ! إن شاء الله سوف توافق إسرائيل على نزع سلاحها النووى فى المستقبل القريب . إن شاء الله !

فى أمريكا سمعتهم يقولون إن بلادنا متأخرة عن إسرائيل وأن إسرائيل تسبقنا فى كل شىء ، فلماذا لم تسبقنا إسرائيل (كعادتها) فى مثل هذا الأمر العظيم الذى تتشدق بعظمته البلاد النووية الكبرى ؟!

وإذا كانت فكرة إخلاء عالمنا الإنسانى من مثل هذه الأسلحة المدمرة فكرة عظيمة حقًا ، فلماذا لا تسبقنا الدول النووية فى نزع سلاحها ؟! وكيف نسبق نحن مع أننا لا نملك أى سلاح نووى ؟!

إن الخطر النووى لا يأتى من داخل بلادنا وإنما من الخارج ، لأننا لا نملك السلاح، والآخرون فى الخارج هم الذين يملكونه !

أسئلة طفولية بديهية تزن فى عقلي مثل ذبابة عنيدة ، أهشها بيدى لأقرأ صحف الصباح . أتفادى الصفحة الأولى وأخبار السياسة والتناقضات الصارخة . أفتح صفحات الثقافة والأدب ، هناك احتفال كبير بطه حسين ، ومرور ٧٠ عامًا على صدور كتابه (فى الشعر الجاهلى) الندوة يشارك فيها ٣٩ رجلاً من الأساتذة والأدباء والمفكرين ، ليس من بينهم امرأة واحدة ! ألا توجد امرأة مفكرة أو أديبة تصلح للمشاركة فى ندوة عن طه حسين ؟!

وأفتح مجلة أدبية ، منذ أكثر من شهرين أرسلت إليها نسخة من كتابي الأخير «أوراقى .. حياتى » لكن مثل هذا العمل الأدبى ليس له مساحة فى تلك المجلة أو غيرها من المجلات الأدبية ، فالمساحة كلها يشغلها الرجال فوق الستين أو الشابات الأديبات تحت الثلاثين أو غير الأديبات ، أرى صورهن بشعورهن الطويلة المرسلة ، وعيونهن المسدلة الجفون كالقطط المغمضة ، وتحت كل صورة خبر أدبى أو غير أدبى: « عادت فلانة من رحلتها الباريسية ، حيث زارت مصانع المكياج الأنثوى الحديث » ، أو « وقعت فلانة وهى تتزحلق على جليد سويسرا » ، أو « انخطبت فلانة بعد قصة حب».. إلخ .

وسألت الناس عن سبب هذه الظاهرة ، فقالوا : إن معظم رؤساء تحرير المجلات والصحف فى مصر وكذلك مالكى الصفحات الأدبية أو النقد الأدبى ، معظمهم رجال تجاوزوا الستين من العمر وأكثر ، وهم بالطبيعة ينجذبون إلى الشباب بحكم مقاومة الفناء .

ألهذا السبب يتم تجاهل الأديبات أو المفكرات أو الأستاذات اللائى تجاوزن الأربعين أو الخمسين ، فما بال من تجاوزت الستين من العمر ؟!

• • •

على ساحل المحيط الأطلنطى كنت أرى الرجال العجائز فوق السبعين يتطلعون إلى الفتيات الشابات ، تنجذب عيونهم إلي الأجساد العارية داخل البيكينى ، لكن عيون الفتيات تنجذب إلي جيوب هؤلاء الرجال أكثر مما تنجذب إلي أجسادهم أو وجوههم . لا يفيق الرجل من الوهم إلا عند الإفلاس أو ضياع الفلوس والحب معًا .

ربما هو توفيق الحكيم الذى قال ما معناه : إن المرأة المفكرة لا يمكن أن تكون شابة جميلة ، والشابة الجميلة لا يمكن أن تكون مفكرة .

هذه الفكرة الطبقية الأبوية تسود العالم منذ نشوء العبودية وطرد النساء من مجالات السياسة أو الفكر ، وكانت المرأة فى الحضارات القديمة السابقة على النظام العبودى هى إلهة العقل أو المعرفة أو الذكاء . فى مصر القديمة كانت « إيزيس » إلهة

المعرفة ، وفى اليونان كانت « أثينا » إلهة الحكمة ، وفى العراق كانت « نيدابا » أول من اكتشفت الحروف والكتابة وأمنا « حواء » ألم تسبق زوجها آدم إلى شجرة المعرفة ؟!

ولماذا نذهب بعيدًا ، وفى حاضرنا نماذج لنساء مقاتلات شجاعات ومفكرات عظيمات فى بلاد العالم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً . التقيت بواحدة منهن في باريس فى مارس الماضى . إنها امرأة إيرانية مسلمة استطاعت بعقلها الحكيم وقيادتها الرشيدة أن تصبح رئيسة إيران المنتخبة لتولي فترة الحكم الانتقالى بعد سقوط النظام الحالى فى إيران . اسمها « مريم رجوى » لا تستخدم الماكياج الأنثوى الحديث ، ولا تسدل جفونها كالقطط المغمضة . ولكنها قائدة حركة المقاومة الإيرانية من الرجال والنساء والتى قدمت مائة ألف شهيد منذ عهد الشاه إلى عهد الخمينى .

بدت لى كالحلم الطفولى ، وأحلم أنها جلست على العرش مكانه . وها هى امرأة من عمر أمى حينئذ (٤٢ عامًا) قد انتخبت لتجلس مكان الخمينى . ربما لهذا السبب لا يفارقنى التفاؤل ، ولا تغيب عن عقلى الأسئلة الطفولية أو الحقائق البديهية من نوع : « لا يقهر القوة إلا القوة » .

• • •

المواطنون سواء في الظلم(*)

يذكرني قانون الصحافة الجديد بقانون العيب الذى دخلنا به السجون فى سبتمبر ١٩٨١ .

تذكرني كلمة « تكدير » و « إزدراء » فى قانون الصحافة الجديد بكلمات من نوع « العيب » والتقاليد العائلية وأخلاق القرية ، والتى دخلنا بها السجون منذ أربعة عشر عامًا ثم تغير العهد وخرجنا من السجون أبرياء وبريئات بلا ذنب ولا جريمة ولا يحزنون .

قضينا فى السجن ثلاثة شهور ثم خرجنا دون تعويض أدبى أو مادى عن الظلم الذى وقع علينا .

وهذا هو الحبس الاحتياطى الذى يتم جزافًا وتعسفًا والذى يدافع عنه المسئولون فى مجلس الشعب اليوم تحت اسم المساواة والعدل . لأن توزيع الظلم على المواطنين بالتساوى هو العدل .

والمفروض رفع الظلم وإلغاؤه وليس تعميمه .

لقد تم اكتشاف مادة فى الدستور (رقم ٤٠) تنص على أن المواطنين متساوون أمام القانون .

لهذا يجب تطبيق مبدأ الحبس الاحتياطى التعسفى على الجميع دون تفرقة بين حملة الأقلام وحملة المطاوى قرن غزال أو الجنازير .

وأنا بالطبع مع الدستور وخاصة هذه المادة التى تساوى بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة أو العقيدة .. إلخ وأطالب بتطبيق هذه المادة على الجميع فعلاً وليس من يكتبون فى الصحافة فقط .

(*) جريدة العربى ١٩٩٥/٦/١٣ .

المفروض أنه كلما زادت السلطة زادت المسئولية والمحاسبة والعقوبة على الأخطاء أو المعلومات الخاطئة المنشورة على الناس .

ونحن نعرف أن الصحافة ليست إلا السلطة الرابعة ، وهناك ثلاث سلطات أخرى وهى السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، والمفروض تطبيق الحبس الاحتياطى على هذه السلطات الثلاث قبل تطبيقها على سلطة الصحافة .

المفروض أيضًا تعديل جميع القوانين فى مصر لأنها كلها غير دستورية ولا تنطبق عليها المادة ٤٠ التى تساوى بين المواطنين . فهل يساوى قانون الزواج والطلاق بين المواطنين بصرف النظر عن نوع الجنس ؟!

وهل يساوى قانون الجنسية بين الأب والأم فى منح الجنسية المصرية لأطفالهم ؟

لماذا لا يدافع المسئولون فى مجلس الشعب عن هذه المساواة الدستورية لجميع المواطنين وليس فقط لفئة واحدة من الناس ؟؟

المفروض أن القانون خلق ليحمى الشعب ضد أصحاب السلطة وليس العكس ، وأنه كلما زادت السلطة زادت المسئولية والمساءلة وقلت الحماية والحصانة وليس العكس .

منطق معكوس يؤكد لنا أن العدالة فى بلادنا عمياء معصوبة العينين .

وأن القوة هى التى تغير وتعدل القوانين وليس الحق .

إن قضية الصحفيين أصبحت اليوم هى قضية الساعة فالصحافة لها صوت عال وهى السلطة الرابعة فى الدولة وهم قادرون على الدفاع عن حقوقهم بما لهم من مساحات كبيرة فى الصحف .

لكن هناك فئات أخرى مظلومة فى بلادنا ومنها « النساء » والزوجات والأمهات والأطفال فى قوانين الأسرة والجنسية والعقوبات . إلا أن هذه الفئات « النساء والأطفال » مازالوا بلا حول ولا قوة فى هذه الساحة التى تنتصر فيها القوة على الحق دائمًا .

● ● ●

بين الطب والأدب(*)

شمس فبراير هنا فى ديرهام تذكرنى بشمس مصر والهند في الشتاء . قوية دافئة قادرة على تبديد السحب . شمس الجنوب كما يسمونها هنا . لكن السحب تتجمع من وراء نافذتى الزجاجية ، خلف أطراف الأشجار فى الغابة القريبة ، يسمونها غابة « ديوك » ، ويدوى صوت الرعد والبرق ، ويهطل المطر سيولاً تشبه سيول إثيوبيا وسرى لانكا ، والغابات الاستوائية ، ثم تسطع الشمس من جديد ، قوية دافئة . كم أحب القوة مع الدفء . والشمس أحبها كأنما هى أمى . أعانق شعاعها الممدود إلىَّ عبر حواجز الزجاج والشجر .

أمامى فوق الشاشة أرى بيل كلينتون ، واقفًا فى اجتماع شعبى فى مدينة ديترويت . إنه يعقد هذه الاجتماعات الشعبية مع الناس ليظل على اتصال بناخبيه ، وأسمعه يقول : أدركت بعد أول ثلاثة أسابيع فقط من العمل فى مكتبى بالبيت الأبيض أن من السهل جدًا أن ينعزل رئيس الولايات المتحدة عن الناس الذين انتخبوه . إنه يصبح أسيرًا لبيروقراطية لا نهائية من الأوراق والاجتماعات واللجان . سوف أعلن حربًا على هذه البيروقراطية ، وسوف أخفض عدد اللجان والوظائف داخل البيت الأبيض . يمكن إلغاء – على الأقل – نصف هذه اللجان والوظائف دون أن يؤثر ذلك على العمل ، بل لعله يسرع بإنجاز العمل .

وقالت لى ڤينيسا إحدى طالباتى فى الفصل : يحاول بيل كلينتون تخفيض الإنفاق الحكومى وإلغاء حوالى ١٠٠,٠٠ وظيفة بيروقراطية فى البيت الأبيض. وإنه مشغول بالخطة الاقتصادية التى سوف يعرضها على الكونجرس يوم ١٧ فبراير ١٩٩٣ .

فوق الشاشة تقدمت امرأة بيضاء ترتدى معطفًا من الفرو وسألت بيل كلينتون : هل ستزيد نسبة الضرائب علينا نحن الذين يطلق عليهم الطبقة الوسطى ؟! وقال

(*) فبراير ١٩٩٣ .

بيل كلينتون : ربما ، وبادرته المرأة غاضبة : لماذا ؟ ألم تعدنا فى حملتك الانتخابية أنك لن تزيد الضرائب ؟! قال : نعم ، ولكنى عرفت أن الدين القومى يزيد بمقدار ٥٠ بليون عما كنت أعرفه أثناء الانتخابات . على الجميع أن يتحملوا أعباء الأزمة الاقتصادية الناتجة عن سياسة الحزب الجمهورى السابقة . علينا أن نوزع العبء على القادرين من الطبقة الوسطى ، وعلى الشركات الصناعية الكبرى أن تدفع ضرائب أكثر لأنها تكسب أكثر . إنها تدفع الآن ٣٤٪ ضرائب فقط ، وربما تزيد قريبًا إلى ٣٦٪ ، لابد أن يدفع الأثرياء ويتحملوا عبئًا أكثر من الفقراء .

وقالت فينيسا : يحاول بيل كلينتون عن طريق هذه الاجتماعات الشعبية أن يضغط على الكونجرس من أجل الموافقة على زيادة الضرائب وخفض الإنفاق الحكومى والاستهلاك .

قلت : أعتقد أن سياسته الداخلية أفضل من سياسة بوش السابقة ، خاصة بالنسبة للفقراء والنساء .

قالت : نعم ، لكن سياسته الخارجية أسوأ .

هناك تناقض بين السياسة الداخلية والخارجية ، لأنه ينظر إلى مصالح الأمريكيين الذين انتخبوه فقط !

وسمعت صوت أحد الشباب يسأله فوق الشاشة : كيف تعلن عن مبادرة سلام فى يوغوسلافيا ؟ هذه المبادرة لا تعنى إلا أنك مستعد للتفاوض مع مجرم الحرب فى الصرب ! لماذا توافق على مكافأة مجرمى الحرب من الصرب فى حين أنك رفضت من قبل صدام حسين ووجهت إليه الضربات الصاعقة ؟!

ينقطع الإرسال التليفزيونى وتظهر سيارة أمريكية طويلة ترقص فوقها امرأة فى يدها كأس من النبيذ . لا أعرف إن كان الإعلان عن نوع جديد من النبيذ أو نوع جديد من السيارات . وتضحك هايدى وتقول : أو نوع جديد من المايوهات . (لاحظت أن المرأة كانت ترتدى مايوه من قطعتين). ويقول « كريس » أحد الطلاب فى الفصل وهو أيضًا طالب بكلية الطب ، (ويدرس إلى جوار الطب الموسيقى والأدب والإبداع) ،

أنا أفضل بيل كلينتون عن چورچ بوش ، إنه شاب على الأقل ، يبدو لى أقل خداعًا من غيره ، لكنه على الأقل أول رئيس أمريكى يُعين امرأة وزيرة للعدل .

قلت له : فى مصر منذ ستة آلاف سنة كان عندنا فى مصر وزيرة للعدل ورئيسة للقضاه اسمها « معات » (حاولت أن أتذكر أمجاد الماضى البعيد لأنسى أننا لا يوجد عندنا قاضية واحدة اليوم) .

وانتهت فترة الإعلانات ، وظهر بيل كلينتون يتحاور مرة أخرى مع الناس فى اجتماعاته الشعبية الجديدة ، دار الحديث حول مشاكل الصحة والأمراض . سألته طفلة فى التاسعة من عمرها بصوت واضح جرىء : كيف تضمن لى كرئيس للولايات المتحدة صحة جيدة بلا أمراض فى حين أن أبى وأمى عاطلين فقيرين ؟! صفق لها الناس بحماس . وصفق لها أيضًا بيل كلينتون ، وقال : سأجعل التأمين الصحى فى أمريكا يغطى جميع الناس .

لكن « كريس » طالب الطب والأدب قال لى : لا ، ليس هذا هو الحل . الحل الوحيد للقضاء على الأمراض وعلى رأسها مرض « الإيدز » أو « الدرن » (الذي يتزايد انتشاره مؤخرًا بين الطبقات الفقيرة) هو أن تعطى الحكومة مزيدًا من الاهتمام والإمكانيات للطب الوقائى وليس الطب العلاجى . الطب الوقائى يقضى على أسباب المرض فى المجتمع ، لكن الطب العلاجى يعالج المرض فقط ولا يقضى على الأسباب.

ذكرنى كلام « كريس » بالسنين الأولى حين تخرجت فى كلية الطب ، وشعرت أن الطب الوقائى هو الأساس وليس الطب العلاجى . لكنى كنت أرى أساتذة الطب العلاجى يركبون السيارات الفاخرة ، تبدو عليهم علامات الثراء والسلطة . أما أطباء الطب الوقائى فكنت أراهم يتشعبطون فى الترام (الذى كان يسير فى شارع القصر العينى) وتبدو عليهم علامات الفقر وشحوب الوجه .

وانفجرنا بالضحك . وقال « كريس » : تمامًا ، الأمر هنا هكذا حتى اليوم ، وأنا سوف أتخصص فى الطب الوقائى رغم كل شىء !

وضحكت ڤينيسا قائلة : « كريس » غاوى فقر . وقال « كريس » : لا ، ولكنى أود أن أبذل جهدًا لتغيير مهنة الطب هنا فى أمريكا ، وأن تتحول إمكانيات البحوث الطبية

من المجال العلاجى إلى المجال الوقائى . هذه معركة إذا لم نخضها نحن الشباب فمَنْ يخوضها ؟!

تذكرت نفسى حين كنت شابة ، وحين بدأت أنشىء مع زملائى من الأطباء جمعية للطب الوقائى والثقافة الصحية ، وإصدار مجلة الصحة ، وعمل مشروعات ثقافية للفلاحين والفلاحات . هل كنت أنفخ فى قربة مخرومة ؟! أجل ، من الأفضل أن أنسى سنين الشباب الأولى (وكونى طبيبة) لأتحدث عن الأدب .

كافير بوى فى أمريكا

إنه الروائى الأفريقى الأمريكى « مارك ماثابان » اسم ربما لا يعرفه أحد فى بلادنا . لكنه أصدر ثلاث روايات أصبح لها دوى فى الولايات المتحدة . جاء إلى هنا ، إلى جامعة « ديوك » يوم ١١ فبراير ١٩٩٣ ليلقى محاضرة عن العنصرية في الولايات المتحدة . إن الروائيين فى أمريكا يُعتبرون ضمن العلماء أو الأساتذة الذين يمكن لهم أن يلقوا المحاضرات فى الجامعات (وإن لم يحملوا أية شهادات) . ولد مارك ماثبان فى قرية فقيرة قرب جوهانسبرج في جنوب أفريقيا . كان يلعب بالكرة الشراب في الشارع مع الأطفال السود الفقراء . ثم بدأ يلعب بكرة التنس . ثم أصبح بطلاً رياضيًا ، ثم هجر الرياضة ليكتب الروايات . وترك الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا وجاء إلي أمريكا . أصبح فى سنين قليلة من ألمع الروائيين هنا . أول رواياته بعنوان « كافير بوى» (Kaffir Boy) تحكى عن حياته الأولى فى جنوب أفريقيا . روايته الثانية جاءت بعنوان : كافير بوى فى أمريكا . تحكى عن تجربته فى أمريكا كرجل أسود . ويقول مارك ماثابان : مشكلة البيض والسود فى أمريكا أن كلاً منهم يتكلم عن الآخر وليس مع الآخر . إن أحداث لوس أنجلوس الأخيرة تدل على أن العنصرية فى أمريكا لاتزال موجودة . ربما أشد من العنصرية التى عرفتها فى جنوب أفريقيا . هناك حكم عنصرى واضح المعالم . لكن العنصرية هنا تتخفى (مثل النظام العالمى الجديد) تحت شعار براق من الإنسانية والمساواة وحقوق الإنسان . إن البطل الأسود الذي أثر فى حياتى ليس مارتن لوثر كينج وليس مالكوم إكس ، ولكنه بطل التنس الأسود « أرثر آشى » الذى

مات منذ أسبوع واحد ، لكنه ترك بصماته على حياتى وغيّرنى إلى إنسان أعرف حقوقى وأدافع عنها .

ذكريات لها رائحة البنزين

أهدتنى « إنارا » واحدة من طالباتى فى قسم المرأة والإبداع كتابًا جديدًا لمؤلف اسمه « ديفيد وونارونير الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية . قالت لى إنارا : قرأت الكتاب أربع مرات وبكيت كثيرًا وأنا أقرأه . سيرة حياة رجل فقير يتعرض للاغتصاب وهو صبى فى الخامسة عشر . يعتدى عليه رجل كبير . يعيش حياة مفعمة بالألم . يتعرض صديق عمره لمرض الإيدز . يراقبه وهو يموت يومًا وراء يوم . يقول المؤلف فى نهاية الكتاب : الحب مثل الألم مثل القســوة يربط أحداث الحياة . لم أندم فى حياتى على شىء سوى أننى ظللت صامتًا سنينًا طويلة . لم أنطق إلا مؤخرًا عن طريق كتابة هذه السيرة الذاتية . أجل ، الصمت هو الموت ، وقد أعادت إلى الكتابة الحياة .

• • •

سمعة مصر(*)

بدلاً من أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التى تسىء إلى سمعة بلادنا فى الخارج ، فإننا نقدم كبوش فداء من الأدباء أو الأديبات أو المخرجين السينمائيين أو المسرحيين أو أصحاب الدراسات العلمية .

المعروف فى جميع أنحاء العالم أن الأعمال العلمية أو الأدبية ذات القيمة الإنسانية هى الأعمال الناقدة الكاشفة عن أمراض هذا المجتمع بهدف العلاج ، وإلا فلماذا يكتب الأديب أو الأديبة ، وعمَّ يبحث الباحث العلمى إذا كان كل شىء على ما يرام وليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟

وأعظم الأعمال الباقية فى التاريخ الإنسانى هى أعمال هؤلاء الأدباء والأديبات الذين أمسكوا القلم وكأنه مشرط الجراح ، وكشفوا عن عيوب مجتمعاتهم أو مشاكلها من فقر أو ظلم أو استبداد أو استغلال داخلى أو خارجى .

أعظم أعمال « طه حسين » هى « الأيام » التى كشف فيها عن عبودية الفقر والجهل فى القرية التى عاش فيها وأعظم أعمال « ديستيوفيسكى » هى « الجريمة والعقاب » التى جعلت عيون الشعب الروسى تتفتح على الأسباب الحقيقية للجريمة وكيف كان الضحية يعاقب والجانى يطلق سراحه . وأعظم أعمال « يوسف إدريس » هى « الحرام» التى كشف فيها عن أن الحرام الحقيقى هو الظلم والفقر واستعباد النساء . وأعظم أعمال « فرجينيا وولف » هى « غرفة خاصة » التى أسقطت بها الزيف الاجتماعى الإنجليزى ، والقيم الأخلاقية المزدوجة التى عرفت « بالأخلاق الفيكتورية البيورتيانية » . وأعظم أعمال « يوسف شاهين » هى فيلم « باب الحديد » الذى كشف فيه عن الفساد الاجتماعى المتخفى تحت ستارة شفافة من النفاق والكذب ، وأعظم أعمال الشيخ على عبد الرازق هو أصول الحكم فى الإسلام ، وغير ذلك من الأعمال الإبداعية الناقدة للفكر السائد .

(*) نشر بجريدة الأهرام - ١٩٩٢/٦/١٨ .

إن العلماء أو الإدباء والأديبات أو الفنانين الحقيقيين هم الذين يملكون هذه الحاسة النقدية والشجاعة الأدبية ، وبالتالى هم أعظم السفراء خارج بلادهم ، لأن العالم كله يقدر أعمالهم ، والدليل على ذلك هو نجاح أعمالهم واكتسابها شهرة عالمية.

إلا أن هناك بعض الناس الذين لا يعملون ويضيرهم أن يعمل الآخرون ، أو الذين حاولوا ترويج أعمالهم عالميًا بمثل ماروجوها محليًا فكان نصيبهم الفشل . هؤلاء لا يكفون عن تجريح الآخرين ، وينهالون عليهم بأقلامهم يشوهون صورتهم ، ويدعون أن أفلامهم أو رواياتهم أو أعمالهم الأدبية أو العلمية لم تحظ بهذا النجاح العالمى إلا لأنها تسىء إلى سمعة مصر !

وقد آن الأوان لكشف هذا المنطق المعكوس . فإن أعمال « ديستيوفيسكى » لم تسىء إلى سمعة روسيا ، بل إن جميع الذين أساءوا إلى روسيا قد اندثروا وماتوا ، وبقى اسم « ديستيوفيسكى » فى التاريخ يفخر به الشعب الروسى حتى اليوم. «وفيرجينيا وولف » ماتت منتحرة احتجاجًا على كل من أساءوا إليها ومات كل من أساء إليها ونسيهم الشعب الإنجليزى ، لكن اسم « فيرجينيا وولف » باق فى التاريخ يفخر به الإنجليز . ورغم حملات الإعلام ضد طه حسين أو يوسف إدريس أو الشيخ على عبد الرازق أو غيرهم فإن أسماءهم تبقى ولا تنسى ، على حين يندثر فى التاريخ أسماء من أساءوا إليهم .

إن الذى يسىء إلى سمعة أى بلد فى الخارج إنما هو موقف هذه البلد من القضايا الكبرى مثل قضية الحرية أو العدالة أو الديموقراطية .

إن الذى يسىء إلى سمعة البلد هو أن يعيش هذا البلد عالة على غيره لا يملك طعامه رغم موارده الطبيعية الثرية .

أما أكثر ما يسىء إلى العرب في الخارج فهم هؤلاء الرجال الذين يسيرون فى شوارع لندن أو باريس يحملقون فى النساء الشقراوات على حين تمشى نساؤهم خلفهم داخل خيمة سوداء لا يظهر منهم إلا عين واحدة أو نصف عين .

• • •

مأزق الصحافة الرسمية فى مصر(*)

هذا المقال لم يشأ أحد أن ينشره فى مصر . أغلقت جميع المؤسسات الصحفية ابوابها أمام أى نقد موضوعى للصحافة المصرية . إنها صحافة رسمية فى جوهرها خاضعة لسلطة الدولة إلا تلك الصحف التى تملكها التيارات الدينية المتطرفة ، أو مجموعات يمينية أو يسارية تنشر لأعضائها أساسًا .

وفى ٣ ماس ١٩٩٠ نشر صحفى فى عموده اليومى بجريدة الأهرام مقالاً تحت عنوان : سلمان رشدى جديد فى مصر - اتهم فيه أحد الكتاب (علاء حامد) بالإلحاد، لأنه نشر رواية (مسافة فى عقل رجل) تسخر من الأنبياء والأديان وطلب تقديمه للنيابة العامة .

أصابنى غضب شديد ، ولم أكن أعرف الكاتب ولا الرواية ، وتصورت أن كثيرًا من الأقلام سوف تكتب ضد هذا الصحفى بالأهرام وضد تقديم الكاتب للنيابة لكنى لم أقرأ شيئًا يذكر . فأرسلت ردًا إلى جريدة الأهرام قلت فيه إن عمل الصحفى هو الكتابة وليس استدعاء النيابة للكتاب . ولم تنشر الجريدة مقالى بالطبع ، فقد دأبت هذه الجريدة وغيرها من الصحف على تجاهل المقالات الناقدة لكبار الصحفيين المعينين فيها بواسطة الدولة .

بعد ذلك ببضعة أسابيع فوجئت باستدعاء من محكمة أمن الدولة - طوارىء - بمصر القديمة - تطلبنى لأدلى بشهادتى فى قضية مرفوعة ضد هذا المؤلف بسبب هذه الرواية . وكان المؤلف هو الذى طلب شهادتى ، وأرسل إلىَّ الرواية ، فقرأتها ، ووجدت أنها فى مضمونها ناقدة للأفكار والقصص أو الأساطير الواردة فى الكتب الدينية ، لكن الأسلوب خال من الجاذبية الأدبية حسب ذوقى الخاص ، لكنى رأيت أن

(*) القاهرة - ١٩٩٢/١/٢ .

من حق المؤلف أن يكتب ما يشاء على شكل رواية أو شعر أو أى عمل إبداعى آخر ، وعلى الآخرين المعارضين أن يردوا عليه بكتاب آخر ، ولهذا ذهبت إلى المحكمة وشهدت فى صف المؤلف وحرية الفكر والتعبير ، وقلت إن الأعمال الأدبية يجب الا يحكم عليها بالمقاييس الدينية أو الأخلاقية السائدة ، وليس من حق مؤسسة الأزهر أن تتدخل فى مجال الفنون أو الإبداعات الأدبية .

ثم انقضى عامان ولم أسمع شيئًا ، حتى فوجئت بهذه الضجة فى الصحافة المصرية ، فقد تكلم أخيرًا كبار الصحفيين فى الجرائد والمجلات الرسمية ، واعترضوا على قرار المحكمة بحبس المؤلف والناشر ٨ سنوات ، ودافعوا عن حرية التعبير ، وطلبوا من رئيس الجمهورية التدخل لإلغاء القرار حفاظًا على صورة الدولة المصرية فى الخارج كدولة ديمقراطية .

وقد اكتشفت أن هذا الحماس من قبل هؤلاء الصحفيين الرسميين لم يأت إلا بعد أن أذيع خبر حبس الكاتب والناشر في الإذاعة البريطانية وانتقل عبر الموجات الأثيرية إلى العالم الواسع .

وكان المفروض أن تحدث هذه الضجة الصحفية منذ عامين ويتصدى كل الذين يكتبون الآن لزميلهم الصحفى بالأهرام الذى طلب استدعاء النيابة للمؤلف وحكم عليه بالإلحاد ، لكن هؤلاء جميعًا صمتوا ، وهذا الصمت نوع من التضامن غير المعلن مع زميلهم الصحفى الذى يملك عمودًا يوميًا في جريدة كبرى هى الأهرام ، والتخلى عن مسئوليتهم تجاه حرية التعبير وتجاه روائى غير معروف بلا روابط مع السلطة أو الشلل الصحفية الرسمية .

لكن الصحافة فى بلادنا أصبحت لا تقل قسوة وقهرًا عن محاكم أمن الدولة طوارىء – وغابت عنها حقوق الإنسان الأساسية حتى فى دفاعها عن هذه الحقوق . ذلك أنه دفاع شكلى ليس غايته حماية الإنسان وتأكيد حقوقه ، بقدر ما هو دفاع عن الدولة وصورتها الديمقراطية فى الخارج ، وتدعيم موقع الصحافة وهؤلاء الصحفيين الرسميين فى علاقتهم بالسلطة القائمة .

لهذا السبب ساد الصمت عامين كاملين ، وكان الجميع يعرفون أن هذا المؤلف يتعرض للقهر فى المحاكم بل اعتقل فترة من الوقت دون أن يتكلم أحد .

وقد ساد الصمت أيضًا فى الصحافة الرسمية المصرية حين صدر قرار حكومي غير قانونى بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية فى مصر ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها « نساء الإسلام » .

وبدأت صحف التيارات الدينية المتطرفة تؤيد قرار الحكومة وتتهم جمعيتنا بالإلحاد ، وأرسلت ردودًا إلى هذه الصحف فلم تنشر ، وأرسلت مقالات إلى جميع الصحف الرسمية فى مصر . فلم ينشر شيء . حتى خبر إغلاق الجمعية لم تنشره جريدة الأهرام ، أما جريدة الأخبار فلم تنشر إلا بيانًا حكوميًا كاذبًا ضد الجمعية .

ودافع عن حق الجمعية وعارض قرار الحكومة قلة قليلة من الصحفيين وصمت الباقون جميعًا .

إن الصحافة الرسمية فى بلادنا تلعب لعبة مزدوجة خطيرة . فهى تخشى التيارات الدينية المتطرفة المتصاعدة ، ولذلك تساندها أو تجاملها على حساب حرية الفكر والتعبير ، وهى فى الوقت نفسه تريد الحفاظ علي موقعها من السلطة القائمة وصورتها التى ترسمها لنفسها عن الديموقراطية وحرية التعبير والفكر .

إنه مأزق خطير تعيش فيه الصحافة الرسمية المصرية ، وهذا هو سر تناقضها الواضح ، أو ترددها ما بين الصمت الكامل (أو التضامن الخفى) على إهدار حقوق الإنسان وحرية التعبير ، ثم هذه الهبات المفاجئة المؤقتة من الصراخ دفاعًا عن حرية التعبير وحقوق الإنسان . وهى هبات كلامية فحسب دون تحمل أى مسئولية ، ومن هنا ادعاء معظمهم أنهم لم يقرأوا الرواية ، أو أنها رواية تافهة هزيلة ، وأنهم إنما يدافعون فقط عن حرية التعبير بشكل عام .

وهم بذلك يعفون أنفسهم من التعرض لمضمون الرواية الذي ينقد الأديان ، وبصرف النظرعن قيمة الرواية الأدبية فإن مضمونها يستحق المناقشة ، لكنهم يخافون على أنفسهم من أى اتهام بواسطة التيارات الدينية المتطرفة .

وسوف تظل الصحافة الرسمية المصرية فى هذا المأزق لا تعرف الخروج منه (بسبب الخوف والتمسك بالسلطة) كما فعلت الصحافة الرسمية فى معظم البلاد العربية إلى أن تتولى التيارات الدينية المتطرفة الحكم بالانتخابات أو بغير الانتخابات .

• • •

أزمة الخليج والاستعمار(*)

كشفت أزمة الخليج العربى عن وجه الاستعمار القبيح . خلعت الولايات المتحدة الأمريكية كل الأقنعة الأيديولوچية التى كانت ترتديها فى غزوها العسكرى هنا وهناك وأرسلت جيوشها وطائراتها إلى الخليج العربى لتحارب من أجل بترولها ، نعم بترولها ، هكذا تعتبر أمريكا بترول العرب هو بترولها .

وكشفت البلاد الاستعمارية الأخرى مثل بريطانيا وفرنسا النقاب عن وجهها أيضًا .

مسمار جحا فى الوطن العربى هو بترول السعودية . والكويت ! مَنْ يكسب مِنْ بترول العرب ؟ إنها أمريكا وأوروبا واليابان . يعانى الملايين فى الوطن العربي من الفقر والجوع على حين تتدفق عائدات البترول في بنوك الغرب وتثرى ثراءً فاحشًا قلة قليلة يعيشون فى باريس ونيويورك ولندن والرياض والكويت .

وانتظرنا من اجتماع القمة العربية بالقاهر ة يوم الجمعة ١٩٩٠/٨/١٠ أن يشجب التدخل الأمريكى العسكرى فى الخليج بمثل ما يشجب التدخل العسكرى العراقى فى الكويت . لكن قرار القمة العربية لم يشجب إلا حاكم العراق ، أما حاكم أمريكا فقد صمت عنه الجميع .

كان المنطقى أن يطلب الرؤساء والملوك العرب خروج القوات الأجنبية الاستعمارية من الخليج وأن يتولى العرب حل مشكلة العراق والكويت ، بطريقتهم ومن أجل مصالح البلدين وليس من أجل مصالح أمريكا .

لكن هذا لم يحدث !

ويالها من إهانة لنا جميعًا أن يصمت الرؤساء والملوك العرب عن إدانة التدخل الأمريكى فى شئوننا المحلية والإقليمية .

(*) القاهرة - ١٩٩٢/١/٢ .

الرأى السائد فى الصحف هو رأى الرؤساء والملوك العرب وليس الآراء الأخرى . ليس مِنْ حق أحد أن يدين أمريكا ، الصحف ترحب بإدانة العراق فَحسب ، وتتسابق الأقلام لإدانة صدام حسين وحده .

وبالرغم من أن بعض المفكرين الأمريكيين ينقدون التدخل الأمريكى فى الخليج العربى ، وتصل آراؤهم إلي الصحف ووسائل الإعلام ، لكن المفكرين العرب الذين ينقدون التدخل الأمريكى لايجدون وسيلة للتعبير عن رأيهم المخالف .

إن القرار الصادر عن القمة العربية فى رأيى قرار غير صائب ، لأنه لم يطالب بإجلاء القوات الأمريكية من الخليج العربى قبل التفاوض لحل مشكلة العراق والكويت ، وهو غير صائب أيضًا لأنه وافق على إرسال قوات مسلحة عربية إلى السعودية دون أن يصر على أن تخرج القوات الأمريكية منها أولاً ، وإلا فسوف تعمل القوات الأمريكية مع القوات العربية لضرب العراق ، وهذه حرب كلها فى صالح أمريكا ، وإلا فلماذا تحارب أمريكا برجالها وعتادها فى الخليج العربى ؟!

ومَنْ هم هؤلاء الجنود العرب الذين سيحاربون مع أمريكا ضد إخوانهم العراقيين ؟!

إن العاملين الأتراك فى القواعد الأمريكية بالأراضى التركية أضربوا عن العمل ورفضوا أن يحاربوا مع أمريكا ضد إخوانهم فى العراق . فهل يضرب الجنود العرب عن العمل إذا فُرض عليهم السفر إلى الخليج العربى للحرب مع الجنود الأمريكيين ضد العراق ؟!

إن أمريكا تدعى أنها تحارب لأنها ترفض استيلاء دولة على دولة أخري بالقوة المسلحة . فلماذا لا تحارب أمريكا بعتادها ورجالها ضد إسرائيل لتحرر فلسطين والأرض المحتلة بمثل ماتريد تحرير الكويت ؟!

كانت فرصة أن تخرج القمة العربية يوم ١٩٩٠/٨/١٠ بقرار قوى موَّحد يكشف النقاب عن وجه الاستعمار الأجنبى فى عالمنا العربى ، يرفع رؤوسنا من المهانة والإذلال ، وبالتالى يصبح قادرًا على حل مشكلة العراق والكويت بما فيه صالح البلدين .

لكن هذا الوضع وهذا القرار الذى جاء عن القمة لم يؤد إلا إلى ضعف الأمة العربية وخوفها من بطش أمريكا ، وخضوعها لتهديداتها ، وكشف أيضًا عن أن أزمة الوطن العربى هى هذه الدويلات النفطية التى هى محميات أمريكية فى الواقع والحقيقة .

أنا لم أسافر إلى العراق منذ عشرين عامًا ولم أمدح أبدًا حاكم العراق في أى يوم ولا أى حاكم عربى آخر ، ولست مع القوة المسلحة لحل أى مشكلة .

لكنى أرى أن قرار القمة العربية جاء مخيبًا للآمال والشعور الوطنى العربى العام ، وكشف عن أن الشعوب العربية رغم صمتها وهوانها وعدم قدرتها على الإضراب مثل عمال تركيا ، لكنهم أكثر عروبة وأكثر شجاعة من ملوكهم وحكامهم وكتابهم ، على الأقل بسبب إحساسهم بالغضب والاستياء رغم تهليل الصحف والأبواق !

• • •

محاكمة جورج بوش (*)

كنت مستغرقة فى روايتى الجديدة أسبح مع شخصياتها فى عوالم من الخيال لا تخطر ببال الكثيرين حين أخرجنى جورج بوش بالقوة المسلحة من عالم الفن العميق المدهش ، إلى عالم السياسة والكذب والمؤامرات . كان ذلك فى الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٩١ حين أصدر جورج بوش قراره المنفرد (دون عرضه على الكونجرس) بإرسال قواته العسكرية إلى الخليج العربي والتى بلغت ٢٠٠ ألف جندى خلال أسابيع قليلة ، وسمعته وهو يفتح شفتيه المتلاشيتين ويعلن بصوته المعدنى أن الأمر ليس إلا للدفاع عن المملكة العربية السعودية ، ولم تكن السعودية قد طلبت منه الدفاع عنها ، أو أنه (كما اتضح فيما بعد) أرغمها على طلب الحماية الأمريكية من خطر العراق .

ومنذ أغسطس ١٩٩٠ حتى اليوم يوليو ١٩٩١ ، أى عشرة شهور كاملة ، وأنا أعيش عالم السياسة الدولية والعربية ، أشهد بعينى أقبح عالم يمكن أن يعيش فيه البشر ، عالم الكذب السياسى والإعلامى الفاضح قد يذهب بعقل الإنسان العاقل إلى ما يشبه الجنون ، وأى جنون ؟!

رأيت فى بغداد يوم ١٠ يناير (قبل الحرب بستة أيام) فتاة عراقية تبصق أمام السفارة الأمريكية فى بغداد ، وتقول لأحد مصورى شبكة التليفزيون الأمريكى « كفى كذبًا » فالعراق يريد الحل السلمى ، لكن جورج بوش يريد الحرب !

ورأيت فى العاصمة عمان الأردنية يوم ١١ يناير شابًا فلسطينيًا يحدث نفسه كالمجانين ويصرخ فى الشارع قائلاً : « ياناس ياهوه إسرائيل تحتل أراضى ثلاثة بلاد عربية ، وتقتل الآلاف منا ، وتحتل فلسطين منذ أربعين عامًا ، ولا يرسلون إليها قوة عسكرية كتلك التى أرسلوها إلى الخليج » ! .

(*) نشر بجريدة الأهالى - ١٩٩١/٧/٣ .

وعدت إلى القاهرة ، وأذهلنى ما رأيته وسمعته وما قرأته فى الصحف .. تهليل ،وتنظيم لقوات جورج بوش العسكرية فى الخليج . كان ذلك فى بداية الحرب ، ولم أطق الحياة فى مصر ، كنت أظن أننى أعيش فى أحدى الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى ملامح الوجوه أصبحت غريبة عنى ، فحملت حقيبتى وسافرت .. كان ذلك أول فبراير ١٩٩١ ..

وحضرت مؤتمرًا نسائيًا عالميًا ضد الحرب في چنيف ، حضرته مندوبات عن أكثر من ٢٦ دولة منها الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندة وبلچيكا وكندا واليابان ، هذه الدول اشتركت فى الحرب بالجيوش المسلحة أو الأموال والمعدات ، لكن النساء المندوبات عنها وقفن فى المؤتمر ضد حكوماتهن .

وكانت أكثرهن هجومًا على چورج بوش هى المندوبة الأمريكية التى بكت فى المؤتمر مع المندوبات العربيات من العراق وفلسطين والأردن والجزائر وتونس وغيرها ، ثم صرخت بصوت عال قائلة : « هذا الچورج بوش يجب أن يقدم للمحاكمة كمجرم حرب » !

وأصدر المؤتمر بالإجماع (فيما عدا المندوبة الإسرائيلية) قرارًا بإدانة الاعتداء الأمريكى المسلح على شعب العراق والمطالبة بسحب القوات الأجنبية جميعها من الخليج وحل الصراع بواسطة الطرق السلمية والمفاوضات .

فى چنيف عاودنى الحنين إلي الوطن فعدت . لكن ما أن قرأت الصحف حتى شعرت بالغربة ، كأنما هؤلاء الكتاب والمحررون ليسوا إلا جنودًا فى حرب الچنرال شوارز كوف وفكرت فى حمل السلاح والانخراط فى حرب ضد هذا الچنرال الأمريكى الشبيه بالدب الأبيض ، والذى سئل عن عدد ضحايا الحرب من المدنيين فى العراق فقال :

هذا العدد لا يهمنى !

سافرت خلال فبراير ومارس ١٩٩١ إلى أكثر من دولة ، وداخل الولايات المتحدة نفسها تحدثت فى أكثر من مدينة منها نيويورك وواشنطن وبوسطن وبيرلنجتن وعدد من الجامعات . وفى نيويورك وأنا راقدة فوق السرير فى الفندق أعانى من آلام الانزلاق

الغضروفى شهدت على الشاشة احتفالات جورج بوش بالانتصار فى الحرب ضد العراق .. أى جنون هذا ؟

ثلاثون جيشًا ضد جيش واحد من جيوش العالم الثالث !؟ خسر العراق أكثر من ١٢٠,٠٠٠ جندى وخسرت الولايات المتحدة ١٢٠ جنديًا فقط ، هذا خلاف تدمير العراق اقتصاديًا وعسكريًا ومقتل ما لا يقل عن ٢٥٠,٠٠٠ من المدنيين العراقيين وهدم جميع منشآت الحياة الضرورية من محطات توليد الكهرباء وتنقية المياه وإنتاج الأغذية ولبن الأطفال والدواء والطرق والكبارى ووسائل الاتصال والمواصلات .

يفتح جورج بوش شفتيه المتلاشيتين ويضحك مزهوًا بالنصر . وأكاد أفقد عقلى ، فأحمل حقيبتى وأعود إلى القاهرة ، لكن ما أن أفتح التليفزيون المصرى وأشهد تلك الاحتفالات بالنصر حتى يختلط على الأمر ، وأظن أننى لازلت فى الولايات المتحدة .

أضرب بقبضتى فى الهواء كالمجانين . أليس هناك من هيئة عادلة واحدة فى العالم قادرة على محاكمة جورج بوش ؟

بينما أنا أكلم نفسى كنزلاء العباسية دق جرس التليفون وجاءتنى دعوة رامزى كلارك لحضور جلسة الاستماع الأولى لمحاكمة جورج بوش على جرائم الحرب فى الخليج يوم السبت ١١ مايو فى مدينة نيويورك .

كنت عاجزة عن المشى فوق قدمى دون الشعور بآلام وعذاب يشبه عذاب القبر ، ولم يكن فى إمكان جسمى أن يسافر لولا الجنون ، وقد سافرت لا أعرف كيف حملتنى قدماى رغم الألم ولم أندم على ذلك وقد شهدت جلسة الاستماع التى استغرقت ثمانى ساعات متصلة يوم ١١ مايو ١٩٩١ بنيويورك . وأثلج صدرى صوت رامزى كلارك من فوق المنصة وهو يوجه إلى جورج بوش تسع عشرة تهمة يصفها بأنها أبشع جرائم الحرب فى تاريخ البشرية وتتدرج التهم من التآمر والتخطيط لحرب الخليج منذ عام ١٩٨٩ إلى قتل الآلاف من الشعب العراقى واستخدام الأسلحة الممنوعة دوليًا كالنابالم، وإفساد الأمم المتحدة وتخريب ذمم الدول كلها عن طريق دفع بلاين الدولارات أو إرسال معونات سلاح أو طعام أو إعفاء من فوائد ديون ، أو تسهيل قروض من البنك الدولى أو .. أو .. أما تلك البلاد التى عارضت جورج بوش مثل « اليمن » فكان عقابها

هو الحرمان من المعونة المقدرة بملايين الدولارات كل ذلك من أجل ماذا ؟ من أجل السيطرة على منابع البترول العربى وسيادة إسرائيل والتحكم فى العالم العربى سياسيًا واقتصاديًا .

وفى القاعة الفسيحة يوم جلسة الاستماع الأولى احتشد الناس ، شغلوا المقاعد كلها ووقف الباقون على أقدامهم ثمانى ساعات متصلة ، كانت شمس نيويورك ساطعة فى ١١ مايو ١٩٩١ وزهور الربيع فوق الأشجار تتفتح ، وصوت رامزى كلارك يدوى عبر الميكروفون يدلى بشهادته حين سافر إلى العراق فى الأسبوع الأول من فبراير ١٩٩١ والحرب مشتعلة ، وقرأ علينا وثيقة لجنة التحقيق فى جرائم حرب الخليج ، ثم وجه لچورج بوش وأعوانه تسع عشرة تهمة أولها الإعداد والتخطيط لهذه الحرب منذ عام ١٩٨٩ وأخرها إبقاء القوات الأمريكية المسلحة فى الخليج بصفة دائمة .

كان جميع الحاضرين فى القاعة من الأمريكيين إلا القليل ، بلغوا أكثر من خمسمائة رجل وامرأة كانوا يصفقون بعد أن انتهى كلارك رامزى من تلاوة نص الاتهام ، وصاح أحد الشباب غاضبًا : عار عليك يا بوش !

وحين عرض الفيلم الذى صور التدمير والقتل فى بغداد والبصرة سمعت الرجال والنساء يبكون ، وبعضهم ينهنه بصوت عال . وقالت لى إحدى النساء الأمريكيات وهى تمسح عينيها : أشعر بالحزن لأننى أمريكية ولأن حكومتى فعلت هذا بالشعب العراقى .

رغم الألم كنت أشعر بشىء من الراحة . على الأقل هناك هيئة فى العالم لديها الشجاعة لمحاكمة چورج بوش .

وحين عدت إلى الوطن سألنى أحد كبار الأساتذة الذين ساندوا الحرب وتعجلوها ، ولماذا لم تتحدثى عن محاكمة صدام حسين !؟ .

وابتسمت فى هدوء قائلة : إن الجميع يطالبون بمحاكمة صدام حسين بما فيهم أنت ، فلماذا لا يتحدث واحد أو واحدة عن محاكمة چورج بوش !؟ هل هذا محرم !؟

ورمقنى بنظرة غريبة ثم تأبط ذراع زوجته وسارا إلى حفل السفارة الأمريكية أو حفل توديع السفير الأمريكى القديم واستقبال الجديد .

• • •

تلقت الوفد هذا المقال من الدكتورة نوال السعداوى ، ولما كانت الكاتبة قد تعرضت فيه إلى شخصية دينية مرموقة هو فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فإن الوفد تنشر المقال ومعه تعليق من الشيخ الشعراوى .

أيهما نلوم : الكبار أم الصغار ؟(*)

فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام (١٩٨٨/٣/١٧) رأينا صورة كبيرة لرئيس الدولة وهو يصافح الشيخ متولى الشعراوى ويسلمه وسام الجمهورية من الطبقة الأولى وفى اليوم نفسه والأيام الثلاثة السابقة كانت الصحف والمجلات تنشر علينا قصة تحطيم الآلات الموسيقية وضرب الطلبة المشاركين فى الحفل الفنى داخل جامعة أسيوط . وفى تصريح لوزير الداخلية (المصور ١٩٨٨/٣/١٨) قال إن سلطات الأمن لم تدخل جامعة أسيوط إلا بناء على طلب رئيس الجامعة الذى استنجد بالبوليس بعد أن اقتحمت جماعة من الإسلاميين الحرم الجامعى والصالة التى أقيم بها الحفل الموسيقى ووصلت المعركة إلى حد إراقة الدماء .

ولايزال الناس يتحدثون عن هذا الحادث وقد راعهم أن تصل الأمور ببعض الجماعات الإسلامية إلى حد اعتبار الموسيقى حرامًا ومن فعل الشيطان . وبدأ بعض الكتاب والصحفيين يعبرون عن غضبهم ويتساءلون : هل الموسيقى حلال أم حرام ؟ (جريدة الأهرام ١٩٨٨/٣/١٦) .

وتذكرت على الفور حديث الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى نشر فى جريدة اللواء الإسلامى (١٦ يوليو ١٩٨٧) وقال فيه بالحرف الواحد : « إن هؤلاء الذين ينامون على صوت موسيقى بيتهوفن وليس على ترتيل القرآن لا يعرفون الله » . وقال أيضًا فى الحديث نفسه : « إن الفنانين والفنانات الذين تابوا على يديه واعتزلوا فن التمثيل لهم جنات النعيم لأنهم تابوا إلى الحق بعد ضلال » .

وكنت أتوقع أن تثير مثل هذه الأفكار (البعيدة عن الإسلام الصحيح) أقلام الصحفيين والكتاب فى بلادنا . لكنى لم أقرأ أى رد . فكتبت مقالاً فى هذا الشأن .

(*) جريدة الوفد ١٩٨٨/٣/٢٢ العدد ٣٢٦ صفحة ٦ .

وأرسلته إلى جريدة « الأهرام » . التى لم تنشره ، وقيل لى أن الجريدة لا تنشر نقداً يتعلق بالشيخ الشعراوى .. ودهشت ولم أكن أعرف أن فى بلادنا شخصاً فوق النقد ومناقشة أفكاره . ونشر المقال فى جريدة الأهالى (٥ أغسطس ١٩٨٧) وتلقيت بعد نشره عدداً من الرسائل والمكالمات التليفونية بعضها يمدح شجاعتى الفكرية وعمق فهمى للإسلام (الذى يحترم الموسيقى والفنون) والبعض الآخر يهددنى بالقتل . وأدركت لماذا لم يعلق أحد على حديث الشيخ الشعراوى .

وكان لابد ألا يمر مثل هذا الحديث دون أن يحدث جدلاً واسعًا بين المثقفين والمثقفات والكتاب والكاتبات حول : هل الموسيقى حرام أم حلال . فإن مثل هذا الجدل والحوار الفكرى هو الذى يضىء الطريق أمام الشباب وطلاب الجامعات ، ولا يتركهم فريسة للأفكار المتخلفة تحت شعارات دينية . أما أن نسكت ونصمت تمامًا فى الوقت الذى يجب فيه أن نتكلم ، ثم نتكلم بل نصرخ بعد فوات الأوان فهذا هو الذى دفعنى إلى كتابة هذا المقال .

وأكثر من ذلك هو ذلك الوسام من الطبقة الأولى الذى يحصل عليه واحد من أكبر الدعاة الإسلاميين فى بلادنا ، وهو الذى كتب فى ١٦ يوليو ١٩٨٧ أن الموسيقى حرام فهل نلوم الشباب أم نلوم أكبر الدعاة ؟ وأيهما نلوم أكثر : الذى يضع الفكرة الخاطئة فى الرؤوس أم اليد التى تنفّذ الفكرة وتمسك بآلة الضرب أو القتل ؟! وأيهما نلوم الشيخ الكبير أم الشاب الصغير ؟!

إن هذا التناقض الواضح الذى يدل على التردد والخوف والتراجع هو الذى يسهل للشباب المتطرف أن يقتحم ويضرب بالجنازير الحديدية والمطاوى وغيرها . ويشجع بعض الدعاة إلى ركوب موجة الردة الحضارية وكسب نوع من الشعبية الزائفة على حساب الدين الصحيح والقيم الصحيحة والفنون الجميلة وعلى رأسها الموسيقى .

إن صمت الكتاب والكاتبات أو ترددهم وتراجعهم يلعب دورًا كبيرًا فى هذا المجال. وقد قرأت فى الصحف أن رؤساء الجامعات قرروا (بعد حادثة جامعة أسيوط) أن يمنعوا الحفلات الموسيقية التى يقيمها الطلاب فى نهاية العام . وإذا كان هذا الخبر صحيحًا فإن مثل هذا التراجع والخوف من جانب كبار المسئولين يؤدى فى النهاية إلى مزيد من تلك الأحداث المؤلمة وتسهيل العنف والضرب تحت اسم الدين .

وفى بلادنا عدد قليل من المفكرين والكتاب ذوى الشجاعة الأدبية والفكرية . ومنهم من يؤلف كتبًا عن الإسلام الصحيح غاية فى الأهمية . إلا أن هؤلاء لا ينالون إلا الهجوم ، أو التجاهل والصمت ، وحين يجد الواحد منهم نفسه وحيدًا فى المعركة فإنه ينسحب بهدوء وقد يكف عن الكتابة تمامًا . وقد آن الأوان أن يكف أصحاب الأقلام عن صمتهم حين تكون الكلمة واجبة . وأن يكف المسئولون عن تناقضهم وتراجعهم أمام هجمات الردة الحضارية . وأن يتكاتف كل من يهمه صالح هذا البلد من أجل الدفاع عن الحق والمنطق وحماية الإسلام من الدجل السياسى والتجارة باسم الدين .

إن أجهزة الإعلام وعلى رأسها التليفزيون أسلحة خطيرة يمكن أن تستخدم لتنوير الناس ، ولا أدرى لماذا يُفسح المجال بالساعات للشيخ محمد متولي الشعراوى دون أن يُفسح المجال للآراء الأخرى التى ترد عليه ؟ والغريب أن الحكومة تصرخ الآن بعد أحداث جامعة أسيوط ، فى حين أن أجهزة الإعلام الحكومية وعلى رأسها التليفزيون لاتزال تمنع أكثر الآراء استنارة من الوصول إلى الناس .

تعليق الشيخ الشعراوى :

إن مجرد التعليق على كاتبة هذا المقال يرفعها كثيرًا ، ولكن على أية حال ، هى وجهة نظر تُحترم ، ويكفينى أن يكون هذا الهجوم الذى نالنى بالمقال ممهورًا بإمضاء صاحبته ، فذلك أبلغ رد لأن الكل يعرف لمن تعمل لحسابه ، ويعلمون لمن يعمل الشيخ لحسابه ، وشتان بين من فى جانب حساب خالق ، ومن فى جانب رعونة مخلوق ، وأنا أحمد الله ، وأعتبر ما يقال من هذا الصنف وسامًا آخر ، لأنى لو لم أغضب هؤلاء أعتبر نفسى فاشلاً فى مهمتى ، فزيدونى حملات لازداد بالله ثقات .

• • •

رحلة الأيام الستة(*)

رأيتها تسير ، حولها موكب من موظفى البلاط ، وجهها مشدود العضلات مثل كبار رجال الدولة ، جسمها فيه ارتخاء الراحة ونصف قرن من الطاعة بلا سؤال . عيناها فيهما انطفاء حزن دفين ، يعومان تحت سحابة مائية لونها أصفر . قدماها داخل حذاء جلدى ثمين تتحركان بوقار وهيبة أصحاب المناصب العالية ، لكن الكعب العالى يحدث علي بلاط المطار صوتًا أنثويًا يصبح مع اهتزازة الردفين السمينين شيئًا جارحًا أو فتنة مستترة داعية للرذيلة ، ورأسها مرفوع ملفوف داخل الحجاب علامة امتلاك الفضيلة وقصر منيع فى الجنة .

كنت واقفة فى الطابور الطويل أمام باب الطائرة الخلفى مع ركاب الدرجة الدنيا ، وهى تهبط (أمام باب الدرجة الأولى) من سيارة أنيقة كتب عليها (VIP) وتعنى بالعربية « الأشخاص ذوى الأهمية الكبرى » .

والتقت عيوننا ، تجاهلتنى كعادة ذوى الأهمية الكبرى فى مواجهة الواقفين فى الطوابير ، كانت زميلة دراسة ، جلست إلي جوارى ستة أعوام متصلة ، وفى امتحان آخر العام تمد عنقها ناحية ورقتى لتنقل الإجابة .

داخل الطائرة رأيت المضيفة المصرية تبتسم وتنحنى بأدب جم لكل من حادثها بلغة أجنبية . تلاشت الابتسامة الملائكية وحلت مكانها تكشيرة شيطانية حين تحدثت معها باللغة العربية ، وتجاهلتنى المضيفة الحسناء بمثل ما تجاهلتنى زميلة الدراسة .

محاولة جديدة لتفسير القرآن

ثلاثة أيام قضيتها فى مؤتمر دولى نسائى يضم خمسة وثلاثين امرأة من البلاد الإسلامية . فى بيت تحوطه جبال فرنسا وسويسرا ، فى عزلة كاملة عن

(*) نشر بجريدة الأهالى ١٩٨٨/١٠/٥ .

العالم عشنا نحاول الإجابة عن هذا السؤال : لماذا انخفضت قيمة المرأة عن الرجل فى الأديان ؟

وكان معنا أستاذة جامعية من الباكستان تحدثت سبع ساعات متصلة عن إيمانها العميق بأن الله ساوى بين المرأة والرجل فى القرآن . لقد قضت هذه الأستاذة واسمها الدكتورة « رفعت حسن » خمسة وعشرين عامًا فى دراسة القرآن ومحاولة تفسيره حسب إدراكها أن « الله هو العدل » ، وأن اللغة العربية قد تم تحويرها أو تذكيرها (جعلوها مذكرة) لتخدم مصالح الذكور ضد مصلحة النساء . وتوصلت الدكتورة رفعت حسن إلى معان تختلف تمامًا عن المعانى القديمة التى شاعت في المدارس الإسلامية المختلفة . ومن أهم ما توصلت إليه أن القرآن لم ترد به آية واحدة تذكر حواء بالاسم ، أو تقول إنها خلقت من ضلع آدم .

كانت ترتدى السارى الباكستانى بلون أزرق سماوى وعيناها سوداوان واسعة مملوءة بالإيمان بالله العادل وقالت بحماس : « فى القرآن يقول الله إنه خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها . كلمة النفس هنا مؤنثة ، ومعنى ذلك أن المرأة خلقت أولاً ثم جاء زوجها من بعدها ، بخلاف المفسرين القدامى الذين قالوا إن النفس هى « آدم » لكن « آدم » اسم مذكر فكيف تكون نفسه مؤنثة ؟ القرآن واضح اللغة ، لكن رجال الدين ترجموا لغة القرآن ترجمة سياسية حسب مصالحهم وليس ترجمة لغوية صحيحة . الترجمة عمل سياسى وكذلك أيضًا التفسيرات » .

لم تقبل امرأة من سرى لانكا كلام د. رفعت وتساءلت : أليس هناك حديث للرسول محمد ﷺ يقول فيه إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ؟

وردت د. رفعت حسن قائلة : « درست هذا الحديث من شقيه : الإسناد والمحتوى. وجدت أن الإسناد ضعيف لأن الذى رواه أبو هريرة ، وكان الإمام أبو حنيفة يرفض الأحاديث التى رويت عن أبى هريرة ، ولا يقبل إلا الأحاديث التى رواها ثلاثة أشخاص على الأقل ممن صاحبوا النبى وتمتعوا بثقة الجميع . أما ابن خلدون فلم يكن يقبل الأحاديث إلا بمحتواها ، ولم يكن يهتم بالإسناد أو من رواها ، ثم إن الآية القرآنية أقوى

من الحديث النبوى ، وإذا اختلف الحديث مع الآية أُخذت بالآية وتُرك الحديث ، ومن الضرورى فى كل الأحوال أن نُرجع الحديث أو الآية إلى ظروفها والبيئة التى صدرت فيها » .

ذكرتنى د. رفعت حسن برابعة العدوية فى حماسها لجوهر الدين وحبها لله (رمز الحق والعدل) أكثر من خضوعها للطقوس المكررة الموروثة . ألم تقل رابعة العدوية أنها تريد حرق الجنة وحرق الجحيم حتى يحب الناس ربهم دون طمع فى جنته أو خوف من ناره ؟! .

عبرت الجبال الفاصلة بين فرنسا وسويسرا ، ووجدت نفسى فى « جنيف » أطل على البحيرة اللؤلؤية يسبح فيها الأوز الأبيض وعصافير الجنة تزقزق ، وشباب فى عمر الزهر يتمشى بين خضرة الجبال وأشعة الشمس ، السيارة تنطلق بى إلي مبنى الأمم المتحدة الفخم فوق الربوة العالية . حشود عربية أمام الباب . إنه المؤتمر الخامس للمنظمات غير الحكومية حول القضية الفلسطينية .

على صدرى وجدت لافتة مشبوكة بدبوس تحمل اسمى واسم المنظمة الدولية غير الحكومية التى أمثلها : « جمعية تضامن المرأة العربية » (أكره تعليق اللافتات على الصدور وبعد أن مررت من بوابة الأمن نزعتها ووضعتها فى حقيبتى) .

تنقلت بين القاعات حيث اللجان المختلفة . تعرفت على كثير من الوجوه العربية والفلسطينية : خالد الحسن ، إميل حبيبى ، عصام عبد الهادى ، فتحى عرفات ، منذر عنتباوى ، فاروق أو عيسى ، وثريا انطونيوس التى أهدتنى كتابها الأخير باللغة الإنجليزية ، وشابات كثيرات من الأرض المحتلة ، وشابات فلسطينيات من عرب ١٩٤٨ اللائى لم يغادرن فلسطين منذ نشوء إسرائيل ، يقدن المظاهرات داخل تل أبيب والقدس تضامنًا مع الانتفاضة ، تشترك معهن بعض النساء الإسرائيليات ، علقت أحداهن على صدرها فى المؤتمر لافتة كبيرة مكتوب عليها بالعربية والعبرية :

« يسقط الاحتلال الإسرائيلى » « .. الانتفاضة هى الطريق إلى السلام » .

شابة فلسطينية من أم الفحم اسمها « ريما » أشارت إلى هذه المرأة الإسرائيلية وقالت لى : اسمها « أرنا » وهى تخرج معنا فى المظاهرات حاملة العلم الفلسطينى وابنها أيضًا يشترك معها ، وفى مظاهرة « أم الفحم » (٢١ أغسطس ١٩٨٨) ضربها الجنود الإسرائيليون بكعوب البنادق ولم تكف عن الاشتراك معنا حتى اليوم .

اقتربت « أرنا » وجلست معنا وقالت : أنا أشترك في المظاهرات ضمن حركة متصاعدة داخل إسرائيل لإنهاء الاحتلال . من حق الشعب الفلسطينى أن تكون له دولته المستقلة فوق أرض وطنه من خلال تنشيط الناس أقاوم فكرة الصهيونية ، ومن خلال النضال يدرك الناس عرب ويهود أن الانتفاضة هى الطريق إلى السلام العادل ، لقد أدت الانتفاضة إلى تحريكنا داخل إسرائيل لنتساءل عن أصل نشوئها منذ عام ١٩٤٨ ؟

ومن الجليل قابلت « امتياز » و « مها » وهما أول من ضربهما البوليس الإسرائيلى حين بدأت المظاهرات . ناولتنى « مها » بعض الصور للمظاهرات تتقدمها النساء ، تحمل إحداهن طفلة خلعت عينها اليسرى (بواسطة رصاصة مطاطية يستخدمها الجنود الإسرائيليون) وذراعها الأيمن مكسور داخل الجبس .

واقبلت نحونا الدكتورة شارلوت (وهى أستاذة جامعية نمساوية) وفى يدها بعض نماذج من الرصاص المصنوع من المطاط أو الزجاج . وضعت الرصاصة فى يدى . إنها فى حجم الزيتونه شفافة تشبه « الطساس » الذى كنا نلعب به ونحن أطفال ، ونضرب به البلى الصغير .

وقالت الدكتورة شارلوت : « تستخدم إسرائيل هذا النوع الجديد من الرصاص حتى لا يُرى بالأشعة ويعجز مشرط الجراح عن إخراجه من الجسم ويظل كامنًا مسببًا النزيف والالتهابات حتى الموت ، ومن ١٠ ديسمبر ١٩٨٧ حتى ١٧ إبريل ١٩٨٨ تسبب

هذا الرصاص المطاطى أو الزجاجى فى خلع ٢٣ عينًا من عيون الشعب الفلسطينى ، أكبرهن امرأة عمرها ٧٣ عامًا ، وأصغرهن طفلة عمرها ٣ شهور » .

وفى الاستراحة رأينا فيلمًا بعنوان « الانتفاضة طريق الحرية » أخرجته المخرجة الإنجليزية « جينى مورجان » أدت مواقفها المؤيدة لقضية فلسطين إلى فقدانها منصبها فى التليفزيون البريطانى ، وأصبحت الآن « حرة » تخرج ما تشاء من أفلام . حصلت على نسخة من الفيلم . طوله عشرون دقيقة فقط ، لكنه يصور الانتفاضة والمواجهة بين الشعب الفلسطينى الأعزل والجيش الإسرائيلى المدجج بالسلاح الأمريكى ، مشهد لا ينسى فى الفيلم لأم فلسطينية تحمى بجسدها وذراعيها طفلها من قبضة الجنود ، التفوا حولها بالبنادق يحاولون انتزاع طفلها من بين ذراعيها وهى تقاومهم . حتى الموت.

وفى الردهة الواسعة خارج القاعات قال لى الدكتور فتحى عرفات شقيق ياسر عرفات : إذا امتدت الثورة إلى النساء والأطفال فلا شىء يوقفها إلا إحقاق الحق .

أعظم ما فى المؤتمر أنه جمع بين الساعين والساعيات إلى الحرية والسلام العادل بصرف النظر عن الجنسية أو اللون أو الدين أو الجنس أو اللغة .

وفى الركن الآخر من الردهة كان يدور نقاش حاد أشبه بالسباب بين شابة فلسطينية من « نابلس » ورجل فلسطينى من عرب ١٩٤٨ . كان الرجل غاضبًا يتهم الفتاة بأنها من الموساد وهى تقول عنه لا يجيد إلا الخطب الثورية فى المؤتمرات ، ثم يعود إلى بيته فى إسرائيل ليضرب كل من يحمل العلم الفلسطينى « تحت شعار » احترام القانون .

وهكذا وجدت نفسى وسط معركة وراء الستار بين فريقين من الفلسطينيين وزحفت سحابة قاتمة فوق السماء الزرقاء بين الجبال الخضراء واختلط رذاذ المطر فوق نوافذ الأمم المتحدة الزجاجية برذاذ المعارك الكلامية بين الأشقاء والإخوة .

فى مطار القاهرة وقفت أمام موظف الجوازات ، نظر إلى وجهى بعضلات مشدودة . ثم ارتخت عضلات وجهه وهو ينظر إلى الرجل الأمريكى وحياه بابتسامة عريضة . وحين جاء دور الفتاة الفلسطينية حملق فى أوراقها طويلاً ثم ردها إليها وقال بوجه مشدود : انتظرى هناك ! .

سيارة الأجرة تحملنى وحقيبتى عبر الشوارع . مدينة الأسمنت والجدران والعمارات بلا أشجار ولا أوراق خضراء وطوابير البشر تتدافع بالأذرع داخل الأتوبيس . والشجرة الصغيرة أمام بيتى أصبح مكانها جدار من الطوب والأسمنت المسلح . منذ خلعها من الأرض البلدوزر الأمريكى عام ١٩٧٥ . لكن الوجوه الثلاثة فى أسرتى الصغيرة أشرقت بعيون مملوءة بالشمس والخضرة ، وفى العناق الطويل انهيت غربتى وعدت إلى الوطن .

• • •

المبالغة فى مدح رئيس الدولة(*)

فى بداية توليه الحكم عام ١٩٨١ أعلن الرئيس حسنى مبارك أنه لا يريد أن تنشر صوره فى الإعلانات ، ولا يريد مقالات مدح وإطراء . وأن أهم ما يريده هو العمل والإنتاج والعدالة الإجتماعية .

ومنذ توليه الحكم زار الرئيس مبارك عددًا كبيرًا من مواقع العمل والمؤسسات الإنتاجية ، والتقى بفئات مختلفة من الشعب . ولم تكن زيارته للمؤسسات الصحفية هى الزيارة الأولى للمؤسسات الإنتاجية (باعتبار أن الصحافة مؤسسة تنتج الكلام) . إلا أن الصحفيين صوروا هذه الزيارة وكأنما هى اللقاء الأول بين الرئيس والشعب .

ولا غرابة فى ذلك فالصحفيون هم أعلى الفئات صوتًا ولذلك تحظى أمورهم بحجم أكبر من حقيقتها .

ولاشك أن زيارة رئيس الدولة للجامعات مثلاً أو للمصانع لا تقل أهمية عن زيارته للمؤسسات الصحفية ، وقد تكون أكثر أهمية . وكلنا نعرف أن سلطة رئيس الدولة هى أعلى سلطة فى البلد ، ومن هنا الأهمية الكبيرة لنزول الرئيس إلى مواقع العمل وضرورتها ، إلا أننا ندرك أيضًا أن المشاكل فى بلادنا لن تحلها الزيارات الرسمية ولن يحلها فرد واحد . إنما هي تقتضى مساهمة كل فرد فى مصر .

إن المبالغة فى تضخيم دور الفرد الحاكم ليس إلا نتيجة تصغير دور الشعب . إن المبالغة فى مدح أى عمل يقوم به صاحب السلطة ليس إلا نتيجة المبالغة فى تجاهل أى عمل يقوم به من لا سلطة له ، كما أن المبالغة فى مدح الحاكم وهو فى السلطة ليس إلا الوجه الاخر للمبالغة في ذمة حين يخرج من السلطة .

(*) جريدة الوفد ١٩٨٥/١/١٠ العدد ٤٤ - السنة الأولى صفحة ٤ .

وإننى أتفق مع الرئيس مبارك فى حربه ضد الفساد والرشوة وتجار العملة . كما أننى أتفق معه تمامًا فى أن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية هما أساس الحكم . لكنى أختلف معه فى الطريقة التى يمارس بها الديمقراطية . ولايزال كثير من القوانين ومنها قانون الأحزاب وقانون الانتخابات وقانون الطوارىء وغيرها قيودًا على الديمقراطية الحقيقية . كما أن أغلب قطاعات الشعب وأكثرها عددًا لاتزال خارج الممارسة الديمقراطية (الشباب والنساء) . كذلك أرى أن هناك تفرقة بين الأحزاب ، وأن الحزب الحاكم يحظى بنصيب الأسد فى كل شىء ، وخاصة فى أجهزة الإعلام التى تدخل كل بيت . كما أن أسماء بعض الكتاب والمفكرين والأدباء والأديبات لاتزال ممنوعة من الحديث فى الراديو أو التليفزيون ، تضمهم القائمة السوداء، أو القائمة « الرمادية » وهى قائمة جديدة لا سوداء ولا بيضاء وأصحابها ممنوعون أيضًا ولكن بقرار شفهى وليس قرارًا مكتوبًا .

وكنت أتوقع أن يزور الرئيس مبارك صحف المعارضة أيضًا بمثل ما زار الصحف القومية .

وقد قرأت ما نشر فى الصحف عن زيارة الرئيس لهذه الصحف ووجدت أن هناك بعض المقالات التى يمكن أن تندرج تحت « المبالغة فى مدح الرئيس » ولا أحد ينكر أن الرئيس مبارك قد يستحق المدح أحيانًا ، لكن المبالغة فى هذا المدح قد تضر ولا تفيد .

وفى جريدة « الأهرام » قرأت تصريحًا للأستاد أحمد بهاء الدين يقول فيه : إن أهم حدث ثقافى فى عام ١٩٨٤ هو زيارة الرئيس مبارك للمؤسسات الصحفية . وتصريح آخر للدكتور يوسف إدريس يقول فيه : إن خطبة الرئيس مبارك كانت أهم حدث ثقافى لعام ١٩٨٤ . وقد يكون ذلك صحيحًا فى نظرهم ، إما لأن الساحة الثقافية خاوية تمامًا ولا يتحرك فيها إلا فارس واحد هو رئيس الدولة ، وإما أنهم لا يبذلون الجهد الكافى للتعرف على أعمال الأفراد الآخرين .

وقد قرأت أيضًا أن الأستاذ توفيق الحكيم غادر فراش المرض حتى لا يتخلف عن لقاء الرئيس عند زيارته جريدة الأهرام ، وهذا حماس عظيم وشعور طيب تجاه رئيس

الدولة قد يشاركه فيه الكثيرون ، ولكنى كنت أود من أديب كبير مثل توفيق الحكيم أن يظهر شعوره الطيب أيضًا تجاه زميلة له فى اتحاد الكتاب أرسلت إليه رسالة من السجن بعد أن حبسها السادات دون تحقيق . لم يرد الأستاذ توفيق الحكيم على الرسالة ولم يكتب حرفًا واحدًا يعترض على اعتقال عدد من الأدباء والأديبات دون تحقيق .

لقد تأملت الصورة التى نشرت فى الصفحة الأولى لجريدة الأهرام بعد زيارة الرئيس مبارك لها . تأملت وجوه كبار الكتاب عندنا يتوسطهم الأستاذ توفيق الحكيم أكثر من ثمانين رجلاً (ليس بينهم امرأة واحدة) ولا يقل عمر الواحد منهم عن خمسة وخمسين عامًا (ليس بينهم شاب واحد) . تعرفت على معظم وجوههم وابتسمت فى أسى . لقد رأينا هذه الوجوه فى الصور من قبل جالسين أمام السادات وأمام عبد الناصر .

ظلوا صامتين أمام عبد الناصر ، ثم عاد إليهم الوعى بعد موته . وظلوا صامتين أمام السادات ، ثم تكلموا بعد موته ، وها هم أمام الرئيس مبارك . أيتكلمون ؟ أم يصمتون أيضًا حتى موته ؟

• • •

الطاعة والمعارضة فى السياسة وغيرها(*)

يحظى الإنسان بالإعجاب إذا وقف أمام الحاكم وقال رأيه بصدق دون خوف ، لكن الناس لا تعجب بمن ينتظر موت الحاكم ليقول رأيه .

لا شك أن نقد الماضى وتقييمه أمر ضرورى لكن الناس لا تعجب بمن لا يرى الأخطاء إلا بعد أن تصبح ماضيًا .

ويعجب الناس بالكلمات الإنسانية الجميلة مثل العدالة الاجتماعية والحرية والإنتاج وطهارة اليد واللسان . لكن الناس لا تعجب بمن يحول هذه الكلمات إلى اسطوانات تدور ليل نهار أو ندوات لا تكف وحوار لا يكف .

الحوار كثير والعمل قليل .

ما أسهل الحوار إذا لم يؤد إلى فصل أو نقل أو سجن . وما أسهل الصمت إذا كان فى الكلام ضرر . الا أن الكلمة المنطوقة أو المطبوعة أصبحت وكأنما هى الوسيلة الوحيدة لإثبات الوجود . حتى فى الأحزاب السياسية تحتل الجريدة أو الكتابة فى الجريدة أهمية أكبر من العمل مع الناس أو ما نطلق عليهم الجماهير .

لا يمكن أن ننكر ما للصحافة أو الكتابة أو الحوار من تأثير لكن هل تصبح الكلمة هى الفارس الوحيد .

لاشك أن الأضواء تسلط على الكلمة أكثر مما تسلط على العمل . الذين امتطوا الكلمة عرفهم الناس واشتهروا ، أما الذين يعملون ويكدون فى العمل فلا أحد يعرفهم . من يستغرق فى عمل عميق جاد لا يجد الوقت للكلام ، ومن يتكلم كثيرًا لا يجد الوقت للعمل أو التفكير المتعمق .

(*) نشر بمجلة الهلال / فبراير ١٩٨٢ .

هناك دائمًا علاقة عكسية بين العمق والانتشار الواسع ، وهناك علاقة طردية دائمة بين كثرة الكلام وقلة الفعل . وقد أصبحت العادة أن ينتظر الناس ما يقوله رئيس الدولة ليرددوه ، ما أسهل الترديد .

فى الماضى القريب ترددت كلمات مثل الأمن الغذائى ، والثورة الخضراء ، والحضارة ، والرخاء . وهذه الأيام أصبحنا نسمع كثيرًا عن الجدية والعمل والقدوة والانفتاح الإنتاجى والنفاق . وأخشى أن نسمع قريبًا عن ندوة جديدة بعنوان « طهارة اليد واللسان » .

لا يمكن أن ننكر أن المشاكل كثيرة ، مشكلة الشباب ، مشكلة العنف والإرهاب ، والمشكلة الاقتصادية ، الفساد ، الرشوة ، السلبية ، التسيب ، التسمم بالأطعمة الفاسدة ، والهواء الفاسد وتلوث البيئة .. إلخ .

هذه المشاكل كلها موجودة ، لكن المشكلة ليست فى وجود المشاكل ، ولكن فى نظرتنا إلي هذه المشاكل ، كيف نشخصها ونكتشف أسبابها الحقيقية وكيف نعالجها . ولا يشير أى واحد منا إلى نفسه وتتجه أصبعه دائمًا متهمًا الآخرين وينسى نفسه ، أو يتكلم كلامًا جميلاً فإذا شاهدنا ما يفعل وجدنا فعله مناقضًا لكلامه .

رأينا مفكرًا كبيرًا يرأس ندوة عن مشكلة الديمقراطية ، وسمعناه يقول إن المشكلة الأساسية هى مصادرة الرأى الآخر ، ومع ذلك لاحظنا أن المفكر الكبير كان أكثر أعضاء الندوة مصادرة للرأى الآخر أثناء المناقشة .

مثال آخر ذلك المفكر الكبير الذى يغرقنا بكلمات عن المساواة والحرية فإذا رأيناه فى بيته نرى الأب المستبد برأيه والزوج المسيطر الذى لا يقبل المناقشة . ثم هذا الكاتب الكبير الذى ينقد سلبية الشعب المصرى لكنه ينتهى بأن يدعونا إلى انتظار ما سوف يفعله رئيس الدولة . أى يدعونا إلى السلبية .

لاشك أن رئيس الدولة فى مصر له من السلطات ما ليس لغيره . وفى يده تغيير

القوانين والسياسات والأشخاص ، وهذه مشكلة كبيرة تتعارض مع الديمقراطية ، لكن المشاكل التى نعانى منها ضاربة بجذورها فى مجتمعنا وفى تاريخنا وفى بيوتنا وفى أنفسنا مما لا يكفى معه تغيير السياسات أو الأشخاص أو القوانين .

إن هذا الانتظار لما سوف يفعله أو يقوله الحاكم نوع من السلبية الجماعية التى تعودنا عليها فى حياتنا العامة والخاصة . والحياة الخاصة ليست إلا نموذجًا مصغرًا من الحياة العامة .

فى حياتنا الخاصة يعتمد الأطفال والشباب والنساء على فرد واحد هو الأب « أو الجد فى الريف » . قد يشتغل الطفل أو الشاب أو المرأة فى الحقل لكن العمل هنا لا يكسبهم الاعتماد على النفس أو حق إصدار الرأى أو القرار ، فالرأى والقرار لصاحب السلطة الأوحد ، الأب أو الجد .

إن حياتنا الخاصة ليست ديمقراطية . فكيف يمكن أن تكون حياتنا العامة ديمقراطية ؟ الطفل أو الشاب الذى لا يتعود مناقشة أبيه والاختلاف معه لا يمكن أن يناقش رئيسه أو يختلف معه ، والمرأة التى تفرض عليها الطاعة منذ الولادة لا يمكن أن يكون لها رأى مستقل عن أبيها أو زوجها أو رئيسها فى العمل .

يقول الأب : إن طاعة الله واجبة وطاعة الأب واجبة . وفى عصور قديمة تنكر الأب فى زى الإله ، وفى عصور حديثة ارتدى الحاكم رداء الأب ، وأصبحت الطاعة هى الفضيلة الأولى فى حياتنا .

العقل ينفى الطاعة ويوجب الجدل والمناقشة ، والطاعة تنفى العقل وتوجب الموافقة على آراء الآخرين .

والإنسان عقل . قوة الإنسان وطاقته هى العقل . إذا لم يجد العقل الطريق أمامه مفتوحًا خرجت قوة الإنسان وطاقته بغير عقل ، خرجت قوة مدمرة عدوانية إرهابية تضرب وتقتل .

دلت الأبحاث النفسية أن أكثر الأطفال عدوانية كان لهم آباء شديدو السيطرة والاستبداد بالرأى . ما معنى الاستبداد بالرأى ؟ معناه أن تنفى عقول الآخرين وتفرض رأيك .

الطفل إنسان له عقل كامل وليس ناقصًا كما يتصور البعض ، والمرأة أيضًا ليست ناقصة العقل . الإنسان فى طفولته أو شبابه له عقل يختلف عن عقل أبيه لأنه يعيش ظروفًا لم يعشها أبوه . وبقدر ما يحتاج الطفل أو الشاب لتجربة أبيه يحتاج الأب أيضًا لتجربة ابنه ورأيه وإحساسه أو تجربة ابنته ورأيها وإحساسها .

كثير من الناس لا يتصورون إمكانية مناقشة فكرية عميقة بين أب وطفله أو طفلته . أذكر أننى ناقشت أبى حين كنت فى العاشرة من عمرى حول فكرة وجود الله ، وعدالته ، ولماذا يخاطب بلغة التذكير دائمًا ، ولم يفزع أبى من أسئلتى ، ولم ينهرنى أو خوفنى من التفكير فى أى شىء . لم يضع سقفًا لتفكيرى لا أتجاوزه ، ولهذا تعودت أن أناقش كل شىء ، ولا أوافق على رأى ما إلا بإقتناع . إذا اقتنعت وافقت وإذا لم أقتنع اعترضت .

الاقتناع يعنى التفكير وتشغيل العقل، أى الجدل والمناقشة ثم الموافقة أو المعارضة.

كثير من الناس يتصورون أن « المعارضة » شىء يتعلق بالسياسة أو الأحزاب السياسية فقط . ولكن المعارضة أو القدرة على المعارضة أسلوب فى حياة الإنسان ، وقدرة عقلية ونفسية يكتسبها الإنسان فى الطفولة وتنمو معه كلما كبر ، أو تنكمش وتذبل .

المعارضة ليست عضوًا ينبت فجأة للإنسان بدخوله حزب المعارضة ، أو بصدور قرار يدعو إلى الديمقراطية . ولا يمكن أن تخلو بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومكاتبنا وأعمالنا وحقولنا ومصانعنا من الديمقراطية ثم تظهر فقط تحت قبة البرلمان .

وقد طالب الكثيرون بالقضاء على النفاق . لكن ما هو النفاق ؟ أليس هو المحصلة

الطبيعية لفضيلة الطاعة ؟ الطفل الذى يطيع بغير اقتناع يتعلم أن ينافق أباه . والمرأة المطيعة منافقة . والمرءوس المطيع منافق . الطاعة هى الوجه الآخر للخوف . الخوف يؤدى إلى النفاق . لكننا لا نصل إلى جذور الأشياء ، والسبب هو الخوف ، الخوف من أن نصل إلى التناقض الصارخ أو الازدواجية المريضة فى القيم والتقاليد التى درجنا عليها . سنصل حتمًا إلى اكتشاف أن النفاق والطاعة وجهان لعملة واحدة .

وأخطر الرذائل هو ما يرتدى ثوب الفضائل . وأخطر الفضائل ما يرتدي ثوب الرذائل . إذا أردنا علاج النفاق فلا بد أن نعيد النظر فيما نسميه فضائل أو رذائل . علينا أن نقول إن الطفل الفاضل هو الطفل الذى يناقش ويجادل وليس الطفل المطيع . علينا أن نقول إن الزوجة الفاضلة هى التى تناقش وتجادل وليست هى الزوجة المطيعة.

لكننا مازلنا نقول عن الطفل المجادل إنه مشاغب والمرأة المجادلة تعتبر شاذة أو غير طبيعية أو مشاكسة . أما المرؤوس المجادل فهو شخص حقود وغير أهل للثقة .

أى رئيس عادل لا يخشى الجدل . والأب أو الزوج العادل لا يخاف النقاش . والإله العادل يدعو إلى الحوار وتشغيل العقل .

إن غياب العدالة والمساواة بين البشر على اختلافهم هو الذى يحرم الجدل أو الحوار أو المعارضة . وهو الذى يحول الطاقة العقلية الإنسانية من البناء والخلق والتقدم إلى الضرب والعدوان والتأخر .

العدوان نوع من المقاومة الإنسانية الطبيعية ضد سد المنافذ أمام العقل . وقد يتجه العدوان إلى الإنسان نفسه ، فيقتل نفسه بنفسه . إن هذه السلبية الفردية والجماعية التى نتصف بها كأفراد وشعب ليست إلا نوعًا من المقاومة البطيئة ، أو الإضراب الدائم الخفى الخائف من أن يظهر ، إضراب عن بذل الجهد فى عمل أو لهو أو فرح ، أو حتى حزن .

السلبية هى الوجه الآخر من اليأس ، واليأس هو النهاية الطبيعية للخوف .

حيثما يعيش الخوف يعيش النفاق . وحيثما تفرض الطاعة يفرض الخوف .

وأمام الموظف المصرى تقرأ رقعة نحاسية حفرت عليها « الطاعة » ، « الصبر » . فى الطاعة السلامة وفى التفكير الندامة . الحكمة الخالدة المحفورة فى ذهن الموظف المصرى منذ عهد الفراعنة . وكل الناس فى مصر موظفون . الوزير موظف ، والناقد الأدبى موظف ، والأديب موظف ، وصاحب الفكر موظف .

سألت مرة أحد الأدباء : لماذا يكتب ما لا يقتنع به فقال ببساطة : إذا فصلت أو نقلت من الجورنال فهل تتولين أنت الإنفاق على أولادى فى المدارس ؟ وسألت مرة أحد الوزراء السابقين : لماذا لا تقول رأيك إلا فى الجلسات الضيقة فقال: لأضمن أنه لن يصل .. قلت : وإذا وصل فماذا تخاف ؟ ونظر إلى بدهشة ونظر الحاضرون جميعًا إلى بدهشة وكأننى كائن عجيب هبط من المريخ .

أغرب ما فى الأمر أن أحدًا لا ينظر إلى نفسه ، لا الكبير ولا الصغير ، والعيون كلها تتجه إلي رئيس الدولة فى انتظار ما يفعله ليصلح الكون . هل يمكن لفرد واحد أن يصلح الكون ؟! .

• • •

حدث فى صباح ٢٥ نوفمبر ١٩٨١(*)

أحملق فى الظلام . لم يكن الفجر شقشق بعد . متكورة حول نفسى كجنين فى بطن أمه . أتلمس الدفء من الجدران التى تحوطنى . هل أنا مت وعدت إلى الرحم الأصلى أم أننى لم أولد بعد .

الصمت والظلمة يلتفان حولى كعباءة سوداء . كثافة مثلجة تضغط على أذنى فى صفير متصل لانهائى . أخرج رأسى من بين القضبان . أرقب أول نقطة ضوء . أول قطرة ندى . ظمأ شديد يلهب حلقى . ماذا تعشيت بالأمس . لا أذكر .

لا أذكر شيئًا . حتى ملامح طفلى نسيتها . أعظم صفات الإنسان أنه ينسى . وهل كنت أحيا فى السجن إذا تذكرت ملامح طفلى . عيونه حين يصحو من النوم فلا يجدنى ولا يعرف أين أنا .

ذلك الصباح هل فتح عينيه ، منذ متى ؟ ثمانون يومًا .. ثمانون عامًا .. ثمانون قرنًا .. ربما .. فالزمن فى السجن غير الزمن ، والساعة الواحدة تمتد أمامنا بغير نهاية كالدهر .

الصوت العذب الحزين يشق السكون ، الناى المنفرد فى الظلمة تغريد كصوت الأم، كالدعاء ، كالبكاء ، كالضحكة الطويلة يطلقها طفل ، أو صرخة وحيدة فى الليل .

كل فجر أنتظره وأسمعه . وكل غروب أيضًا . لماذا لا يغرد الكروان إلا فى السكون والظلام . لماذا لا يحلق إلا فى هذه اللحظة الساقطة بين الليل والنهار . طائر وحيد فى الكون .

أرفع رأسى إلى السماء . أريد أن أرى الكروان . لم أر فى حياتى أى كروان . لكن السماء سقف أسود مسدود . والكروان يسمعه الإنسان فى السجن دون أن يراه .

(*) نشرت بجريدة الأهرام ١٩٨١/١٢/٨ .

يكفينى أن أسمعه دون أن أراه . يكفينى أن تسقط قطرة الضوء . وأحرك قلمى فوق الورق دون أن أري الكلمات . لا يهم أن أرى الكلمات ، لا يهم أى شىء سوى أن تولد الكلمات فوق الورق ولا تدفن تحت الجدار .

زحف ضوء النهار . ارتديت حذائى الكاوتش لأبدأ التمرينات . حركة الجسم تعنى الحياة . قوة الجسم تعنى قوة العقل وقوة النفس ، وفى السجن يحتاج الإنسان لمجموع قواه .

تصبب العرق غزيرًا يفسل الأرق ويفسل التعب ، ووضعت رأسى تحت الماء البارد . الآن فقط أشعر بانتعاش ، وجوع أو ظمأ مجنون لكوب من الشاى .

لم أكد أحوط الكوب الساخن بيدى حتى سمعت صوتًا ينادينى . قلت لنفسى يا فتاح يا عليم . ودار المفتاح الحديدى الضخم دوراته الثلاث وانفتح الباب .

- انت مطلوبة الآن .

- تحقيق ؟

- لا نعرف .

ادخلونى فى سيارة بسرعة البرق . انطلقت السيارة تجرى وتلهث . كل شىء أمام عينى يجرى ويلهث . الدنيا كلها تلهث . ما الذى حدث !

- إلى أين تحملوننى ؟

- خير إن شاء الله .

- لا أفهم شيئًا .

- سنحملك إلي مكان معين .

- ما هو هذا المكان المعين .

- ستعرفين حين تصلين .

أسندت رأسى إلى مسند السيارة . أنا إنسانة ولست « طردًا » يحمل من مكان إلى مكان . أنا لست ريشة فى مهب الرياح . عيناى ترقبان الشوارع والناس . امرأة تسير فى الشارع وتحرك ذراعيها بحرية . يبدو أنها فى طريقها إلى بيتها . اتسعت عيناى بدهشة . السير فى الشارع أعجوبة والذهاب إلى البيت أمر خارق للعادة ، ضرب من المستحيل . لم أسمح لنفسى أن أحلم به . مثل هذه الأحلام قد تضعف الإنسان فى السجن وبالغريزة وحدها غابت عنى الأحلام البعيدة .

لمحت امرأة تقود سيارة وتنصرف فى طريق جانبى . كيف يتحرك الناس بهذه البساطة فى الشوارع . لكن الحرية تاج على رؤوس الناس لا يراها إلا المسجون .

توقفت السيارة أمام قصر كبير لا أعرفه . فجأة تذكرت شكله واسمه وعادت إلى كل ذاكرتى دفعة واحدة ، حتى وجه طفلى رأيته .

– قصر العروبة ؟

– نعم ، وستقابلين السيد رئيس الجمهورية الآن . خفقة قلب سريعة . وابتسامة حذرة . لازلت أحمل السجن داخلى ، والسجن هو أن تشك فيما تسمع حتى ترى بعينيك وتلمس بيديك .

فى البهو الأنيق رأيت الوجوه المتعددة . بعضها مندهش لا يصدق . بعضها فرح يغلبه الفرح . بعضها متألم يسترجع آلامة . الأصوات تتعانق . القلوب تخفق . الضوء قوى مبهر يؤلم العيون المرهقة . عيون شابة وعيون عجوز ، وعيون ليس لها عمر كأنما هى أكبر من الزمن ، لا تشيخ ولا تموت . عيون الإنسان المصرى البسيط يدخل بحذائه المترب وملابسه المعفرة ليقول كلمته أمام التاريخ .

كنت قد أعطيته كلماتى فوق ورقة السجن . وقرأها كلها ثم قلب الورقة وقرأ الوجه الآخر . وكان يمكن أن أكتفي وأمضى دون أن أقول شيئًا . لكنى رفعت يدى وقلت كلمتى ليسمعها فهل سمعها أم راحت هباء فى الهواء ؟ .

كل شىء بدا كالحلم . تصورت أنهم سيحملوننى مرة أخرة إلى السجن . إلا أن أحدًا أوقفنى وأنا خارجة عند باب القصر وصاح مندهشًا وهو ينظر إلى حذائى : حذاء كاوتش فى قصر العروبة ؟! .. قلت وأنا أخطو إلى الشارع أحمل حريتى فى عينى كضوء الشمس : ولماذا تنظر إلى حذائى يا صديقى ، انظر إلى عينى .

• • •



عـربيـة للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043